S A L I M B A R A K A T

NOVEL

سليم بركات

حوريّة الماء وبناتها

S A L I M B A R A K A T
NOVEL
سليم بركات
حوريّة الماء وبناتها

حورية الماء وبناتها

رواية

المؤلف
سليم بركات

شخوصٌ ومَعَالِم

* كَاليس: حوريةُ الماء·
* بناتُ كاليس الخمس·
* آتِيْما: فتاة في الثالثة عشرة·
* بَارُو: رسام·
* سِيْدَارو: أم الرسام بارو·
* هِيْزْ: شاعر·
* جُوْرَاك: موسيقيٌّ·
* سِيْمْيَال: أخو الموسيقيِّ جوراك·
* سِيْنِيْكُوْس: روائي·
* نَاؤمي: مصمِّمة أزياء·
* لِيْمْسَا: مصممة أزياء·
* سَاكُوْن: ممثلة·
* أُوْلاَك: ممثل· زوج ساكون·
* رَامُوْنا: ممثلة· ابنة أولاك وساكون·
* تِيْرِيْن: ممثلة· ابنة أولاك وساكون·
* مَلْكاه: قزم· مُسْتَنبِطُ أجناس من الزهر في مشاتله·
* دِيْغَار: تاجر أسلحة·
* لُوْنْيَانو: معماري·
* رَايْدِيْن: عسكري سابق· قائد معارك في مكانٍ مَّا من أوروبا·
* لِيَالُو: بَغيٌّ ـ بنتُ هوى، مُستأجَرة·
* هِيْغُوْر: قبطان السفينة·
* نَايُوْرَا: معلِّم براعاتٍ في الشطرنج·
* الأعمى ومترجمتُه الصامتة·

* سِيْنُون: كبير طهاة السفينة·
* خدَّام سفينة هيغور·
* تلاميذ نايورا·
* سفينة سياحية بأثاثٍ حديدٍ·
* بحر ثْرِيْثُوْنْفَال ـ بحرُ الشمال النهائي·
* بحر هِيْلاكْرِيْثُوثِيْنِيْس ـ بحرُ العقل المياه··
* مضيق جُوْرِيْد ـ مضيقُ أرواح الحوريات·
* مدينة لِيْهُوْلْم·

الفصل الأول

(Dendrophyllia Ramea)

فقاعاتٌ متواصلةُ القذفِ تداخلت زوابعَ رقيقةً بلَّوراتٍ من الأجسادِ الستةِ للحوريات، في الدوران إحداهنَّ من حول الأخرى، متلامساتٍ صَفْعاً ناعماً بزعانف أذيالهنَّ الطويلة· تقاربت وجوهُ خمسٍ منهن زُرْقِ الجلود· تبادلنَ نفْخاً بالفقاعات الصغيرة خيوطاً متعرِّجة في خروجها من الأفواه، فيما راقبتهنَّ السادسةُ الشديدة البياض وجهاً، مبتسمةً في تَحْنانٍ· تلوَّتْ زعنفةُ ذيلها البرتقالية، العريضة، خفْقاً قويًّا، فاندفعتْ جسداً زيتاً في ماء الأعماق، المرتَّقِ الفتوقِ بشعاعاتٍ ميساءَ من ذاكرة الشمس المائية· لحقتِ الأجسادُ الخمسة الأخرى بها في حركاتٍ زيتٍ من زعانفهن·

هي الأمُّ كاليْسْ، البيضاء، المرقَّطة بحراشف رمادية على كل جلدها إلاَّ الكتفين والصدر، ساقتْ بناتها، ذلك اليوم من مطلع أيلول، من مضيق بحر هِيْلاكرِيْتُوثِيْنِيْسْ إلى بحر ثْرِيْتُونْفال، كعادتها كلَّ عام: رحلةُ لهوٍ بين الصدوع الحجرِ الأشدِّ ضيْقاً، في الأعماق هناك، وبين أعمدة البراكين متجمِّدةً بعد مَسيْل مصهور· رحلةُ استذكارٍ للموضع الأول اختمرتْ فيه الخليةُ الأولى لنوعِ كاليس الحورية، في صَدَفة الوجودِ منطبقةً على خيالِ البقاء نَسَقاً صُلْحاً أبرمتْهُ المصادفاتُ، وهدنةً من الضرورة تمتحن بها تردُّدَ العَدَمِ في تقدير المعقول· رغبةُ كُلِّ حورية، من نوع كاليس، تكفيها كي تحبل بخمس إناثٍ مثلها، من تلقاءِ رحمها بلا ذَكرٍ يُسافِدُها، وأن تلد في أيما مكانٍ من أقاليم المياه، ثم تصحَبَ نسلَها، بالحنين الموصوف للخلية المائية في طبعِ المائيين، إلى الموضع الأول لانبثاق النوعِ الحورياتِ؛ الموضعِ الثغرةِ الدائرية في عُرْضِ بحر تريتونفال، الظاهرة من سطح المياه طوقاً أصفرَ بالأنفاسِ اللونِ من بستان شقائق البحر البرتقالية، والمرجان الأصفر، أسفلَ، في الوَهْدَةِ العميقة أحدَثَها صَدْمُ نيزك للأرضِ أو أحدثتْها اللوعةُ قعَّرتِ المكانَ، هناك، بثقلٍ من خيبة الأرض أن يتخيَّرَها الوجودُ لقياسِ اتِّزانه·

من الكهف، أسفلَ الصخرة المستوية على الشاطئ انتصبَ عليها ثلاثةُ تماثيل بعيونٍ مَعْدَنٍ على أفق المياه، في مضيق بحر هيلاكريتوثينيس ـ المضيق الأوحد عبوراً صوب بحار الشمال، قادت كاليس بناتها الخمس، ذوات الشعور الصُّفر، إلى الغمر الأعظم في الشمال النهائي الأعظم· برزت جباههُنَّ حتى الأنوف من سطح الماء، قبل انطلاقتهن· ألقينَ نظرة من عيونهن ذوات الحدقات البرتقالية، والصفر، على التماثيلِ الثلاثة ـ المرأةِ البرونزِ، والرَّجُلين النحاسِ، التي اعتدْنَ سماعَ همسها، مرةً واحدةً كلَّ اكتمالٍ للقمر في شباط: هَمْسٌ مُخْتَلَسُ النَّبْر على ألسنتها المعدنِ كنداء حصاةٍ في سقوطها خافتاً على حصاة· كاليس، وبناتها، لم يفهمن الدَّالَةَ من الهمس ذاك، لكنهنَّ دأبْنَ في

الإصغاء إليه كلّ اكتمالٍ للقمر بشباطَ· دأبْنَ في تأويل ذلك· دأبْنَ في تقليب ذلك بموجباتٍ من عللِ الخصائص المفقودة، وشوق الملغز إلى الملغز· ألقيْنَ نظرةً على التماثيل يوادعْنَها من مكامن عيونهن فوق شقِّ الجرحِ المائيِّ· غطسْنَ ثانيةً· تلامسْنَ بأذيالهنَّ الطويلة، وانطلقن غوْصاً متعزِّجاً باندفاعات أجسادهن السهامِ الزيت، في الأعماق·

كاليس البيضاء، المرقطة الجلد بحراشف رمادية، لم تكن تشبه بناتها بحظوظ الألوان من تكوينها حوريةً بزعنفة برتقالية، عريضة، في نهاية الذيل، وزعنفة خضراء، مخطَّطة بحزوزٍ سودٍ وقرمزيةٍ على طول ظهرها، من أصل عنقها بين الكتفين حتى العَجُز· عيناها بيضاوان بحدقتين برتقاليتين· بناتها زرقاواتُ الحراشف؛ زرقاوات الجلود الظاهرةِ برُقطٍ بيْضٍ· زعانفهن الذيلية، وزعانف ظهورهن، رمادية· عيونهنَّ سُوْدٌ بلا بياض، تنتصِفها حدقاتٌ صُفْرٌ· وهنَّ لم يبلغن، بعدُ، طول أمهنَّ الأربعة الأمتار أو أقلَّ شبراً ربما· لكنهن ينزلقن في الماء تجذيفاً بزعانفهن مِثالَ أمهنَّ انزلاقاً، تتفتَّح لانسيابهنَّ الأعماقُ أغماداً طَوْعَ الزَّلْقِ فيها، طيِّعَةً إنْ تأوَّدْنَ سَبْحاً أو سرَّعْنَهُ· وهنَّ، كنوعهن الحوريات، يَعْتذيْنَ أعشابَ البحر ـ خسَّه الريحانيَّ، وجرجيرَه المحترق خُضرةً، وكذلك بعضَ محاره المُسهَّم من دون سائر مخلوقات البحر الأخرى أسماكاً، أو أصدافاً، أو رخوياتٍ نابتةً بجذورٍ كأخواتها السَّوابح بالتثنِّي انتقالاً كحركة الديدان·

مطلع أيلول، من كل عام، يحضُرُ كاليْسَ نازعُها النداءُ اللامدفوعُ إلى رحلتها، من مضيقِ بحرِ العقلِ المياهِ هيلاكريتوثينيس إلى بحر غَمْرِ الشمالِ النهائيِّ الأعظم تريتونفال· أيلولُ شهرِ المياهِ متأملةً ماضي يقينها، وحاضرَ شكِّها، وآتي وَحْيها المُلْهِم· لا أقدارَ للمياه في أيلول: نظامٌ طِبْقُ الظلال الأكثر ارتداداً إلى سِرِّها المُعْتَصَرِ من ثمرات النقائض· ايلولُ المياهِ إذِ المياهُ خادِرةٌ فَلَكٌ في فِيْلَجَتها قبل أن تنخرق الفِيْلَجَةُ عن فراشة الأبراج الزمنية، والأبراج الساكنة في الإهليلج العريقِ اللاَّزمنيِّ· المياهُ انخفاضٌ، في أيلول، عن مستوى معناها اشباراً فلا تُؤَوَّلُ احوالُها إلاَّ بانقضاء أيلول· والحوريةُ كاليس تتخيَّر هذا الشهرَ الحيرةَ بقَدَمٍ في ماضي الصيف، وقدمٍ في آتي الخريف، لرحلتها إلى الثغرة الدائرية، ذات الطوق الأصفر ظاهراً في الغمر الكبير كقِلادةٍ ماءٍ· وهناك، وسط الثغرة المائية في الغَمْر المائيِّ، ستؤدي، وبناتها، رقصتهنَّ المُدرَّبةَ الفتنة بإلهامٍ من حنين الأصل اللاموصوف، لدقيقتين لا أكثر، تمام الساعة الثانية عشرةَ ظُهراً وأربع دقائق، المُصَادِفَةِ اليومَ الرابع والعشرين من الشهر المتشقِّق القدمين من غبار الصيف، وغيوم الخريف المتزلِّفة·

توقفت كاليس عن اندفاعتها الرشيقة· استدارت، منتصبةً، إلى بناتها المائسات الأجساد· حدَّقت إليهنَّ، راضيةً، من وجهها المتطاول، الشديد البياض، تُخاتلُهُ ذؤاباتٌ من شعرها الأزرق الكثيف متلوِّيةً من نفخ الماء عليها

بأفواهه الثمانية· لم تتوقف بناتُها إذْ حاذيْنَها· عبرْنَها بعد دورتين من حولها أثارتا نشيداً موصولاً من الفقاعات سطَّرْنها بأنفاسهُنَّ دائريةً، متقاطعةً، متجاذبةً بغُلمة الهواء الذَّكر فيها هوىً إلى الهواء الأنثى، والهواء الأنثى هوىً إلى الهواء الذَّكر؛ أو ما اتَّفق لهُ جاذبُ الجنس إلى جنسهِ ـ ذكرٍ إلى ذكرٍ، وأنثى إلى أنثى؛ أو ماانبسطَ طمَعُه العذبُ فوزاً بالجنسيْنِ ـ الذَّكرِ إلى مثلهِ وإلى أنثاه، والأنثى إلى مثلها وإلى ذكَرها معاً· فقاعاتٌ بهواء الغُلمة مِمْراحاً، في أنفاس البنات الحوريات، طوَّقت جسدَ أمهن، التي ألوت زعنفةَ ذيلها خَفْضاً ورفْعاً قويَّين فاندفعت سهماً زيتاً رشقتْ به الأعماقُ الأعاليَ· كادت تبلغ سطحَ البحر، لكنها ارتدَّت تاركةً لذيلها البرتقاليِّ، في الارتداد، أن يطفو أشباراً فوق سطح الماء·صفعتِ الماءَ، من ثمَّ، صَفْعاً مُدوِّياً قبل الغوص· تفجَّرَ الماءُ حقائقَ من خصائصه رذاذاً، ونِصالاً، وكُراتٍ لِصَاقاً، وأقواساً مقطَّعةَ الأوتار، وأصابعَ تتحسَّس بها الحقائقُ وجودَها هواءً يُحْبَسُ ويُسَرَّحُ·

خمسة أذيال رمادية صفعت الماءَ، أيضاً، صَفْعاً حُبُوراً· زعانفهن المشقوقة، العريضة، المُخدَّدةُ طولاً كجريد النخل، لاحت، في الصَّفْع، خُلْسةً وَمْضاً، ثم غاصتْ· تقوَّسَ الماءُ حَدَباً حَضْناً على الصوت زَلَقتْ بهِ الزعانفُ القوية حلقاتٍ دوائرَ تلحق الضِّيقةُ منها، حول مراكز غَوْصِ الأذيال، بالأكثر سعةً فتتمادى مدًّا حتى امِّحائها في الذي مجثمُها من الماءِ المنسرح، الخامل، عائماً في فضَّتهِ، بنقوش الهواءِ المهذَّبِ ـ هواءِ أيلول·

مطالع أعماق بحر تريتونفال، بحرِ الشمال النهائي، رَصْفٌ من أنقاض التماثيل الغارقة في السَّبي الثاني لقبائلَ المخلوقاتِ الحجرِ الشرقية غزتْهُم شعوبُ المخلوقاتِ الحجرِ الجنوبية، من ممراتِ البرِّ، وممرَّات أعماق البحر مشياً تحت الماءِ مُذْ لا رئات لها كي تتنفس· تماثيلُ محاربيْنَ سقطوا مهشَّمةً في قِراعِ المطارق، وتماثيل عاديِّينَ ـ معماريَّةِ مساكنَ نَحْتاً في الكهوفِ، وصنَّاع سلاحٍ، وكهنةٍ وكاهنات، ومعلِّميْنَ في حِيَلِ المنطق صادراً عن الألسنةِ الحجرِ في أفواه المخلوقاتِ الحجرِ، وقضاةٍ في الأحكام·

نازعت القبائلُ القبائلَ، والشعوبُ التماثيلُ الحيَّةُ مثيلاتِها، عن معتقداتٍ سعتْ إلى بَسْطِها حقائقَ لا تُدْفَعُ أو تُجْبَه· تبادلتِ السبيَ، والنهبَ، وتقويض هياكل الآلهة، التماساً للغَلَبة في توطيد الزعْمِ أنَّ السماءَ لم تكن هناك قبل جيل الآباء النحَّاتيْنَ الثالث؛ أو أنَّ الأرض ثلاثةُ أقسام مشطورة بمضيقيْنِ فراغٍ هما فردوسُ الكائنات الحجرِ؛ أو أنَّ الصوتَ شكلٌ نحْتٌ سيُنجزه جيلُ الآباء النحَّاتين الثامن؛ أو أنَّ الأصلَ الحجرَ الأول كان خاطراً نَحْتاً من خيال آخرِ مخلوقٍ حجرٍ في برهة احتضاره؛ أو أنَّ الوقتَ هو، أبداً، ما ليس هو؛ وأنَّ المخلوقاتِ الحجرِ، الحيةَ، شأنٌ لازمنيٌّ· كلُّ خلافٍ، في مسألة من هذه، عضَّ على وجودة القبائلَ التماثيل، والشعوب التماثيل، بأسنان الغزوات نَهْباً، وسَبْياً، وتقويضاً لهياكل الآلهة·

رصْفٌ مديدٌ من أنقاضِ كائناتٍ تماثيلَ مهشمةٍ تكاثرت هناكَ منذ قديم لايعرف نوعُ الحورية كاليس تخَمينَ مدخلٍ إليه· هي كائناتٌ حجرٌ تكاثرت تماثيلَ حيَّةً قامت على نحْتِها نخبةٌ من التماثيل النحَّاتة، موكلةٌ، بعريق خصائصها، أن تستعيد الحجرَ صورةً من داخل كتلته الحجابِ على ماهيَّته الأصلِ شكلاً متناظِرَ الجوارحِ والأبعاد· تماثيلُ أنجبتِ التماثيلَ نحْتاً حيًّا· وها هي، في مطالع أعماق بحر تريتونفال، أنقاضٌ مهشَّمة، غشيَها الطحلبُ، والأُشْنَةُ، والقواقعُ اللَّزَّاقةُ، والصَّدف؛ ونبت في صدوعِها العشبُ أخضرَ محترقاً، مُتراقصاً، أشعثَ كأغصان التَّنُّوب·

عاينت كاليس، وبناتُها، رؤوساً مقطوعة· قلَّبْنها يتأملَّن العيونَ محدِّقةً من أغشيتها الصُّلبة، الكتيمةِ، المُصْمَتَةِ، إلى سديم الخلائق، وخزائن النشآت· رفعت إحدى البنات رأساً بين يديها لفتاةٍ حجَرٍ بضفائرَ معقودةٍ عقيْصَةً فوق قَمَحْدوَتها· أشارت إلى أمها أنها تريد شعرَها ضفائِرَ أيضاً، على المثال ذاك· خلَّلتِ الأمُّ شعر ابنتَها الأصفرَ بأصابع يدها اليمنى، ثم أطلقتْهُ متماوجاً، راقصاً، منتشراً· هزَّت رأسها تستنكر فكرةَ الضفائر· استدارتْ· خفقت بزعنفة ذيلها العريضة، البرتقالية، القوية، خفْقاً أطلق جسدَهاً سهماً زَيتاً· تبعتها بناتُها خفْقاً بزعانف أذيالهنَّ سهاماً زيتاً، في الفراغ المائيِّ المُبتكَر فراغاً بالخيالِ المائيِّ·

الفصل الثاني

(Halarachnion ligatum)

ثمانية عشر نورساً عَلَوْنَ السلسلة الحديد، المشدودة بين عمودين من أعمدة رصيف الميناء الحديدية· لم يكن واضحاً ما الذي تتأملُّهُ طيورُ الماء تلك، بأعناقها المرتدَّة قليلاً، في كسلٍ أبيض، إلى أطواق معاطفها الريش الأبيض· خجلٌ رماديٌّ يعرو بياضَ الريش على الأجنحة، وهي تتأمَّل ماليس أكيداً تخمينُه للناظر إليها من رصيف الميناء· ربما تتبع بأبصارها الإوزَّ غاطساً برؤوسه في الماء حتى البطون، مرفوعَ الأذيالِ أعلى أشرعةً مضمومةً· ربما تتبع بأبصارها الصفَّ الطويلَ، البشريَّ، في الجهة الجانبية، خارجاً من المبنى الإسمنت، المستطيل، ذي السقف القرميد الأسود، متَّجهاً، تحت السرادق المنبسط السقف على أسطواناتٍ خشبٍ عالية، صوبَ الجسر الواصل بين الرصيف والسفينة الراسية في ثقلٍ كلون حديد هيكلها بلا طلاءٍ·

صفٌّ مثْنى مثنى، رجال ونساء، تقدَّم تحت السرادق المنصوب طويلاً، من باب مبنى انتظار المسافرين موعدَ إبحار السفن، حتى جسر الميناء، بسقفٍ قرميدٍ أيضاً كسقف المبنى ذي الطبقة الواحدة، يقي المسافريْنَ من مطرٍ، أو ثلجٍ، أو شمس· كانوا يسحبون إلى جوارهم حقائبَ على عِجَالٍ بأيدٍ، ويمسكون بأيد أخرى تروسَهم المعدن·

مودِّعو المسافرين ـ الحَشدُ المعتدل عدداً، لوَّحوا من جوار سيَّاراتهم المتوقفة في فسحة دائرية، متفرعة من الشارع الكبير الواصل بين الميناء وعُمرانِ المدينة، وداعاً أمانيَ بالحظوظ السَّعْدِ للرحلة· وكان المودِّعون أولئك، جميعاً، نساءً ورجالاً، وأطفالاً أيضاً، يحملونَ تروساً متفاوتة الحجوم، في أيديهم، مرفوعةً قليلاً، أو يتَّكئون على أحقَّتها العليا وقد أسندوا أحقَّتها السفلى على حجرِ موقف السيارات·

كلهم يحملون تِرَسةً: المودِّعون قريباً من رصيف الميناء، والمسافرون، والعابرون طِوارَ الشارع مشيًا، صغاراً وكباراً؛ والمستقلون دراجاتهم الهوائية كلٌّ يمسك مِقوَدها بيدٍ، ويحمل ترساً بالأخرى· الأطفال لهم تروسهم الصغيرة أيضاً· تروسٌ معدنٌ، دائرية، ومستطيلة، ومثلثة، ظاهرةُ الثقل من انحناء الأكتاف في حملها، بنقوشٍ شتىَّ، نافرةٍ أو غائرة، ورسوم كالرغبات تدحرجت من أعماقهم إلى صفيحها· حتى الستةُ المجذِّفون، في قارب السباق النَّحيل الرشيق، الطويل، عابراً من وراء السفينة المتأهبة لرحلتها، كانوا بأيدٍ على المجاذيف تخفق في الماء اندفاعاً، وأيدٍ على تروسهم· نورسان جابا، تحليقاً منخفضاً، مدارَ الهواء فوق القارب، ثم ارتفعا ليحطَّا على اسطوانة عالية كالمدخنة أعلى السفينة ذات الطبقات الثلاث، الحديد بلا طلاءٍ· بطَّتان، مطوَّقتا العنقين حلقاتٍ بنِّيةٍ، تتبَّعتا، على نحو أخرقَ، صفَّ المسافرين مُذْ بلغوا جسر

السفينة· جاورَتا فتاَةً صغيرة تمشي ً وحدها، مُفردةً من دون سائر الصاعدين الجسرَ مثْنى مثنى، في آخر صفِّهم، بعيدةً عنهم خطواتٍ، بحقيبة صغيرة، سوداء، على ظهرها، وترسٍ دَرَقةٍ ليس معدناً، بل جلدٌ سميكٌ، جاسئ، دائريٌّ، عليه وجهُ ثورٍ نافرٌ بحلقةٍ نحاسٍ في خَطْمه· كانت تترنَّم بصوتٍ خفيضٍ من باطن حنجرتها، مغلقةَ الفمِ، ترنُّماً متصلاً· فتاة صغيرة، في الثالثة عشرةَ من عمرها، حمراء الشعر، ذاتَ وجه مستدير يتوسطه أنفٌ أفطسُ قليلاً، وعينان عسليتان على صُفرة؛ ممتلئة الجسم بلا سُمنة، في بنطال أسود قطنيٍّ، ضيق، فوقه ثوب أصفر قطني، سميكُ النَّسْج، منسدل حتى منتصفيِّ الفخذين، كالبُرنس بقلنسوة منحسرة وراء رقبتها· طقطقت بأصابع يدها اليمنى للبطتين تدعوهما إلى مرافقتها صعوداً على الجسر إلى السفينة· لكنَّ البطتين انعطفتا، إذْ بلغت الفتاةُ أولَ الجسر· نزلتا بضع درجات حجر تصل الرصيف بالبحر، ثم انزلقتا بصدريهما على الماء الخامل، الساكن، المطمئن إلى وعد خيالهِ بأبديَّةٍ ماءٍ·

صعد المسافرون الجسرَ المعدنَ، الخفيف الانحدار من محيط السفينة إلى الرصيف، المطرَّز بسطور متوازية من أعقاب مساميرَ مضلَّعةٍ، صغيرة جداً· كركرتْ عِجالُ حقائبهم تماسًّا مع المعدن الخشن· أسلموا تذاكرَ سفرهم، مثنى مثنى، للعاملتين المُضيفتين، المبتسمتين ترحيباً ـ كلِّ واحدة على جهة من مَعْبرٍ بوَّابةٍ في الحاجز على محيط منتصف السفينةِ ـ طبقتها الثانية· تناولتا التذاكر منهم بيديهما اليسراوين، فيما ظلَّت يداهما اليمناوان ممسكتين بترسيهما· وقد صيَّرَتِ العاملتان ابتسامتيْهما المسترسلتين، في ثيابيهما الرمادية المتماثلة زيًّا تفصيلاً، مترادفاتٍ من لغة الحنوِّ، والإقبالِ الدافئ، حين بلغَتهما الفتاةُ الصغيرة، على حالها مترنِّمة، بفمٍ مُطْبَقٍ، وهي تمدُّ تذكرةَ السفر إليهما بالتناوب، مبتسمةً بدورها، تمازحهماً بنقل يدها، بالتذكرة، من واحدة إلى أخرى· لم تسألاها، فضولاً، إن كانت وحدها، مُذْ لَحَظتا أنْ ما من أحدٍ من الداخليْنَ إلى المُشْرَفِ المحيط بالسفينة أعارَها التفاتةً· تناولت إحداهنَّ التذكرةَ منها، وانحنت لها إمعاناً في التخصيص بشرفِ لقائها، تمثُّلاً بتصنُّع فعلَ الناس في لقاء ملكة، أو أميرة· انحنت الفتاةُ الصغيرة لها مجاراةً· أحكمت حَمْلَ ترسها إذْ تراخت يدُها قليلاً، ثم مضت مع الماضيْنَ يقودهم أدلاَّءُ مرشدون ـ عمَّالٌ، مرحِّبيْنَ، واضعين في أيديهم خرائطَ تخطيطاتٍ للسفينة ـ ممرَّاتِها، ومقاصير الإقامة فيها، وردهاتها ، وقاعاتها، وحاناتها؛ مقدِّمين لهم تعريفاً بطبقاتها الثلاث، والمستلزمات الأخرى للراحة مبذولةً لاستجمام المسافر، والترويح عن حاله، بالرغم من وجود سهام دالَّةٍ، معلَّقة إلى سقوف الممرات، عليها أسماء واضحة للأمكنة توفيراً للتِّسْآل·

كان مُشْرَف السفينة، الذي بلغه المسافرون أولاً، من نهاية الجسر المعدنِ الممتد من السفينة إلى رصيف الميناء، هو محيط طبقتها الثانية، منه الدخولُ

إلى جوفها عبر ممَرات مفضية إلى مقاصير النَّزلاء ـ غرفِ سُكناهم ومتاعهم· ومن سلالم كهربيَّةٍ بين المقاصير، ذاتية الحركة صعوداً ونزولاً، يمكن بلوغ الطبقة السفلى، الحاوية مطعم السفينة الواسع الأرجاء، وحانتها الدائرية، ومكتبتها ذات الرفوف القوسية التسعة عشر· وهي الطبقة، التي ينتصب وسطها عمودٌ اسطوانةٌ ضخمة المحيط، مرتفعة من قاع السفينة حتى سقف طبقتها الثالثة المرصَّعة القبَّة بزجاجٍ أبيضَ مُعتَلِّ البياض، غير نقيٍّ· طبقةٌ عليا ـ قاعةٌ واسعةٌ للقاءات اجتماعاً، وساحةٌ للرقص، ومعرض للرسوم، تتوزَّع فيها أكواخٌ معدن شَبَكٌ، لطيفةُ التصاميم، بسيطة، بأبواب ستائرَ من زَرَدٍ، للتدخين اختلاءً· العمود الأسطوانة كان المَعْلَمَ الأوحد، دون سائر جدران السفينة، مطليًّا أزرقَ فاتحاً، بنقوش حمراء، وسوداء، وذهبية، من أشكال طيور شتَّى مشتعلة الأجنحة ناراً، وفراشات مشتعلة، وأيائل بقرون مشتعلة، وزنابقَ مشتعلةِ التيجان، وغيومِ نارٍ متدرِّجةِ الصُّفرة والحُمرة، متقَنة النقش خطوطاً أجراماً، وعطفاتٍ، وانحناءاتٍ، وتَجَوُّراتٍ، تتخلل الفراغات بينها رؤوسٌ آدمية، نافرة، بملامح مستَشاطةٍ غضباً، ذات أفواه فاغرة عن ألسنة حمر· العمودُ الأسطوانةُ حديدٌ بدوره، كسائر هيكل السفينة التي كراسيُّها حديدٌ حيث تصادفت الكراسيُّ، وكذا مقاعدُها، وصحون مطعمها، وكؤوس الشراب فيها، وأسِرَّتُها، وستائرُها الزَّرَدُ المعدن على شبابيكها، بلا طلاءٍ، لها اللونُ الأصلُ للحديد محترقاً في لَزْقِ ألواحه الكاسيةِ هيكَلها، ولها الرائحةُ الأصلُ للحديد فيها شيءٌ من نسل رائحة الدم·

قليلاً قليلاً ذابت الجماعةُ المسافرون بدخولهم المتتابع مقاصيرَهم، المدفوعة الأجر ككلِّ مناسِك الرحلة ـ منامِهم، وطعامهم، وشرابهم، ذهاباً إلى الثغرة المائية الصفراء في عُرْض بحر تريتونفال، وإياباً إلى ميناء مدينتهم لِيْهُوْلم ـ ميناءِ الظلال القصيرة· هم سيأخذون من الوقت مغانمَ الكسل، من مطلع أيلول حتى الساعة الثانية عشرة وأربع دقائق، تحديداً، من ظهر اليوم الرابع والعشرين منه· سيتتبَّعون الآفاقَ، من المقاعد في مُشْرَفِ السفينة المحيط بهيكلها، بعيون كسلى، أو متوثِّبة في استعراض بحر تريتونفال ـ بحر الشمال النهائي، الذي استنفدت مكتَبةُ مدينة ليهولم ستةً وستين رفًّا من رفوفها بالطوامير الجلودِ اللفائف أشعاراً مدوَّنةً عن مُلغزاتهِ ومتَّضَحَاته، وأشعاراً تواترت شفاهاً فدوِّنَتْ، بسيطةً أحياناً، عميقةً مقلقة أحياناً، ساذجةً أحياناً· ما من كتابة في شؤون هذا البحر، المُستوهَمَةِ والمُخْتَبَرَةِ حِسًّا، إلاَّ أُثبتَت في طُوْمارٍ ـ لفافةٍ جلدٍ ـ قديمِها المدوَّن وحديثِها، مِثْلُها كرسائل الملوك القدامى، والدَّهاقنة الأسياد· والطواميرُ، هذه، تُعْرض على الطالبيْنَ من روَّاد المكتبة مبسوطةً بيدَيْ عاملٍ أناةٍ في شأن النشر والطَّيِّ عليهما قفَّازان من جلد فقمَة مدبوغ· كلُّ المسافرين من هؤلاء، والمسافرين قبلهم قرناً بعد آخر، ممَّن أشرفت الحظوةُ بهم على نشوء المكتبة، استعرضوا طوماراً من اللفائف

المحفوظاتِ تلك، أو أكثر ربما، قبل إقبالهم على الرحلة إلى بحر تريتونفال ـ بحر الشمال النهائي، طَلَباً للبهيِّ الفريدِ شهوداً على رقصة حوريات الماء، دقيقتين لا سوى، في اليوم الرابع والعشرين من أيلول· هي رقصةٌ على وصْفيَّاتٍ في التدوين لا يطابق وصْفٌ واحدٌ وصفاً آخر في عددها البالغ ألفاً وثلاثةً من محفوظات المكتبة· والمسافرون الجدد، الشهودُ الموعودون بالبزوغ السحريِّ للمشهد ذاتهِ مُعاداً من رقصة الحوريات، سيعودون، في نهاية الرحلة، بوصفٍ يُضاف إلى المدوَّنات، في طومارٍ لفافةٍ عليها رباطٌ حريرٌ، في الأرجح، أو رباطٌ مضفور من أعشاب البحر· أمَّا في يوم رحلتهم الأول، قبل الظهر، فقد توزَّعوا على أنحاء السفينة مستكشفيْنَ· والذين آثروا أن يتتبَّعوا الآفاقَ الغَمْرَ، أولاً، خرجوا إلى المُشْرَف الشاسع المحيط بالهيكل الحديد الكبير، مستندين إلى الحاجز القُضبانِ، أو جالسين على المقاعد بعيونٍ على الأزرقِ الرماديِّ، مُذْ غابت عنهم عماراتُ المدينة، ومداخنُ معاملها الأبراجُ·

لم ترتخِ أيديهم عن مقابض تروسهم، جلوساً أو واقفين· لكنهم تعاونوا على إخراج غلايين طويلة، بيضاء، عاجٍ من أنياب حيوانات البحر ـ عجوله، وفِيَلتِه، وحيتانه القاتلةِ أوْرْكا· حشوها عشباً أبيضَ، مفلفلاً، كلٌّ من كيس صغير مُوْدع في جيبه· أشعلوها بالقدَّاحات، وبعيدان الكبريت· تنهَّدوا متعةً بخروج الدخان من أفواههم، وأنوفهم، معافىً، نقيًّا، ناحتاً بإزميله الأثيريِّ هيئاتٍ من خلائق الأزل الأثير· الفتاةُ الصغيرة، التي آثرتْ، كالمستطلعيْنَ آفاقَ أعماقهم فوق التَّبَج الكسول الراكد، أن تتخيَّر مُشْرَفَ السفينة موقفاً تلمس بيدي هوائه أحوالَ ساعاتها الأولى في الرحلة· وضعَت ترسَها الدَّرقة بين فخذيها وقوفاً· فتحت حقيبة رفيعة الجسم، مستطيلة القوام، معلَّقة إلى كتفها· أخرجت غليوناً أبيض، رفيع القصبة، برأسٍ نصفِ كُرة· حشتْه عشباً أبيض· أشعلتْه بقدَّاحٍ· تنشَّقت الدخانَ طويلاً· احتبستْه في رئتيها، ثم أطلقته زفيراً متَّصلاً· أطبقت فمَها، وترنَّمت بصوتٍ باطنٍ·

هي أودعت المقصورةَ حقيبتَها، التي حملتها في القدوم على ظهرها· كان مفتاح الباب، ككل مقصورة أُسْكِنَتْ نزلاءَ بعينهم، في القُفل من الخارج، حين دلَّها العاملُ الدليلُ، ذو الترس المستطيل المجوَّف، على بابها· مفتَاحٌ تدلَّى منه قرصٌ معدَنٌ عليه تدوينٌ نافر: .لا تنسَ مفتاحك خارجاً· لا تنس مفتاحك داخلاً. أنزلت الحقيبة عن ظهرها على السرير ذي الفراش المكسوِّ قُماشاً عليه صُورُ مواسيرَ حديدٍ، مستطيلة، أو مقطَّعة، رمادية· لم تترك الترس من يدها اليسرى· فتحت باليمنى الزِّمامَ المنزلقَ ـ السّحَّابَ عن محيطها· أخرجت الحقيبة الرفيعة الجسم· علَّقتها إلى كتفها· شربت ماءً من إبريق حديدٍ في البرادِ المكعَّبِ الحديد· أخذت كعكةً مثلثة الشكل من بين أقراصٍ كعكٍ زوَّد عاملو السفينة كلَّ مقصورة بصحن منه ترحيباً· خرجت مغلقةً البابَ من

خلفها· مشت في الرُّواقِ المضاء بمصابيح خافتةِ الضوء مقتصدةٍ في بوحها النورانيِّ، أو متكتِّمةٍ قليلاً، ربما، على آثار جروحها·

من بابٍ عريضٍ، ذي دفتين تنفتحان دفْعاً، وتنغلقان بارتدادٍ ذاتيٍّ، انسلَّت الفتاةُ الصغيرة إلى مُشْرَفِ السفينة، الموازي، من الخارج، لصفِّ مقاصير النُّزلاء يستطيعون رؤية حاجزه القضبانِ من نوافذهم الدائرية· كانت موسيقى هادئةٌ تتأمَّل ذاتَها في مرآة الصوت، منبعثةً من نخاريب كنخاريب النحل، في مكامن لا تُلحظ من الصفيح الحديد، المحترق بلوعةٍ رمادية· ترنَّمت الفتاةُ مصغيةً ترنُّماً يخالف إيقاعَ تلك الموسيقى، بفمٍ مغلق· وضعت ترسها الدائري ـ الدَّرقةَ، ذا الرسمِ نافراً رأسَ ثورٍ، بين فخذيها المضمومتين· أخرجت غليونها· حشتْهُ ببعض العشب اليابس الأبيض· أشعلتْهُ بقدَّاح الغاز· احتَبَسَتِ الدخانَ المُسْتنشَق طويلاً، ثم أرسلتْهُ خيطاً ترتّق به فتوقَ اللامرئيِّ· حملت ترسها· استدارت إلى ثُلَّة من نزلاء السفينة يتقدمون من جهتها، متحدثين، كلِّ اثنين ـ أو أكثر ـ في شأنٍ· حاذاها رجل في منتصف عقده الثالث، ربما، تمسك بعضده امرأةٌ أكبر سنًّا، طويلة، ببشرة ذكَّاها سُمرةً شعاعٌ محتبِسٌ من الشمس تحت جلدها، تحمل سلَّة مكعَّبة عليها غطاء مقفل، معلَّقة إلى ساعد يدها الممسكة بترسها المستطيل· انحنت لهما الفتاة الصغيرة متصنِّعةً، على نحوٍ ممازحٍ، إجلالاً، فاسترعت بصريهما حركتُها المُسْتلطَفة· توقفا· توقف رفاقُهما من الثلة· بادلاها انحناءً مبتسميْنِ·

.أنا آتيْمَا.، قالت الفتاة الصغيرة، الحمراء الشعر، قصيرُهُ·

.آتيما.، تمتمت المرأة البالغة نهايةَ عقدها الخامس· تلفتت إلى مقعد يجلس عليه رجلان وامرأة· أشارت برأسها إليهم:

- أهؤلاء أهلك، يا آتيما؟·

.لا.، ردَّت الفتاة الصغيرة، مستنشقةً نَفَساً من دخان غليونها· تنهَّدت متعةً·

.أين أهلُك؟.، ساءلتها المرأة ذات السلة المكعبة منسوجةً من قصبٍ على صُفرةٍ، فردَّت الفتاة الصغيرة، ذات القلنسوة المرتدَّة وراء رقبتها:

- أنا آتيما·

.اسمٌ مثير.، قال الرجل الذي يرافق المرأةَ الأكبر سنًّا· .هذه أمي سِيْدَارو.

نزلت الفتاة الصغيرة ببصرها إلى ترس الرجل المثلث في يده اليمنى، ذي الرسم المتقن تفصيلاً من جسدٍ آدميٍّ مغطىً وَبَراً، برأس ثور· نقلت بصرها إلى الرسم النافر لرأس ثور في درعها الدَّرَقةِ الدائري:

- مَنْ ابنُ مَن؟ الثور على ترسك أمِ الثورُ على ترسي؟·

.هما أخوان.، ردَّ الرَّجل متصنِّعاً الفطنةَ· أضاف: .أنا رسَّامٌ· مخلوقيَ هذا من رِسْمي· اسمي بارُو· الرسم على ترس أمي من صُنعي، أيضاً.، أشار إلى ترس أمه المغطى برسم بوَّابةِ كهفٍ في صخرٍ أسود·

.بارو.، همست آتيما الاسمَ تُخْضِعُ حروفَه حِفْظاً· أغلقت فمَها، وترنَّمت بصوتٍ محتبِس·

تقدَّم بعضُ الثُّلة من الرسام وأمه· جاوروهما· .ماذا هنا؟.، تساءل أحدهم·

.هذه الفتاة الجميلة، المثيرة الاسم، آتيما، ياهِيْز.، ردَّ الرسام ذو القبعة المخمل، السوداء، المضلَّعةِ الأحفَّة·

لمستِ الفتاةُ الصغيرة آتيما سلَّةَ سيدار، أمِّ الرسام:

- أسمعُ خشخشةً· أتحملينَ هرَّةً؟·

أسندت سيدارو حافة ترسها المستطيل السفلى إلى أرض السفينة، واتكأت على حافته العليا بمعصمها· .افتح الغطاء، يا ابني بارو.، قالت للرسام، فعمد الرجل الأسود العينين، الطويل في بنطالٍ واسع، وقميص حتى الركبتين، إلى حَلِّ الرباطِ القماش عن غطاء السلَّة المكعَّبة· رفع الغطاء بأناةٍ· قرَّبت سيدارو السلة من بصر آتيما· تراجعت الفتاةُ برأسها مُجفلةً بلا ذعر، ثم عادت فحدَّقت إلى جوف السلة:

- ماذا هنا؟·

.أطفالي.، ردَّت سيدارو، ذات البشرة على سُمرةٍ من عافية الشمس·

رفعت آتيما وجهها إلى وجه المرأة الطويلة· تنشَّقت نَفَساً من غليونها:

- أطفالك لايشبهون ابنَك، ولايشبهونك·

.سيشبهوننا ذات يوم.، ردَّت سيدارو· التفتت إلى ابنها ذي الأنف العريض المنخرين:

- هلاَّ أمسكتَ بترسي لحظةً؟

.لا.، ردَّ ابنها كأنما ينأى بنفسه عن فعلٍ مذموم·

.سأُري هذه الفتاةَ واحداً من أطفالي، عن قربٍ فتلمَسَه.، قالت سيدارو عاتبةً، فردَّ ابنُها متطلِّعاً إلى وجه الفتاة المستدير، الممتلئ كجسمها:

- ضعي غليونَك بين أسنانك، وتحسَّسي بيدك أحدَ أطفال أمي، يا آتيما·

قرَّبت آتيما وجهها من جوف السلة· عضَّت على قصبة الغليون بأسنانها، ومدَّت يدَها، في تردُّدٍ، إلى حيث الأجساد الملساء· تمتمت:

- أليست سامَّة؟

.أكنتُ دعوتُك إلى لمسها، أيتها الفتاة؟.، قالت سيدارو·

تجرَّأت آتيما· أمسكت بيدها ثعباناً من السبعة الصغار، الملتَّفةِ بعضها على بعض، صفراءَ شديدةِ الصُّفرة بعيون حمراء· نَضْنضَ الثعبانُ بلسانه المشقوق حرْفيْنِ من معاني حواسِّه الثماني·

.أترين، ياآتيما؟ إنَّهُ يتذوَّقُك.، قالت سيدارو بصوتها المُدَاعِب·

نظرت الفتاة إلى الثعبان الصغير مليًّا يلتفُّ، في ليْنٍ، على معصمها· رفعت عينيها إلى بارو: .شقيقُك يشبهك. أدارت وجهها صوبَ سيدارو:

- أهذا ذَكَرٌ؟

.نعم· أولادي، كلُّهم، ذكورٌ.، ردَّت المرأةُ ذات البنطال الأسود الضيق، والقميص الأحمر مخطَّطاً رماديًّا·

.لماذا تصحبيْنَ هذه الثعابين معك؟.، ساءلتها الفتاة الصغيرة·

.مع مَنْ أترك أولادي الخجولين، ياآتيما؟.، ردَّت سيدارو بصوتها الهادئ·

وضع الرجل، الذي نطق بارو باسمه قبل برهة، يده على كتف الفتاة الصغيرة: .بمَ يقنعُك صديقي بارو، أيتها الجميلة؟ أنا هِيْزْ· شكراً للكلمات دلَّتني على خسارتها كي أنجو منها باقتسامها بيني وبين الله.، قال ذو الشاربين البنِّيين الرقيقين، والعَنْفَقَة الصغيرة بين شفته السفلى وذقنه·

.لا يُقنِعها بشيء، يا هيز.، ردَّت سيدارو نيابة عن ابنها· غمزت الفتاة بإحدى عينيها الشهلاوين:

- إنه الشاعر هيز· لا تُصغي إليه·

ابتسمت آتيما للرجل المتوسط الطول، الممتلئ في قميصه القطني، السميك، فوق بنطال رمادي:

- ماالذي قلتَه قبل قليل؟·

.ما تقوله السفنُ.، ردَّ الرجل البالغ نهايةَ عقدِه الثالث· وضع ترسه المستطيل، المجوَّف، الأبيض اللون عليه رسوم نِمالٍ بألوانٍ شتَّى بين فخذيه ضمَّهما· أخرج غليونه من جيب بنطاله الخلفي· حشاهُ عشباً أبيض، وأشعله· تنشَّقَ الدخانَ بعينين أغمضهما، ثم أطلقهُ نفْخاً هادئاً: .يالِغبار القيامة. نظر إلى الفتاة الصغيرة:

- ماذا تُسميْنَ هذا العشب، الذي لم يتَّفق أحدٌ على نَعْته باسمٍ واحد؟ أنا أسميه غبارَ القيامة·

.أسميه آتيما.، قالت آتيما·

.سمعت هذا الاسم قبل برهة· هو اسمُك.، قال هيز ذو الشعر البني الداكن، الطويل، الفوضى بلا تسريحٍ·

.نعم.، ردَّت الفتاة وهي تعيد الثعبان إلى سلة سيدارو·

ضرب هيز بكتفه كتفَ بارو، وهو مرسلٌ بصرَه، بَعْدُ، إلى وجه آتيما:

- بِمَ تُقنِعُها؟·

.بالغرق في اللون.، قال بارو الطويل النحيل، ذو اللحية القصيرة السوداء·

.أهو يُقنِعك بالرسم عاريةً، يا آتيما؟.، سأل هيز الفتاةَ متجاهلاً ردَّ بارو·

.عارية؟!.، تمتمت الفتاة الصغيرة· أنْفَذَتْ شعاعَ فضولها، من عينيها العسليَّتيْن على صُفْرةٍ، إلى عيني بارو السوداوين:

- أتريد رسمي عاريةً؟·

تدخلت امرأة من الثُّلَّة، طويلة، ممتلئة الجسم على عضلٍ ظاهرٍ من لصوق ثيابها:

- الأرجح يريد أن يرسمك في ثيابك هذه، ويكون هو عارياً·

أعادت آتيما غليونها المطفأ إلى الحافظة الرفيعة الجِرْم· حملت ترسها الدائريَّ، من جديد، بعد أن ضمَّت فخذيها عليه مدَّةً: .يعجبني شعرُك.، قالت للمرأة البادية العضل في سترتها البيضاء، القصيرة حتى السُّرَّة، المفتوحة فوق قميصها الأصفر، الطويل حتى ربلتي ساقي بنطالها الأخضر الضيق·

.اسمه سِيْمْيَال.، قال رجل في عقده الخامس، ذو شاربين بُنيين كثَّيْن·

.اسمها سيميال.، قالت فتاةٌ إلى جواره، في عشرين عمرها· أردفت: .أبي يصرُّ أن يُحيلَها رجلاً.

نظرت آتيما، ثانيةً، إلى شعر المرأة الأشقر، الطويل، المضفور جدائلَ لاتُحصى: .لم أفهم· اختلطَ الأمرُ عليَّ.، قالت بنبرة تساؤل، فردت المرأة الباديةُ العضل، ذات الثلاثين عاماً: .انظري إليَّ، أيتها الفتاة، على النحو الذي تريدين أن تَرَيني. التفتت إلى الرجل ذي الشاربين الكثين:

- أُوْلاَكْ لايراني إلاَّ ذَكراً· هو ممثل لايحفظ أدوارهُ جيداً·

.بل يحفظ أدواره جيداً.، قالت الفتاةُ التي في عشرينها، المصبوغة الشعر خُصَلاً شقراً وأخرى بيضاء، طويلة· .أبي يحفظ أدواره، لكنها أدوار مُربكة دائماً، لم يحسم كُتَّابُ النصوص تصنيفها.

.هذه ابنتُه رامُوْنا· ممثلة مثله· رائعة· أحبُّها.، قالت سيميال· التفتت إلى رجل في نهاية عقده الثالث، ذي سُترة داكنة الزرقة فوق بنطال أسود:

- هذا أخي الموسيقي جُوْراك· ما اسمُك؟·

- آتيما·

.أوه· سمعتُه.، قالت سيميال· أردفت وهي تنظر إلى بعض المسافرين يتوزَّعون أنحاءَ مُشْرَف السفينة:

- مَنْ مِنْ هؤلاء أهلُك؟·

.أنا آتيما.، ردَّت الفتاة الصغيرة·

طوَّقتْها الثُّلةُ، كلُّها، بأبصارٍ ترقرق فيها الفضولُ من جوابٍ ـ لا جوابٍ·

اقتربت فتاة أخرى، في العشرين من عمرها أيضاً، من آتيما· ابتسمت لها من شفتيها الأفقيتين:

- اسمُك مثيرٌ· اسمي تِيْرِيْن· أنا أخت رامونا، وتلك أمي سَأكوْن· كلنا ممثلات كأبي أوْلاَك·

ترنَّمت آتيما بفم مُطْبَقٍ· ما من فضولٍ نَخَسَها من تقديم تيرين نفسَها، وأهلَها، كممثلين· لكن تيرين، ذات العينين الشهلاوين استرسلتْ ثرثرةً: .نحن رفقةٌ معاً: أهلي، والرسام بارو، وأمه السيدة سيدارو، والشاعر هيز، والموسيقي جوراك.، وتوقفت متطلعة إلى سيميال ملياً· أردفتْ: .سيميال، والسيد سِيْنِيْكُوْس. أشارت إلى رجل في منتصف عقده الرابع، أصلع، ببقية شعر أسود قصير جداً، يحمل ترسًّا مجوَّفَ الاستطالة، أخضر داكناً، عليه رسم عظاءةٍ بنِّيةٍ منشارية الظهر· .السيد سينيكوس يكتب قصصاً· سيكتب عن هذه الرحلة.

.لم أقُلْ ذلك.، علَّق سينيكوس ذو اللحية القصيرة السوداء· رفع وجهَه الدائريَّ بسُمرته الشاحبة عالياً: .ألاحظتُم، مثلي، هذه الطيورَ تتبعُنا من ميناء المدينة؟ ما نوعها؟ قد أكتب عنها.

نظرت الثُّلَّةُ عالياً إلى الأربعة الطيور بأعناقٍ سودٍ طويلة، أطول من أعناق الإوز، والكراكي، والنَّحام، على نحوٍ كأنها استطالاتٌ منفصلة عنها· رؤوس صغيرة ذوات مناقير مثلَّثة، حمرٌ، ضخمة· خضرُ الريش، متدلية السيقان كأنها ستخطف أسماكاً من الماء، ولها أقدام ببراثن كالسِّباع· كانت تحوم، في طيرانها، حول جنبات السفينة، من أعلى· لكنها انحدرتْ، بغتةً، من الأعالي رَشْقا سهاماً· غاصت في الماء· غابت برهة، ثم ارتفعت رَشْقاً سهاماً مقذوفة من الأعماق، بأربعةِ ألوانٍ ليست كألوانها الأولى· انفلتَ الصوتُ من حنجرة سينيكوس، الطويل الممتلئ: .ما نوعها؟.، تساءل مبهوراً· التفتَ إلى بارو:

- ألن ترسمها؟

.هي خارجة من لوحةٍ لي، ياسينيكوس.، ردَّ بارو· نقر بحافة ترسه المثلث السفلى الأرضَ المعدن: .إنها تتهيأ لغوصٍ جديد.

انحدرت الأربعة الطيور برؤوسها المنكّسةِ أسفل، بعد تحليقٍ، إلى الجرح المائي، الذي لم يندمل بَعْدُ من خَرْقها الماءَ صعوداً· غاصت في الأعماق، ثم خرجت محلِّقةً بأربعةِ ألوانٍ ليس كألوانها قبل الغطس·

.إنها تبدِّل، في كلِّ غَطْسٍ، ثيابَها. قالت رامونا ابنة الممثل أولاك·

.بل تُبدِّل أدوارَها.، ردَّت أختها تيرين، التي لمست عضدَ الفتاة الصغيرة آتيما: .مَنْ مِنَّا تشبه أبويها؟.، ساءلتْها·

التفتت إليها آتيما مترنِّمةً، بفمٍ مُطْبَق· تساءلت:

- مَنْ؟ ماذا؟

.أأنا أشبه أبي وأمي، أكثر، أمْ أختي رامونا؟.، سألتها تيرين بتوضيحٍ·

ترنَّمت آتيما وهي تنقل بصرَها بين وجوه العائلة· استقرَّت عيناها على الأم ساكُون ـ حاملةِ الترس المثلث، الأسود، عليه رسومُ ستة أرانب بيضٍ، كلٌّ منها بعين واحدة، حمراء، في جبهتها· هزَّت رأسَها جواباً غامضاً عن سؤال تيرين، بلا تأكيدٍ لشيء، أو نفيٍ لشيء·

.أتسألين كلَّ أحدٍ عن هذا، ياتيرين؟.، قال الأب أولاك في عتبٍ· رفع يده عالياً:

- ألا تثيرك هذه الطيور؟

.هي مثلنا، يا أبي· من دَوْر إلى دور.، ردَّت تيرين الطويلة، ذات الثوب الرمادي، القطني الضيق، الطويل حتى ربلتي ساقيها· أغلقت فمها وترنَّمت، بتحديقٍ مَرِحٍ إلى الفتاة الصغيرة تحاكيها· ضحكت آتيما· أشارت بيدها إلى ابنة أولاك الثانية رامونا:

- هي تشبه أبويك أكثر منك·

.ماذا؟.، تساءلت تيرين مستاءةً قليلاً·

تدخَّل الأب أولاك، بالرغم من انصراف بصره إلى تحليق الأربعةِ الطيور، مبتعدةً، وسط همهماتٍ أسفٍ من أفواه المحدِّقين إليها، وهم يُطبقون أفخاذهم مضمومةً إلى تِرَسَتهم، ويحشون غلاييهم عشباً أبيض· .اسمعي، ايتها الجميلة آتيما.، قال، فقاطعته آتيما:

- لستُ جميلة·

.بل جميلة.، أكَّد أولاك العسليُّ العينين الصغيرتين· .كنتُ سأسألكِ.، فقاطعتْه آتيما ثانيةً:

- أعرف عمَّ ستسألني·

- عمَّ؟

- كنتَ ستسألني ألاّ أصغي إلى أحد في هذه السفينة·

. كيف خمَّنتِ، ياآتيما؟.، ساءلها أولاك، ذو الشعر البني الداكن يُخالطُه بعضُ الرماديِّ، بنبرةٍ مستلطِفةٍ جوابَها·

.لأنني لا أصغي، وأنت ذكَّرْتني بما أفعل.، ردت آتيما·

نظرتِ الثلةُ بعضُها إلى بعض تزنُ جوابها في ميزان الإعجاب· ترنَّمت آتيما بفمٍ مُطبَق· تهادتْ مشياً مبتعدة عنهم، لصق حاجز السفينة القضبانِ· وإذْ صارت إلى خطواتٍ التفتت إليهم· حصرتِ الأختين رامونا وتيرين بقياسِ القصْدِ:

- لاتشبهان أبويكما·

.ماالذي أنطقك حُكْماً كهذا، أيتها الصغيرة؟.، ساءلتها ساكون الأم، البيضاء الناصعة البياض، الزرقاء العينين، فضولاً·

.هما ليستا ابنتيكما.، قالت آتيما ذات الحذاء الأبيض الجلد· هزَّت ترسَها كأنما تزنُ ثقلَه·

.اسمعي.، قالت سأكون، البالغة نهاية عقدها الرابع· تقدمت من الفتاة الصغيرة· وقفت قُبالتها: .اسمعي هذه الحكاية، يا آتيما· أنجبتُ طفلةً في مشفى توليدٍ· وضعوها إلى جواري، ظهيرة اليوم الثاني· خرج الجميع، زوجي، والممرِّضتان، والطبيب، من غرفتي لأستريح قليلاً· نمتُ ساعةً ربما، ثم أفقتُ لأجد طفلتين إلى جواري· جاء زوجي أولاك، بعد غداء في مَقْصفِ المشفى، فاستغربَ الأمرَ مثلي· نادى ممرِّضاتٍ يستفسرهن عن وجود طفلة أخرى وُضِعَتْ خطأً، ربما، قرب طفلتنا، على سرير صغير يجاور سريري· لم تعرف أيٌّ منهن مَنْ أقدمَ على ذلك· لكنهنَّ ـ الأربعَ الممرِّضات ـ اختصرن المساءلات فتناولن إحدى الطفلتين لنقلها إلى جناح المواليد: .أهذه هي الطفلة الدخيلــة؟.، سألتــنا ممرِّضــةٌ، فتحير أولاك؛ تحيَّرتُ: لم نستطع الحسمَ في تأكيد من هي الطفلة التي أنجبْتُها· كانتا ورديَّتين، متشابهتيِّ الجلود والقَسَمات، شبيهتي الرأسين بجروَيْ هرَّة· جاء الطبيب المولِّد عارضاً أن يُجري اختباراً على دمٍ من الوليدتين، بثقة الحلِّ الأكيد لمُعضلِ الخَلْط في حَسْمِنا· فماذا ارتأينا، أنَا وزوجي، ياتيميــا؟.

.آتيما.، قالت الفتاة الصغيرة مصوِّبةً نُطقَ اسمها·

.ياآتيما· احزري ماذا ارتأينا؟.، ساءلتها المرأة الطويلة الشعر أشقرَ حتى الكتفين، ذات القميص الأزرق بأزرار بيضاء كبيرة، فوق ثوب خمريٍّ حتى الركبتين·

.ارتأيتما إبقاءَ الاثنتين إنْ لم يأتِ أحد سائلاً عن طفلة ضائعة.، ردَّت آتيما·

اتَّسعت عينا ساكون الزرقاوين افتجاءً· عدَّلتْ من حمل ترسها بعد أن تراخت ذراعها اليمنى عنه·

نقرت آتيما بحافة ترسها مقدَّم حذاء قدمها اليسرى، مُطرقة ببصرها، ثم رفعت عينيها إلى وجه المرأة المستدير تسلَّلت إلى زاويتي فمها تجاعيدُ رقيقة .أنت ممثلة.، فالت بنبرةِ تساؤلٍ ضِمْناً·

.نعم.، ردت ساكون·

.قلتِ إنَّ الطفلة الثانية ظهرت، في اليوم الثاني، إلى جوار طفلتك التي أنجبتها.، قالت آتيما·

.نعم· في اليوم الثاني.، ردَّت ساكون المتوسطة الطول، ذات الحذاء الأسود بعقبيْنِ ممسوحين·

.أي أن ذاكرتك لم تحفظ شيئاً من قسمات طفلتك.، قالت آتيما·

فتحت ساكون فمها صامتة عن نَفْرةٍ قلقٍ مسَّت لسانَ منطقها المنكمش· استرسلت آتيما مُذْ لم تقدِّم المرأةُ جواباً:

- ما أدراك أنَّ أيًّا من الطفلتين هي الطفلة التي أنجبتِها حقًّا، مادمت لم تعرفي فرقاً واحداً بينهما؟

. إلى مَ تُلمِّحين، يا آتيما؟.، ساءلتها المرأة ذات الأنف المنساب استطالةً بتناسقٍ مع وجهها·

.قد لاتكون أيٌّ منهما طفلتك.، ردَّت آتيما· أطبقت فمها وترنمَّت ماشيةً، بينما تجمدت ساكون وهي تلحق بالفتاة الصغيرة بقدَميْ نظرتها المتعثِّرتين·

بعد أمتار من مشيٍ متراخٍ توقفت آتيما· أسندت صدرها إلى حاجز السفينة القضبان مستطلعةً منطقَ الغَمْر بأحكامِهِ اللونِ الرمادية الزرقة· ترنمت بصوت محتبس في جوف حنجرتها· آخرون، من نزلاء السفينة، اتكأوا بصدورهم على حاجز السفينةِ، فرادى وجماعات صغيرة، بوجوه مستغرقة في تقسيم أحاديثها، وصمتها، بين البحر وبين الخيال مُحْكَماً وركيكاً·

رفعت الفتاة الصغيرة ترسها متصنِّعةً أنها تستظلُّ به من شمس أول الخريف، المُرهَقةِ أبداً من وجودها شمساً في فصول الشمال· دارت حول نفْسها دورة الكمال عاصَّا بنواجذه على ذيله· همَّت بالعودة إلى الباب ذي الدفتين، الذي خرجت منه إلى مُشْرَف السفينة· لقد أزمعت أن تستجلي الطبقات الأخرى، فوق طبقة المقاصير وتحتها· الكثير من أقسام الهيكل الحديد ومكنونه في انتظارها، مُذْ تذكَّرت خريطةَ أحشاء السفينة مفصَّلةً، على لوحٍ، تعريفاً وإرشاداً· وهي ارتأت، في توجهها صوب الباب ذاك، أن تبدأ بالطبقة العليا، ذات القاعات الفارهة، قبل حينونةِ موعد الغداء· نقرت بحافة ترسها السفلى

مقدَّمَ حذائها الأبيض كأنما تحثَّ قدميها على انطلاقٍ· جاورتها امرأتان ممسكتين إحداهما بيد الأخرى توادُداً حميماً· رفعت صوتها على نحوٍ يلفتُ بصريهما: .أنا آتيما.، قالت بنبرٍ مقصودِ الإطالة صدىً من حروفه الأخيرة· التفتت المرأتان إليها· انحنت لهما، فتوقفتا· بادلتاها انحناءً من موجب المداعبَة المستظرَفة·

.أنا آتيما.، ردَّدت اسمها على مسمعيهما المنجذبيْنِ بمنجذَبِ بصريهما إليها·

.آتيما؟.، أعادت المرأة الأطول فيهما، ذات السمرة الفاتحة بحُمرةٍ في الخدَّين، حروفَ الاسم بأناةٍ· .أهذا اسمُك؟ أنا لِيْمْسَا، وهذه صديقتي ناؤمي. لمست بترسها المثلث الطويل ـ الرماديِّ الصبْغ، برسمٍ لشفتين صفراوين يخرج من بينهما لسانٌ أحمر، ممدودٌ ـ ترسَ صاحبتها المستطيل، المجوَّف، الأزرق داكناً، عليه رسم مِسْخٍ مقتبس من رسوم الكوابيس عند الرسامين· رنَّ معدنهما رنَّةً دائرية·

.أتتهيئان لقتلِ أحدٍ؟.، ساءلتهما آتيما سؤالَها الوخْزَ مفاجِئاً، لاسِعاً· فوجئتا·

.ما أوحى إليك هذا التقديرَ المُخيف، المُجْحَفَ؟.، ساءلتها ناؤمي، ذات العينين العسليتين، المدوَّرتين بانحناءٍ إلى أسفلَ في لَحْظَيْهما كعيون الشرق البعيد·

.تبدوان واثقتين يداً في يدٍ.، ردت آتيما وهي تنقل ترسها من يد إلى أخرى، مبتسمةً·

.أأنْ يبدو أحدٌ واثقاً، يعني أنَّهُ يتهيَّأ للإقدام على قتلٍ؟ أيُّ خيالٍ لكِ؟.، ساءلتها ناؤمي البالغة منتصفَ عقدها الثالث سنينَ·

.كلما كنتُ واثقة من نفسي، من وقت لآخر، تمنيتُ لو أقتل أحداً.، ردَّت آتيما·

تلقَّتت ليمسا، ذات العينين السوداوين الواسعتين، البالغةُ منتصف عقدها الثالث، أو أقل، تستظهر نزلاءَ السفينة القريبين وقوفاً، أو جلوساً على مقاعد:

- مَنْ من هؤلاء أهلك، أيتها الفتاة؟

.أنا آتيما.، ردَّت الفتاة الصغيرة·

.حسناً· اسمك آتيما.، قالت ليمسا، ذات الثوب القطني الواسع، الطويل، البرتقالي بدوائر بيضاء، والخِمار الذهبي على رأسِها· .سألْتُكِ مَنْ أهْلُكِ؟ مع من أنتِ؟.

ترنمت آتيما بفمٍ مطبق·

قرَّبت ناؤمي، ذات السترة الرمادية بأزرارٍ كبيرة نحاسٍ فوق بنطال واسع جداً، أخضر، ترسَها المستطيل من ترس آتيما الدائريّ· تلامس الترسان

بوجهيهما· طقطقت الحلقةُ النحاس في خطم رأس الثور النافر على ترس الفتاة الصغيرة·

.تلزمك تسريحة شعر تناسب حذاءك الأبيض، ياآتيما.، قالت ناؤمي·

نظرت آتيما، مترنِّمةً بَعْدُ، إلى حذائها الأبيض، ثم نقلت بصرَها إلى حذاء ناؤمي الأخضر، الداكن، بعقبين منخفضين، أسودين· .هذا الحذاء لا يناسب صوتك.، قالت·

.صوتي؟!.، تمتمت ناؤمي متسائلة·

.صوتك خشن.، قالت آتيما· .اللون الأخضر الداكن لايناسب الصوتَ الخشن.

نظرت ناؤمي إلى صاحبتها ليمسا متردِّدةً في حُكمٍ على الفتاة الصغيرة· رفعت كتفيها استغراباً· نقلت ترسَها من يد إلى أخرى:

- أتتمنين، في هذه اللحظة، أن تقتلي إحدينا، أو كلتينا معاً، ياآتيما؟·

.هذه اللحظة؟.، تساءلت آتيما، فهزت ناؤمي رأسَها إيجاباً:

- هذه اللحظة·

أطبقت آتيما شفتيها وترنَّمت بصوتٍ محتبَس· تأملتهما برهةً، ثم تكلمت:

- لستُ واثقةً من نفسي اليوم· لست واثقة من أننا على شرفة هذه السفينة·

.أين أنت، إذاً، يا آتيما؟.، ساءلتْها ليمسا بصوتٍ عميقٍ، رقيـق·

.أنا الآن وراء هذا الرسم.، ردت آتيما، مشيرة بإصبعها إلى الرسم المِسْخ على ترس ناؤمي· قربت وجهها من الترس:

- لماذا اخترتِ رسماً كهذا؟

.لأنه يناسب كل ثوب أرتديه.، ردت ناؤمي، ذات الشعر القصير، المنتصب كعُرف الديك، المصبوغ زرقةً وضيئةً مع خُصل بيضاء· بادلت سؤال آتيما بمِثاله:

- ولِمَ رأس الثور هذا على ترسك، يا آتيما، نافراً لا يمكن أن يخفيه طلاءٌ؟

.هذا أبي.، ردَّت آتيما· أطبقت شفتيها وترنَّمت·

.وأين أمك؟.، ساءلتها ليمسا، ذات الشعر الأسود، القصير حتى شَحْمتَيْ أذنيها، مع ذيلٍ أصفرَ صِبغةً ينزل من قَذَالها حتى ملتقى العاتقين·

لم تردَّ آتيما· استرسلت في ترنُّمٍ من فمها المُطبَق·

مدَّت ليمسا يدها إلى قلنسوة آتيما المتصلة بعنق الثوب القطني الأصفر، السميك· غطت بها شعرَها القصير، السَّبْطَ، الأحمر: .تلزمُ وجهك قلنسوةٌ أقلُّ

صُفرة.، قالت المرأة ذات الحذاء الأبيض، العالي العقبين الحديديين·
.كيف تعرفين؟.، ساءلتْها آتيما·
.الوجه المستدير تلزمه ألوانٌ أقلُّ ثرثرة.، ردَّت ليمسا·
.لم تفهمك آتيما، ياليمسا.، قالت ناؤمي·
.بل فَهَمتْني.، ردَّت ليمسا بثقة· أزاحت القلنسوةَ عن رأس آتيما:
- ألم تفهميني؟
.فهمتك.، ردَّت آتيما· .أنت متحيِّرة في لون الثوب الذي سترتدينه يومَ زفافك.
.يوم زفافي؟!.، ردَّدت ليمسا الحروفَ بنَبْرٍ فَكِهٍ· .زفافي صار وراء ظهري.
أمسكت آتيما بثوب ليمسا القطني، البرتقالي، من خاصرته:
- استديري لأرى زفافك·
ضحكت ليمسا من أخذ آتيما التوريةَ على محمل الحاصل واقعاً· استدارت بظهرها إلى الفتاة الصغيرة:
- حدِّقي جيداً· أرأيتِ؟ زفافي ملتصق بظهري·
- نعم· وأرى الراقصين·
.أرأيتِ عريسي، أيضاً؟.، ساءلتها ليمسا، فردَت آتيما:
- نعم·
- ما شكله؟ صِفيْه، يا آتيما·
حرَّكت آتيما شفتيها بلا صوت، إذ التفتت إليها ليمسا· تبادلت المرأتان نظراتٍ فارغة· سألت ليمسا صاحبتَها:
- أسمعت شيئاً؟
- لا·
قرَّبت ليمسا وجهها من آتيما:
- ما شكل عريسي؟ لم نسمع شيئاً· حرَّكتِ شفتيك لا غير·
.أنتِ تُصغين إليَّ، لكن لاتسمعين.، ردَّت آتيما·
.أذناي جيدتان.، قالت ليمسا· أضافت: .هاأنا أسمعك.
حرَّكت آتيما شفتيها، ثانيةً، بلا صوت·
.أوه.، قالت ليمسا تعقيباً· .آتيما تحب المزاح، ياناؤمي.

.ألم تسمعيني؟.، ساءلتها آتيما·

.أذناي جيدتان، ياآتيما· أسمع بهما جيداً.، ردَّت ليمسا·

.أذناك جيدتان لقُرْطين، وليس للسمع.، قالت آتيما· .أنت تصغين· نعم· لكن حين يقترب صوتي من أذنيكِ يتفتت فلا تسمعين.

.كفى، ياليمسا، فلْنمضِ.، قالت ناؤمي في بَرَمٍ خفيف من المحاورةِ باتت بلا ظرْفٍ·

.أتهربان مني؟.، ساءلتْهما آتيما بصوتٍ متودِّدِ النَّبْر، فردت ناؤمي:

- نعم·

.أَقَبْلَ أن أصفَ عريسَ ليمسا؟.، ساءلتْهما آتيما، فردت ناؤمي: .أنا عريسها. مدَّت يدها اليمنى إلى كَفَل ليمسا· تحسَّست ردفيْها رغبةً·

افترَّ فم آتيما عن ابتسامة ناطقة بلسانِ الرضى:

- تشبهان عارضتَيْ أزياء·

.نحن مصمِّمتا أزياء.، ردت ناؤمي·

.أهذه مهنةٌ.، سألتْهما آتيما، فردت ناؤمي:

- الأعمار لا تدوم، لكنْ تدومُ الأزياء· هي مهنة الله·

.أتناسبني ثيابي؟.، ساءلتهما آتيما دائرةً حول نفسها، رافعةً ترسها عالياً·

.لاتناسبُ ترسَك.، ردَّت ليمسا· .تُرسك دَرَقَةٌ جلدٌ· يلزمه أن يجاور جلداً عارياً.

ضيَّقت آتيما بين أجفان عينيها، فتفهمت ليمسا انقلابَ قسماتها:

.فهمتُك· لكن لم أسمعك.، ردَّت آتيما·

.هذا لهوٌ، أيتها الفتاة.، قالت ناؤمي بنبرٍ يستثقل جوابَها·

.ألسنا على هذه السفينة للَّهو؟.، تساءلت آتيما· أطبقت شفتيها وترنَّمت بصوت مُحتبِس·

أومأت المرأتان للفتاة الصغيرة برأسيهما إيذاناً بانصرافٍ، فانحنت لهما آتيما كانحناءتها الأولى استدرجتْهما إلى محاورة من تدريب المأزق على الخِفَّة· تمتمت:

- أعرف أنكما قتلتما أحداً·

.نعم.، قالت ناؤمي تجاريْها لعبةَ خيالها· .قتلنا أحداً بالطريقة ذاتها التي قتلتِ بها.

.كيف خمَّنتِ أنني قتلتُ؟.، ساءلتهما آتيما بابتهاج· أغمضت إحدى عينيها·

.سيكون غريباً أن فتاةً حمراء الشعر، مثلك، وفَي عمرٍ كعمرك، لم تقتل أحداً بعد.، ردت ناؤمي بصوتها الخشن قليلاً· أردفت: .ما القتل، ياآتيما؟.

.القتل؟.، تساءلت الفتاة الصغيرة· فتحت العين التي أغمضتْها متلاعبةً· .هِهْ.، غمغمت· دارت حول نفسها:

- القتل هو أن شخصين اتَّفقا أن يرتاحا·

.أن يرتاح الاثنان؟ القاتل والقتيل؟.، تساءلت ليمسا مستغربة· .أهذا هو القتل؟.

أطبقت آتيما شفتيها وترنَّمت· هزت ناؤمي رأسها سخريةً:

- لم تقتلي أحداً·

.بل قتلتُ.، ردَّت آتيما بإصرار في صوتها· .كل من لم يعجبني قتلتُه.

.أين دفنتِهم، أيتها الفتاة؟.، ساءلتها ناؤمي مبتسمة·

.رَميتُ بهم عن هذه السفينة.، ردَّت آتيما·

.أوه.، تمتمت ناؤمي· .تعنين أنك حين تقتلين من في هذه السفينة سترمين بهم إلى البحر.

.منذ مائة عام وأنا أرمي بالقتلى من هذه السفينة.، قالت آتيما·

.فهمْنا.، همست ناؤمي بحروفٍ مسبوكةِ الوضوح· .وماذا قبل المائة عام هذه؟ ماذا كنتِ تفعلين، ياآتيما؟.

.كنت أرمي بالقتلى، أيضاً، عن هذه السفينة.، ردَّت آتيما·

.ذكرتِ مائة عام، لاغير· ما الصواب، أيتها الفتاة؟.، ساءلتْها ليمسا·

.لقد نسيتُ.، ردَّت آتيما·

.أكنت تفعلين ذلك منذ السحيق من الزمن؟.، ساءلتها ناؤمي·

.كنت أقتل، وأرمي بالقتلى إلى ما وراء الرسوم على تروسنا.، ردت آتيما·

نظرت المرأتان إحداهما إلى الأخرى نظرةً مستظرفةً· هزَّتا ترسيهما تزِنانهما: .لذا هي ثقيلة.، قالت ليمسا· .أترسك ثقيل، أيضاً، ياآتيما؟.

.لا ألوان على ترسي.، قالت آتيما· نقرت على رأس الثور النافر بأصبعها· .تجسيمٌ في الجلد القاسي، بلا لون.

.يبدو بُنيًّا داكناً· لترسك لون.، قالت ناؤمي·

.هو لونُ الجلد.، ردَّت آتيما·

- لماذا لم تتخذي ترساً معدناً، ياآتيما؟·

- الدَّرَقةُ الجلدُ ترسٌ أخف، وأصلب، ياسيدة ناؤمي·

.هذا الترس لا يناسبُ ثيابك· الجلد يلزمه أن يجاور جلداً· ينبغي أن تحمليه عاريةً.، قالت ناؤمي·

.التقيت، قبل قليل، رساماً· سيرسمني عارية.، قالت آتيما·

.أظنه سيتعرى ويرسمك عارية.، تمتمت ناؤمي في سخرية مكتومة· .كم عمرُك؟.

.ماذا الآن، ياسيدة ناؤمي؟ ألا يناسبني عمري أيضاً، كترسي لايناسب ثيابي؟.، تساءلت آتيما بنبرٍ مستنكِر·

.لا أعرف كم هو لأحكم أيناسبك أم لا.، قالت ناؤمي·

.أنا في الثالثة عشرة.، ردَّت آتيما·

. سأحكم إن كان عمرُك يناسبك أمْ لا إذا أخبرتني··.، قالت ناؤمي من غير أن تكمل·

.أخبرك بمَ؟.، ساءلتها آتيما·

- أأنت عذراء؟·

ابتسمت آتيما: .كل الذين قتلتهم، أقسرتُهم على اغتصابي أولاً.، ردَّت آتيما·

- تعنين جميع مَنْ قتلتهم؟

- نعم·

.من تَخْتارين للقتل؟ الذكورَ أم الإناث؟.، ساءلتها ناؤمي مبتسمة·

.الذكور، والإناث.، ردت آتيما·

تبادلت المرأتان نظرةً دافئة قبل أن تنقل ناؤمي بصرها إلى عيني آتيما:

- متى ستقتلينني، نحن الاثنتين؟

.ربما بعد أيام· ربما في نهاية الرحلة.، ردت آتيما· أضافت: .من أي جهة، على هذه السفينة، تريدانني أن أرمي بجثتيكما بعد القتل؟.

.من حيث تشائين.، ردت ليمسا· .المهم ألا تنسي القواعدَ السابقةَ على القتل. انحنت لآتيما، فانحنت ناؤمي للفتاة الصغيرة بدورها· وضعتا يداً في يد، وغادرتا· .لا تنسي قواعدَ ما قبل القتل.، قالتا معاً·

ترنمت آتيما بفم مطبق· نقرت بحافة ترسها السفلى مقدَّم حذائها الأبيض· مشت صوب الباب الواسع ذي الدفتين، الذي عبرته من داخل السفينة إلى مُشْرَفها خارجاً· همَّت بدفع الدفَّة، لكنَّ أحداً مَّا دفعها، بدوره، عكساً، من

الداخل إلى الخارج· تراجعت آتيما عن الباب توسَّطت كلّ دفةٍ فيه كوَّةٌ زجاجٌ يرى منهما العابرُ العابرَ فلا يتصادما إن دفعا الدفتين، اللتين تُفتحان على داخلٍ وعلى خارجٍ معاً· هي لم ترَ قادماً· القادمون، من الجهتين، لعبور الباب يلحظ بعضُهم بعضاً من الكوَّتين بأنصاف أجسادهم العليا· أمَّا مَنْ دفعَ دفة الباب، تلك اللحظة، التي همَّت آتيما بدفعها، ليخرج من جوف السفينة إلى مُشرفها، فلم يُرَ إلاَّ حين بات خارجاً بكامل هيئته· نظرت آتيما أسفل لترى قزماً أمامها حَجَبهُ قِصَرُه عن أن تلمحه من زجاج الكوة في دفة الباب· كان بليغَ القِصر في ساقيه بطولٍ لا متَّسِقٍ من جذعه الأعلى، يحمل ترساً مثلثاً، أسود، صغيراً، عليه رسمُ جرادة بين ثديي أنثى ناهديْن، ممتلئين، بحلمَتين بالغ اللونُ في انتصابهما· انحنت آتيما للقزم على نحوِ ما تفعله تبجيلاً مُتصنَّعاً من لطافةٍ تَستدرج، وتلتقط· تفرَّس فيها القزمُ مستغرباً، بعينيه الجاحظتين الصفراوين· ابتسم من فمه الواسع، الكبير الشفتين· انحنى، بدوره، يجاريها تملُّحَها· صدمتْه دفةُ الباب بخروج آخرين من باطن السفينة لم يلحظوه، فترنَّح· كان الثلاثة الرجال، والمرأة الذين صاروا إلى مُشْرَف السفينة خارجين من جوفها، على معرفة بالقزم، مُذْ بادره أحدُهم، وهو يتأمل انحناءة آتيما بيدٍ على بطنها وأخرى ترفع ترسها جانبياً:

- ماهذا؟ أعثرتَ، أيها المَلِك، على وصيفةٍ؟·

.عثرتُ على أميرة.، ردَّ القزم· .كدتَ تقذف بي عن هذه السفينة، يالوتيانو.

.اربط علماً منتصباً إلى جذعك كي تُرى من الكوى الزجاج، يامَلْكاه.، قال لوتيانو البالغ منتصف عقده الخامس· .تعلَّم المشي كأهل السِّرك على ساقين خشبيتين طويلتين· حذاؤك الطويل العقبين لاينفعك. عاد ببصره إلى آتيما وقد استقامت:

- أتعرف هذه الفتاة، ياملكاه؟·

.أنا آتيما.، قالت الفتاة الصغيرة، فانبرت المرأة، التي تصحب الرجال، إلى مجاورتها حتى كادت تلاصقها: .أنا لِيَالوُ. أحنت رأسَها فانحنت آتيما لها انحناءتَها المستوفاة دُرْبةً· قرَّبت وجهها من ترس المرأة المستطيل، المجوَّف:

- أهناك كائنٌ مختبئ في هذا الرسم؟·

رفعت المرأةُ ترسَها الثقيل قُبالة عينيها البنيتين الداكنتين، المنتفختَيِّ الأجفان: .لم يُنجز اللهُ الكائنَ بعدُ، لكنه يشتغل على جمع أعضائه المبعثرة.، قالت· اعادت التحديقَ إلى وجه الفتاة الصغيرة: .أنا، أيضاً، ظننتُ أنَّ كائناً مَّا مختبئ في هذا الرسم حين رُسِم. هزَّت رأسها هزَّةً فارغة من مقصدٍ: .أنا ليالو.، كرَّرتْ ذِكر اسمها· .هؤلاء أحفاد متعتي: ملكاه.، أشارت إلى القزم· .وهذا

دِيْغَار· هذا رَايدِيْن· هذا لوتيانو· وهذه.، أشارت إلى نفسها: .أنا.، قالت المرأة البالغةُ نهاياتِ عقدها الثالث واضعة يدها الطويلة الأظافر على صدرها·

أمسكت آتيما، في رفقٍ، بإصبع من أصابعِ المرأة· حدَّقت إلى اللونِ الحديدِ على ظفرها الطويل، بِنَقْطٍ أسودَ صغير جداً:

- أصبغتِ أظافرك بلونٍ يناسب هذه السفينة، ياسيدة ليالو؟·

.نعم· كي تناسب هذه السفينة، وجلودَ أحفاد متعتي خَمْشاً على أصفانهم الرمادية.، ردَّت المرأة ذات الشفتين المنتفختين من جراحةٍ تجميلٍ·

.كُلَّنا نكبرك، ياليالو.، قال ديغار ذو السمرة الشاحبة· قرَّبَ رأسَه الأصلع من رأسها: .ماذا كان اتفاقُنا ياليالو؟ لا ابتذالَ· لا سُوقيةَ· هذا هو اتفاقنا لاصطحابك معنا· تكلَّمي كسيدة.، قال موبِّخاً، ثم مشى صوب حاجزِ السفينةِ القضبانِ يتبعه الآخرون·

.أوه.، غَمغمت ليالو بصوتٍ بُحَّةٍ· أشارت بإصبعها عَقْفاً إلى آتيما:

- تعالي· لديَّ عشبُ الجحيم الأجملُ· أين غليونك؟·

ضمت آتيما فخذيها على ترسها· فتحت حقيبتها الصغيرة المعلَّقة إلى كتفها: .هذا غليوني.، قالت·

ضمت ليالو، أيضاً، فخذيها نصف العاريتين على تُرسها محرِّرةً يدَها من حَمْله· حشت الغليون عشباً أبيض على صُفرةٍ: .ماذا تُسمِّينه، أيتها الفتاة؟.، ساءلتها عن عشب التدخين، الذي لم يتَّفق اثنان، قط، على اسمٍ واحد له·

.أسميه آتيما.، ردت الفتاة الصغيرة·

.ماذا يعني ذلك؟.، ساءلتْها ليالو المعتدلة الطول، المتناسقة الجسد من تمارين منتظمة لأعضائه، في الأرجح·

.هذا اسمي.، ردَّت آتيما·

.أوه· تسمين هذا العشب باسمك، إذاً· أنا أسميه القضيبَ المبتلَّ.، قالت ليالو·

.ماذا؟.، تساءلت آتيما مغمضةً إحدى عينيها من الكلمات مكشِّرةً عن أنيابها جراءةً على لسان المرأةِ، صاحبة الشعر القصير الأسودِ صباغاً·

تنبَّهت ليالو إلى يقظة خيال آتيما على كلماتها عاريةً فابتسمت· تنشَّقتْ نَفَساً عميقاً من دخان غليونها· تنشقت آتيما، أيضاً، نَفَساً· أرسلتا الدخان كثيفاً، لعوباً، متصادماً، من فميهما كلٌّ في اتجاه وجه الأخرى·

.كيف عشبي؟.، سألت ليالو الفتاةَ الصغيرة·

لم تردَّ آتيما· ترنَّمت بفمٍ مُطبَقٍ·

.رائع.، قالت ليالو· .الدخان حرٌّ في قول ما يريد، بعدما أخرس ديغار فَرْجيَ.

.ماذا؟.، تمتمت آتيما من اسم العضوِ الأنثى نطقتْه ليالو بحروفٍ زئيرٍ، فردت المرأةُ ذات الثوب الأحمر مخطَّطاً سطوراً خضراء رفيعةً، يصل بسدوله منتصفي فخذيها العاريتين، الممتلئتين، فوقه قميص برتقالي، قطني ضيق، لا يبلغ سُرتها:

- كلَّما تكلَّمتُ وبَّخني ديغار·

.أهو زوجك؟.، ساءلتْها آتيما، فهزت ليالو رأسها نفياً· نفخت الدخان من فمها صوب السماء نقوشاً من صور الأبدية·

.أهُمُ أقرباؤك؟.، ساءلتها آتيما ثانيةً، فردَّت المرأةُ ذات الوجه المتطاول قليلاً، المتناسق القَسمات بأنفٍ مرتفع العِرْنيْن:

- هم أقرباء سريري·

.عرفتُ أنَّ كائناً مَّا يختبئ في الرسمِ الغيومِ على ترسك.، قالت آتيما·

حدَّقت إليها ليالو غير واثقة من ربط كلماتِها عن أقرباء السرير بكلمات آتيما عن كائن مختبئ في الغيوم الرسم· نظرت إلى ظهر ترسها كأنما تتأمَّلهُ للمرة الأولى: غيومٌ زرقٌ داكنة الأحفَّة، مُتقنَةُ الرسم، تتفتح عن إضاءات في وسط كتلتها المتداخلة مع انفراجات صفراء خافتة الصُّفرة، أو ذهبية حمراء، وبرتقالية، كالشُعاعاتِ الرؤيا في الغيوم وراء صور القدِّيسيْن المُمْتَحَنيْنَ: .أين، تحديداً، تظنين ـ يا آتيما ـ أنَّ كائناً مَّا يختبئ؟.، ساءلتها ليالو·

.هنا.، وضعت آتيما إصبعها على الطبقة الأكثر شِفافةً في وسط الكتلة المتداخلة غيوماً من الأُمَّهاتِ الغيومِ الأصلِ، نفثتْها رئةُ الله، قبلَ الخلْق، كالدخان تنفثهُ المدخِّنتان من فميهما بعد النَّشْق·

.ظننتُ أنَّ كائناً مَّا قد يكون مختبئاً في الكثافة الداكنة على أحفَّةِ الغيوم.، قالت ليالو·

.الكائنات تختبئ في النور.، ردَّت آتيما·

.أهو المكان الأنسب للاختباء، ياآتيما؟ أنا أختبئ كلما أطفأتُ النور في غرفتي.، قالت ليالو·

.كيف تختبئين وقد أطفأتِ النورَ؟ في الظلام كلُّ شيءٍ مكشوفٌ.، ردَّت آتيما·

.تقديرُك للاختباء غيرُ عادي· أهكذا تُحسِّين؟.، ساءلتها ليالو·

لم تُجبْ آتيما· ترنَّمت بصوتٍ محتبسٍ في فمها المطبق·

.هكذا إذاً.، قالت ليالو· .أنتِ، ربما، على صواب· يرى الرجالُ فُروجنا واضحةَ الهُتاف تحت الثياب أكثر من رؤيتها إذْ نتعرى· حين نِتعرى يلمسونها مغمضِي

الأعين متعةً· يختبئون في اللذة مغمضي الأعين· كلّما رؤيَتْ فروجنا أختبأوا فيها· ربما. حدَّقت إلى آتيما ممتنَّةً لاكتشافها غير الأكيد·

.كم من الرجال تعرَّيت لهم فاختبأوا فيك؟.، ساءلتها آتيما·

ابتسمت ليالو لسؤال آتيما من فمها المنتفخ الشفتين· قاسَتْ بعينيها المسافة بينهما وبين صِحابها الأربعة الرجال واقفين على مبعدة ثماني عشـرة خطوة، لصق حاجزِ السفينةِ القضبان· .حسناً.، تمتمت· .كم قضيباً معتدل الطول تتَّسع هذه المسافةُ لها إذا رُصفتْ، متَّصلةً، من هنا إلى حيث يقف أقرباء سريري؟ قدِّري تعرفي عددَ الرجال، الذين تعرَّيتُ لهم.

حدَّقت آتيما إلى وجه ليالو مليًّا· نثرت رماد العشب المحيِّر عن جُورة رأس غليونها على الأرض المعدن· وضعت ترسها بين فخذيها وأطبقتهما عليه· أعادت الغليونَ إلى حقيبتها الصغيرة متراخية الأجفان:

- مَن أنتِ؟·

.أنا عاهرة.، ردَّت ليالو· تراخت جفونها المنتفخة قليلاً من سحر الدخان أيقظ كائناته في دمها· مشتا، بتواطؤٍ صامت، صوب الأربعة الرجال يتنشَّقون دخان غلايينهم لصقَ الحاجزِ القضبان· انحنى القزم ملكاه للفتاة الصغيرة مقتربةً، مطبِقاً فخذيهِ على ترسه· كانت يده الممسكة بالغليون على بطنه، والأخرى ممدودة تبجيلاً· كاد يبلغ الأرضَ المعدنَ بصدره من قِصَر ساقيه· لم تبادله آتيما انحناءتَه· .كم طولك؟.، ساءلتْه، فاستقام القزم من سؤالها الخشن المَلمَس·

.أنا طويل بالقَدْر الذي يكفيني.، ردَّ ملكاه ذو الصوت الأخنِّ والأنف المحدَّب· نظرَ عالياً إلى ليالو: .أليس كذلك؟.، ساءلها·

.أنت طويل بالقَدْر الذي تشاء حين أتمدَّد تحتك.، ردت ليالو·

غمغم ديغار، ذو الأنف الكبير العرنين، موبِّخاً·

لمست آتيما الرسمَ على ترس ملكاه: .أهذا ديناصور؟.، ساءلتْهُ بتسديدٍ من بصرها إلى الحشرة، فردَّ:

- هذه جرادة·

- ماذا تفعل هذه الكلبة بين هذين الثديين؟

.هي ليست كلبة، ياآتيما، بل جرادة· وهي تأكل.، ردَّ ملكاه، ذو السترة البرتقالية الطويلة حتى ربلتي ساقيه، فوق بنطال أبيض يغطي بحاشيتيه قسماً كبيراً من الحذاء الأسود، الثخين الأخمَصيْنِ بسمك سبعة سنتيمترات· أضاف: .تأكل.

.أتأكل الثديين؟.، ساءلتْه الفتاة الصغيرة، فتصنَّع ملكاه التحديق إلى الرسم: .لا أعرف· لكنها تأكل· الجرادة لاتتوقف عن الأكل· ليس في جوفها أمعاء، بل طاحونة· وهي حافظةُ أسرار الملائكة، التي وُجِدتْ على الأرض أولاً، قبل صعودها إلى الخدمة خَزَنةً على مستودعات ثياب أهل الجحيم، في السماء· الجرادة هي أُمُّ المهمات، وقد ألهمتِ الأنبياءَ أن يعيدوا الأرضَ إلى أصلها بُوْراً، يَباباً، قَفْراً· الجرادة هي··.

قاطعه رايدين، البالغ منتصف عقده السادس:

- كان هذا حين لم يَزِدْ طولُ الأنبياء على شبرين، يحاول الإله مطَّهم كالمطَّاط من دون جدوى·

.لِمَ قاطعتَني، يارايدين؟.، ساءله ملكاه بصوتٍ حسْرةٍ، فردَّ الشيخ ذو الوجه المستدير، المُهمل الحِلاقة قليلاً ببزوغ رؤوس شعر أبيض فيه:

- أنقذتُك قبل أن تأكلك جرادتك·

ترنَّمت آتيما بصوتٍ مُحتبَس، فالتفتت الوجوه إليها·

.أظنُّ الفتاةَ تسمع صوت جرادتك، ياملكاه.، قال رايدين، الممسك بترس مستطيل، ضيق، أجوف، أحمر اللون، عليه رسْمُ عربة يجرُّها صفَّان من هياكلَ عظامٍ، بشرٌ وحيواناتٌ متداخلة·

مدَّت آتيما سبَّابتَها، ثانيةً، إلى الرسم على ترس القزم ملكاه· مرَّرتْها على استدارتيِّ الثديين الناهدين، من غير أن توقف ترنُّمها، فأمسك ملكاه بسبَّابتها· وضعها على إحدى الحلمتين المفرطتين انتصاباً· ابتسم لها من وجهه الطويل، الحليق·

سلَّت آتيما إصبعها من يد ملكاه الصغيرة· مطَّت عنقَ قميصها القطني الأبيض تنظر من فُتحتهِ إلى صدرها· أطبقت فخذيها على ترسها محرِّرةً يدَها الأخرى تتحسَّس بها، من داخل عنق القميص، حلمتيها· اطالتِ الدَّلْكَ المتمهِّلَ الناعم· قرَّبت ليالو رأسها محدِّقة إلى صدر الفتاة، من عنق القميص الذي مطَّتْه: .ماذا تفعلين؟.، ساءلتْها بابتسامةٍ مرحِّبةٍ بالذي تفعله آتيما· قرَّب ملكاه رأسه أيضاً، واقفاً على مقدَّمي حذائه لينظر إلى صدرها، فدفعتْه ليالو عن آتيما دفْعاً رقيقاً:

- يكفيك الثديان على ترسك·

.لا يكفيان.، ردَّ ملكاه محتجاً، فدفعتْه ليالو ثانيةً تُبعده:

- عُدْ بعدَ قرنٍ، إذاً، وقد ازددت طولاً من مطِّ الموت لروحك، لتتمكَّن من أن ترى·

حام ملكاه حول آتيما، حاملاً ترسه بيدٍ، وغليونه بالأخرى· أشار بوجهه إلى الرسم الثديين على الترس:

- ألا تتمَنَّين أن تكون لك حلمتان كهتين؟·

.لم أرَ قضيبك منتصباً كانتصابهما، ياابن آوى.، قالت ليالو· .لا تحتاج الأنثى حلمتين منتصبتين هكذا.

غمغم ديغار:

- تعالَ أحملْك، ياملكاه· سُدَّ فمَ ليالو بخصيتيك·

.فمها لايُسدُّ بمائة خصية، ياديغار.، ردَّ ملكاه· .لكنِ احملْني لأرى ماتراه آتيما من فتحة عنق قميصها.

.لاأرى شيئاً.، ردَّت آتيما معيدةً بنِيقَةَ العنق، بعد المطِّ، إلى حالها· حملت ترسَها· .سيكون لي، بعد قليل، ثماني حلمات، كلٌّ أربعٍ على جهة من صدري.

.مَنْ ستُرضِعين بها؟.، ساءلتها ليالو، وهي تمدُّ يدَها، منحنيةً، إلى جيب سترة ملكاه، منتشلةً كيساً صغيراً فيه العشب الأبيض·

.سأُرضع هؤلاء القتلى.، ردت آتيما، من غير إشارة إلى أحد·

.أترين قتلىً؟.، ساءلها رايدين·

.أرى قتلى حيث مشيتُ.، ردت آتيما·

قرع لوتيانو، ذو الشعر الرمادي الطويل، المُمسَّح إلى الوراء، بحافَّة ترسه الدائري السفلى ـ ترسِه الحديد اللون رماديًّا برسومٍ سلالمَ مكسورةٍ، أرضَ السفينةَ المعدنَ:

- لها الرؤيا التي لكَ، يارايدين·

.هذه ليست رؤيا، يالوتيانو، بل عِمارةُ الحياة.، قال رايدين·

لايرى المعماريون، مِنْ مِثاليَ، عمارةً في الحياة غيرَ الأبنية، والجسور، والطُّرق.، ردَّ لوتيانو·

دبَّ شجارٌ خفيف، دفْعاً بالأيدي بلا إسرافٍ، بين ملكاه وليالو، التي حشت غليونها حشواً مفرطاً من العشب الأبيض اختلسته من كيس القزم الهاتف بها:

- ماذا أبقيتِ لي؟·

.رئتاك صغيرتان، ياابن آوى.، ردت ليالو· رفعت ذراعها عالياً بغليونها تَقِيْه من قفزات ملكاه الثقيلة· .لماذا تسمي عشبَك بعشبِ الأرقام؟.

.هذا أمرٌ لن يدركه خيالُك، يا···.، قال ملكاه من غير أن يكمل· نظر إلى ديغار:

- أتسمح لي بإطلاق لقبٍ على ليالو؟·

غمغم ديغار ذو الترس المثلث الصغير، الأسود، عليهِ رَسْمُ زوبعة حمراء محاطةٍ بدوائر على محيطها:

- سأبيعكم في أول ميناء نصِلُه·

.لسنا مبحرين إلى أيِّ ميناء، ياديغار، بل إلى عُرْض بحر تريتونفال.، قال المعماري لوتيانو· .أمْ تفكِّر في بيعنا، حقًّا، بعدما استنفدت، في مهنتك، أسلحةَ العالم بيعاً بعد بيع؟.

.لا، يالوتيانو· ثمت أسلحةٌ لم أستنفدْها بيعاً بعدُ· بيع الأسلحة مهنةٌ لاتُستنفَد· الأسلحةُ، أبداً، كلماتُ الله.، ردَّ ديغار·

.هل انتهيتما من تفسير التاريخ؟.، ساءلهما ملكاه محتدماً· دحرجَ صوتَهُ الأخنَّ، من جديد، إلى سمع ديغار:

- أتسمح أن أصِفَ هذه العاهرة بلقبٍ ما؟·

.ماذا أبقيتَ لها؟ هاأعطيتَها لَقَباً.، قال ديغار·

.لايكفي هذا. ردَّ ملكاه

.قُلْها واسترحْ.، هتفت ليالو بالقزم ملكاه· .مهما أوحى الله إليك من عبقرية في استنباط كلماتٍ مُهينة، أو ألقابٍ مهينة، سترتمي هذه الليلة، أو ليلة الغد، بين فخذيَّ تلعق بظري كالهرة، ياابن آوى.

حدَّجها ديغار بنظرةٍ منشارٍ· نقل بصَره إلى ملكاه:

- مزِّقْها·

.فقدتُ الرغبة، ياديغار· لكنْ بودِّي أن أسأل ليالو شيئاً.، قال· أردف: .مادمتِ تصفينني بابن آوى، أفليس الأفضل أن تقولي إنني سألعق بظرَك كابن آوى؟.

.لم أرَ ابنَ آوى· لاأعرف إن كان يلعق كالهرة.، ردت ليالو·

.مزِّقْها· أحضِرْ رغبتَك المتقلِّصة كساقيك· مُطَّها وقُلْ شيئاً مهيناً لهذه التي تسميك ابنَ آوى.، قال ديغار·

.رغبتي باتت كساقيَّ القصيرتين· لايستطيع قلبي المشيَ برغبةٍ كهذه إلى إهانة ليالو.، ردَّ ملكاه·

.أوه.، تمتمت ليالو· جذبتِ القزمَ من رأسه، بذراعٍ واحدة، إلى بطنها تحضنه، ممسكة بالغليون بين أسنانها: .هذا هو جرويَ الرائعُ، ابنُ آوى ملكاه.، قالت المرأة العارية الفخذين اللفَّاوين حتى منتصفهما· .ملكاه ليس بذيئاً، ياديغار. ضغطت رأسه أكثر على بطنها: .لماذا تسمي عشبك، هذا، عشبَ الرقم؟.، سألتِ القزمَ· حرَّرته من ذراعها المحتضنة رأسَه· .قلتَ إن خيالي لن يدرك تفسير هذا الأمر· جرِّبْ خيالي.

.أنا، ياليالو، كلما رأيتُ شخصاً، بعد نَشَقاتٍ من دخان عشبي، حسبتُ طوله على أصابع لوعتي بالسنتيمترات· يستغرقني العدُّ وقتاً للانتهاء من تقدير طوله، لكنه وقتٌ ضروري لأذكِّرَ الطبيعةَ أنها أصغر من قضيبي.، ردَّ ملكاه، وضع ترسَه بين فخذيه· ضمَّهما عليه· حشا غليونه: .الكثيرون لايفهمونني· حتى أنتم لاتفهمون أحياناً، شخصاً مثلي من مملكة رايْسْتا.

.رايستا؟! أأنت من مملكة رايستا، ياملكاه؟.، ساءله رايدين، ذو البزَّة الداكنة الخُضرة بنقْطٍ أزرقَ، تحت سترتها قميص أسود·

نظر ملكاه إلى حذاء رايدين الأبيض المشوب بصُفرة، فعاجلَه رايدين:

- مابه حذائي تحدِّق إليه؟·

.أستلهم فكرةً منه.، ردَّ ملكاه·

.ماالفكرة هذه؟.، ساءله رايدين، ذو البشرة الشمعية البيضاء، الخفيض الصوت·

.أنْ تنسى أنَّ لديك فكرةً.، ردَّ ملكاه· أضاف: .أنا من مملكة رايستا.

.أكلُّ من يسكن ضاحيةً من ضواحي مدينة ليهولم يعِدُّها مملكةً؟.، تساءل رايدين· .لكنك، ياملكاه، لست من رايستا. فردَّ القزم كالمتحقِّق بالبرهان من زعمه:

- كيف تسنَّى لي، إذاً أن أحفظ في ذاكرتي أقاصيصَ لاتُحصى من رايستا؟·

.أسردَها عليك أبوك طفلاً، أم عابرٌ في حانة؟· أخبرْنا واحدةً.، قال ديغار·

.سأخبرك واحدة.، رد ملكاه· نفث دخاناً كثيراً من منخريه· .قال السنجابُ: قررتُ أن أتكلم أخيراً.

قاطعه ديغار مبتسماً في استخفاف:

- أتكلَّمَ السنجاب بلغة الآدميين، أم قال ذلك بلغته؟·

.لاتقاطعني.، ردَّ ملكاه· .تكلَّم السنجابُ، وذلك يكفي· قال: قرَّرتُ أن أتكلم أخيراً.·

.حسناً· ماذا قرَّر أن يقول سنجابُك؟.، ساءله المعماري لوتيانو، ذو العينين على صُفرةٍ·

.لقد قضم قرنَ الوعل، الذي زيَّنت به جذع شجرة البتولا في حديقة بيتي· كيف خطر له أن يقضم ذلك القرن ذا الشِّعَب، يوماً بعد يوم؟ ماطعمُ قرن الوعل ليأكله السنجاب؟ أَلَهُ مذاق البندق أمِ الكستنة؟.، تساءل ملكاه، ذو القِصَر المفرط، بصوته الأخَنِّ·

.لِمَ لَمْ تتذوَّقْه، ياملكاه؟.، ساءله رايدين، ذو الفم الكبير الشفتين على حُمرةٍ، ساخراً·

.أظُنني خذلتُك، وتذوَّقْتُه.، ردَّ ملكاه بنبرةٍ ثأرٍ·

.ما طعمه؟.، ساءله رايدن·

.طعمُ مدفعٍ لم يُستخدم في معركة.، ردَّ ملكاه·

.ما من مدفع لم أَستخدمه في المعارك قُدْتُها، حتى تلك الموجودة في المتنزَّهات.، ردَّ رايدين·

.أية معارك تعني؟.، ساءله ملكاه· .أتلك التي قُدْتَها قبل سقوط أوروبا، أمْ بعد سقوطها؟.

.فلْنبقَ في حديث السنجاب.، قال ديغار· .أكمِلْ ياملكاه.

تنشَّق ملكاه نَفَساً مزدوجاً من عشب غليونه المشتعل· نظر إلى آتيما مليًّا:

- أتريْنَ قتلى، حقًّا؟·

ترنمت آتيما بصوتٍ محتبَس وهي تلمس ترسَ ليالو بإصبعها، في الموضع الشفيف من كتلة الغيوم·

.سأكمل، إذاً.، قال ملكاه· التفت إلى ديغار:

- ألم أقُل كلَّ شيء عن السنجاب؟·

.لايهمنا ماالذي قضمه السنجاب من عظامك في الحديقة، بل ماذا قال، مادام ـ كما زعمتَ ـ قد قرَّر أن يتكلم.، قال ديغار·

طأطأ ملكاه برأسه الكبير، الطويل الوجه، في استسلامٍ لا موجبَ له:

- يلزمني تدخين الكثير من عشب الرقم، لأستجمعَ ذلك المنطقَ الفاترَ في كلام السنجاب· إمنحوني وقتاً·

.لم نعد نعرف ماهي مهنتك حقًّا، ياملكاه· أهي إستنباطُ أجناس من الزهر والورد، في مشاتِلك، على نحوٍ لا يلحق بخيال عِلْمك أحدٌ، أم صرتَ مؤرِّخاً لمنطق السناجب؟.، ساءله لوتيانو·

.ما أستنبطه، في مشاتلي، من غرائب الزهر والورد، ليس عِلْماً ليلحقَ بي أحد، يالوتيانو· استنباطاتي هي رؤىً.، قال ملكاه·

.أهي رؤى كالروائح؟.، ساءلته آتيما، فحدَّق إليها القزم:

- ماذا تعنين؟·

.أنا لا أصغي، بل أشمُّ ما أسمع.، ردَّت آتيما·

.أوضحي.، ساءلها ديغار، فردَّت آتيما:

- أشمُّ رائحةَ النظرات·

.أهذا توضيح؟ لابأس· مارائحة النظرات؟.، ساءلها ديغار، ناقلاً ترسه المثلث الصغير من يد إلى أخرى يُريحها·

.كيدٍ تتحسَّس جداراً خشناً· أو كالتواءِ الكاحل في حذاءٍ عالي العقب.، ردت آتيما·

.وماذا أيضاً؟.، ساءلها ديغار·

.أشم رائحة الحركة.، قالت آتيما·

.ما رائحتها؟.، ساءلها ديغار·

.كنهاية رحلة.، ردت آتيما·

.تبدو الأشياء غير مريحة معك، يا آتيما، كتروسنا هذه.، قال ديغار·

.لماذا نحملها؟.، ساءلته آتيما·

صدرت همهمة استنكار واحدة، متخالطةُ النَّبْرِ من أصوات الرجال كلهم· همس إليها لوتيانو:

- لا تعودي إلى هذا التجديف·

اقترب ملكاه من آتيما حتى كاد يلامسها، فشدَّتْه ليالو من قفا سترته· لم يلتفت إليها· مضى مخاطباً الفتاةَ الصغيرة:

- أأنت خُلْدٌ، أمْ أفعى، أم نعامة، أم مغنيِّة؟·

.أللمُغنِّيات خصائص كهذه؟.، ساءلته آتيما·

.كلُّهن لايسمعن غناءَهن إذْ يغنِّين، بل يتشمَّمن صراخَ الجمهور.، ردَّ ملكاه·

.لم أعرف ذلك قَبْلاً.، قالت آتيما· انحنت لملكاه· انحنت للآخريْنَ تباعاً· أطبقت فمها مترنِّمةً بصوتٍ محتبَس· استدارت مبتعدة عنهم في اتجاه الباب ذي الدَّفتين تُفتحان على داخلٍ وخارج معاً· دفعت إحدى دفتيه ضغْطاً بترسها لتصيرَ إلى الممرات متفرِّعةً تقود إلى مقاصير النُّزلاء· ثِللٌ كانت تجوب الممرات، مثلها، في طريقها إلى السلالم الآلية، الذاتية الصعود والهبوط بدَفْعٍ من آلاتها الخفيَّة، متوجهين، تحديداً، صوب الطبقى السفلى ـ طبقةِ الحانة، والمطعم، والمكتبة، في المحيط الكبير من حول العمود الأسطوانة رقَّشتْه الرسومُ من قاعدته حتى السَّقفِ القُبَّة في الطبقة الثالثة الرحبة، الأكثر سعةً في هيكل السفينة بفسحاتها المباهج، من قاعة الرقص إلى قاعة اللقاءات، فمعرض الرسوم التي لم يُذيِّل الرسامون لوحاتها بتواقيعهم·

كان الوقت يدوّن سطورَهُ الأقرب إلى صفحة الظهيرة ـ موعد الغداء الأول في الرحلة إلى عُرْض بحر تريتونفال· صخبٌ مرفَّهُ الجدال غطى السلالم بنزولِ فريقٍ من الطبقة الثالثة، قبل انعطافهم، في الفسحة المخصَّصة لتبديل النُّزلاء اتجاهَهم، صعوداً وهبوطاً، على السلالم الآلية· فريقٌ متجانس الهوى، في الأرجح، تشاغَلَ، منذ صعود السفينة، بمجابهات ومنازلات في الشطرنج· بدا ذلك واضحاً من حملهم التروس بأيدٍ، متأبطين بأذرعهم الأخرى عُلَباً منمَّقةَ التطعيم بحجارة صقيلة غُوِّرَتْ في خشبها· كانوا مستعجلين مرحين في النزول، يختصرونَ أدراجَ السلم الآلي بخطواتهم، لا كالآخرين يتركون، ساكنين، للسلَّم أن ينحدر بهم رقيقَ الصوت من أحشاءِ الآلة المجتهِدة· واحد منهم، فقط، ظلَّ على اتِّزانه ساكناً، خلف آتيما، بترسه الدائري الضخم، الأصفر اللون، عليه رسمُ دماغٍ بشريٍّ بتلافيف زرقٍ، وعلى محيطه، كلِّه، مسنَّناتٌ كالأنياب برتقاليةٌ· حانت التفاتة من آتيما إليه، على السلم القصير· انحنت له· تفرَّس فيها الرجل ذو العينين الزرقاوين برهةً، من غير أن يستجمع بجسده ردَّا عليها، أو بلسانه، لأن آتيما بلغت الأرضَ المعدن ببلوغ درجة السلَّم، تحت قدميها، مستوى الأرض المعدن· دارت حول نفسها في رقصةٍ مخْتَزَلةٍ على دورة النَّبْر في ترنُّمها بفمٍ مطبق· ابتسمت للرجل البالغ منتصف عقده الخامس يرفع صوته العميقَ، المتمهِّل، مبتعداً عنها:

- سأنحني لكِ إذا تقابلْنا ثانيةً·

شاسعاً كان الممرُّ الممتد من السلم الآلي إلى أقسام الطبقة السفلى، يُرى مدخل المطعم في نهايته بباب ذي دفتين واطئتين، متحركتين إن دُفِعتا إلى داخلٍ أو خارجٍ· أناسٌ اتجهوا يساراً، من منعطف صغير في الممرِّ الشاسع، إلى مدخلٍ عالٍ مفتوح، بلا باب، تتدلَّى منْ عاليْهِ ألواحٌ صفيحٌ رقيقة، بسلاسل رقيقة، لها تصاميمُ متخالِفةُ الهندسة ـ مربعةٌ، دائرية، مثلثة، مستطيلة، نجوم، عليها شِذَرٌ مقتبساتٌ من النصوص اختيرت سطوراً، أو جُملاً، أو عباراتٍ مقاديرَ، مفردةً بحروف متنافرة الحجوم· عينا آتيما تسلَّقتا الألواحَ المتدليَّةَ نداءاتٍ تستعطف الأبصارَ سُلْفَةً من همَّة العقل المُحتجِب كي يقرأ العقلَ المشهودَ في الكلمات:

.قَدَرُ البحرِ قَدرُ الليل.

.لامُشكِلَ وحيداً: معهُ أُمَّهاتٌ.

.سيلٌ على مَنكِبِ الجبل، وآخرُ في البستان.

.الحصانُ لايكترِثُ بحسرة الأمير.

.حين تضع يدَكَ في الماء، ضعْ مجدَكَ جانباً.

.لاتُوبِّخِ الريحَ.

.العَدْلُ غُرَفٌ يستأجرها المهاجرون أحرقوا مدنَهم.

.هـ· و· هـ· ي· الوسادة.

.حينما يُستبدَل المفتاحُ بالفأس.

.الخبزُ شكُّ الشبعان.

.في الرُّقعة الواحدة، لا في غيرها.

.الجنوبُ استراحةُ التمثالِ الحجرِ.

.أوْصِدوا البابَ الأول· أوصِدَوا البابَ الثاني.

.خذوا البحرَ كلَّه من نافذة السفينة.

.العصافيرُ استمناءً.

.بقرةٌ ونبيَّان.

.الجحيمُ ـ الصَّلاةُ الأولى.

التفتت آتيما إلى رجل وامرأة جاوراها، متوجهين ببصريهما إلى الألواح مثلها· هي في عقدها الرابع، وهو في الخامس، صامتان، يحملان ترسين حديديْنِ، بلا رسمٍ أو نقش، كحال الحديد في لونه الرماديِّ المحترقِ صِرْفاً·

.كلما صعدتُ هذه السفينة وجدتُهم غيَّروا الجملةَ هذه، من دون سائر المكتوب على الألواح: .الجحيم ـ الصلاة الأولى.، قالت آتيما لهما، ببصرها على ترسيهما جانبيًّا: .كانت: لا جحيمَ إلاَّ حيثُ تقفُ. نقرت بحافة ترسها الدائريِّ حافةَ ترس المرأة، المستطيل، في رقَّةٍ· انحنتْ:

- أنا آتيما·

نظرت المرأة إلى الرجل معها برهةً، ثم عادت ببصرها إلى الألواح متدلية من السلاسل الرقيقة بحروف مليئة الثَّدِيِّ حليباً، أو ماءً، أو رملاً مغسولاً·

.أنا آتيما.، كررت الفتاة الصغيرة نُطقَ اسمها رخيماً· .أوه.، تمتمت· .أنتما تصلِّيان الصلاةَ الأولى. مشت نصفَ خطوة· استدارت إليهما: .قبل ثلاث رحلات من هذه لم تكن كلمة الجحيم على اللوح، بل كلمة: القلق. هزَّت رأسها تستنكر أمراً غيرَ متَّضِحٍ في قولها· .القلَقُ الإله. مطَّتْ عنقَها:

- أتعني لكما الجملةُ شيئاً؟·

لم يردَّ الرجل المضموم الشفتين، الأصلع الحليق الرأس تماماً، ذو الوجه المستطيل، المتهدِّل اللحم عند الحنكين· لم تردَّ المرأة البيضاء على حُمرة، ذات العينين الخضراوين، والشعر المُتخالطِ حُمرةً في شُقرةٍ صِباغاً واضحاً باقتدار·

.هيَّا· تفضَّلا.، قالت آتيما تمدُّ ذراعها أفقيا على جنبها صوب المدخل الكبير، الذي تتدلى الألواح من سقف إطاره· .هذه مكتبة السفينة· تفضَّلا.

تجاهلها الرجل، ذو المعطف البنيِّ الرقيقِ القماش، الخريفيِّ الغايةِ تفصيلاً، الطويلِ حتى عقبي حذائه الأسود، فوق بنطال رمادي· تجاهلتْها المرأةُ، ذات السترة الصفراء فوق ثوب أسود، طويل حتى أرساغها الظاهرة، بلا جوربين، من أحفة حذائها الأبيض، الواطئ العقبين·

ابتسمت آتيما من تجاهلهما تحرُّشَها بهما· أنزلت بصرَها متنقِّلاً بين الترسين: .ما هذه الرسوم المدهشة؟ من اختارها لكما؟ أنتما محظوظان.، قالت بنبرة ساخرة من ظاهرَيْ الترسين بلونهما الحديد من غير رسم أو نقش· نقرت، تناوباً، بسبابتها على وسطيهما تحديداً: .أهاتان سمكتان؟.

حدَّقت إليها المرأة بعينيها الخضراوين· حدق إليها الرجل بعينيه البنيتين· أبقت آتيما بصرَها متنقِّلاً بين الترسين تتصنَّع التفرُّسَ في تفصيلات متماثلة من هيئتَيْ سمكتين توهَّمتهما قصداً· بالغت في التفحيص والتمحيص: .هاتان ليستا سمكتين، بل هما فَرْجان· فرْج فتاة صغيرة على ترسكِ، أيتها السيدة، يعلوه زغب· فرجُ امرأةٍ حليقٌ على ترسكَ، أيها السيد. ابتسمت تتأمل انعكاسَ دعابتِها الثقيلة على سيمائهما· .أأنتما زوجان؟. نظرت إلى يديهما الحرَّتين، ثم الممسكتين بالترسين: .لأرى خاتمَيْ زواجكما· أنتما عشيقان· أوه· عُذراً· أنتما أخٌ وأخت· لا· تعرَّف أحدكما الآخر قبل ساعة ربما، على هذه السفينة· جَمَعكما الترسان الحديدُ بلا رسوم عليهما. لمستْ طرفَ سُترة المرأة: .ألم تتصنَّعي المفاجأةَ حين رأيتِهِ؟ هتفتِ: واو· ترسك يشبه ترسي· لا ألوان. نقلت يَدها إلى معطف الرجل لمْساً: .ألم تقلْ لها: ما المصادفةُ هذه؟ نحن الوحيدان، على هذه السفينة، بترسين لا لون فيهما أو رسوم· تعالي نتزوَّج. نقلت ترسَها الدَّرَقَةَ الدائريَّ من يد إلى أخرى: .تبحثان عن كتاب نصائحَ في الطلاق، أو نصائحَ في القتل بالتراضي· كم عمرُكما؟ لستما أقلَّ من أربعين· أعرف الأعمار من ظلال الأهداب على العيون· أنا آتيما· تفضَّلا· هذه المكتبة من تسعة عشر رفّاً· مجلداتٌ طينٌ· أغلفةٌ طينٌ· ورقٌ طينٌ· كتابة بالوحل المائع· لم تقرءا كتباً طينية بعدُ· لم تشمَّا المعاني الطين في الكتب الطين· تفضَّلا· ادخُلا· لا تحتاجان إلى قراءة العناوين· الشمُّ يكفي· أنا آتيما· لا أصغي، بل أشم· لا أقرأ، بل أشم، وأرى الروائح· هيا ادخلا· هذه مكتبة السفينة· العبيد، في الداخل، يخدمون زائريها· عبيدٌ لا يقرأون، بل يشمون· تستطيعان أن تفعلا بهم ما تشاءان· سيصعدون السلالم الصغيرة إذا أردتم كتباً في الرفوف العليا، أو لم تريدوا كتباً· مُرَا أن يصعدوا وسيصعدون· مُرَا أن يبقوا على السلالم لا ينزلون· اطلبا أن يتمدَّدوا على الأرض المعدن وسيتمدَّدون بِطاحاً؛ أن يتعرَّوا وسيتعرون. حدَّقت إلى المرأة بنظرةٍ غوايةٍ: .لدى كل عبد مفاتيح لحمٌ تحبها النساء. ابتسمت· نظرت إلى الرجل: .هناك فتيات، أيضاً، من كلِّ عُمر،

تستطيع لمسهن بلسانك إن شئت. تراجعت خطوةً عنهما، تأمَّلتْهما مليًّا صامتيْنِ:

- مابكما؟ متى قتلتما أحداً آخر مرَّةٍ؟·

تراجعت المرأة خطوةً بدورها· تراجع الرجل· استدارا في هدوء صوب المعبر إلى بوابة المطعم، خاليي القسمات من أيِّ انفعال· مضيا·

.أنا آتيما.، هتفت الفتاة الصغيرة بهما محتدمةً قليلاً· صرخت: .استعيرا كتاباً في أصول القتل. انحنت تقرع بحافة ترسها السفلى الأرضَ المعدنَ· التفت إليها بعض القادمين، من المعبر، في اتجاه المطعم· تجاهلها البعض· نظر إليها عاملان من عمال المكتبة من وراء ترسيهما المستطيلين، الضخمين· ابتسما لها من وجهين تعلوهما قبَّعتان سوداوان ابتسامةً مستنْسَخَةً·

مضت آتيما، بدورها، صوب المطعم· اجتازت الباب الواطئ، المتحرك بدفتيه دفْعاً إلى داخل أو خارج· كانت المناضد الدائرية مرصوفة بلا تناسق في الحجوم، بعضها كبير القُطْر يتسع، في محيطه، لعشرة، وبعضها صغير لايتسع لأكثر من واحد· هو تدبيرٌ، في الأرجح، يعفي أيَّ راكبٍ من مشاركة آخرين، ليسوا رِفْقتَه، منضدتَهم· وكان الركاب، بحقٍّ، يتخيَّرون الأنسَبَ الجامعَ، من المناضد، لعددهم: عشرةً، أو فرادى واحِدِيْنَ·

آتيما حصرت ببصرها بعضاً التقتهم على مُشْرَف السفينة، هم: المرأتان، مصمِّمتا الأزياء ليمسا وناؤمي، معاً؛ الرجلُ والمرأة الصامتان، ذوا الترسين بلا رسم أو نقش، معاً؛ القزم ملكاه، وليالو اللفَّاء الفخذين، والمعماري لوتيانو، وراندين المحدِّث عن معارك بلا تواريخ ـ أهي قبل سقوط أوروبا أم بعد سقوطها، وديغار ذو الإلماح إلى الأسلحة أنْ هي كلماتُ الله، معاً؛ هيز الشاعر، والموسيقي جوراك وسيميال، والرسام بارو وأمه ذات السبعِ الأفاعي في سلَّتها، والممثل أولاك وزوجته وابنتاه، وكاتب الأقاصيص سينيكوس، معاً· أشخاص فرادى، نساء ورجال، كلٌّ على منضدة تخصُّه· أما الذين نزلوا السلم الآلي جمْعاً، من خلف آتيما، مسرعين، مرحين، بعلبٍ صناديق مستطيلة تحت آباطهم، مطعَّمةٍ حجارةً صقيلة، هي صناديق شطرنج لا تَخْفى، فكانوا مقسومين توزيعاً بكثرتهم البالغة ثلاثين نفراً، على ثلاث مناضد متجاورة، في وسط المطعم، بفراغات واسعة بينها وبين المناضد الأخرى، فيما بدا الرجل، الذي انحنت له آتيما فوعدها أن ينحني لها إذا التقاها، جالساً إلى موضع في المنضدة الثانية من الثلاث المتجاورة، محتفظاً بفسحة لجسده بين الجالس إلى يمينه، والجالس إلى يساره، على نحوٍ يتدبَّر جسدُه لنفسه، في محيط حركته، قدْراً من فراهة الفراغ تكريماً، كأنه معلِّمٌ، أو مدرِّب دُهْقان·

علا رَجْعُ النَّقر صدىً رقيقاً في المطعم حين لمسَ الرجل المتوسط الطول، ذو الإنحناءة في الظهر، مكبِّر الصوت، من ركن في أقصى المطعم، يحيط به

جمعٌ من خُدَّام السفينة يربو على العشرين، فتَيات من مبلغ عشرين أعمارهن، وشبان من مبلغ ثلاثينهم، لهم اللون الواحدُ رماديًّا في بزاتهم الطويلَة الستارت حتى الرُّكَب، كاللون ذاته في بزَّاتِ رفيقاتهم الستاراتِ فوق أثوابٍ قصيرة حتى الرُّكَب، واسعةٍ· وفي أيديهم، جميعاً، تِرَسةٌ مستطيلة، مجوَّفة، ضخمة، متشاركةٌ في رسم مُسْتَنْسَخٍ واحد، عليها كلها: ملاكٌ عارٍ، بجناحين طويلين من ريش الطاووس نَقْلاً عن أصلٍ، ولهُ ذيلٌ ريشٌ مثالُ جناحيه· حليق الوجه· غاضب القسمات، بشعر أسود طويل، متماوج، متطاير، يقبض بإحدى يديه الطويلة الأظافر على عنق ملاكٍ طفلٍ، بجناحين وذيلٍ ريشٍ، مفتوح الفم عن صرخة تُسْمَع في برِّيَّةِ اللون فرسخين، يجاهد بيدٍ أن يحرِّر عنقه من قبضة الملاك الكبير، فيما يحمل الاثنان، بيديهما الأخريين، ترسين مثلثين عليهما رَسْما ميزانيْنِ متطابقين لوناً ومقاساً، كل ميزانٍ بكفَّةٍ واحدة يحملها غرابٌ أسحم·

.أنا القبطان هِيْغُوْر.، قال الرجل ذو الانحناءة في الظهر، بصوته الخشن يتلمَّس له رقَّةً· .أنا هيغور، المؤتَمن على سروركم في هذه الرحلة.، أضاف الأبيض الشاحب، المستدير الوجه بلحية قصيرة بيضاء، مدبَّبةِ السَّبَلة· أشار بوجهه إلى جنبيه: .هؤلاء عبيدي.، يعني عمَّاله، من شبَّان حليقي الوجوه، بِيْضِ البشرات بشعور بُنية على شُقْرةٍ، وعيون على صفرة، مبتسمين ابتسامةً مستنْسَخةً كابتسامات عاملاته الفتيات، اللواتي بَدَيْنَ توائمَ في الشَّبه كالشبان توائم في الشبه· قرَّب فَمه، ثانيةً، من مكبِّر الصوت الدائري الرأس حلقاتٍ· رفع ترسَهُ المثلثَ، الطويل الزاوية السفلى، الأسودَ عليه رسْمُ ديك أصفر مسترسل في صياحه، حتى مستوى عنقه: .عبيدي الزبانية، هؤلاء، موصوفون باحترافهم في الترفيه· جرِّبوهم· لاتتردَّدوا· نحن هنا كي لانتردَّد· نحن هنا كي نحيطكم بعناية الماء وعناية النار. ابتسم من فمه المتهدِّل الشفةِ السفلى· اثبت نظارته الشفيفة بإطارها المعدن، المنزلقة قليلاً عن قصبة أنفه· أدار عينيه الزرقاوين تُخالطهما صُفرةٌ في الجالسين إلى المناضد الحديد مغطَّاةً بشراشف زَرَدٍ حديدٍ صغير الحلقات، عليها صحون حديد، وملاعق حديد، وسكاكين حديد، وكؤوس حديد، وأباريق ماءٍ حديدٌ، داكنةُ الرماديَّةِ لوناً في معدنها·

.هذا هو بحر تريتونفال ـ بحرُ الشمال النهائي· كلُّ رحلة إلى عُرْضه تاريخٌ من تصنيف الفضول السحري؛ الرغبة السحريَّة؛ الكسل السحري؛ القَلَق السحري.، قال هيغور· لمس قبعَته الرمادية المستديرة الأحقَّة: .بالطبع، لستم قلقين· ماالذي رمى إلى لساني كلمةً ليست في سِجلِّ أية رحلة إلى عُرْض بحر تريتونفال؟. تلفَّت إلى يمينه، فشماله، يعاين وجوه الفتيات، والشبان، في النصف الحلقة المكسورُ وسطُها من حوله: .أفيكم أحدٌ صعد السفينةَ، اليوم، بدخانٍ في جيبه من قلق الأمس؟ أنتم لا تقلقون.، قال، فأومأ خدمُه العمال، والعاملات، برؤوسهم تأييداً·

.أترون؟.، سأل القبطان هيغور، ذو السترة السوداء فوق قميص رمادي، وبنطال أسود، الركابَ الجلوسَ· لمس ربطةَ عنقه الرمادية بتعاريق زرقاء: .عبيدي ليسوا قلقين· أنتم لستم قلقين· يالللكلمةِ الخطأ استهلالاً في هذه الرحلة· القَلَقُ كلمة تخصُّ القَلَق وحده· القَلَقُ السفيه، الداعر، ابنُ عربة الأحوال المنقلبة. صمتَ برهةً· هزَّ رأسَه كالمستدركِ: .الحورية، التي تنتظركم بفتنةِ وقتها البحريِّ، ليست قلقة· أحسُّ زعنفة ذيلها تَمَسُّ ترسي مداعبةً. وضع يده على السواد، فوق رأس الديك الأصفر مسترسلاً زُقاءً في متاهة اللون· .ستلمس الحوريةُ بزعنفة ذيلها تِرَسَتكم كلَّها ـ تِرَسَةَ الجلال في أيدي الإنسان. نقل ترسه من يد إلى أخرى يريح كتفَه قليلاً: .نحن المختارين لنعمة التعب تليق بنا نعمةُ التعب ونليق بها. نقر بمفاصل أنامله على ترْسه نقْراً تذكيراً: .سنجعل وجودكم رفاهةً على سفينتنا هذه. أشار بيده، فجاءةً، إلى ممرٍّ بين المناضد: .أيتها الفتاة الجميلة.، هتفَ·

كانت آتيما تتنقل، بلا قصدٍ واضح، بين الممرات من حول المناضد· تنحني لركاب هنا، وركاب هناك، مترنِّمةً بصوتها المحتَبَس· لمحها القبطان المتوسط الطول، السَّبْطُ الشعرِ أبيضَ حتى كتفيه، منذ وقوفه أمام مكبِّر الصوت، في الهدْأةِ تواطأ معها الجلساءُ مصغينَ إليه ـ إلى العابر بهم من أحوال الحياة العاديَّة إلى أساطيرها العادية· .أيتها الفتاة الجميلة.، هتف هيغور·

توقفت آتيما عن نُقَلاتها لَعِباً· ردَّت:

- أنا آتيما· أنا لست جميلة·

هَأْهَأ بعض الجُلساء استظرافاً· هَأْهأَ القبطان وعمالُه الخَدَم·

.أنا هيغور.، هتف القبطان بصوته الخشن المداعِب: .أنا هيغور الجميل أناديكِ أيتها الفتاة القبيحة، المتساقطة الأسنان، الصلعاء، العرجاء، المصلومة الأذنين، السمينة كخنزير مخصيٍّ، مُحتَجَزٍ في قفص أربعَ عشرة سنة.

فتحت آتيما فمها استغراباً، لكن بابتسامة تبلِّل شفتيها· نظرت إلى هيئتها في باطن الترس الداكن متصنِّعةً أنها تتمرأى: .أنا سمينة مثلك.، ردَّت·

.لستُ سميناً، أيتها الفتاة ذات الثديين المتهدِّلين حتى سرَّتها· أنا هيغور الجميل· أمْ ستعترفين أنكِ جميلة مثلي؟.، ساءلها القبطان مقطِّباً حاجبيه في توبيخٍ مزعوم·

أطبقت آتيما فمها· ترنَّمت بصوتها المحتبَس، وسط الصمت المترقِّب ردًّا طريفاً منها· لم ينتظر هيغور:

- أين أهلك، أيتها الفتاة؟·

هزت آتيما رأسها تنفي وجودَ أهل لها·

.لم أفهم.، قال هيغور موسِّعاً بين أجفانه عن حَدَقتْي عينيه الزرقاوين على صُفرةٍ: .أأنت وحدك؟.، ساءلها، فهزت آتيما رأسها الهزةَ ذاتها أنْ هي ليست وحدها·

أدار هيغور وجهه على بعض الجلساء الأقرب بمناضدهم إلى آتيما:

- من منكم يخصُّ هذه الفتاة؟·

لم يردَّ أحد، بل جاءه صوت آتيما:

- أنا آتيما· هذان أبواي·

علت بعض الضحكات الخفيفة من الشخصين اللذين أشارت إليهما آتيما· كانت إصبعها ممدودة في اتجاه منضدة اجتمع حولها الرســام وأمــه، والموسيقيُّ وأخته، والممثل وعائلته، والشاعر، والراويــة·

.لم نعرفك إلاَّ اليوم، ياآتيما· أمْ تريدين أن يتبنَّاكِ واحدٌ منا؟.، ساءلها الممثل أولاك، مطوِّقاً بذراعه عنقَ ابنته رامونا الجالسة لصقه·

.عنيتُ السيدين بارو، وهيز.، قالت آتيما بتوضيحٍ التبس على الأسماع·

.مابهما بارو، وهيز؟.، ساءلها أولاك ثانيةً·

.هما أبواي، اليوم.، ردَّت آتيما·

.أبواكِ؟.، تساءل القبطان هيغور· ضحك بصوته الخشن يتلمس له مَخْرجاً رقيقَ الحروف:

- أتختارين أبويكِ بنفسك؟·

.نعم.، ردَّت آتيما· .سأتبنى أبوين لثلاثة أيام، أستبدلهما بعدها.

.حسناً.، قال هيغور· .لكنك اخترت رجلين أبوين· اختاري رجلاً وامرأة، في الأقل.

.أريد أبوين رجلين لثلاثة أيام· أبٌ واحد لايكفي· أم واحدة لاتكفي.، ردت آتيما· اقتربت من الرسام بارو جالساً إلى جوار الشاعر هيز· وقفت في المنتصف خلف كتفيهما المتقاربتين على الكرسيين الحديد، ممسكين كلٍّ بترسه·

.أتريدين الانضمام إلى أبويك؟ سنأتيك بكرسيٍّ إضافي.، قال هيغور· توجَّه بصوته إلى بارو، وهيز:

- أقبلتما هذا التبنِّي، أيها السيدان؟·

.الأمرُ يستأهل تمحيصاً.، ردَّ هيز، ذو الشعر البني الداكن، الطويل، المُهْمَل لم يُسرَّح بمشط، بل بالأصابع ربما· .هذه أول مرة يتبنَّاني فيها أحد. التفت بوجهه إلى بارو:

- كيف ترى الأمر؟·

.أقبلَ التبنِّي.، ردَّ بارو· مطَّ عنقه صوب أمه الجالسة أبعَدَ بكرسيين، إلى جوار سأكون زوجة أولاك:

- ماذا، يا أمي؟ أتقبَلين أن يتبنَّاني أحد؟

مدَّت سيدارو يدها إلى غطاء السلَّة القصب سكنَتْ إلى ظلامه السبعُ الأفاعي:

- سأستشير أبنائي، يا ابني بارو·

.لاتفتحي غطاء السلة الآن، ياأمي.، قال الرسام ممتعضاً لا يريدها أن تفتح السلَّة عن الأفاعي الصفر· نظر من خلف كتفه إلى آتيما:

- قبِلْتُ· قبِلَتْ أمي· أنا نصفُ أبٍ يكمله هيز ـ النصفُ الآخر·

.تبنَّيْتُكما أبوين رجلين، لانصفين جَمْعُهما أبٌ واحد.، قالت آتيما· رفعت ترسَها مشيرةً به إلى القبطان هيغور:

- كل ثلاثة أيام سيكون لي أبوان، أو أُمَّان، أو أكثر من ذلك أيضاً·

.ليكنْ. ردَّ هيغور· .اختاري مكاناً لجلوسكِ.

.أفضِّل البقاء واقفة إلى قُرْبٍ من أبويَّ.، ردَّت آتيما·

.ستأكلين، إذاً، واقفةً· لا بأس· نستطيع تدبيرَ ذلك.، قال هيغور·

. لم يَحِن وقت الغداء، بعدُ.، هتفت آتيما، فتصنَّع هيغور استغراباً بحاجبيه:

- نضج الطعام· ونضج وقتُ الغداء في مَرَق رؤوس السَّلْمون·

قرعت إحدى العاملات، في النصفِ الحلقةِ المكسورة عن جانبَيْ هيغور، جرساً نحاساً، صغيراً، حملته في يدها· فُتحَ بابٌ جانبي كبير· دخلت عربتان مستطيلتان على عِجالٍ ذهبية الأطواق يدفعهما خدمٌ عمَّالٌ· كانت الصِّحاف الحديد، الدائرية تحوي أكواماً أطعمةً هينةَ النقل إلى الصحون فوق المناضد· وإذ همَّ خدم بحمل الصحاف إيذاناً بتصريف الأطعمة على ركاب السفينة، رفع هيغور يده الحرَّةَ مستمهلاً: .امنحوني لحظة، ياعبيدي.، قال، فأعاد الخدمُ الصحافَ إلى ظهرَيِّ العربتين· نقرَ بإصبعه على الرأس الدوائر في مكبِّر الصوت: .الطعام، كما ترون، جاهزٌ· طعامٌ من تقاليد الأطايب في هذه السفينة· أَمْ تريدون ما لم يُعْرَض على موائدكم قَبْلاً؟. وضع راحَتهُ خلف أذنه متأهِّبَ السمعِ لما ستتقاذفُه الألسنة من حروف القبول أو الاعتراض· صوتٌ واحد اختزلَ صمتَ الأصوات كلها صَرَفه لسانُ الرجل الشبيه بدُهْقان، في مجلسه، بين حَمَلة صناديق الشطرنج أراحوها قرب صحونهم: .قبيلتي، هذه، تقبَل عَرضك، أيها القبطان· امنَحْنا مالم يُعرَض على موائدنا قَبْلاً.، قال الرجل ذو الترس المسنَّنات الأنياب على محيطه الدائري محاكاةً للشمس ربما·

.ماذا عن الآخرين؟.، تساءل هيغور ببصره المترصِّد علاماتٍ أصواتاَ، أو حركاتٍ، موافَقَةً أو مخالَفةً·

ارتجَّت السفينةُ فجاءةً· مالت صدورٌ في اتجاه المناضد أماماً، وارتدَّت ظهورٌ إلى الكراسيِّ خَلْفاً· مالت عربتا الطعام فأمسك بهما الخدمُ مترنحيْنَ· سقط مكبر الصوت لم تتعجَّل يدُ هيغور إلى التقاطه، فأصدر صوتاً عجيجاً· تساقطت أباريقُ ملأى شراباً· بضع شظايا زجاجٍ انهارت من قبَّة سقف السفينة فأصابت منضدةً واحدة في منتصفها· بقي بعضهم جالساً مصعوقاً، ونهض بعضهم مبهوراً مبهوتاً، من غير أن يفلت أحدٌ ترسَه·

هدأ كل شيء في لمحٍ· تناول هيغور مكبر الصوت المُلقى على الأرض المعدن· نقر بإصبعه على دوائر كرته: .سفينتنا، هذه، مشمولة بالمعاهدات الكبرى للحصانة من الغرق.، قال بصوتٍ يُجْريْهِ اطمئناناً بين الأسماع· .سنعرف ماذا جرى في غمضة عين.

بعد غمضتي عينٍ، حقًّا، دخلت فتاة من الباب الجانبي للمطعم حاملةً طُوماراً لفافةً فتحتها أمامَ وجه هيغور· حدَّق القبطانُ في الخطوط الخريطة واضحةً للناظرين الأقرب بموائدهم إليه أنها من التصاميم الغابرة في رسم حدود العالم، ومسالك عقله المياه، وعقله اليابسة· أسرع، بعْدَ لَمْحٍ، فطوى الطومار· أعاده إلى الفتاة التي عادت أدراجَها خارجة من المطعم· ابتسم· رفع ترسه المثلث الأسود، الطويل الزاوية اليسرى· وضع يده الأخرى على الرسم: .لقد كان صياح هذا الديك.، قال·

.بل خوار هذا الثور.، هتفت آتيما مشيرة بيدها إلى الهيئة النافرة لرأس ثور في ترسها الدَّرَقَة·

.لا صياح ديك· لا خوار ثور.، قال هيغور مهوِّناً بالمزاح من صدمة السفينة: .توقَّف المحرِّك، بغتةً، من عُطْلٍ غير مؤدَّب، فاستبدله عبيدي بالمحرِّك البديل المهذَّب· سُوِّيَ الأمر.

.كنتَ تستعرض خريطةً لجغرافيا الأرض، ياسيد هيغور، وليس تصاميم آلاتٍ ومحرِّكات.، قال الرجل الدهقان، ذو السترة السوداء فوق قميص وبنطال أبيضين، بربطة عنق صفراء، من مجلسه بين قبيلة الشطرنج· .أنا نايُوْرَا الحَكَمُ في حيَل العقل· وضعتُ تصاميمَ كثيرة للآلات· أعرف ورقَ تصاميم الآلات، قديمهُ وجديدَه النَّسْجَ من ألياف اللدائن الشفيفة· ما استَعرضتَه مع الفتاة لم يكن تصاميم آلات سفينتك، ياسيد هيغور.

.إنها تصاميم آلات موزعة على جغرافيا الغيوم، ياسيد نايورا، بل آلات مصمَّمة على أشكال مواضع في الجغرافيا.، قال هيغور بصوتٍ فيه مزاح· لكن نايورا ردَّ بصوته العميق المتمهِّل على نحوٍ مماحِكٍ قليلاً:

- منذ متى يحمل بحَّارة هذا العصر طواميرَ بتصاميم محرِّكات سفنهم وآلاتها؟ التصاميم موجودة في قُمرة القيادة، على لوحٍ ضوئيٍّ، إلى جوار الخرائط الضوئية لحلبات البحر، ومدرَّجاتِ جلوسِ جمهوره·

.أصمَّمتَ حلباتٍ للسباق، أو المصارعة، أيضاً، ياسيد نايورا؟ أراكَ تصف البحرَ كوصفك حلبةَ سباق خيلٍ، أو سباق كلاب.، قال هيغور· أضاف: .نحتفظ بتصاميم المحرِّكات، والآلآت، وهيكل هذه السفينة، في طواميرَ كعلوم أهل الإسطرلابات الخوالي.

.بل كان ما استعرضتَه خريطةً من خرائط أهل الإسطرلابات في عهودٍ مفقودة.، قال نايورا، مختفياً حتى أعلى كتفه وراء ترسه الدائري، ذي المسنَّنات البرتقالية ـ الترسِ الشمس المعدنِ·

.أنت ضيفي، على سفينتي، ياسيد نايورا· ومن مهماتي أن أرضي ضيوفي· حسناً· الركَاب ـ أبداً ـ على حق· كنتُ أنظر في خريطة.، قال هيغور· رفع ترسهُ قليلاً: . تأمَّلْتُ، برهةً، آلاتِ اليابسة، وبوصلات الأرخبيلات، ومستودعَ الوقود في خلجان البحر، ومحرِّكات الجزائر العائمة كجبال الجليد، ومكابح الريح في المضائق، والزيوتَ المعدنية ومقاديرَها في مراجل الموانئ· توقف قلبُ البحر لحظةً، ياسيد نايورا، فتوقف قلبُ السفينة، فأعدنا إليها الحياةَ نبضاً من قلبٍ شابٍّ ـ محرِّكٍ إضافي· عندنا أربعةُ محرِّكاتٍ قلوبٌ شابَّةٌ إضافية· قلوبٌ عاشقة، ياسيد نايورا.

ابتسم نايورا، الطويل الممتلئ، ذو الشعر مزاجاً أشقرَ ورماديًّا، مردوداً إلى الخلف تسريحاً:

- لقد غرقنا، ياسيد هيغور·

رفع هيغور ترسهُ المثلث أكثر، فاتحاً ذراعه الأخرى على وسعها: .فلتكنْ وجبتُنا طعاماً، في الغرق، ياسيد نايورا، مالم يُعرض على موائدكم قبلاً.، قال· أعادَ نَقْلَ بصره بين المناضد كحاله نَقَله قبل ارتجاج السفينة، مستطلعاً موافقةً إجماعاً· لم يبدُ على أحد اعتراضٌ، أو استفسار· استرسل هيغور: .هل تصبرون ساعتين، أو أكثر قليلاً، على غداءٍ متأخِّر؟.، تساءل· لم ينتظر جواباً: .تسلَّوا بقليل من مقبِّلاتنا، وببعض شرابنا، وبما تشاؤون من أحاديث عن أوربا قبل سقوطها. أومأ إلى شابٍّ أن يُبعد مكبرَ الصوت، فأبعده إلى رُكنٍ·

.ما طعامنا، ياسيد هيغور؟.، هتفت آتيما متسائلة من وراء كتفَيْ هيز وبارو المتقاربتين·

لم يردَّ هيغور· تنحَّى عن موضعه في وسط النصفِ الحلقةِ من عماله المحيطين به· اشار إلى فتاة أن تقترب، ثم أشار إلى شاب أيضاً· أوقفهما متجاوريْنِ بوجهيهما إلى جلساء المطعم· هتفَ:

- مَنِ الأجمل؟ انظروا إليهما·

نهض دهقانُ قبيلة الشطرنج نايورا، ذو الوجه الحليق المتطاول، والحذاء الأبيض بمقاطع بُنِّية· دار بوجهه على المناضد قبل تسديد الكلمات إلى القبطان هيغور:

- الشابُّ وسيم· لاشك في الأمر· لكنَّ اللائق أن نختار الفتاة· هي الأجمل·

صدرت همهماتٌ من هنا وهناك، موافقةً· جلس نايورا على كرسيه·

وضع هيغور يده على كتف الفتاة العاملة في فريق سفينته· تقدَّم بها خطواتٍ أقربَ إلى مناضد جلساء المطعم· أوقفَها قُبالتهم وجهاً· تراجعَ· أشار إلى الشاب الذي خيَّر الحاضريْنَ المفاضلةَ جَمَالاً بينه وبين الفتاة· تقدَّم الشاب· رفع ترسه المستطيل، المجوَّف، الضخم، بالرسم الملاك الغاضب، عالياً· هوى بحافته السفلى على رقبة الفتاة، من خلفها·

لم تصرخ الفتاة ألماً· لم تئِنَّ· سقط ترسها، المُسْتَنْسَخُ مقاساً ورسوماً كتِرَسَةِ رفاقها أجمعين، من يدها· انهارت جاثية على ركبتيها في خَرَسٍ مُطبَق·

نهضَ الركاب، بتمام عديدهم، عن الكراسيِّ، مُبَاغتين· انحنى الشاب على الفتاة الجاثية برأسٍ مائل على صدرها، مجلِّلٍ شُقرةً فائضةً ببياض من شدَّة شقرته· هوى بالترس، ثانيةً، على رقبتها، في موضع الضربة الأولى، فانشقت الرقبةُ حتى البلعوم· خارت الفتاة ممدَّدةً في الدم تمدَّد مثلها أحمرَ مرآةً، من حول رأسها، انعكست فيها القبةُ الزجاجُ ـ السقف تساقط منها، قبل قليل، شظايا أنجبت من رحمها الزجاج، في أنين السَّقطة، شظايا باكيةً·

فتح هيغور ذراعه كأنه يطوِّق بها الموائدَ كلها· .ماذا؟.، تساءل بنبرٍ مستنكرٍ أنهم بوغِتوا: .ألستم تريدون وجبةً لم تتذوَّقوها قَبْلاً؟.، فأدارَ الركاب الواقفون وجوهَهم بعضهم على بعض· تراجعتِ الفجاءة أحسُّوها ساخنةً سَفْعاً· تراخت قسماتُ وجوههم واستراحت· ابتسموا· رفعوا حواجبهم استحساناً، ثم جلسوا·

ترنَّمتْ آتيما بصوتها محتبَساً في فمها المُطبَق·

الفصل الثالث

(Cladocora Cespitosa)

أمرَّتْ حوريةُ الماء كاليس راحتَيْ يديها، في دَعَةٍ، على النبات القصير، الداكن الخضرة، العريض الأوراق، متماوجاً في الثنايا الحجر· هيَ أبطأت انسيابَها فأبطأتْ بناتُها الخمسُ انسيابهن، يقرعن قواقعَ كبيرة، حمراء، بعضها ببعض، مصغياتٍ إلى الطنين المختنق للصوت ذائباً في المياه· سَمَكاتٌ صغارٌ، خُضرٌ، مضيئة يبينُ الحَسَكُ في لحمها الشفيف، اقتربت من زعانف أذيالهن تتحسَّسها لمساً بأفواهٍ مفتوحة· استدارت الأمُّ كاليس إليهن· انزلقت بخفقةٍ من زعنفة الذيل فتوسَّطت بناتِها· ابتسمت للأسماك الفضولية من وجهها المتطاول، الشديد البياض اكتَنَفهُ شعرُها أزرقَ، قويَّ الزرقة، خُصلاً ينبسطُ بعضُها منشوراً، ويتعرَّج بعضُها مضموماً· فتحت يدها أمام أفواه الأسماك الصغيرة مجتمعةً عند أذيال بناتها، تحديداً، فتفرَّقت الأسماكُ المضيئة· أبعدت يدها فعادت الأسماك لامسةً بأفواهها زعانِفَ أذيال الحوريات الصغيرات، في المواضع بين الثنايا المستقيمة للقصبات العظام· استوقفت كاليس إحداهنَّ· تأمَّلت ذيلَها فَجَارتْها بناتُها الأربع الأخريات يتأمَّلنَ ذيلَ أختهن: كانت بثورٌ قليلة ـ فقاعاتٌ تبدو في جلد زعنفة الذيل، حيث عمدت الأسماك إلى لمسها· التفَّتْ كاليس من خلف ظهور بناتها الأربع الأخريات· عاينت زعانف أذيالهن فألْفَتْ بثوراً فقاعاتٍ صغيرةً قليلةً لايُؤبه لها·

حقلٌ من شُجيراتٍ حجرٍ انكشف لهنَّ ببوَّابته الحجر المنهارة من نَطْح السنين برؤوسها المائية· انسابت كاليس ببناتها من فوق الهَدَم· دارت دوراتٍ هادئةً من حول الشجيرات أصنافاً بأغصانٍ ورقٍ متكسر، أو ورقٍ إبرٍ، عاريةٍ، مكتسيةٍ طحالبَ ألواناً من البراعات الرطبة ـ خِيارِ الأعماق· كسرت إحدى الصغيرات غصناً· داعبت به ذيلَ أمها· تجمَّعت أخواتها، أيضاً، على الأم بأغصانٍ في أيديهن· تقلَّبن فراشاتٍ من لحمٍ، وحراشفَ، وزعانف، أعلى أسفلَ، بتعرُّجاتٍ وانحناءات، والتفاتاتٍ غايةٍ في سرعتها· انتظمْنَ، من جديد، سرباً صغيراً متجاوراتٍ· انسابت الأم مجتازةً حقل الشجيرات الحجر إلى عراءٍ مشرق برمله الأصفر، والأبيض المعتكر· خلَّلَتْ بأصابع يدها، في انطلاقتها، الرملَ فاجتفرتْهُ أثلاماً متوازية· حاكتْها بناتُها يحرثن الرملَ أثلاماً بزعانف أذيالهن جعلْنها كسكك المحاريث بانقلابهن على جنوبهن· توقفن جميعاً، بغتةً، أمامَ كُتلٍ فراغٍ هوائية في عمق المياه، ثابتــة، ضخمــة الحجــوم وصغيرة، تنكمش وتتمدَّد أشكالاً كراتٍ، او اسطوانــاتٍ مُخصَّـرةً، أو قروناً كثمر البِسِلَّى أكبر من ساقِ الإنســان·

لمست الحورياتُ الأغشيةَ البرازخَ بين الفراغات الهوائية ـ الفقاعات ومحيطها المائيِّ· أغشيةٌ مطَّاطٌ تطاوعُ الأصابعَ إنْ ضغطتْها، قوية لاتتمزق، هي بقايا

الكتل العظيمة، الكبرى، القارَّاتِ الهواءِ استقرَّت في أعماق الغَمْر العظيم، قبل ظهور المخلوقِ الحورية وجوداً· كانت ثقيلة تلك الكتلُ الهواءُ على نحوٍ لايصعدِ بها ثِقْلُها إلى سطح المياه· كانت هواءً ثقيلاً ـ قارَّاتٍ سماؤها المياه، ومحيطُها المياه، تُرى في الأنحاء المنخفضة منها بطونُ أسراب الحيتان اللازوردية متلألئةً كالنجوم في سماء الأرض· أما الأنحاءُ العالية ففراغٌ أزرق، أو مزاجٌ أزرقُ رماديٌّ· قبائلُ بشرٌ، وشعوبٌ، بغلاصم بَدَلِ الأنوفِ، عاشت بممالكها، ومدنها، في تلك القاراتِ الفراغِ الهوائيِّ تحت الماء· آثارُ عُمرانها، وهياكلُ هيئاتِها العظامِ، ماثلةٌ بعدُ، من التخوم الغرب من بحر هيلاكريتوثينيس ـ بحر العقلِ المياهِ ، حتى الشمال الغرب من بحر تريتونفال ـ بحر الشمال النهائيِّ· لكنَّ عِرْقاً واحداً، من تلك الشعوب الأمم، في الإقليم الهواء جنوب حدود العمران، على تخوم العراءِ الرملِ، خالفتِ الأممَ الأخرى بأنساقٍ من الآثار ليس فيها طباعٌ عُمرانٌ بناءً، أو منازلُ موصوفة للسُّكنى، بل هندسةٌ للحدائق بأنماط من شجرٍ، ونَبْتٍ، تركتْ متحجِّراتُها حسرةً في قلوب الحوريات، كلما مررن بأطلالٍ باقية منها لم تندثر، على اقتدار البستانيين عدَّلوا حقائقَ المصادفات في كشوف الطبيعة· عِرْقٌ يصرِّحُ الغامضُ في شأنهم أنَّهم نزحوا عن ممالك العُمران هرباً بمُعْتَقَدهم في النشأةِ النباتية للعقل، والمعجزات، وضروب الطبائع العادلة والمجحَفَة؛ المعتدِلةِ والغُلْواء· لم يوافقهم سَدَنةُ أمم العمران، الموقوفو المُعتَقَد على عقلِ الفراغ أباً للنشأة اعتصرَ طبائعَهُ فاستولدَ الطبائعَ قبل خلق الإنسان، ثم اعتصرَ الطبائعَ فاستولدَ بزرةَ القلق، ثم اعتصرَ البزرةَ عن زيتٍ حيٍّ تستحيل القطرةُ منهُ، بخميرتها المائية، هيولى منشئةً هيئتَها المتدرِّجة حتى استتبابها شكلاً إنساناً· أما الغلاصم، التي ظهرت في خَلْقِهِ ضرورةً كالأعضاء الأخرى، فربتما هي من مكنون نشأة الإنسان مائيًّا دهراً طويلاً لا يُسْبَر بُعدُه، ثم أفضت به استطاعةُ مداركه عقلاً، واستحالاتُ مَلَكات أعضائه وجوارحه، إلى خَرْقٍ لسَنن المكان بالنفاذ من موطنه المائيِّ إلى أرض القارَّات الهواء، ليوطِّدَ العمرانَ هناك، ويستكمل سِحْرَ الثُّقلة الهائلة، العظيمة، بإنشاءٍ للمُعْتَقَد شرائعَ يُخضِعُ بها نفْسَه، ويُخضع بها الضرورات مفسَّرةً بأزليةِ المُلْغِزِ وأبديته؛ وباعتناقٍ للموت دِيناً خلاصاً للحياة بعد الموت·

لم يترك المقيمون من أهل العمران في عمرانهم، ولا الناجون نزوحاً بمُعْتَقَدهم عن أهل العمران إلى هندسة الحدائق، تفاسيرَ يقينيَّةً من علومهم، أو تفاسيرَ متخيَّلةً موهومةً، عن نشوءِ القارَّاتِ الهواءِ في أعماق المياه، وعن حقائق ذلك الهواء القادر بكيفيَّتِهِ، أو طباعِ ماهيته، أن يحوزَ الفراغَ ثقيلاً لايطفو به كمُسْتَحْصَلِ الهواء الأرضيِّ خفيفاً إنْ تخلَّلَ ماءً ارْفَضَّ عنهُ ونفرَ إلى السطح ملتحِقاً بالفضاءِ الجوهرِ الأُمِّ·

أهلُ العمران حازوا مكتباتٍ من مدوَّنِ المُعتَقَد؛ تصانيفَ شروحاَ وتفاسيرَ، مجلداتٍ ضخمةَ الحجومِ من ماءٍ متجانسِ القِوام، ثابتاً كأنَّما هو في قالب شفيفٍ حافظٍ على شكلَ كتاب، لكنْ لاقالبَ· ماءٌ مائع، سائلٌ، حرٌّ، متجانسُ القِوام، ثابت، يترقرق إنْ حُرِّك الكتابُ من غير أن ينسكب أو يسيل· مجلداتٌ ماء، بأوراقٍ ماءٍ لاتبتلُّ الأيدي مِنْ تقليبها، ولا الأصابعُ من لمسِ صفحاتها· سطورٌ ماءٌ نافرٌ في سطح ماءِ الصفحات، بفقاعاتٍ متخالفةِ الحجوم هي حروفُ كلماتها· سطورٌ ـ منذُ اندثرَ عمرانُ أهل القارَّاتِ الهواء، وانغلقت مياهُ الغَمْر عليها فانسحقت، بحدوثٍ لم يُسْتَكنَه ـ لمَّا يزل بعضُها الناجي ظاهراً يُلمَحُ، في الأعماق متجوِّلةً في التصاقها بزعانف الأسماك، وشقوق المحار، وأفواه القواقع، وأوراق نبات البحر·

أهل هندسة الحدائق، الذين نزحوا بمعتَقَدهم نجاةً من سَدَنة أهل العمران، تركوا، في انغلاق مياه الغَمْر على موطنهم، هياكلَ أشجار ناميةٍ، على نحوٍ مفرط في مزج الأنواع، وتراكيب الخصائص: أغصانٌ إلى الأعلى، وأغصانٌ إلى الأسفل· جذورٌ على الجنبات صادرةٌ من الجذوع قبل نزولها إلى الأعماقِ الترابِ· جذوعٌ أقواسٌ· جذوعٌ دوائرُ ملتفَّة كالأفاعي· شجيراتٌ مفلطحة بعرضٍ كبير، وعمق أنملة· ورقٌ نامٍ في كَنَف ورقٍ كأيدٍ تحمل دُمى· شجيراتٌ بتمامِ نموِّها فوق أغصان شجيراتٍ أخرى، كأنما أُصْعِدَت عليها· شجرٌ بغصون منغرزة في أغصان شجرٍ يجاورها فلا يُعرف أهي نابتة من هذه الشجرة أم نابتة من تلك· شجرٌ نَبَتَ في جنبات جذوعهِ شجرٌ منبسط أفقيًّا· شجرٌ قزم، وشجر عملاق· نباتٌ بعلوٍّ قَدَم، لاغير، متعرِّشٍ أمتاراً كمظلةٍ أو كسُرادق· نباتٌ سهامٌ بلا ورقٍ· نباتٌ كُراتٌ· أهل هندسة الحدائق أقاموا، في الأرجح، بين أشجارهم، وزرْعهم الطرائفِ مُبْتَكَرةً· لابيوت· لاسقوف على عوراض· لاملاجئ في الحجر قَرب حدائقهم وحقولهم· لا أقبية· لا سراديب· كانوا، كمُعْتَقَدهم، عَزْماً فكرةً في النشأةِ؛ أجساداً عقولاً من طبائع النبات، ماتوا فاندثر أثرهم إلاَّ المتحجِّر من شجرٍ، أو نبتٍ، قصفتْ بعضَ أغصانه الحورياتُ الصغيراتُ يُعابثْنَ بها الأمَّ كاليس، قَبل انسيابهنَّ، ثانيةً، من الحدائق إلى العراء الرمل، حيث استوقفتهن الفراغاتُ الهوائية بحجومٍ شتَّى، في الأعماق، مترجرجَةً، تتقلَّص وتتمدَّد حرَّةً في تلفيق الأشكال وتزويقها·

تبدَّدت القارَّاتُ الهواء ذائبةً إلاَّ نيازكَ بقايا ـ أجراماً متنقِّلَةً في أعماق الغَمْر، كأنها حواصلُ طيرٍ منفوخة· وقد مسَّتِ الحوريَّاتُ بأناملهن أغشيةَ بعضِها البرازخَ في الماء والهواء، مسًّا ضغْطاً رؤوفاً، ثم سَرَحْنَ، من جديد، مُنساباتٍ سرباً تخفقُ زعانفُه مراوح على علوٍّ هيِّنٍ من العراء المشرق برمله، فيُسْتثارُ الرملُ فيثبُ دوائرَ صغيرةً، ثم يركُدُ ويرقُدُ·

حين اجتازَ سربُ الحوريات الصغيرُ العراءَ الرملَ، استقبلهنَّ مضيقُ جُوْرِيْدْ ـ مضيقُ أرواح الحوريات المتدربة على مهامها النهائية في تزيين جسور العالم

الآخر، الذي هو دورةُ ذاته الخالصةِ بلا ذكرى؛ العالمِ الرحلةِ حول خوذة العقلَ الصَّدَفية· كاليس، وبناتها، رأينَ أزواجاً متفزِّقة منَ أرواح جنسهن عابرةً، أو متوقِّفةً في مخاطباتها، رقيقةَ الصور كأنها ماءٌ نافرٌ، أو غائرٌ، في ماءٍ سطحٍ، بلا كثافة، تترقرق كالسراب هيئاتٍ وتذوبُ· واحدة من الحوريات الأرواح اقتربت من السرب الصغير· استعرضتهُنَّ، متفحِّصةً بعينيها الرماديتين أذيالهن، تحديداً، ثم انسابت ذائبةً في اللونِ الماء· استرعى أمرُها خيالَ كاليس· دارت، بدورها، من حول بناتها متفحِّصةً زعانفَ أذيالهن: كانت البثورُ النُّفَّاخاتُ الصغيرة، التي عاينت بعضَها قبلاً، قد انتشرت أكثر بين قصبات العظام الرقيقة· لمستْ بَثْرَةً نُفَّاخةً على ذيل إحداهن· ضغطت عليها بين سبَّابتها وإبهامها فأنفقأتِ البَثْرَةُ عن شرارةٍ نارٍ، بالغةٍ مبلَغَها صِغَراً، حلَّقت مقدار إصبع في الماء ثم خَبَتْ· تبسَّمن جميعاً في فضولٍ لاقَلقَ فيه· أعادت كاليس الضغط بأصابعها على بثورٍ نُفَّاخاتٍ أخرى فأنفقأتْ عن شراراتٍ أنيسةٍ، صفراء اللهب وبرتقالية، تحلِّق مقداراً هيِّناً ثم تخبو وتنطفئ· هبَّتْ إحدى بناتها متفحِّصةً ذيلَ الأم· وجدت نُفَّاخاتٍ بثوراً كالتي على زعانف أذيالهن· استرسلْنَ، بالتفاتاتٍ واحدتهن حول الأخرى، في فَوْءِ بعض تلك النُّفاخات، مطلقاتٍ سراحَ الشرر الرقيق ـ كلَّ شرارةٍ من بوحِ النار بتعاليم كمالها·

اكتفتِ الحورياتُ بحصادهنَّ من فاكهةٍ شراراتٍ صغاراً تخرج من سُنُوفِ البثور مرفرفةً إصبعاً علوًّا، لا أكثر، ومن ثم تخبو· أكملْنَ انسيابهن في مضيقِ جُوْرِيْد·

الفصل الرابع

(Ulva Lactuca)

رفعت ناؤمي غطاءَ الفراش الرماديَّ اللون بتعاريقَ سُودٍ على مهل، عن جسدها العاري أبيضَ ممتلئاً، طويل الأعضاء والجوارح· انسلَّتْ متَّئدةً لاتريد إيقاظ صديقتها ليمسا النائمة إلى جوارها في السرير ذاته· لكنَّ الأخيرةَ أمسكت بغتةً بمعصم ناؤمي· ساءلتها بصوتٍ عميقٍ، رقيقٍ، مُزبدٍ دلالاً:

- أين تهربين؟·

استدارت إليها ناؤمي من حافة السرير الحديد· انحنت عليها· .إنْ هربتُ فسأخطفك، قطْعاً.، قالت· قبَّلتْها على فمها: .مابه عِطرك خجولاً ليلاً، داعراً، جريئاً في الصُّبح؟. أزاحت الغطاءَ جَذْباً قويًّا بيدها عن جسد ليمسا العاري مثل جسدها: .تعالي. شدَّتها من يدها·

نزلت المرأتان عن السرير باقدامٍ في قَبْقابين حديديْن· هما، كالبشر الآخرين في أرض الإنسان، ترتديان قبقابيهما، كل ليلة، قبل الرقاد في السرير، مسندتين ترسيهما إلى الموضع الأقرب إلى استلقائهما· لا إنسان يُخلي يدَه من ترسه إلاَّ ليلاً، بعد ارتداء القبقاب الحديد تحديداً، وإيوائه إلى فراشه· فإن نهض تلمَّس ترسَه ممسكاً به، أوَّلاً، قبل خلع القبقاب، صغيراً كان المرءُ أو كبيراً، كي يُكمل شأنَ يومه، داخل البيت أو خارجه· قباقيبُ حاضرةٌ، أبداً، قربَ قوائم الأسِرَّة، أو جنب أطراف الفُرُش، في المخادع، كحالِ قبقابَيْ ليمسا، وناؤمي، في مقصورة السفينة ارتدتاهما ليلاً، ونهضتا صُبْحاً لتغادرا الفراش بأقدامٍ في الحديد معدناً ولوناً لا تزويقَ رَسْماً عليه، ولا طلاء·

هما لم تتلمَّسا ترسيهما لتخلعا القبقابين الحديدين· مشتا على أرض المقصورة المعدنِ عاريةً مثلهما لا بساطَ عليها أو طُنْفُسَة، وقد التمعت، في مواضع مقطَّعةٍ شرائحَ بانسكابِ ضياء الصبح عبر الحبال الحديد، الزَّرَدِ حلقاتٍ مُسدلةً ستاراً على نافذة المقصورة الدائرية· شرائحُ نورٍ مستطيلة، ورُقاقاتٌ نورٌ دوائرُ، تذوَّقت بألسنتها عُريَهما، في عبورهما مجثَمَ الضياء المتشقِّق مُرْسَلاً صِرْفاً من شمس أيلول المنحنية القُرص·

.قفي هنا.، قالت ناؤمي لصديقتها ليمسا·

.هذا الشعاع أشبه بلساني.، ردَّت ناؤمي· فتحت راحةَ يدها لشعاعٍ من تلك المُرسَلة من خَلَل زَرَدِ الستارة إلى أرض المقصورة· استقرَّ الشعاعُ مشقوقاً شُعبتين في راحتها·

.لايشبه لسانك، ياناؤمي، بل لسان أفعى.، قالت ليمسا·

.ليت لي لسان أفعى· يلزمني لسانٌ تتفرَّع منه ألسنةٌ كي أتبع مَجرى التَّرَفِ على هذا الأطلس.، قالت ناؤمي متحسِّسةً بإصبعها مجرَّةَ اللحم بين حلمة ثدي ليمسا اليسرى وسُرَّتها· يلزمني لسانان لأتذوَّق، في آن واحد، فمَك بأحدهما، وروحَك هذه بأحدهما. وضعت راحة يدها مفتوحة الأصابع على فرْج ليمسا مضمومَ الشُّفريْنِ ضغطاً من أُرْبيَّتَيْ فخذيها المعتدلتين لحماً· .روحُك هذه.، تمتمت بشهقة خفيضة تتمرَّغ في الرغبة· أرخت بصرَها تتأمل الفرجَ الأسمر قليلاً بحُمرةٍ، حليقاً جميشاً· كَزَمت فمَها كأنها تعضُّ جوزةً· .استيقظْ أيها الوَسْنان.، همست·

وضعت ليمسا راحة يدها على يد ناؤمي، أسفلَ خَنَلتها· .إنه يحلم· لاتوقظيه.، قالت، فشدَّتها ناؤمي بيدها الأخرى:

- اقتربي· قفي هنا·

وقفت ليمسا في الموضع الذي جذبتها إليه ناؤمي ـ موضعِ الشعاع مشقوقاً شُعبتين، فاستقرَّتِ الشُّعبتانِ النُّورُ على ملتقى الشُّفرين، فوق البظر· غمغمت ناؤمي بصوتها الخشن قليلاً من بين شفتيها المنتفختين· تأوَّهت عيناها العسليتان، المدوَّرتان بانحناءٍ إلى أسفل في لحظيهما، تأوُّهاً صامتَ النظرة إلى الخليج الصغير، ذي اللسان المختبئ أحمرَ زبداً سُلَّ من ماءٍ لحمٍ·

.لا تستطيعين أن تَرَي ما أراه، ياليمسا.، قالت ناؤمي·

وضعت ليمسا يدها على شَفتَيْ ناؤمي:

- أرى في مرآة عينيك مايكفي· تعالي نستحمَّ·

مشت ليمسا تتبعها ناؤمي إلى الباب الحديد بمقبض نحاس· دَلَفتا برنينٍ من صوت قبقابيهما إلى داخل الحجرةِ الحمَّام الواسعة، الدائرية، بجدرانها الحديد وأرضها الحديد· وقفت ليمسا في مركز الدائرة، فيما جاوزتْها ناؤمي خطوةً صوبَ قرصٍ نافر في أحد الجدران· أدارتْه على آخره، وعادت واقفةً إلى جوار صديقتها· دلَّكَت وِرْكيها براحتي يديها· دلَّكت ليمسا حَقْوَيْها براحتَيْ يديها· كانتا كأنْ تدَّهنان بحماوةٍ صاعدة من جدران الحمام، وتسرِّبانها إلى مسامِّ جسديهما· شهقتا متعةً إذ انبثقت من ثقوب صغيرة في جدرانٍ ثلاثة، خلا الجدار الذي فيه الباب، ومن السقف، ومن الدائرة الحديد في وسط الحجرة، خيوطٌ رقيقة من النار، صفراءُ شفيفة· ثم ازدادت الخيوط ثخانةً وانبثاقاً قَذْفاً· توهَّجت كأسلاكٍ مستقيمة زرقاء·

تلا الشهيقُ الشهيقَ من المرأتين في اللهب منسكباً من الأعلى، مندفعاً نَفْخاً من الجنبات، مرفوعاً من أسفلَ زفيراً· تلظَّى قبقاباهما كالحديد يتَّقد في كور الحدَّاد· تضرَّمت أسنانهما، في فميهما المفتوحين لذَّةً، كحبَّاتٍ جَمْرٍ تحت مروحةٍ· تلامستا· تعانقتا في اللهب· دلَّكت إحداهما ظهرَ الأخرى· تأوَّهتا·

.ألم تكن النارُ أقوى البارحةَ؟.، ساءلت ليمسا صديقتها ناؤمي· فردَّت الطويلةُ الممتلئة:

- ربما· لكنَّ قربك مني يُنْسي لحمي إن كانت النارُ اليومَ أوهَنَ· أنت الحريقُ تحت جلدي·

قبَّلت ليمسا صديقتَها على عنقها امتناناً للمديح الهوى يتنفَّس من رئاتٍ عشرٍ، فطوَّقتها ناؤمي بذراعيها من حول كتفيها:

- ما العناصرُ لم نستخدمها، بَعْدُ، في المُبْتكَر من تصاميم الأزياء، يا ليمسا؟·

تنفَّست ليمسا، ذاتُ الفمِ الممتلئِ الشفة السفلى، المتناسقة الجسد بلا شحم أو لحمٍ زائديْن، في صدر صديقتها:

- اللحم·

ضحكت ناؤمي· رفعت حاجبيها في الستارة اللهبِ الشفيفة بين عينيها العسليتين وعيني ليمسا السوداوين، الواسعتين:

- اللحم؟ لا· لم نستخدم اللحمَ عنصراً في تصاميم الأزياء· أمن شيء آخر لم نستخدمه بعدُ؟· صَنَعْنا أزياء غايةً في اختلاف تفصيلها، وتأليف طُرُزها، وابتكار أنماطها، حتى اليوم· استخدمنا لفائفَ من نُجارة الخشب أثواباً؛ وأسلاكاً معادنَ كقمصانٍ؛ ومطّاطاً صِرْفاً كسراويل؛ وجلوداً مطعَّمةً بأظافر آدمية كقفازات؛ وقُماشاً أكثر خشونة من نسيج خيام البدو في صحراء تترستان؛ وخرزاً حجراً مبطّناً كأحذية؛ وأصدافاً موصولة مُخاطةً كقبعات؛ ومرايا زجاجاً صغيرةً كحقائب؛ وشمعاً متجمداً في شبكة من الخيوط الصوف عِصابات للرأس؛ وريشاً لأكمام القمصان ونحورها· استخدمنا العاجَ رقعاً لجيوب صدَّارات الرجال؛ والشعرَ الآدميَّ جيوباً للمعاطف؛ والقصبَ الغضَّ أحذية للصيف؛ والماءَ في مطاط شفيف طوقنا به أحفَّةَ القبَّعات؛ وكذا الماءَ في شراريب مطاط صغيرة، شفيفة، تتدلى قلاداتٍ من أعناق العارضات· استخدمنا أطواقاً من المطاط منفوخةً هواءً في حواشي العباءات· ماذا لم نستخدم، بعْدُ، سوى اللحم، يا ليمسا؟·

.يخطرِ لكِ أن تفكِّري، دائماً، يا ناؤمي، في التصاميم، ونحن في حمَّام اللَّهب صباحاً.، قالت ليمسا·

.اللهب.، تمتمت ناؤمي· .لاأحسُّ عظامي امتلأتْ لهباً اليومَ· إنه بارد قليلاً.

حرَّكت ليمسا ذراعيها من حولها في الفضاءِ النار أزرقَ متوهِّجاً: .ربما أنت على حقٍّ.، قالت· احتضنت صديقتها الأكثر طولاً من خاصرتيها:

- ماذا لم نستخدم في تصاميم الأزياء بعدُ، ياعريسي ناؤمي؟·

.اللهب.، تمتمت ناؤمي·

.أتذكّر مصمِّمةً ألبسَتْ عارِضي أزيائها قبَّعات مشتعلة ناراً.، قالت ليمسا·

.ليس ذلك ما أعنيه، ياليمسا· أريد ثوباً من لهبٍ من العنق حتى عقبيِّ القدمين، تحتهُ ملابسُ داخليةٌ لهبٌ· أريدُ جسداً لهيباً في ثيابٍ وحذاءٍ لهيبٍ.، قالت ناؤمي· عضَّت على نواجذِها مستعذبةً فكرتَها كغُلْمةٍ·

.ها نحن في حمَّامنا اللَّهبِ مخلوقان لهبيَّان.، قالت ليمسا·

.نعم· لكنْ لاعارضاتِ أزياءٍ لهبيَّاتٍ· لانستخدم عارضاتٍ بأجسادٍ نيرانٍ.، قالت ناؤمي· هزَّت رأسها حسرةً: .من أين نأتي ببشر ناريين؟.

.هنالك ثياب واقية من النار يستخدمها الإطفائيون، وممثِّلو مَشَاهد الناس المحترقين في السينما· فلنستخدم ثياباً من هذه مشتعلةً على أجساد عارضِيْ الأزياء.، قالت ليمسا· أضافت: .يلزمنا أن نستقدم، في كل عرضٍ، فرقة من الإطفائيين بخراطيم مياه في أيديهم حول المنصَّات، متأهبين لكلِّ طارئ.

.رائع.، قالت ناؤمي· .سندرِّب فريقاً من عارضات الأزياء، والعارضين، على إطفاء النيران، نستعين بهم، في العروض، ممسكين بخراطيم المياه، أو اسطوانات الإخماد، بدل إطفائيين حقيقيين.

.عرْضٌ مُكلف.، قالت ليمسا، فردت ناؤمي:

- ماعروض الأزياء، ياليمسا؟ كلما ازدادت الأكلاف زادتِ الإثارة· كلما زادت الإثارةُ زاد الأسرى· الأزياءُ غزوٌ مُكْلِف؛ حربٌ بالتراضي في اقتسام الربح بين المنتصر والمهزوم· نحن في حرب، ياليمسا· خططُ الأزياء خططُ حروب·

.حروب؟ لاحربَ إلاَّ اللحم.، قالت ليمسا وهي تضع يدي ناؤمي على ثدييها·

تنهَّدت ناؤمي:

- اللهب، واللحم، لم نستخدمهما، بعدُ، في تصاميم الأزياء·

استَعَرَ جسدا المرأتين حِمَماً أعضاءَ آدميةً· فتَّتَتْهما النارُ خلايا وجمعتهُما كيانين في قالبيِّ الشكل يخصُّهما· تداخلَ الحريقُ ألواناً وحركةً متماوجة تتقلَّب على نفْسها؛ تتمرَّغ في الشِّفَافة النارية التهمتِ الحُجرةَ بأسنان الشِّفافة· نارٌ من الأصلِ النار كانت تلك، التي انبثقت من ثقوب الجدران رَشَاشاً أزرقَ أسلاكاً، مستقيمةَ القذْف لاتلبث أن تلتوي في صدْمها جسدي ليمسا، وناؤمي، وتتفرَّق كشعرٍ أفْلِتَتْ عقيصتُه بغتةً· هيَ النارُ العريقة في تأييد المشيئة لعناصرها ناضجةً؛ نارُ المصادفة اختارتْ نظامَ استحالاتها من نَسَقٍ فوضى في السديم الأول؛ في الرقاد الأول للنشأةِ بعدَ رَهَقٍ عُرامٍ من عبور الوجود مَطْهَرَ اللاموصوف إلى ممكناته الموصوفة· كلُّ شيء من مبدأِ النار؛ من أدبها؛ من تسوياتها؛ من طباع الرسم فيها؛ من إلهامها اللامُحْتَملِ؛ من تخصيصها الخلاصَ بمرتبةٍ مُلْتاقٍ بها؛ من قِيامها وسيطاً في تمكين الله من جبايةِ الهِباتِ، وانتزاع

الغنائم من الإنسان· كلّ شيءٍ من مبدإِ النار، حتى الماء الذي هو عَرَقُها، وندى بستانها؛ من مُبْهَمها المُسْتبْطَن؛ من مستوهَمها في التعريف· النارُ الضلالُ مُفتَتَحاً، والهدايةُ الضرورة· ابتكرتْها النقائضُ من شجار العناصر بزعْمها ضمانَ التعديل في النِّسب الكبرى· النارُ التعديلُ· النارُ الضَّمانُ· النار اللسانُ نضْناضاً في فم اللون· النارُ جِلْداً آخر لِزْقاً فوق جسدي ناؤمي، وليمسا·

انفصلت ناؤمي عن عناق ليمسا· خطتْ خطوةً فأدارت القرصَ الصغير في الجدار· خبا اللهبُ· انحسر من الثقوب التي انبثق منها إلى الجوف الكتيم لمُلْغِزهِ الأليف· شدَّت ناؤمي صديقتها شدًّا حنوناً إلى باب الحمَّام· خرجتا منه بجسدين ينضحان دخاناً أبيضَ رقيقاً· نفخت إحداهما، من فمها، على وجه الأخرى دخاناً أصفر راقداً من استحمامهما بالنار، في أعماق كيانيهما· لزَّتْ ناؤمي برفيقتها ليمسا بطناً إلى بطن· تصادم مُقدَّما قبقابيهما الأيسرين· رنَّ المعدنُ فيهما بقلبٍ من مساءلات الصوت· تقدَّمت ناؤمي، دفعاً بصديقتها، فماً على فم، إلى السرير· ألقت بليمسا عليه، واستقرت هي جالسة بكَفلها النقيِّ البياض على خَثَلَةِ المرأة المتمدِّدة· انحنت بثدييها المتوثبين على ثديي ليمسا المسترخيين إلى جهتيْ صدر ليمسا في استلقائها· أدارت لسانها على سَعْدانة الثدي، حول إحدى الحلمتين، دورات عدةً بحصارٍ من ريق الرغبة· طوَّقت الحلمة بشفتيها مصًّا تستدرُّ الكليَّ مقْتَسَماً بأقداسٍ رحيقه بين جوارح الجسد الكبرى، والصغرى، عَدْلاً في القِسْمة· كُليٌّ رحيقٌ في الشفة؛ رحيقٌ في اللسانِ؛ رحيقٌ في العنق؛ رحيقٌ في الكتف؛ رحيقٌ في الثدي؛ في البطن؛ في السرة؛ في الخثلة؛ في شُفَريِّ الفرج؛ في الأُرْبيتين؛ في الكاذَتين؛ في ربلة الساق؛ في الأصابع كلها تُلعقُ لَعْقاً، أو تؤكل·

تنفَّست ناؤمي بين ثديي ليمسا· أعادتْ شفتيها إلى أسفار اللمس يُؤكِّد به اللحمُ ولاءَ خياله للَّحم دِيْناً أوحدَ· تقوَّست ليمسا من زفير الرغبة، رافعةً رأسها صوب رأس ناؤمي تريدُ حصَّةً لشفتيها أيضاً من شفتي صديقتها المنتفختين· عضَّتها من كتفها فعضَّتها ناؤمي من كتفها· وضعت أصبعها السبابة في فم ليمسا· باعدت بين أسنانها· قبَّلتْها قبلةً ترشح ريقاً على باطن شفتها السفلى· استدرجت لسانَ ليمسا بنداءٍ رطبٍ من لسانها· امتصَّتْه ندىً من كل بستانٍ أحصى الوجودُ سعتَه، أو أهملَ إحصاءَ سعته·

اللَّحمُ الرُّوحُ؛ اللحمُ النَّفْسُ؛ اللَّحمُ النُّظُمُ الأفلاك، ، والبروجُ مُقَدَّرةَ الحفْظ باللسان، واللحمُ الأزليةُ والأبديةُ، اجتمع بخصائصهِ الآلهةِ لساناً في فم ليمسا قبضت عليه شفتا ناؤمي· جذبتْه مصًّا تريد تجفيفه ارتواءً من نُسْغِه، أو تزدرده مُضغةً من كيان ليمسا؛ بل تريد أن تلتهم ليمسا لتستقرَّ المتعةُ غذاءً منتشِرَ الكَيلوس في كلِّ خلية منها· تراجعت ناؤمي بجسدها عن رأس ليمسا، فصدرها، إلى أسفل· استقرَّ فمُها على السُّرة برهةً بجدالٍ خافتٍ عن جوارح الجسد أيِّها الأحقِّ باللمسة الأولى، والقُبلة الأولى؟ لِمَ الفمُ وليس السرة أولاً؟

لِمَ الثديانِ وليس الكَفَل أولاً؟ لِمَ العنقِ وليس الأصابع أولاً؟ لِمَ الفَرْج وليس الكاذةُ أولاً؟ لِمَ الظهر وليس القدم أولاً؟ لِمَ الكتف وليس الإبط أولاً؟ لاتبويبَ في أحقيَّة الجوارح بالقِسْمة الأولى. كلُّ جارحة هي الأَوْلى الأُولى. كلُّ موضعٍ في الجسدِ يُبَاشَرُ لمساً أو تقبيلاً، هو كمالُ انجذاب العضوِ إلى ضرورته استلذاذاً. كلُّ موضعٍ في الجسدِ استهلالٌ وآمينُ معاً.

ناؤمي سرَّحت شفتيها من مرعى سُرَّة ليمسا إلى حظيرة خَثَلتَها السمراءِ بحُمرةٍ من أنفاس الصيف على جلدها. مرغتْ وجهها في الجلد المرتعش. مرَّغتْ أنفاسها في لون الجلد حتى غدت أنفاساً سمراءَ بحُمرَةٍ. اعتصرتِ الجلدَ عصراً شفيقاً بأصابعها. جعلتْه طيَّاتٍ بين الأناملِ تستحكمها مُصَاصَةً رَشْفاً بالشفتين. تركت جلدَ الخثلة، إذ نزحَ عنه فمُها، أثلاماً خفيفة من جذْب الدم إلى باطن قشرته السطحِ. انحسر وجهُ ناؤمي أسفل أكثر. أطبقتْ، بزفيرٍ خافتٍ من أعماقِ مفقودِها، على ملتقى شُفْرَيْ فرج ليمسا. لمست الشُّفْرَ الأيمن بشفتيها لَمْساً مستذوِقاً، ثم الشُّفرَ الأيسر. باعدت بينهما. ألقت بثقل أنفاسها متأجِّجَةً على البظر. داعبته برأس لسانها مراراً. جادلتْهُ بريقها جِدالَ المُستفسِر، المستوضِحِ أقدارَ البظر أن يحتكر دِيْنَ اللحم ومُعتَقَدَ خياله. جادلتْه، بدفءِ الحَلَمات اللَّوامس في جلدِ لسانها، جدالَ الطالب استفاضةً في البرهان أنَّ البظر هو مَجْدُ الرُّسُلِ اللحمِ بآياتِهم المُرْتعدةِ كُشوفاً لذائذَ تؤلم بطباعها؛ لذائذَ جروحاً من ذكرىً متعاقبةٍ بدورتها الزمنية، في الجسد، خصَّتِ الجَسَدَ وحده بمفقودٍ يُستعاد فيُفقَد: لذَّةٌ فخمودٌ. عُلْمةٌ، فاستعادةٌ للمفقودِ، ففَقْدٌ. لذَّةٌ لاتُحْتمَل من ذكرى مفقودها كلما استحصلتْه فقدتْه.

جدالٌ بين لسان ناؤمي وبظر ليمسا. هو الجدالُ ذاته مُستعاداً بمنطق الدورة الزمنية في خيال اللَّذة، حيث تنقلب الرُّسُلُ على آلهتها، والآلهةُ على نفْسها؛ وتتهارش المعتقداتُ بألسنةٍ مخالِبَ من فجور البظر عاصًّا على بظرٍ. امتصَّتْهُ ناؤمي ملءَ شفتيها قبضاً عليه. ارتشفت استغراقَه في تجريدٍ من مَنْشأِ الغايات الهاذية، ثم أطلقتْه منتعظَ العصب.

اهتزَّ اللحمُ في أُرْبيَّتَيْ فخذَيْ ليمسا إذِ ارتعشَ قلبُها حسًّا تَرَفاً من بريدِ البقاءِ المُذهِلِ بسعاته قاذفين بالرسائل من فرْجها إلى وَتيْنِ قلبها، ونياطه، وشَغَافه. قبَّلت ناؤمي أُرْبيَّتَيِّ الفخذين تباعاً بزفيرٍ عادلِ الدفءِ قِسْمَةً. قبَّلت كاذتيِّ الفخذين، دافنةً نصف وجهها في الفراشِ غاصَ فيه رَدِفا ليمسا. وضعَتْ راحَتَيْ يديها تحت الردفين. رفعتِ الكَفَل شبراً علوًّا عن الفراش بعونٍ من رفْع ليمسا جذعَها الأسفلِ عن الفراش. أطلقت ناؤمي لسانَها صاعداً هابطاً في البرزخ الصَّدْع عموديًّا بين الفخذين، من ملتقى شُفْرَي فرْج ليمسا حتى الرَّاتِقَة. غرزت ليمسا أصابعها في شعر ناؤمي القصير متقوِّسةً بالشهيق قوَّس فِقَرَ ظهرها. شدَّت شعر صديقتها فطاوعتْها ناؤمي منزلقةً ببطنها فوق بطن ليمسا. سحقتْها بثقل اللحم وثقل العِجَال الشَّبَق في طُرُق دمها. انقضَّت

شفتاها على شَفتَيْ ليمسا· خيَّطتهما بخيوطٍ من رَيقِها، وفتَّقتْهما كي لاتختنق ليمسا شهيقاً مصروفاً من رئاتٍ عشرٍ في رئتيها الاثنتين· انقلبت على جنبها فانقلبت ليمسا على جنبها متواجهتين على الفراش· أدخلت ناؤمي فخذها اليمنى بين فخذي ليمسا· غاصت في الغوْر المفتوح دفْعاً بحوضها حتى استقرَّ فرْجها على فرج صديقتها· تماوجتا معاً متساحقتيْن· قدَحَ زنادُ جسديهما· بلغَ الشرَرُ من القَدْحِ مَبْلَغَه· هُتِكَتِ الخزائن·

استسلمت المرأتان أثيريَّتين ثقلاً، فارغتيِّ الوجود إلاَّ من رنين محسوسهما، لغيبوبةٍ يقظى، بعيون مفتوحة على سقفِ المقصورةِ الحديد، إذْ تمدَّدتا متجاورتين ببرزخٍ رقيقٍ من قماش الغطاء بينهما· لقد استنفدتا الأسفارَ الكبرى فراسخَ لَمْساً وزفيراً من زمن الجسدين· دوَّرتا الوجودَ حلقةً كالخاتم، أو كالفم متأهِّباً للصفير· بدَّلتا نظامَ اللذةِ الأنيقَ الفوضى، القصير السَّرَيانِ قانوناً، بنظام الأسبابِ الخاملِ المُتكلَّف·

نزلت ليمسا عن السرير بقبقابها· تصنَّعت رقصاً إيقاعاً بالعقبين الحديدين للكتلة الحديد في قدميها· هَزَّت ناؤمي ساقيها في الهواء بقبقابها مجاراةً في المرح· جلست على حافة السرير· مدَّت يدها إلى حقيبة فوق منضدة صغيرة إلى جانب من السرير· فتحتها· أخرجت غليونين· حشتْهما عشباً أبيض من علبة مكعَّبة، حديد· أعطت أحدهما إلى ليمسا· أشعلتا العشبَ بعود ثقاب· تنشَّقتا الدخانَ ـ ناؤمي جالسةً، وليمسا واقفة· نفخت كل واحدة في اتجاه الأخرى زفيراً أبيض متصلاً، متجانساً عقلاً من آباء الدخان· تلوى الدخانُ، بعدئذٍ، متسلِّقاً جواذِبَ الفراغ إلى أعلى، في ابتهالٍ بَدَدٍ·

أحنتْ ناؤمي رأسَها تستطلع أسفلَ خَتَلتها، تحت السرة· أرسلت من فمها سهماً دخاناً إلى ملتقى فخذيها: .تنشَّقْ نَفَسَ اليقين، ياعَدْلَ جسدي.، خاطبتْ فَرْجها·

.عَدْلُ جسدك ظالمُ الفتنة، ياناؤمي.، قالت ليمسا وهي تطلق زفيراً كسولاً، أبيض، من فمها الممتلئ الشفةِ السفلى·

نظرت ناؤمي إلى تلك الشفة الممتلئة حَصْراً ـ شفةِ ليمسا السفلى· تأوَّهت باسترخاء:

- أنا جائعة·

حملت المرأتان ترسيهما، وخلعتا القبقابين· ارتدتا ثياباً بنطاليْن، وقميصين قطنيين سميكين، بتأنٍّ، لاتتركان ترسيهما من أيديهما، أو تطبقان أفخاذهما عليهما سَنَداً فلا يسقطان·

في رَهَقٍ، كعادة البشر إذْ ينجزون أشغالهم بتروسهم في الأيدي، لكن في دقَّةٍ أيضاً، أنجزت ناؤمي وليمسا كسْوَ جسديهما· خرجتا من المقصورة لتغلق

ليمسا بابَها بالمفتاح عليه الحِرْزُ حروفاَ: .لاتنسَ مفتاحك داخلاً· لاتَنْسَهُ خارجاَ.

نزلت المرأتان السُّلم الآليَّ إلى الممر الكبير متشعِّباً على معابر إلى المطعم، والحانة، والمكتبة، في الفناء المحيط بالعمود الأسطوانة· كان جمعٌ من عائلة الشطرنج يقف، بتروسهم الدائرية، المُستنسَخة، المُسنَّنةِ الأحقَّة، أمام المسطبة الشاسعة، الممتدة طولاً وسط المطعم، تراكمت عليها صِحافٌ مستطيلة ملأى ما شاءَ الوافدُ لنفسه إفطاراً في صباحه: أباريق قهوة· خبزٌ شرائحُ محمَّصة، أو طرية· حليب، عسل· مربَّى من نجوى الفاكهة إلى ربَّة القَطْر· بَيْضٌ مخفوق قَلْياً، مرتَّباً أُسطوانات صغيرة· نقانق حمراء من زفير الفلفل أحمرَ حلواً، ونقانقُ سُودٌ من تأمُّلات الدم متجمداً· فاكهةٌ موز، وتفاح، وبرتقال· عصير برتقال·

صحنٌ دائري، بطوقٍ ذهب على حافة استدارته، كان هناك، على أول المسطبة الحديد، في الصباح الثالث من إقلاع السفينة إلى غايتها في عُرْض بحر تريتونفال· كلَّ وقتِ إفطار، لاغير، يظهر الصحن ذاك، جليلاً بحديده، وعمقه الخفيف، إلى جوار الصحون الحديد متراكبةً طبقاتٍ يلتقط كلُّ وافدٍ واحداً منها لملْئه ماطابَ له أو لذَّ ذوقاً وخيالَ ذوقٍ· وقد حوى الصحن الواسع قليلاً، ذو الطوق الذهب، مكعبات صغيرة في أغلفة من رقائق الورق الذهبي· تلك المكعبات كانت مقصدَ الأيدي، تؤخذ واحدة واحدة، قبل بدءِ الركاب بجمع الأطايبِ الطعوم· ناؤمي، وليمسا، أخذتا حصَّتيهما الصباحية مكعبين، ثم تخيَّرتا بعضاً من البَيْضِ المخْفوق، والنقانق الحمراء، وقدحين حديدين من عصير البرتقال· جلستا إلى منضدة بكرسيين سِعَةً، تجاور منضدةَ دِهقان قبيلة الشطرنج نايورا، الذي أنْطقَ لسانَه إذْ مضَغَ بلْعةً من النقانق السود: .لم أتذوَّق أطيب من هذا إلاَّ غداءنا الأول من اللحم في هذه السفينة. تأوَّه لَذَاذَةً· دار بوجهه، في بطءٍ، حتى استقرت عيناه على المرأتين بدأتا رشْفاً شراباً بعد قرْع من القدحين نخْبَ صباحهما· ابتسم لهما، فبادلتاه ابتساماً· رفع المكعب الصغير في غلافه الذهب بين سبابته وإبهامه:

- سألتُ أحفادَ الشطرنج الشبان، هؤلاء، عن الحكمة في حصة واحدة من هذه المكعبات صباحاً، لاغير، وليس غداءً وعشاءً أيضاً، فما بدَّدوا فضولي بجوابٍ· أعندكما، أيتها السيدتان، تفسيرٌ مَّا؟·

.لو سألتَ القبطانَ· هو أدرى.، ردَّت ليمسا· فهزَّ نايورا رأسَه كالمستنكر أمراً:

- ألاحظتما أن نار الحمَّام كانت اليومَ أقلَّ سعيراً؟ هذا ما سأسائل القبطانَ عنه إذا التقيته·

.سائلهُ في أمر المكعب الذهبي أيضاً.، قالت ليمسا·

.أحبُّ التخمين، والتأويل، بلا يقينٍ فيهما.، ردَّ نايورا·

.إن كنت سألت جيشك الشبان، هؤلاء، فما أحاروا جواباَ، فذلك تأويلٌ أيضا.، قالت ليمسا·

.تأويلٌ فيمَ؟ هؤلاء؟.، تساءل نايورا موزِّعاً بصره على قبيلة الشطرنج. .هؤلاء مُقْحَمون في علائق الحساب الصارم، والمحتَمَلات الصارمة، والخططِ عجرفةً من نظام الخطط· أحبِّذُ بعضَ الخَلْط في التقدير.

.أوِّلِ الأمرَ أنت، إذاً· خمِّنْه كيف يشاء قلبك.، قالت ناؤمي·

.أنا نايورا المدرِّب في حِيَل الشطرنج، وأخاديع الشطرنج أباً عن جدٍّ.، قال الكهل البالغ منتصف عقده الخامس· نقلَ ترسَه الدائري الضخم، من فوق فخذيه، إلى يده الأخرى· .إنْ تأوَّلتُ الأمرَ أفسدتُ متعتي في احتفاظي بسؤالي· كلَّما أرهقني سؤالٌ أمتعني.

.إنْ كان يرهقك سؤالك في شأن هذا المكعب الذهبي، فأبقِهِ تبقَ مستمتعاً.، قالت ليمسا· أردفت، من غير أن تنتظر تعليقاً:

- لا أظنُّ أن هذا المكعب، بوجوده وقتَ الإفطار من دون سائر أوقات الطعام الأخرى، يثير سؤالاً مرهِقاً، وإلاَّ وجدتُكَ، ياسيد نايورا، صامتاً كصناديق الشطرنج تحت آباط شبَّان قبيلتك· ألا تكفيهم التروسُ يحملونها؟·

تأملها نايورا بعينيه الزرقاوين برهةً· أعاد خياله منكَّساً فوق صحنه· غرز ملعقته الشوكة في قطعة من النقانق السود· اقتطع منها بأسنانه مضغة· لاكَها بتأنٍّ كالآخرين قطَّعوا مافي صحونهم قِطعاً صغيرة، قبل الأكل، بعد إسنادِ تِرَسَتهم ضبْطاً بين افخاذهم، ليستحكموا تناولها، كلٌّ بيدٍ واحدة، ممسكاً بالأخرى ترسَه· ازدردَ نايورا المُضْغَةَ· أسند الملعقة الشوكة إلى حافة صحنه· حمل المكعب الذهبي بأنامله، ثانية، محدِّقاً إليه· وضعه على المنضدة الحديد· أخرج غليونه· نزع الغلاف الذهبي عن المكعب بأسنانه· وضع المكعب أقرب إلى صحن أحد جلسائه الشبان، الذي تفهَّم حركة نايورا، فأعانه، بيد واحدة، على حشو غليونِ دِهقانِ قبيلتهم· رفع نايورا الغليون مليئاً بالعشب الأبيض مضغوطاً مكعباً· أشعلهُ بالقدَّاح· تنشَّق الدخان ملءَ رئتيه· أغمض عينيه مستطلعاً صوراً متجرِّدة من مراتب الصور، مُذ استعجلَ، قبل أيِّ آخر، إنهاءَ إفطاره لينصرف، بخيال المؤوِّل، إلى تذوق العشب الأبيض يرفدهم به المشرفون على رحلة السفينة مُكعَّباً لكل واحد، في وقت الإفطار لافي سواه· فتح عينيه من جديد· أدار وجهه الحليقَ، المتطاول، صوب المرأتين:

- ما مصْدَرُ القبطان من عشبة القتل هذه؟·

.البحر، في الأرجح.، ردَّت ناؤمي· ابتسمت: .أظنُّه من شعر عانة حوريَّة.

ضحكت ليمسا· افترَّت شفتا نايورا عن أسنانه يهم بالضحك مثلها، لكنه لجَمَه:

- أين تكون عانةُ الحورية؟·

.تحت الحراشف.، ردَّت ناؤمي· .ينزعون الحراشف عن خَتَلة الحورية· يجزُّون شعر عانتها· يعيدون إلصاقَ الحراشف بالصمغ إلى جلدها· الحلاَّقُ سعيدٌ، والحورية سعيدة.

.هاأنتِ تعرفين مصدر هذا العشب· لن اسأل القبطان إذاً.، قال نايورا· نفث الدخان من منخريه:

- كيف عرفتِ، أيتها السيدة؟·

.جرَّبتُ تدخينَ شَعرٍ من عانتي قبلاً في غليوني· في مذاق الدخانين شَبَهٌ.، ردت ناؤمي·

ضحكت ليمسا ثانيةً فاهتزَّ قَدَحُ العصير في يدها· استرسلتْ ناؤمي:

- ماالرسمُ على ترسك، ياسيد نايورا؟·

.أظنُّك رأيتِهِ.، ردَّ· لم يحرِّك ترسَه المحجوب في جانب جذعه· .دماغٌ بشري.، أضاف· حاصرَ ترسها بعينيه مستجلياً:

- يبدو المِسْخُ سعيداً على ترسك، فوق صدر المرأة العارية· من أيِّ رسامٍ استعرتِ هذا الرسمَ؟·

.مِنَ الذي منح ترسَك دماغه بتلافيفَ زرقاء.، ردَّت ناؤمي· اخرجت غليونها· حشتْه، في برهة صمت من المحاورة، بالمكعب العشبِ المضغوط· أشعلته· تنشَّقتِ الدخانَ لذاذةً ترقرقت في ارتعاشة أهدابها·

توالت من المناضد كلها طقطقاتُ القدَّاحاتِ تُشعلُ العشبَ الأبيض في الغلايين· تنشَّقتِ الأفواهُ دخانَه ونفثتْهُ رسوماً ملاحمَ من أساطير الشكل مسجَّعةً، أو موزونةً بأوزان نظام مفقودة· صمتَ كلُّ شيء في المطعم: لاملاعق تلمس الصحون الحديد· لارشفَ من الأقداح· لامَضْغَ، بل دخانٌ شِعْرٌ أو نثر؛ مخاطباتٌ في المُعْضِل؛ نَقْضٌ للعاديِّ ونقضٌ للاعادي؛ جدالٌ كالمقدِّمات الناقصة في منطق النبات؛ سلوكٌ خيارٌ مطابقٌ سلوكَه الجَبْرَ· دخانٌ حِسْبَةٌ؛ رِبَا اتِّجارٍ ـ رسمٌ لقاءَ أضعافه رسوماً؛ مروقٌ على المحيِّر· دخانٌ عللُ العِلَلَ، وأسبابُ الأصول؛ مساخِرُ متوازيةٌ؛ جرائِرُ لا يُسَاءَلُ عنها؛ مَخْضٌ يستخلصُ الزبدةَ من هَلَكَةِ المعنى· دخانٌ تقويمٌ، ودخانٌ نَقْدٌ·

كلُّ العيون، إذْ أعادَ الآكلون غلاييهم مطفأةً إلى جيوبهم، أو إلى حقائب اليد الصغيرة، بعد إفراغ الرماد في الصحون، توكَّلَتْها رؤيا السكونِ أوَّلاً، بعد نَشْقٍ كثيرٍ من دخان العشب الطاغية· باتت متراجعةً بأبصارها عن صور المألوفِ المكشوف إلى متاهة الحواس التسع الأخرى، في أقاصي الغامض وأدانيْهِ ـ

المتاهةِ العُروجِ بالأثقالِ طبقاتٍ في العقل، والنزول بالعقل إلى الأثقال طافيةً رقائقَ على زيتٍ؛ المتاهةِ التي فيها، وحدها، يُجَازُ الذهولُ شرعاً من مُذْهِلِهِ·

كان جلساء المطعم، في رؤيا السكون المُتْقَنَةِ قبْضاً، والمتقنةِ نَشْراً وبَسْطاً، عالقين، طوْعَ حنينهم إلى الكمالِ العطالةِ، في الحدودِ بين أجسادهم وبين تروسِهم؛ عالقيْنِ توریاتٍ متجاورةً في الآية من بلاغة المعدن واللحم· كانوا في برهة السكون العاصف، بعد حَسْوِ الدخانِ ماءً من العشب الهِبَة بألسنة رئاتهم، حَصَالةً من أرقام النهائيِّ المُفردةِ مقسَّمةً على نداءِ الجَماد الحالم واللحم اليقظان· كانوا أحوالاً هُمْ فيها هُمْ بلا حيِّزٍ للسيرورات، مُغْلَقيْنَ على مالم يكونوه، ولن يكونوه؛ مُغْلَقيْنَ على مُغْلَقِهمِ الأزليِّ·

رويداً رويداً استعادت النشأةُ نقودَها الحيةَ أرواحاً تتسوَّقُ بها في مراقي الأجساد ـ الحوانيتِ· تحرك الجالسون حول المناضد· نهضوا بتروسهم في الأيدي· مشت ليمسا وناؤمي متجاورتين· جاورتا نايورا المتمهِّل· التفتت إليه ناؤمي:

- شعرٌ رائع شَعرُ عانة الحورية، ياسيد نايورا·

توقف نايورا متأمِّلاً وجهها· قرع بحافة ترسه المسنَّن الإستدارةِ الأرضَ الصلبةَ المعدنَ قرعاً ليِّناً:

- هذه إشارة مديحٍ من ترسي عسى تسمعه الحورية في أعماق هذه السفينة·

في الممرِّ المتفرِّع عن المعبر الكبير، المتصل من مَخرَج المطعم بردهة المدخل إلى المكتبة، توقفت ليمسا وناؤمي، مستطلعتين الألواحَ المعدنَ معلقة بسلاسل إلى سقفٍ بوابتها: كل يوم تتراجع جُمَلٌ، وشذراتٌ مُقتبَساتٌ، لمثيلاتٍ من مُلغَزِها تدويناً على الألواح· في اليوم الثالث من إبحار السفينة بدتِ الأمثالُ لعيون الرفيقتين على نَسَقٍ مُنتَهِرٍ من أفعال الأمر:

.لاتُعلِّقْ أنفاسك على هذا الجُرح

.ماتدخله لن تخرج منه· عُدْ إلى نهايتك

.لن نمنحك أكثر من هذا· خُذْ معك الليل التاسع

.احتفظ لنفسك بأسطول البحر· أسطول البرِّ أُغرِقَ في ميناء رأس الجبل

.دع كتابك مذعوراً بسطوره· أنتَ لفَّقْت له ماليس فيه

.الذبحُ بيدٍ في القُفَّازِ لا تهذيب فيه· هذِّبْ يدك

.لم تؤمن بخيارٍ، فاخترْ، إذاً، مالاتريد

.لستَ شيئاً· لستَ أعلى اللاَّشيءِ أو أسفله· لستَ على يمين اللاشيء أو على يساره· لاتكنْ غيرَك فَتُسْتَعْبَدَ بكَ

ـ

.مزِّقي مايصلك في بريد الظهيرة قبل قراءته· مزِّقي نهاركِ كلّه في مغلّف أصفر.

.دعي الصوتَ جانباً.

.كلُّ ماترينهُ ترينه في أثر حذائك على الأشياء· ليكن حذاؤكِ أثقلَ.

.أيتها المختبئات تحت السلالم؛ أيها المختبئون، لاتُحمِّلوا السلالمَ جريرةَ اختبائكم.

.عودوا من حيث صِيْدَ الأرنبُ الحكيم.

.لن ينفعكم هذا· لن ينفعكم ذاك: اجلسوا في الوسط المعذِّب.

.كم مرة علينا أن نكرِّر عليكم: أوقفوا تقليدَكم حركةَ ظلالكم· أوقِفوا هذا التقليدَ الركيكَ الساذج· ظلالُكم محترفةٌ، وأنتم أغرار.

وقفت امرأتان إلى جوار ليمسا، وناؤمي متأملتين، مثلهما، أحوالَ الحروف الطاهية طُعومَ المعاني· نقرت إحداهنَّ ترسَ الأخرى بحافة ترسها الدائري، الصغير: .أُراهِنُ أنَّ من سطَّر هذه التلافيق إمَّا امرأة لم يلمسها رجل، أو رجل لم تلمسه امرأة.، قالت· فجاءها صوتٌ من خلفها:

- مَنْ دوَّنها هو شخص أبيض·

التفتت المرأتان خلفهما، كالتفاتة ناؤمي وليمسا أيضاً، إلى صاحب الصوت·

.أوه.، تمتمت إحدى المرأتين· .ياسيد لوتيانو.، نطقتِ إسمَ الرجلِ الطويل، ذي العينين على صُفرة: .أتظنُّ هذه المدوَّناتِ من عمارة عقلٍ أبيض؟.

.من عمارة عقلٍ أبيض لايؤمن بتأثير زُحَل في تخطيط بناء الأنفاق.، قالَ لوتيانو المعماري· . نحنُ السُّودُ نُتقنُ بناءَ الأنفاقِ مُذْ دقَّقْنا في الأبعاد حولَ زُحَل كيف احتَفَرها أنفاقاً متقنةً ليست كالفضاءات حول الكواكب الأخرى· هي كواكبُ تدور فتستولد الفراغَ دائريًّا، وزُحل ينبض نبضاً من جهاته، مثيراً دفْعَاً، وصدماتٍ تستولد خروقاً لولبيةً أنفاقاً في الفراغ من حوله.

تصنَّعت إحدى المرأتين، المتشابهتين عمراً في عقده الثالث، أسفاً من عينيها الزرقاوين:

- تتمنَّى لو كنتَ أسودَ، يالوتيانو·

.أنا أسود.، ردَّ لوتيانو بتأكيدٍ من حروف لسانه، وحروف بصره·

.قلبُك، وعقلك، طيِّبان، يالوتيانو· لم نَرَ سواداً فيهما مذ عرفناك قبل ثلاثة أيام.، قالت إحداهن، فردَّ لوتيانو كالمُنبِّه إلى أمرٍ فاتهما:

- أعني بشرتي· منذ ثلاثة أيام لم تحسما تقدير لوني· أنا أسود·

نظرت ليمسا إلى ناؤمي مستظرفةً شأنَ المعماري في انتساب خياله لوناً· ابتسمتا· أعادتا بصرَهما إلى المرأتين تستجليان تعليقاً منهما على إصرارالمعماري الأبيض البشرة، ذي الصوت المتقطع النَّبر، على تصويب معرفتهما بالألوان·

لم تعقِّب أيٌّ من المرأتين· جالَتَا، ثانيةً، ببصرهما على الألواح متدلية بسلاسل حديد من أعناق الكلمات متدليةً، في سواد حديدها، من أعناق المعاني متدليةً، في سواد حديدها، من أعناق الأمثال اللامأثورةِ بيضاءَ متردِّيةً في البياضِ الحُفرةِ·

تنبَّهت ليمسا، وناؤمي، إلى قزمٍ يصحب امرأة رشيقة الجسد، لفَّاء، ظاهرةَ الدُّرْبة في أعضائها تمريناً، بشعرٍ سبْطٍ قصير، أسودَ صِبْغَةً· وقف الإثنان إلى الجهة اليمنى من المعماريِّ، الذي ساءلته المرأة المُعْلَنةُ الفخذين لحماً حتى منتصفيهما:

- ماذا تستطلع في هذه الألواح؟·

. أستطلع العمارةَ المفقودة، ياليالو· أستطلع اللاشيء.، ردَّ لوتيانو·

.لماذا تنظر إليها، إذاً؟.، ساءلته ليالو المنتفخةُ الشفتين صناعةً من أعمال الجرَّاحين في التجميل·

.مهنتي أن أنظر.، ردَّ لوتيانو بعينين على الألواح·

.هي كمهنتي، إذاً.، قالت ليالو·

نظر إليها لوتيانو مبتسماً من فمه الكبير الشفتين المنفرجتين· قلَّص بين أجفانه يحجب السخريةَ في بؤبؤيه قليلاً· كاد يسألها شيئاً سبقه إليه القزمُ، ذو الترس الأسود برسمٍ ثديينِ عليه، ناهدين، مُبالغٍ في انتصاب حلمتيهما:

- مامهنتكِ؟·

.أنْ أُتعبكم، ياملكاه.، ردَّت ليالو· .مهنتي هي التبشير بدِيْنِ التعب الألذِّ، الذي يهتزُّ قلبُ الإنسانِ لَذَاذةً للفوز به· مهنتي حمَّامُ تعبٍ لايريد أحدٌ الخروجَ منه. تأوَّهت تأوُّهاً من مُقْتَبَسِ الصوت لحظةَ البلوغِ نكاحاً·

حدَّقت ليمسا جانبيَّاً إلى ليالو· مالت برأسها صوب صديقتها: .فمٌ غيرُ متناسق.، قالت همساً· اردفتْ إذْ حدَّقت ناؤمي، بدورها، إلى شَفتيْ ليالو: .فمٌ غيرُ متناسق قد يدمِّر الوجه كلَّه.

غمغمت ناؤمي، من غير تعليق، غمغمةً قصيرة· نظرت إلى ليمسا:

- شفتاي منتفختان، أيضاً، ياعزيزتي·

.فيهُما نَفْخٌ من أصل الوجود، ياناؤمي، وليس كنفخ السيليكون.، ردَّت ليمسا·

تراجعت ناؤمي نصف خطوة· استدارت لتنصرف، فلمستها ليمسا من عضدُها:

- هذه ثالث مرة نقف على باب المكتبة ولاندخل·

.باب المكتبة هو الموضع الأفضل من المكتبة، لاالرفوف.، ردت ناؤمي·

- ألا فضول لديك، ياناؤمي؟·

- بل لديَّ فضولٌ أخشَى أن يقتلني إذا دخلتُ، ياليمسا·

- أنت هرَّة، حقًّا، ياناؤمي·

.مياو.، قالت ناؤمي بصوتٍ من خيال الأصوات يخصُّ القطط· .تعالي· بي فضول إلى قاعة عرض الرسوم.

صعوداً على السلم الآلي بلغت ليمسا، وناؤمي، الطبقة العليا من هيكل السفينة، حيث القاعة الشاسعة للرقص مساءً، وللِّقاءاتٍ بقية اليوم، بمناضد تقضي عليها قبيلة الشطرنج وقتَها الأعمَّ لعباً متقناً بمصائر الشاهات، والفرازين، والفيلة، والأفراس، والرِّخخة، والبياذق، فتجرف هذه الدمى الأعيانُ، اللواعِبُ، على رُقَع شطرنجاتهم مصائرَ الإنسان·

لم تدخل المرأتان القاعة مفتوحةً على المعابر بلا بوابة، صاخبةً برهةً بانتصارات البرهة، أو هزائم البرهة؛ ساكنةً صموتاً في الخطط بين اللاعبين لم تُنْجَزْ أقدارُها· اتجهتا إلى معرض الرسوم المثلث الطويل التصميم هندسةً بزاوية حادة، مجدوعة الرأس مقداراً يسع ثلاث لوحات متراصفة عموديًّا·

قلَّةً كان الزائرون ذلك الصباح، في استعراضهم رسوماً لم يذيِّلها الرسامون بتواقيعهم، ربَّما لأنْ لارسمَ يبقى على حاله حتى اليوم التالي· رسومٌ لاتُتلف، أو تُبدَّل، أو تُحجب، بالطبع، لكنها لاتبقى على حالها· ثمَّت سيرورة تخصُّ وجودَها رسوماً لم يعهد أحدٌ خصائصها في مكان آخر إلاَّ في تلك السفينة· الزائرون، بالرغم من قلَّتهم صباحَ اليوم الثالث من الإبحار، سيكثرون بعد ذلك رويداً رويداً، حتى يمتلئ بهم المثلث المعرضُ غريباً كفضاءٍ للعرْضِ ببابٍ مفتوحٍ وسط الجدارِ الأقصرِ ـ قاعِدةِ المثلث، فيما يترامى الضلعان الجدَاران الآخران طولاً حتى التقائهما في قبضة الزاوية الحادة، المجدوعة الرأس، أو الفطساء الرأس· لغطٌ جاورَ الدهشَ والفضول كلما ازداد الحشد، وتراكبتِ الجموعُ أنصافَ حلقاتٍ تحليلاً، وتخميناً، وتأويلاً، وتفسيراً: اللوحاتُ الأقربُ تجاوُراً تتبادل، في برهاتٍ من سهو البصر حتى لوعاينها البصرُ ثابتاً في التحديق، عناصرَ من عناصرها· بعض العناصر ينتقل، لاالكل، فجاءةً كالومض النجميِّ، من هذه اللوحة إلى تلك· الشجرة التي تكون هنا، على مَجْثِمِها من اللون الأساسِ المحيطِ، تظهر ـ خلسةً ـ في لوحة تجاورها، في الموضع الذي يُخْليه لها عنصرٌ منها ليتجلَّى قِواماً في الحيِّز أخلتْه الشجرةُ· سماءٌ تنقل بيادرَ لونها من لوحة إلى موضع نهر في لوحة أخرى· أعضاء من الجسد البشري تنفصل

عن هيكلها من لوحة لتبرز متجاورةً مع الغيوم على لوحة تجاورها· انتقالات متتالية من العناصر كالمقايضات: هكذا دأبُها·

في اليوم الأول، عصراً، حين افتُتح المعرض لزائريه الركاب، بعد الغداء القويِّ مذاقاً فريداً، على وقْع الأقداح الحديد بشرابِ الأنخاب، لم يلحظ الحاضرون خصائص الرسوم· لكنهم، لمَّا عاد بعضهم إلى المعرض في المساء، بإعجابٍ منجذِبٍ إلى لوحاتٍ بعينها، لَحَظوا الفرقَ الطارئ في ماأعجبهم من معروضٍ· ظنوا في الأمر أنهم يستعرضون رسوماً مستنسخَةً، ببعض التعديل، عن رسوم لحظوها معجبيْنَ· لكنَّ التبديل توالى في عناصر الرسوم انتقالاً، وقتاً بعد وقت، فأيْقنوا، بلا شرح من القبطان أو من عمَّاله القائمين على خدمة الشراب في قاعة العرض، أنهم أمام خصائص لم تتحصَّل للون قَبْلاً في الحرية، نزوحاً بالأشكال خفاءً ـ كالفكرة لاتُرى ثم تُدوَّن أو تُقال ـ من قيد الفضاء هنا إلى قيد الفضاء هناك· ألوانٌ بمفاتيحَ أشكالٍ تفتح قُفل المرئيِّ على مرئيٍّ آخر· فضاءاتٌ فراغٌ، قيودٌ لاتغَلُّ اللونَ مجرَّداً، أو الشكلَ في لونٍ، ولاتحتبسهما· حريَّةٌ في الأغلال الحرَّة لاتنغلق ولاتُقيِّد· مفاتيحُ تنتقل من لوحة إلى لوحة بانتقال الأشكال من مطارحاتٍ لونٍ، أو هوىً خطوطٍ، إلى عناقٍ تُعْتصَر فيه الفراغاتُ والفضاءات·

ليمسا، وناؤمي، استعرضتا للمرة الثامنة، أو التاسعة، في اليومين السابقين، رسماً بعينه: شابٌ عارٍ، متمدد بجنبه على أريكة بقماشٍ مجعَّدْ دعْكاً، فضيٍّ· إحدى يديه تحمل أضمومة زهر بين ملتقى فخذيه، حاجباً بها عانته، والأخرى تهمُّ بإزاحة ستارة يُلمح خلفها جزء صغير من رِدْف امرأة منحنية· مراراً انتقلت يدُه، المتأهبة لإزاحة الستارة بينه وبين المرأة، إلى لوحة مجاورة فيها رسمُ أصيص بأزاهير شتَّى، فوق ترس مستطيل، مقعَّر، ذي نقوشٍ من متتالياتٍ متشاكلةٍ ثعالبَ نافرةِ الجسوم· تنبتُ اليدُ بين الأزاهير كأنها منها، فيما ينتقل بعضُ الزهر لينبت في كتف الشاب· لاشيء آخر تتبادله اللوحتان، ثم تستعيده، سوى اليدَ وبعضَ الزهر، فيما اللوحات الأخرى يتوالى انتقالُ عناصر منها إلى مايجاورها فلا ترجع، ولاتُستعاد، حتى أنَّ اللوحة الواحدة يتبدَّل الرسمُ فيها مُخْلياً لرسمٍ جديد من مجموعِ عناصرَ متنافرةٍ متخالفة، أو متنسِّقةٍ متآلفةٍ أحياناً، طَوْعَ المُصادفةِ تُلقي بالمتشكِّل الجديد إلى تنافرٍ أو تآلفٍ، أو وسطٍ من استئناس المتخالِفِ بالمتوافق·

.أتظنين، ياليمسا، أن اليد تحاول اختلاس زهر من الأصيص؟.، سألت ناؤمي صديقتها·

.لا.، ردَّت ليمسا· .الزهرُ يمنع اليد من إكمال إزاحة الستارة عن المرأة خلفها.

.هل الجزء الظاهر من الرِّدْف يخصُّ امرأةً، ياليمسا؟ لاأثق بعينيَّ في تحديد جنس اللحم هنا.، قالت ناؤمي·

.هو لحم امرأة، ياناؤمي· اكاد أشمه.، ردت ليمسا· قرَّبت عينيها من الرسم· ترصَّدتْه مليًّا: .كأنه يرتجُّ.

لمست ناؤمي، خلسةً، ردف ليمسا في البنطال الضيق· قرَّبت رأسها من رأس صديقتها:

- هذا يرتجُّ كلما تنفَّست بين فخذيك· أما هذا الجزء العاري من رِدْفٍ لا أعرف أهو لامرأة، أم لرجل، فعلينا أن ننتظر ارتجاجه إذا لامسته تلك اليد الخائنة·

.لاأرى اليدَ خائنةً· إنها تهمُّ بكشف بقية اللحم، ياناؤمي· الرسمُ هو الخائن.، قالت ليمسا·

.ما أراه من لحم هذا الشاب ليس خائناً، إلاَّ يده· لماذا يغطي غرموله؟.، تساءلت ناؤمي·

.مامن غرمول تحت تلك اليد.، ردَّت ليمسا· .ترك الرسام لخيالنا إكمالَ الرسم.

.سأكمله، إذاً، برسم بظرٍ ناتئ تحت تلك اليد.، قالت ناؤمي·

صدمت ليمسا بترسها المثلث الطويل ترسَ ناؤمي المستطيل، المجوَّف، توبيخاً ممتزجاً بدلالٍ:

- لا تَشْغلي خيالكِ بغير الذي عندي·

.أتتخيَّلين أحياناً··.، قالت ناؤمي· أقفلت بابَ لسانها على بقية الكلمات·

.أتخيل ماذا؟.، ساءلتها ليمسا·

- أتتخيَّلين ذَكَرَ رجلٍ في يدك أحياناً، ياليمسا؟·

- لا أتخيَّله في يدي، أو في أيِّ مكانٍ منِّي، ياناؤمي· لماذا تسألينني؟·

.لا أعرف.، ردَّت ناؤمي ذات الشعر أزرق صِباغاً، منتصباً كعُرف الديك· .ألا تشتهين أن تأكلي هذا الشاب؟.

همهمت ليمسا من فمٍ مطبق· حدَّقت إلى الرسم· نطقت بعد برهة من غير أن تنظر إلى صديقتها:

- منذ متى تشتهين رجلاً؟·

.لا أتشهَّى رجلاً· لا أتشهَّى هذا الشاب.، ردَّت ناؤمي· قَضْقضَت بأسنانها: .أريد أن آكله، لا أن أنكحه.

.مرَّت ببالي أيضاً، برهةٌ طَمَعٌ في لحمه.، قالت ليمسا· استدارت بوجهها إلى ناؤمي: .لماذا لم يكرِّر القبطانُ إطعامَنا شيئاً كالذي في الغداء الأول على هذه السفينة؟.

سمعت المرأتان ترنَّماً قريباً منهما· التفتتا إلى منبت الصوت في فم آتيما المُطْبَق، ماشيةً مع شابَّتين يستعرضن رسوماً·

.ما مذاق لحمُ هذه الفتاة الصغيرة؟.، سألت ناؤمي صديقتها همساً بعينين على آتيما مترنِّمةً بفم مطبَق·

.سنعرف مذاقَه إن طهاه طبَّاخ السفينة.، ردَّت ليمسا·

.أعني مامذاقُه إن تخيَّلتِهِ مطهوًّا، على أيِّ نحوٍ تريدينه قُلياً أو شيًّا، وهو الآن بين أسنانك؟.، ساءلت ناؤمي صديقتها·

لم تجب ليمسا· كان بصرها ينزلق عن آتيما صوب جمعٍ صغير فيه الرسام بارو، وأمه سيدارو، والموسيقي جوراك مصحوباً بأخته سيميال حاملة الترس المربع، الأخضر، برسمِ عيونٍ زرقٍ لاتُحصى، مطوَّقة الأجفان بأهداب ذهبية:

- انظري كيف تتحرك هذه المرأة، ياناؤمي·

أدارت ناؤمي وجهها إلى حيث تنظر ليمسا· عاينت المرأةَ الشابة مجاورةً أخاها المتوسط الطول على نحافة:

- أتعنين سيميالْ؟·

.كيف تعرفين اسمها؟.، سألت ليمسا صديقتها ناؤمي، فردَّت ناؤمي:

- التقيتها البارحة في الحانة· دلقتْ بعض الجعة على حذائي· تكلمنا· لفتني شعرُها المستعار كأهدابها المستعارة، وشفتُها العليا المنتفخة كشفتي العليا·

- كنتُ معك طوال الوقت· لم أرك تكلمينها، ياناؤمي·

- صدمتني في طريقي لجلب قدح من النبيذ، قرب حاجز النادل· كانت تحادثه، ثم استدارت منصرفةً بغتةً بقدح جعة في يدها· اعتذرتْ· تبادلنا كلمات قليلة· صوتُها مختنق قليلاً كأنها تخفيه· جسدها عضليٌّ·

- عمَّ تحادثتما؟·

- عن تسريحة شعري، وعن أهدابها الذهبية، ياليمسا·

- أهذا كلُّ ماتحادثتما فيه، ياناؤمي؟·

نضنضت ناؤمي برأس لسانها تتصنَّعُ لَعْقاً·

.ماذا؟.، همست ليمسا· غالبتِ استياءَها المتصَنَّع من الحركة الماجنة للسان صديقتها·عادت ببصرها إلى سيميال· .ما اسمها؟.

.سيميال.، ردَّت ناؤمي· .إنها تتحرك كامرأة لا تريد أن تبدوَ امرأةً. حدَّقت إلى ليمسا· .مابهما عيناكِ منجذبتان إليها؟.

.إلى حركتها، وليسِ إليها.، ردَّت ليمسا

.إلى حركتها؟ لا أرى حركتَها منفصلةً عن ردفيها النافرين كأنهما سيمزِّقان البنطالَ.، قالت ناؤمي· وضعت جبينها، بغتةً، على جبين ليمسا:

ـ منذ متى تتخيَّلين جسدكِ في قبضة جسدٍ غيري؟·

.أنا في قبضة كل جسد.، ردَّت ليمسا مبتسمةً تستثير ناؤمي، التي طوَّقت رأس ليمسا براحة يدها إمعاناً في استحواذها عليها:

- لن أُبقي منكِ شيئاً يقبض عليه جسدٌ آخر·

.قبِّليني، إذاً.، قالت ليمسا هامسةً وهما متلامستا الجبهتين·

.هنا؟.، ساءلتها ناؤمي·

لم تردَّ ليمسا· أخرجَت رأسَ لسانها من بين شفتيها، على مهلٍ، بنداءٍ ملتمعٍ في ريقها· قبضت ناؤمي بشفتيها على رأس اللسان قبل أن تطوق فمَ ليمسا كلِّه بشفتيها، وترتشفه ارتشافاً صاحبَه صفيرٌ خافت إذ أطلقتْهُ بعد مطِّه مصَّا· تطلَّعتا معاً من حولهما تريان إنْ كان من فضولٍ في الأعين·

مامن أحد أعارهما فضولاً من عينيه إلاَّ سيدارو، أم الرسام بارو، الممسكة بترسها ذي الرسمِ الكهف بيدٍ، وبسلتها المكعبة، الصفراء القصب بيدٍ· ابتسمت لهما، فبادلتاها ابتساماً· أومأت لها ناؤمي برأسها أن تنضمَّ إليهما·

تردَّدت سيدارو في فهم تلك الدعوة، لكنها مشت صوبهما بخطواتٍ وَسْنى، متقاصِرَةٍ تمهُّلاً· جاورتْهما·

.أنا ناؤمي.، قالت ناؤمي· .وهذه عشيقتي ليمسا.

.أنا سيدارو.، قالت أمُّ الرسام بابتسامةٍ على أتمِّها يقظةً، لاكخطواتها الوسنى·

.رأيتك مراراً.، قالت ناؤمي· .أمعك هرَّة في سلتك؟.

.معي أولادي.، ردَّت سيدارو·

ترقرق فضولٌ في عيون الرفيقتين من ردِّ سيدارو الملتبس، فقرَّبت سيدارو سلَّتها من ناؤمي: .افتحيها.، قالت·

كشفت ناؤمي الغطاءَ القصب، في هدوء، ثم أفلتتْه بغتةً من يدها، إذ لمحتِ الأجسادَ الصفراء، الشديدةَ الصُّفرة، الرقيقة، ملتفَّة بعضها على بعضٍ تختلس الظلامَ، في أعماق السلَّة، ويختلسها الظلامُ· .هذه أفاعٍ.، هتفت ناؤمي مبغوتةً·

.أولادي.، ردت سيدارو·

.ماذا تطعمينها؟.، ساءلتها ناؤمي، فردت المرأة البالغةُ منتصف عقدها الخامس، ذاتُ البشرة على سُمرةٍ من عافية الشمس:

- أُرضِعُها·

حدَّقت ناؤمي تحديقاَ جسوراَ إلى ثديي سيدارو المرتفعين من أصل اللحم ناهداً مرتفِعاً فيهما، أو من حِمَالة ثدييها أوقفتهما منتصبيْنِ: .أتسمحين لي بلمسهما؟.، قالت وهي تمدُّ راحةَ يدها مفتوحة الأصابع صوب صدر سيدارو·

أُحْرِجت سيدارو وهي ترى يدَ ناؤمي مقتربة من صدرها· كادت تتراجع لولا أنْ توقفت اليدُ على قُرْبٍ من ثدييها، بابتسامةٍ لاهيةٍ على فم ناؤمي المعتدل، المنتفخ الشفتين·

.أخَفتِ أن ألمسهما؟.، ساءلتها ناؤمي، فردت سيدارو من فمها الواسع، الأنيق الشفتين:

- فاجأْتِني· أتفعلين هذا مع كل امرأة؟·

.لا.، ردت ناؤمي بصوتها الخشن مُلَطَّفاً· .لا أفعل هذا إلاَّ مع هذه.، أشارت برأسها إلى صديقتها ليمسا· .لكنْ دعيني أسألك شيئاً آخر· أأستطيع؟.

.اسأليني.، ردت سيدارو·

.أقبَّلت امرأة على فمها؟.، ساءلتها ناؤمي·

قطَّبت سيدارو حاجبيها مستغربةً· اكتفتْ بذلك جواباً· لكنَّ ناؤمي حاصرتْها مقتربةً بصدرها من صدر المرأة ذات الصوت الهادئ:

- إنْ لم تكوني قبَّلتِ امرأة على فمها، فدعيني أقبِّلك على فمكِ·

تراجعت سيدارو نصف خطوة· انحنتْ· وضعت سلَّتها أرضاً· نقلت ترسها إلى يدها الأخرى· انحنت ثانيةً تلتقط السلَّة في حركةٍ متهرِّبةٍ حَرَجاً من جسارة ناؤمي غير الواضحة المَنْشأِ: أهي دعابةٌ، أم غزوٌ· تمتمت:

- أنت ألطفُ وقحة التقيتُها قطُّ·

جذبت ليمسا صديقتها ناؤمي من طوق بنطالها فوق الخاصرة اليمنى، تردعُها عن التمادي· التفتت إليها ناؤمي هامسةً بصوت يبلغ أذني سيدارو أيضاً:

- لم أقاوم، ياليمسا· إنها جميلة·

استدارت سيدارو مبتعدةً عن الرفيقتين إلى حيث يقف الموسيقي جوراك، وسيميال، وساكون زوجة الممثل أوْلاك· ضحكت ناؤمي، فلكزتْها ليمسا لكْزاً رفيقاً بيدها:

- أكنتِ ستُقبِّلينها، حقًّا، لو قَبِلتْ هذه المرأة؟·

.كنتُ سأجرب· لم أجرِّب امرأة في عمرها· وجهها يعتقل جمالَها اعتقالاً كي لايهجرها.، ردت ناؤمي·

.مابكِ؟.، تساءلت ليمسا في عتبٍ موبِّخٍ·

.مابي؟.، ردَّت ناؤمي محتجزةً بسؤالها سؤالَ صديقتها·

- كنتِ ستجرِّبين؟ تجربِّين ماذا، ياناؤمي؟·

- فمها، ياليمسا

- ثم ماذا أيضاً؟·

.فمَها الآخر.، ردَّت ناؤمي وهي تطوِّق كتفَ ليمسا بذراعِها، فدفعت ليمسا ذراعَ صديقتها احتجاجاً، متطلعة إلى وجهها وقد تصنَّعتْ قرَفاً:

- تخيفينني· أيغدو لسانُك بلا ذوق؟·

.أوه، عشيقتي· للساني ذاكرةٌ واحدة في المذاقِ: ذاكرتُها النهائيةُ ـ أنتِ.، ردت ناؤمي بصوتها الخشنِ مُمسَّداً بزيت الإرضاء·

.وماذا عن ثرثرتك الوقحة قبل برهة؟.، ساءلتها ليمسا بصوتها العميق، الرقيق·

.أوه، ليمسا· لابدَّ من ثرثرات وقحة أحياناً، كي نتذكر ثرثراتِنا المهذَّبة.، ردَّت ناؤمي وهي تحاول ثانيةً، تطويق كتف صديقتها بذراعها، فدفعت ليمسا ذراعَ ناؤمي عنها، من جديد·

.أنت تقتلينني.، قالت ناؤمي متوجِّعةً· .سأغتصبك، الآن، هنا، إن لم تقبِّليني راضيةً.

.أنتِ، حقَّا، ألطفُ وقحة قبَّلتُها· لكن لن أقبِّلك الآن.، ردت ليمسا· مشت متصنِّعةً استعراضَ رسوم أخرى، فتمتمت ناؤمي ماشيةً خلفها:

- سأغتصب القبطانَ إذاً· تعالي· هو ونايورا يتلاسنان·

لم يكن تلاسُناً، في الأرجح، ذلك التبادل الثقيل قليلاً في نَبْرِ الكلمات بين نايورا والقبطان تحلِّق حولهما بعضٌ من عمال السفينة، وبعضٌ من قبيلة الشطرنج· لقد بَدَوَا غيرَ محتدميْنِ في صوتيهما، بل في نظراتهما·

.ألا تراني شاحباً هذا الصباح؟.، كان نايورا يسائل القبطان هيغور، ذا الإنحناءة في ظهره·.الغرقى يشحبون· لقد غرقنا.، قال·

.بل أراكَ معافىً، غريقاً في العافية، ياسيد نايورا· نقصانٌ خفيف، غير ملحوظ، في سعير اللهب، لايؤخذ على مَحْمَلِ غضب، أو استياء.، ردَّ هيغور·

.حدِّقْ إليَّ جيداً· أنا شاحب· كان اللهب في الحمام، هذا الصباح، كبول الشيوخ.، قال نايورا· .أمْ نحن غرْقى، ولم يخبرْنا أحدٌ، بعدُ، أننا غرقى؟.

.ستكون النار على مايرام· معي أهل صيانة الآلات، وهم سيكشفون على مجرى النار في مواسيرها· لسنا غرقى· لم تغرق النارُ بعد.، ردَّ هيغور· أضاف: .ما تشكَّى أحدٌ سواك، ياسيد نايورا.

.بل لاحظتُ ذلك في حمام مقصورتنا، هذا الصباح، ياسيد هيغور.، قالت ناؤمي مقتربة أكثر من الرجلين المتواجهين·

.سيكون كل شيء على مايرام.، ردَّ هيغور·

.نحن غرقى.، تمتم نايورا، كأنما ينهي جدالاً برضىً في اختيار الكلمات الأخيرة فيه· .تلك الصَّدمة أحسَسْناها قبل غدائنا الأول على هذه السفينة، لم يفسِّرها أحدٌ لنا بعْدُ· لقد غرقنا. نظر إلى هيغور، وهو يهمُّ بالافتراق عنه· كاد يضيف شيئاً آخر إلى مجرى جملته، لكنه عَدَل عن ذلك إلى النظر إلى آتيما تجاوره مترنِّمةً بصوتٍ محتبِس، عالٍ، من أعماق حنجرتها· لابسَها ببصره: .لماذا تترنَّمين تحت الماء، أيتها الصغيرة؟.، ساءلها· استدار ماضياً ببعض صَحْبه الشبان من قبيلة الشطرنج صوب باب قاعة المعرض، المثلثة الهندسة تصميماً·

ألفت ناؤمي، وليمسا، نفْسيهما على قُرب من آتيما، التي بادرتْهما: .هاتان أمَّايَ لثلاثة أيام.، قالت بإشارة إلى ابنتيْ أوْلاك الممثلتين، رامونا، وتيرين· .لقد تبنَّيتُهما اليومَ أمَّيْنِ لي.

.أُمَّانِ؟ ماحاجتك إلى أُمَّين، يا آتيما؟.، ساءلتها ليمسا·

.ماالفرق؟ أبٌ، أبوان· أمٌّ، أُمان· ثلاثة آباء· أربع أمهات· تبنَّيتُ الرسام بارو، والشاعر هِيْز، أبوين لثلاثة أيام، لكنني بدَّلت رأيي هذا الصباح· لم أتبنَّهما أكثر من يومين· جيدٌ أن أتبنَّى من أشاء، حين أشاء، وأن أتخلَّى عمَّن أشاء، حين أشاء.، قالت آتيما وهي تستخرج غليونها بيدٍ من حقيبتها الصغيرة، المعلقة إلى كتفها: .هُما ممثلتان.، أردفتْ من غير أن تنظر إلى أحد، بل إلى ترسها تسنده ضغطاً بين فخذيها الممتلئتين في بنطالها الضيق، القصير حتى رَبْلَتَيْ ساقيها·

.أنتما ممثلتان إذاً.، قالت ليمسا للشابتين رامونا، وتيرين، فردَّت رامونا المطوَّقة العينين بإطارَيْ نظارتها الدائريين:

- ماليس مُحْكَماً اليومَ لن يكون مُحْكَماً غداً· لا شأن للأمير في ذلك، مُذْ هو منصرفٌ إلى صيده بثيابٍ ممزَّقة· لاحاشية معه إلاَّ كلب بثلاث قوائم· أَمْ أنا مخطئة، ياعزيزتي القحبة؟·

.لستِ مخطئة· أنتِ لاتخطئين ياأمي· لكنَّ وجودك معي، في هذه القلعة، هو الخطأ· نظراتُك خطأٌ· خطواتك الباردة في البهو خطأ· نومُك خطأ في السرير إلى جواري· سريرك خطأ· نومك خطأ· ثيابك خطأ· عُمرك خطأ· أنتِ أمٌّ خطأٌ بأمومةٍ خطأٍ.، قالت تيرين في استعراضٍ لمكانٍ غامض، ووجودٍ في حجاب المكان الخطأ·

.عمَّ تتحدَّثان؟.، ساءلت ناؤمي الأختين·

.هذا دَوْرُ سيؤديانه على المسرح حين العودة من هذه الرحلة.، ردَّت آتيما وهي تشعل العشب الأبيض في الغليون بقدَّاح· مصَّت نَفَساً من الدخان الناطق بلسان الرسومِ الفوضى· نظرت إلى الأختين تناوُباً بعينيها العسليتين على صُفرةٍ:

- هيَّا، ياتيرين، ورامونا· أعيدا على هاتين السيدتين مَقْطَعاً أسمَعْتُمانيْهِ أوَّلَ دقيقة تبنَّيتكما فيها·

.الوقت.، قالت رامونا ذات الصوت الرنين، فقاطعتْها تيرين، حاملةُ الترس المثلث، الأسود بنُكَتٍ حمرٍ ورسمٍ لشجرة: .أنا ابنة أبويَّ الأصل· أنا أبدأ أولاً.، قالت· نقلت ترسها من يد إلى أخرى· بدأت بإلقاء كلماتها محمولةً على صوت يمازجُه حزنٌ مَّا:

- سأتدلى من نافذة البرج بحبلٍ من شَعر الوصيفات، أو بحبل من أذيال كلاب أمي·

.أنت تستعيرين كلمات هي من دَوْري، ياتيرين.، قاطعتْها رامونا· .هذا السطر هو لي.

لم تتوقف تيرين· استرسلت متجاهلةً استياء أختها المعترضة:

- من نافذة الجحيم، أو من نافذة البرج، أو من نافذة قلبك المتهدِّم الجدارِ الخلفيِّ بضربة من المنجنيق·

عاجلت رامونا صوتَ أختها في الإلقاء بصوتها مُزاحمةً:

- لاهذا، ولا ذاك·

لمست ناؤمي كتف آتيما، وسط صوتَيِّ الأختين مسترسلتين، معاً، في إلقاءٍ متنافر، متداخل، متبعثر تصادُماً· .سآكلُكِ.، قالت هامسةً· فتحت فمها أمام بصرِ الفتاة الصغيرة، وأغلقته كأنما تلتهمها، فبادلتْها آتيما حركةً من أسنانها تتمثَّلُ أنها تعضُّ ناؤمي، التي ابتعدت مبتسمةً مع ليمسا·

.توقَّفا.، قالت آتيما للأختين فلم تتوقَّفا عن إلقائهما السطورَ متراصفةً طبقاتٍ من دورهما المسرحيِّ· .حسناً· خفِّضا صوتيكما قليلاً.، تمتمت آتيما، فخفَّضتا صوتيهما· مشت فمشت الأختان إلى جوارها بلسانين لايهدءان·

لم تكن آتيما تستعرض رسوماً في القاعة على قدْر ماتستعرض الوجوه، نافثةً دخاناً كثيفاً من فمها النافر الشفتين قليلاً كأنما تتهيئان لقُبلة· ومن الوجوه نقَّلت بصرَها إلى التِّرَسة في الأيدي بنقوشها الواضحة أشكالاً ومعانيَ، والواضحة أشكالاً مُلْغزةَ المعاني، في مرموزاتها النافرة، والغائرة، والمنبسطةِ استواءً· نفضت الرمادَ على الأرضِ المعدنِ بنقرٍ من رأس الغليون على عقب حذائها، إذِ استنفدتْ مؤنةَ الدخانِ فيه·

خرجت آتيما، والأختان، من قاعة الرسوم· توجهن إلى القاعة الكبيرة تُتَّخذ مساءً للرقص، ونهاراً للقاءات يجلس على أرائكها الحديد من يشاء، في أحاديث تُستهوى، أو يجلس عليها لاعبو الشطرنج متفرِّقيْنَ أنصافَ ثِلَلٍ، يتبارونَ بأخاديعَ من عقل الحساب مهارةً تُمتدح، أو يرقبُ بعضهم بعضاً متفرجين، يتتبَّعون بعقل الخطط فيهم مجرى الأقدار الأخاديع مُحْكَمةً من مهارة الحساب في اختزال الوجود إلى أرقام عمْقٍ للمشيئات كلِّها؛ مجرَّدةٍ إلاَّ من دِيْنها أرقاماً تتجاورُ والآلهةَ على سُلَّم الحياة·

كانت الأختان رامونا، وتيرين، في جِدالٍ هَمْسٍ من صِدام السطور على لسانيهما، تستنطقانها دَوْرَهما الذي سيُؤدَّى في مسرحٍ بعد الرحلة· معاً، بنبرٍ واحد من مَرْتَبةِ الصوت خفيضاً، كانتا تتفانيانِ تمريغاً لقَسَمات وجهيهما في المعاني لوعةً، وانشراحاً، وبأساً، وأسىً، وهزءاً، واضطراباً، كأنهما إناءانِ زجاجٌ لونُهما لونُ مافيهما من سَكْبِ البرهة سطورَها ـ سطورَ الدَّوْر على المسرح·

آتيما كانت تسألهما، في بعض نُقْلاتها في القاعة الكبيرة، عن تفصيلٍ هنا، أو هناك، من أمور المتحادثيْنَ، واللاعبيْنَ، فلا تردَّان، بالرغم من أنهما تُبديان اهتماماً بما تسألهما، ظاهراً على وجهيهما وعيونهما، إنَّما لامتَّسعَ لذلك الردِّ مُذْ هما منشغلتا اللسانين باستذكار وجودهما الثاني شخصيْنِ آخريْنِ في كلماتٍ لاتخصُّهما، لكنهما وسيطانِ فَرَضٌ في أداءٍ فَرَضٍ لوجودِ أناسٍ مُسْتَوهَميْنَ كتب لهم المؤلف كلماتٍ تؤديها رامونا، وتيرين· وهما، منذ أقنعهما خيالُ الفَرَض أنهما مقتدرتان على السلوك بالكلمات، وسيطيْنِ، إلى أشباحِ خُرْسٍ في النصِّ، تلبَّستا أدوارَ الأشباح الخُرْسِ بلسانين ناطقَيْنِ، وتفانَتا تدبيراً لانتقال كيانيهما الواقعيين إلى كيانيْنِ مستوهَميْنِ هما الواقعُ الضروري للإنسجام بين الحياة ومأزقها·

تيرين، ورامونا، كانتا منكبَّتين على إنجاز انفصالهما عن نفسيْهما، بإعارة هاتين النَّفْسين إلى ماستكونانه، في الكلمات، دَوْريْنِ تمتحنان بهما اتِّزانَ الواقع في إنتقاله إلى الجهة الأخرى واقعاً ضروريًّا للإنسجام بين الحياة ومأزقها· كانتا متماديتين في التنافس، هَمْساً محموماً لاتُخرِجانه عن طوره، على تثبيت سُلطَةِ لسانيهما أداءً للكلمات، وسلطةِ جسديهما أداءً من انفعالهما بالكلمات، في المواقع المكتسَبة من الأرض الأخرى ـ أرضِ الدَّوْر· كانتا تحشدانِ نزوحاً لايُرَدُّ من أجناس الحقائق، وأنواع الممكنات، إلى العالم الجديد؛ نزوحاً بخلائق الدَّوْر ابتكرتاها من عَدْلِ أدائهما للأدوار·

.أنا آتيما.، كرَّرَ لسانُ الفتاة الصغيرة التذكيرَ الغامض بوجودها اسماً على مَسْمعَيِّ الأختين تيرين، ورامونا، السارحتين خيالاً في منحدراتِ الحذر من إخفاقٍ ممكن، قد لايمكنهما من النزوح بالواقع الضروريِّ للإنسجامِ بين الحياة

ومأزِقها، في الدَّوْرِ على المسرح· بل بدتا خائفتينِ ظاهراً من تماديهما في التَّكْرار؛ خائفتين من أن تخسر إحداهما الأداءَ، وتربحَ الأخرى·

هما من عائلةٍ ممثليْنَ حتى الجدِّ الثاني من جهةِ الأمِّ ساكون· أبوهما أولاك تعرَّف إلى أمهما ممثِّلاً في إدارة جدهما للأدوار على الحلبة مُخْرِجاً، ممثلاً بدوره، كاتبَ أدوار هي الأقسى أداءً، من صَبِّ الماء على الممثين إلى رميهم عن الحلبة إلى الأرض؛

إلى إطعامهم لحوماً نيئةً، في الأداء، حتى التخمة؛

إلى السُّكْر حتى الإغماء؛

إلى نكاحٍ لاتصنُّع فيه، بل خَرْقُ غراميلَ لفُرُوجٍ حتى القذْفِ والإسالة؛

إلى الاستحمام عراةً؛

إلى الجرِّ سَحْلاً بشدِّ الشعر؛

إلى إغراق ممثلين في براميل ملأى ماءً لايستعيدون أنفاسَهم إلاَّ قبل اختناقهم بنَفَسٍ واحد؛

إلى جروحٍ بالسكاكين مذ استخدمَ الجدُّ، في الأدوار، سكاكين رهيفةَ الشفرات؛

إلى بَقْرِ بطون الخنازير الحيَّة على حلبة المسرح، وتقويض سقوفٍ بأخشابها فوق الرؤوس؛

إلى ضَربِ رؤوس أطفالٍ مستأجَريْنَ بالأحذية· فإن لم يُعِدْهم ذووهم إلى الدَّوْر، في اليوم التالي، استأجر الجدُّ أطفالاً آخرين للأداء المتتابع العُرُوض؛

إلى أداء أدوار في أحواض الماء، على الحلبة؛

إلى تحويل حلبة المسرح زريبةً، وإسطبلاً، وخُمَّا، بساكنيها الأحياء من خنازير، وحمير، وخَيل، ودجاج أو إوز؛

إلى إطلاق كلابٍ أسراباً تؤدي الأدوارَ، نُباحاً، بلا اشتراك إنسانٍ معها في الأداء؛

إلى أدوار تُؤدَّى بممثلين معلَّقين من أيديهم، أو من أقدامهم، بحبال تتدلى من سقف المسرح؛

إلى معارك يتقاذف الممثلون فيها بكُراتٍ نارٍ؛

إلى حَجْز المتفرجين في قيودٍ حديدٍ ـ سلاسلَ ـ جلوساً على كراسيِّهم حتى انتهاء العَرْض؛

إلى مسرح مفتوح بجدار واحدٍ من جدرانه على شارع للعامَّةِ المُشاة يتوقفون فضولاً ليروا، وللمرْكَبات لايتوقف هدير محرِّكاتها فضولاً في السير على

العِجال؛

إلى مسرح لاأداءَ لأحدٍ على حلبته، إنساناً أوحيواناً؛ فارغاً إلاَّ من أصواتٍ مفاجئةٍ في المكبِّرِ صُراخاً، أو أنيناً، أو هذياناً، أو عويلاً، أو همْساً، أو صخَباً متداخلاً· أصواتٌ آدمية بلا كلمات، وكذلك أصواتُ آلاتٍ مطارقَ تهدي على حديد، أو صِدامُ مَرْكَباتٍ تتهشم هياكلُها الحديد، أو دراجات نارية، أو شاحنات بأبواقٍ طاحنةِ الزئير، أو نثر حصىً بالرفوش على صفيح، أو كسْرُ زجاجٍ؛

إلى ممثلين بعضهم بأدوار محفوظة، وبعضهم رعاعٌ مأجورون، بلا أدوار، يُلقى بهم وسط الآخرين يتصرفون ارتجالاً حركاتٍ، وكلماتٍ، وصمتاً، حتى انتهاء العُروض؛

إلى إطلاق طيور في فضاء المسرح، واصطيادها ببنادق قاتلةِ الطلقات؛

إلى رقصٍ من ممثلين فوق ممثلين آخرين، متمدِّدين انبطاحاً على بطونهم، أو مستلقين على ظهورهم، حتى نهاية العُروض؛

إلى ممثلين ذكورٍ عليهم أن يلدوا كالنساء ركْلاً من رفاقهم على بطونهم، فوق حلبة المسرح، لكنهم لايلدون، بالطبع، حتى نهاية العُروض؛

إلى ممثلين بصناديق صمَّاء تغطي رؤوسهم، يؤدون الدورَ بلا اقتدار على الرؤية قط؛

إلى ممثلين في أدوارٍ على حلبة مسرح مظلم، كتيم الظلمة، ينتعلون أحذيةً على استداراتها شموعٌ مُوْقَدة؛

إلى مسرح صامت، لاأداء فيه إلاَّ أصواتُ ارتطام الممثلين يُقْذّف بهم من شرفات جانبية، عالية، إلى الأرض، تحت شعاعات من أضواء تتبدَّل رقَّةً، وثخانةً، وطولاً، وقِصَراً، وانزياحاً من مكانٍ فارغ إلى مكان فارغ؛ يُقذَف بهم من غير ذِكْرٍ لتعويض، في بنود عقودهم، إن أصاب أعضاءَهم تَلَفٌ· لكنْ لم يسمح الجدُّ لكلمة بذيئة واحدة، قطُّ، أن تصعد مع الممثلين إلى حلبة مسرحه· حتى النصوص المقتبَسة من تآليفِ غيره، تصرَّف بالبذاءةِ فيها، إنْ وُجِدتْ، فهذَّبها·

.أنا آتيما.، قالت الفتاة الصغيرة إذْ صادفت ساكونْ مع سيدارو، في القاعة، فابتسمتا لها· .أوقفيهما.، قالت لأمِّ الشابتين، مشيرة برأسها إلى تيرين وراموناء اللتين لم تُلقيا بالاً إلى أمهما، في انحدار خياليهما، بجموح، من سفوح السطور إلى أهضامها· رفعت الأم ساكون ـ ذات الترس المثلث الصغير، الأصفر، بالأرانب الرسومِ الستِّ البيضِ عليه، لكل أرنب عين حمراء في جبهتها ـ كتفيها معتذرةً عن عجزها: .ستتوقفان حين أنتهي من ارتداء الجروح كحذائي.، قالت بصوتها الخجول·

.ماذا؟.، ساءلتها آتيما مستفسرةً، فلم تردَّ ساكون· انصرفت إلى حديث مع بعض شبان قبيلة الشطرنج·

حتى موعد الغداء، انتقالاً من القاعة الكبرى إلى مُشْرف الشفينة، إلى البهو الشاسع من حول العمود الأسطوانة، لم تتوقف رامونا وتيرين عن همسهما من حول كتفَيْ آتيما· أشعلتا غليونيهما مرتين· نفثتا الدخانَ مع الكلمات مهموسةً تتقبَّض في أشكالٍ، أو تنبسط، بيضاءَ متمايلةً في انحناءاتها صعوداً إلى بَدَدِ الأعالي· نفضتا الرمادَ، بلا مبالاة، على الأرض المعدن· تناقرتا، جانبيًّا، بترسيهما· تناقرتا بنظراتهما ـ رامونا، المتوسطة طولاً، من عينيها البنيتين، الناعستين، وتيرين الطويلة، من عينيها الشهلاوين الكبيرتين· دخلنَ المطعمَ وهنَّ على حالهن: همسٌ، وتذكير غامض من آتيما باسمها: .أنا آتيما. اخترن مائدةً تتسع لثلاثةٍ لاغير· جلسن· سكتت الأختان للمرة الأولى·

كان بعضُ خدم المطبخ قد بدأ بجلب مساطبَ أخْوِنةٍ على عِجالٍ حديد، أوقفوها لصق أحد الجدران بالأطعمة عليها؛ أطعمةٍ ستُحمل في صحونٍ حديد، بتوزيعٍ عدْلٍ، إلى موائد ركاب السفينة في غدائهم الثالث· آخرون خَدَمٌ جلبوا أباريقَ حديداً إضافيةً بشرابٍ مَّا· دخلوا من الباب الجانبي، وخرجوا بحركات مُتقنَة أداءً في حَمل ماحَمَلوه، ونقْلِهِ إلى المساطب بأيدٍ، وهم يحملون تروسَهم في الأيدي الأخرى كأنها ليست في الأيدي· نهضت آتيما· ترنَّمت بصوتٍ محتبَس· تنقَّلت ـ كعادتها كلَّ غداءٍ ـ بين الموائد حتى بلغت المساطبَ متهتِّكةً بالطعوم، متبرِّجةَ المعدن بالنكهات تخمش أحِفةَ الأوعية بأظفارها الأثير· تبادلتْ والخَدمَ ابتساماتٍ، فانحناءاتٍ مقايَضَةً بابتسامات· غَمَرَ الصخبُ الطَنينُ، المكتوم، كنحلة في زجاجةٍ، المكانَ برمَّته من أحاديث تترامى، وتنكمش، في المخاطَبات· دخل القبطان هيغور تصحبه اربع فتيات بتروسهنَّ المستطيلة، المجوَّفة، عليها نَسْخٌ من رسمِ ملاكيْنِ يخنقُ الكبيرُ منهما الصغيرَ الطفلَ· قرعت إحداهن بملعقة حديد على قدح هيغور الحديد في يده، قبل إعلانه جملتَه المكرورة وقت الغداءَ: .لاتنسوا· راقِصوا الحورياتِ على موائدكم.، قال، متجهاً إلى مائدته الخاصة به وببعض مساعديه، في ركنٍ بعيد قليلاً عن موائد الركاب·

.أيكفي أن نراقصهن؟.، ساءلتْه امرأةٌ من إحدى الموائد· تطلع القبطان صوبها· رفع ترسه المثلث قليلاً، بالرسمِ الديكِ عليه:

- افعلي ماتشائين بهنَّ·

.متى ستطهو لنا واحدةً؟.، ساءلتْه الحمراء الشعر·

.حين نتصيَّد واحدة.، ردَّ هيغور مبتسماً·

.أهنَّ معنا إنْ أردنا مرافقتهنَّ، ولسنَ معنا إن أردنا أكلهنَّ؟.، ساءلتْه المرأة في محادثةٍ ساخرة الطَّبع، فردَّ هيغور:

- القانون هو القانون في هذه السفينة، أيتها السيدة·

نهض رجل من جوار المرأة عن المائدة· رفع ترسَه تحية للقبطان:

- مازالَ طعمُ غداءِ اليوم الأول تحت لساني· لِمَ لمْ يُكرِّر طُهاتُك إطعامنا مثل تلك الوجبة، ياسيد هيغور؟·

.ربما في نهاية الرحلة· ربما أذيقُكم، ثانيةً، مالم تتذوَّقوه على موائدكم قَبلاً.، ردَّ هيغور ذو الحذاءِ الأصفرِ العالي العقبيْن·

.أنا أستطيعُ احتمالَ غداءٍ متأخر جداً إنْ أطعمْتَنا، اليومَ، شيئاً مثلَ تلكَ الوجبة.، قال الرجلُ الكثيفُ اللحية·

.حسناً. ردَّ هيغور· .اختاروا راكباً.

ساد صمتٌ بالتتابع بين الموائد، كأنما تناقلتِ الألسنُ الإقتراحَ من الأقربيْنَ إلى الأبعدين· تبادل الكثيرون نظراتٍ موازينَ من اختيارهم المُحْتَمل، لكن لم يقترح أحدٌ شخصاً بعينه، بل عادوا بأبصارهم إلى هيغور يحثُّونَه على حَسْمٍ، فتفهَّمهم هيغور· رفعَ ذراعهُ اليسرى التي لاتحمل التُّرْسَ، مستويةً في الإشارةِ صوب الفتاة الصغيرة متجوِّلة بين الموائد:

- هذه الفتاة· آتيما·

اتجهت العيون نحو آتيما، التي توقفت عن مشيها قرب مائدة الأختين رامونا، وتيرين، اللتين تبنَّتْهما أُمَّيْنِ فتبنَّتاها· بادلتْ، هي نفْسُها، الآخرينَ نظرةً واسعةَ الإحاطة بالمكان·

.أريد الطاهي.، قال هيغور لأحد مرافقيْهِ، فتعجَّل المرافِقُ الخروجَ ليأتي بالطاهي البدين مرتدياً وِزْرَةً زَرَداً من الحلقات الحديد، بترسه السداسيِّ الزوايا عليه رسمُ ستة وثلاثين سكِّيناً من صِناعاتٍ خصَّ الحدَّادون الحُذَّاقُ بها طهاةَ مطابخ الملوك· صوَّب هيغور، بإشارة من يده، بصرَ الطاهي إلى آتيما: .اخترْنا هذه الفتاة. ناداها:

- تعالي، أيتها الجميلة·

ترنَّمت آتيما متقدِّمة صوبَ القبطان هيغور· ابتسم لها القبطان من فمه المتهدِّل الشفة السفلى في لحيته المدبَّبة السَّبَلة· وضع يده فوق كتف آتيما· أدارها صوبَ الطاهي ليتأمَّل الممكناتِ مذاقاً من طهوٍ مُحْتَمَل· وضع الطاهي راحة يده الحرَّة من الترس فوق خدهِ يزنُ الفتاةَ الصغيرة: .لحمُها شديدُ الغضاضة.، قال كالمتشكِّك في تدبيرٍ يُرضي خيالَ ذوقه طاهياً· أدار عينيه إلى هيغور:

- لاأفضِّل لحماَ شديدَ الغضاضة، في مرحلته النباتية لحماَ يسهل لَوْكُهُ· الشديدُ غضاضةً يُقضَم، ويُمضغُ سَهْلاً مُبتذَلَ السهولةِ بين الأسنان· أفضَلُ اللحمِ مابلغ مرتبتَه الوسطى بين حال النبات وحال اللَّيْفِ مجتَمِعيْنِ نسيجاً، يُقضمُ ويُمضغُ في اناةٍ· بقاءُ اللحم في الفم، بين الأسنان مَضْغاً، باستلذاذٍ، هو روحانيَّةٌ، لاطلبُ شَبعٍ·

تأمل هيغور عيني الطاهي متلبِّستين منطِقاً من أخلاق الطهو·

صدرتْ همهمةٌ من بين الموائد، في اعتراض خفيض، لثَني هيغور عن أخذِ منطق الطاهي حُكْماً على مُقتَرَحه في اختياره الفتاةَ· ثم صُرِفَتِ المهمةُ نُطقاً من الكلمات: .إبقَ على اختيارك، أيها القبطان، مع تقديرنا، واحتراماً لعلوم الطاهي.، قال شخصٌ مختَزِلاً أحوالَ الرغبة·

.ماذا عنَّا؟. ارتفع صوتُ رامونا، فجاءةً، بنبرنٍ رنينٍ· استوت واقفةً بترسها الدائريِّ أبيضَ عليه رسمُ أناء ممتلئ فاكهةً· .أليس لنا، أنا وأختي تيرين، رأيٌ في الأمر، مُذْ تبنَّتْنا آتيما أمَّيْنِ، ياسيد هيغور؟.

.أوه.، تمتم هيغور كالمعتذر· .بل لكما الرأيُ كلُّه، أيتها السيدة· أترْتَئِيْنَ أن نؤجل الأمر؟.، ساءلها·

.نعم· أجِّلِ الأمرَ مدَّةً.، قالت رامونا ذات الشعر المصبوغ خُصلاً شقراً وأخرى بيضاً طويلَةً· دارت بوجهها على بعض الموائد من حولها:

- دَعُوْنا نستمتع بأمومتنا أياماً، أيها الأسخياء·

الفصل الخامس

(Peachia Hastata)

لطمت إحدى بنات كاليس الحورية أختاً لها بزعنفة ذيلها لطْماً أنَّتْ منه· استدارتِ التي ضُرِبت غاضبةً إلى ضاربتها· أمسكت بها من زعنفةِ ذيلها وعضت عليها فانتهشتِ الغضروفَ الحَسَكَ الجاسئ· دارت الأختان إحداهما من حول الأخرى متهيئتين لانقضاض بالأسنان والأظافر· هبَّتْ كاليس مُعنِّفةً بنتَيْها فأطاحت بهما، معاً، بصدمةٍ موزَّعة عليهما من كتفيها إذْ توسطتهما باندفاعٍ لولبيٍّ·

عاد الانتظامُ إلى حركة السربِ الصغير بعد المشادة غير المفهومة· انْسَبْنَ انسياباً رخيَّا في تقدُّمهن، ثم أبطأنَ·غلبهنَّ احتراسٌ ظاهرٌ على بُعدٍ من دوَّامةٍ مائيَّة· ارتجْنَ قليلاً إذ مسَّهن محيطُها متَّسعاً على مركزها حلقاتٍ في الأعماق· اتَّخذن مساراً مقوَّساً لتفادي أية موجةٍ حَلَقيَّة أخرى· جاوزنَ مدارَ الدوَّامة، فعاد إليهنَّ انسيابهنَّ المتصلُ أجساداً زيتاً في الماء·

بدت الأعماقُ فارغة أمامهن إلاَّ من أبعاد الفراغ راسياً بثقل أساساته على الرملِ الأنيق أبيضَ شاحباً، انعكس على وجوه الحوريات الصغيرات شحوباً، وكذا على زعانف ظهورهن والأذيال الرمادية· أمهنَّ كاليس كانت أقرب، في لون وجهها، إلى بياضٍ مختنقٍ، وكانت زعنفة ظهرها ـ الطويلة، من أصل عصعصها حتى أصل عنقها، الخضراء المخططة حزوزاً سواداً وقرمزاً ـ أكثر تصلّباً في الثنيِّي· توقفت مرتين تُرْعِش جسدَها رعْشاً عنيفاً تتوسل به إعادة الزعنفة إلى صوابها ليِّنةً طوْعَ اللُّيِّ والتعرُّج إن تعرَّج جسدُها انسياباً وتلوَّى·

بنتان أخريان من بنات كاليس الخمس تبادلتا، فجاءةً، صفْعاً بزعنفتَيْ ذيليهما، قبل أن تمتدَّ أيديهما إلى شعريهما الأصفرين، الطويلين، تلتمسان شدَّا، من غير أن تتحكَّما فيه، متملِّصتين، كلٌّ من الأخرى، بانعطافات شديدة زَوْغاً وروغاناً· كاليس صدمتهما كصدْمِها، قبل قليل، بنتين تشاجرتا· طوَّحت بهما من اندفاعتها لولبيَّا بين جذعيهما العُلويين· تراخى عصبُ طباعِهما المشدودُ في برهته النَّزقة· عادتا منسابتين جسدين من لُطْف الإنعطافات، تتبعهما أمهما مُراقبةً بوجهها المتطاول حَفَّتْه خُصَلُ شعرها الأزرق الشديد الزرقة·

بعد إيغالٍ انسياباً فوق المدى الرمل، استوقفت كاليسُ إحدى بناتها· عاينت زعنفة ذيلها بالبثور النُّفاخات الصغيرة اتَّسع زحفُها حتى بلغ عنق الزعنفة المتصل بالذيل· لمستها تتقرَّى حجومَها· ضغطت واحدة بين سبابتها والإبهام فانفقأت عن شرارة لطيفة الجرْم صعدت أنملتين إلى أعلى ثم خَبَت· استعرضت كاليس زعانفَ أذيال بناتها الأخريات· استعرضت، بالتواءٍ على نفْسها، زعنفةَ ذيلها هي: كانت البثور مستشريةً من أطراف الزعنفة حتى

عنقها المتصل بالذيل، تماماً كالحال في زعانف أذيال بناتها، لكنْ ظلت صغيرةَ النُّفاخات لاتُلحظ إنْ لم يُلحِفِ النظرُ إليها إمعاناً·

بلا اكتراثٍ يُذكر بأمر البثور اندفعت كاليس، ثانيةً، منسابة في العمق المترامي فراغاً بأساساته على الرمل الأنيق· تخلَّفت عنها بناتُها الخمس· جرفْنَ الرملَ بأصابعهنَّ زحْفاً عليه بالبطونِ لهواً· نثرنَ حفناتٍ منهُ من حولهن فأثقلْنَ به توريَاتِ الماء الرائقةَ مُستَحلباً شاحباً من معاني المزاج المعتكِر· تماديْنَ فتمرَّغن في الرمل· طمرْنَ به أنصافهن السفلى ثابتاتٍ نباتاً حيًّا بشعرٍ أصفرَ مراوغٍ·

انعطفت كاليس إذْ رأتهنَّ لايلحقنَ بها· عادت إليهن· دارت من حولهن في المزاج الشاحب للماء سعَّره الرملُ منثوراً· روَّحت بيديها أمام وجهها تفتح في العَكَرة منفذاً لبصرها إليهن فلم تلمح إلاَّ أشباحَ عيونهن السود الكتيمة السواد، بحدقاتٍ صُفر· زاحمتهنَّ مطمورَاتِ الأنصاف دائرةً حول نفْسها زوبعةً، فانحسر الرملُ عنهن كأنْ بعثرتْهُ المراوح· تعلَّقن بذيل أمهن، وزعنفة ظهرها الخضراء· أوقفْنَها فسبقْنَها انسياباً·

خرجت كاليس وبناتها من مدار العَكَرة إلى الرائقِ الفراغ راسياً باساساته على الرمل الأنيق· تقدَّمن في حديقة جديدة من العشب البحري والصخر· أبطأنَ انسيابهن· سلَلْنَ جذورَ نباتٍ قصير يقضمْنها، وتفقَّدن في مطاوي الصخور محاراً رمادياً كسرن صَدَفاته الصلبة بأسنانهن· التهمْنَ اللَّحْمانَ الرِّخوَ في لَذاذة، بل تخاطفن ـ بعضهن من بعضٍ ـ محاراً يُكسَرُ صَدَفهُ في الأفواه بَعْدُ، وتقاذفن بالقشور فارغةً مكسورةً فضَّيةَ البواطن، قبل أن يجتمعن حول أمهنَّ فضولاً، لمَّا لمحْنَها مستغرقةً تفقأ بثوراً على أغشية زعنفة الذيل، في الحزوز بين الحَسَك الحاسئ، فَقْأً متتالياً تلحق فيه الشرارةُ النارُ الصغيرة بأختها· بادَرْن، هُن أيضاً، كلٌّ بانطواءٍ على نفْسها، إلى فَقْءِ بعض البثور النُّفاخات في زعانف أذيالهن، متتبِّعاتٍ تلك الكُرات الرقيقة النار صاعدةً، كحُباحب البَرِّ، بأبصارهن اللاهية نظراً، قبل أن تخبو· لكنهن أصغين، كأمهن، فجاءةً، إلى هدير مختنق ما لبث أن خمد· انسابت الأم سَبْحاً تجتاز حديقة العشب البحريِّ والصخر، في اتجاه مَنْشأِ الهدير المختنق، فلحقت بها بناتُها·

بعد فراغ آخرَ راسٍ بأساساته على الرمل، خلف حديقة البحر الصغيرة تلك، توضَّح الهديرُ في موجٍ مُوهَنٍ بلغ نهاياته· كاليس، وبناتها، آثرن ألا يتقدَّمن في مُعْتَرَض الموج، بالرغم من وَهَنه· تراجعن قليلاً، إلى البرزخ الهادئ لم يَمْسَسْه أضطرابٌ، ثم اندفعن، بانعطافةٍ مديدة، صوب مقصدهن· بيْدَ أن الهدير المختنق ازداد خمْشاً على الجدرانِ الماءِ في الأعماق، كأنما أسبابُه تنقبض وتنبسط من مركز مَنْشَئِهِ· تأرجحت الحورياتُ مُذْ لابَسَتهن اندفاعاتٌ محسوسة، بلا عنف، من ماءٍ يفتح ممرَّاتٍ في الماء·

تقلّب الرمل من حولهن على نفْسه طيًّا، من غير أن يتناثر أو يَهِيْج· أوغلْنَ انسياباً فجاوزنَ المحيط الرملَ إلى أرضٍ صخرٍ مستوٍ، بلا حَدَبةٍ فيه أو نَشْزٍ، رماديٍّ بصُفرة كالحة· وقفن منتصباتٍ تلامس أذيالهُن الأرض مستطلعاتٍ فراغَ البعيدِ· أدارت كاليس عينيها البيضاوين تتوسطهما حدقتان برتقاليتان على وجوه بناتها: كانت برهة حَسْمٍ، في الوقفة، أنها ستنساب قُدُماً، بسرعة، أمَداً متَّصلاً هذه المرة· رعَّشتْ زعنفةَ ذيلها رَعَشاً قويًّا· انطلقت مقذوفةً بعنف الدَّفع· تبعتها بناتُها منقذفاتٍ في انسيابهنَّ المتماوج مضبوطاً باقتدار أعضائهن اللحم المتماوجةِ زعانفَ وأيدٍ·

اندفاعتهن القويةُ، الصارمةُ قراراً، أُلْجمتْ بعد فرسخٍ واحد في محيط الخلاء الصخر· لم يَعُدِ الهديرُ، الذي سمعنه مختنقاً قبلاً، هديراً حَسْبُ، بل رؤيا مائية: كانت شلالات صغيرة سبعة، مُتجاورة، تستقرُّ مساقطُها من الأعالي على الأرض الصخر· لابرَّ من حول ذلك المحيط، الذي هُنَّ فيه، كي تُحْسَبَ الشلالاتُ منسكبةً على الأعماق من سفحٍ في جبل، أو من شاهقٍ صُلبٍ يعلو البحرَ· البرُّ بعيد· لكنَّ الشلالات كانت هناك، في العُرْض السحيقِ المائيِّ، تبلغ أذيالُ مساقطها الأرضَ فتلتفُّ في السقوط القويِّ مرتدَّةً على نفْسها عَقْفاً كخطاطيفَ ماءٍ تُرى في مرآةٍ ماءٍ·

لم تصادف كاليس قبلاً، في عبورها بحر تريتونفال ـ بحرَ الشمال النهائي، شلالات كهذه بلا مصادر جَرَتْ بها أنهارٌ في الأرض قبل انسكابها، من عَلٍ، على المياه· الحورية الأم أشارت على بناتها، بالنطق الصامت من عينيها، أن يلبثنَ واقفاتٍ حيث هُنَّ، فيما اهتزت زعنفةُ ذيلها دفْعاً بجسدها المديد إلى أعلى·

رويداً رويداً برز رأسُ كاليس أزرقَ، شديدَ الزُّرقةِ فوق سطح ماء البحر، أكتنفه شعرُها من جهاته كلها مبلولاً ملتزقاً· باعدت بأناملها، الطويلة الأظافرِ صفراً، شعرَها عن عينيها فجبهتها· تنفَّست من منخريها فتطاير الماءُ في هبوب أنفاسها رذاذاً· سرَّحتْ بصرَها على الغَمْرِ تستوضح مجرى المساكب ماءً شلالاتٍ، فاتَّضح المُسْتَوْضَح: لامساكبَ من جُرْفٍ عالٍ، أو من شاهقٍ سفحٍ، بل دَورةٌ على نفْسها من عِجَالٍ نواعيرَ مائية هائلة، تغرف الماء فترفعه أعلى فتسكبه سَكْباً يخترق السطحَ حتى الأعماقِ الصخرِ تحت المياه· عِجالٌ شفيفة من حالها المائية كعِجال العربات، مغمورةٌ أنصافُها تحت السطح، ظاهرةٌ الأنصاف الأخرى فوق السطح· عِجالٌ تدور على مراكزها عموديًّا دوراتٍ ثابتةً متصلةً، بصوتٍ هديرٍ من صعود الماء فانهياره، من أعلى، بثقل الحجوم المغروفةِ هائلةً·

غاص رأس كاليس مراراً، وَطَفا، في الموج حلقاتٍ أجَّجها متلاحقةً سَكْبُ النواعير المائيةِ الماءَ من الشاهق الماء· غطست الحورية· ارتفعت زعنفة ذيلها البرتقالية فوق السطح إذْ نكَّست جسدَها، منسابةً إلى العمق حيث بناتُها،

اللواتي دبَّ الشجارُ، ثانيةً، في اثنتين منهن، انكبَّتْ إحداهما عضًّا على زعنفة ظهر أختها· أسرعت كاليس مندفعةً· صفعتْهما بزعنفةِ ذيلها صفْعاً صرعهما برهةً قبل أن تستفيقا مُوْهَنتين· دارت دورةً خاطفة من حول بناتها الثلاث الأُخريات بوعيدٍ من فمها المفتوح حَنَقاً، كأنما تزجرهنَّ ردْعاً عن شجارٍ مُحتَمل· ضربت الأرضَ الصخرَ بقبضتيها مبالغةً في وعيدها· انبثقت فقاعاتٌ صغيرة من مُؤْقَيْ عينيها باعتصار الغضب فيهما خصيةَ الغضب· صفعت بزعنفة ذيلِها الفراغَ السائلَ فانقذف جسدُها رَشْقاً· انقذفت، من خلفها، أجسادُ بناتها الخمس سهاماً زيتاً·

عبرت كاليس وبناتُها المياهَ متلاطمةً، في الأعماق، بانحدار الشلالات الصغيرة إلى غاية مَسَاقطها· لم يحذرْنَ عنفَ انسكاب المياه في الفتوق الكبيرة للمياه· خرقْنَ بأجسادهنَّ الشلالات السبعة متجاورةً بفراغات قليلة البُعد بين الواحد والآخر· أنعشهنَّ الصخبُ الثقيل بأحماله المُعتَصِرة أعضاءَهنَّ ـ أحمالِهِ المياه سقوطاً جامحاً· تقافزن فوق الجسور المائية وتراقصن تحتها· دُرْنَ مع الحوَّامات على محيط المَسَاقط السبعة للشلالات السبعة· قاوَمْنَ دفْع المياه لهنَّ إلى أسفلٍ يخْتبرنَ قُواهنَّ· صَمَدْنَ حيناً، واستسلمن حيناً· صعدن الشلالات عكْساً· انحدرْنَ في مجاري انحدارها· تعِبْنَ لهواً· ابتعدن قليلاً عن المجاثم الهائجة للمَسَاقط· تراخيْنَ مستلقياتٍ بظهورهن على الأرض الصخر· أغمضنَ عيونهن محدِّقاتٍ بأبصار قلوبهنَّ إلى ماءٍ غريقٍ في ماءٍ·

بعد حينٍ من اشتغال أجسادهنَّ على رَفَاهة استجمامها الساكن بلا حراكٍ، عاودتْ أذيالُهن حنينَ الحركة فانبرت كالمراوح في الأيدي صَفْعاً على الفراغ السائل· تثنَّتِ الأجسادُ، وماجتْ، وتعاطفَتْ· انْسَبْنَ متجهاتٍ إلى غايتهنَّ من بحر تريتونفال·

انقذفتْ بنتان من بنات كاليس، فجاءةً، إذْ صدمتهما حورية سوداء، مرقَّطةٌ نُكَتاً بيْضاً· كانت مذعورة، مرتعدةً ذعراً، تفتح فَمَها وتغلقه على ألمٍ حريقٍ· دارت حول نفْسها كأنْ تحاول إمساكاً بزعنفة ذيلها الصفراء· صدمتِ الأرضَ بانعطافةٍ طائشة· تقلَّبت أمام أبصار الحوريَّات الستِّ، اللواتي لمحن زعنفةَ ظهرها البيضاء ممزَّقة قِطعاً مفقودةً، وأخرى معلَّقةً، بَعْدُ، ببعض الجلد إلى جسدها·

سكنتِ الحوريةُ السوداء لحظة من مرأى كاليس وبناتها، قبل أن تفتح فمَها، من جديد، بتأجيج الألم حريقَهُ نفْخاً· ماجتْ· تلوَّتْ· انسابت مذعورةً كما ظهرت، هاربةً مما لن تعرفه كاليس وبناتُها، قَطُّ، في رحلتهن إلى عُرْض تريتونفال· تصاعدت فقاعاتٌ صغيرة من خيالِ ماءٍ غريقٍ في ماءٍ·

الفصل السادس

(Sargassum Hosnshuchi)

.فسادُ الحروف في الكلمات يصيبها بعاهةٍ مُزمنة.، قال الموسيقيُّ جوراك، الخفيف الشعر من تساقطٍ مَّا· بدا شاحباً قليلاً، متباطئ النطق في صوته العاديِّ النَّبْرِ·

.ما أدراكَ بهذا، يا ابنَ الصوت؟.، ساءله هِيْز مرتشفاً من القدح الحديد شراباً· .الحروف فاسدةٌ، أبداً، مذْ تخيَّل الإنسانُ تهجئتَها· لكنها تتعافى في الكلمات.، أضاف الشاعر، الممسك بترسه المستطيل، الأبيض، عليه رسْمُ نِمالٍ بألوان شتَّى·

.أسمعت هذا المنطق، يا بارو؟.، سأل الموسيقيُّ جوراك رفيقَه الرَسامَ جالساً إلى جواره على الأريكة القوسية الحديدِ في حانة السفينة· .كيف للحروف الفاسدة أن تتعافى حين تنتظم في كلمات؟ حروفٌ فاسدة لايتحصَّل منها غيرُ كلماتٍ فاسدة.

تلمَّس بارو، بنفْسه، توضيحاً من هيز في منطقه عن الحروف معتلَّةً فاسدة، ومعافاةً:

- أعنيتَ أنَّ اجتماعَ الحروف، وهي عليلة فاسدة، يستأنس بعضُها ببعض فتتعافى صالحةً؟·

نقل هيز وجهَه بين رفيقيه على الأريكة القوسية في الحانة التي تفصل بين الأرائك فيها سُتُرٌ سلاسِلُ رقيقة من الزرد الحديد تتدلى من قضبان رقيقة في السقف طولاً وعرضاً: .منذ متى صِرتما عالِميْنِ في مباحث الحروف، وعللها، وأسقامها، وصحَّتها، وشقائها، وسَعْدها، ورفاهتها، وضائقتها، وسُخامها، ونظافة أقدامها، ولواطِها، وسِحَاقها، وملابسها الداخلية؟.، ساءلهما· أردفَ: .أحدُكما إانُ اللون، والآخر ابنُ الصوت· لم تبلغا، بعدُ، العمرَ الذي تكتشفان فيه أنَّ الحروفَ بناطيلُ.

.ماذا؟.، ساءله جوراك بنبرٍ مستهزئ· ألوى شفته السفلى·

.النار ليست على ما يرام.، قالت سيدارو من الأريكة المجاورة تقاسمتْها مع ساكون، زوجة أولاك الممثل، وكاتب الأقاصيص سينيكوس، وسيميال أخت الموسيقي الصامتة، مُذ لاتتسع لجمعهم أريكةٌ واحدة· .النار، في الحمام، تزداد وَهناً.، اردفت بصوتٍ هادئ وهي تخلِّلُ شعرَها الأسود صِبغةً، القصيرَ، بأصابع يدها، فيما استقرت سلَّتها بالأفاعي السبع لصقها ـ لصق الترس في اليد الأخرى·

لم يلتفت أحدٌ إلى شكوى سيدارو· ساءل ابنُها الشاعرَ هيز:

- في أيِّ عمر نبلغُ اكتشافَ البناطيل؟·

.حين تعرف أن الحروفَ مقيمة في ما لا تعرف.، قال هيز·

.وأيُّ ضَيْرٍ إنْ عرفتُ أو لم أعرف، ياهيز؟.، ردَّ بارو ناقلاً ترسه برسْمِ الإنسان ذي الرأس الثور إلى يده الأخرى· شرب من قدحه الحديد· .يكفينيَ اللون· يكفيني الصوت. غمز صاحبَه جوراك الموسيقيَّ· .أيُّ حروفٍ في ما نتخاطبُ به الآن؟ نحن نتبادل كُتلاً صوتية.

.أنت رسامٌ تصلح أن تكون موسيقيًّا، يابارو.، قال جوراك الشاحب قليلاً في ثَناءٍ على الرسام·. هؤلاء الكَتَبةُ ينتزعون الاعترافَ من الكلمات عنوةً باغتصابها، أو بتحطيم أضلاعها، أو بإغراقها في براميل الماء.

استدار سينيكوس، القصَّاص، بجنبه على الأريكة الملاصقة بظهرها لأريكة المتخاطبيْنَ في شؤون الحروف· باعدَ بين السلاسل الرقيقة الزرد ـ الستارة بين ظهري الأريكتين· حدَّق إلى جوراك:

- أأنا أسمع شحوبَك ناطقاً، أمْ هو صوتُك ياجوراك؟ نحن لاتُرغم الكلمات على الإدلاء باعترافٍ كالأسرى· هذا شأن الموسيقيين أمثالك·

.أعرفُك تحبُّ الموسيقى، ياسينيكوس.، ردَّ جوراك مستهجناً·

.أحبها، قطعاً، أكثر من عشيقاتي.، قال سينيكوس· .أحبُّها كأول عذراء سلختُ عُمر فرجها بشفرة لساني.

غمغمت ساكون ذات الصوت الخجول مختبئاً حياءً في الحروف:

- لسانك عنيفٌ اليوم، ياسينيكوس·

.كألواننا.، ردَّ سينيكوس· توجَّه بالصوت إلى بارو بعد إفراغ مافي قدحه عَبًّا:

- أينفع طلاءُ الرسم في ردِّ هذا الشحوب عن وجوهنا قليلاً؟·

.يُعادُ رسمُكم.، ردَّ بارو· .بألوان شاحبة يُعاد رسمكم· أنتم في دورةٍ من خَلْقٍ جديد.

.هذا إعلان حرب.، قال هيز·

.ممَّن على مَنْ؟.، ساءله أولاك الممثل، الجالس على الأريكة ذاتها·

.عمَّ كنَّا نتحدَّث؟.، ردَّ هيز كالشارد بلا إنذار·

هزَّ جوراك رأسَه استخفافاً:

- هرب هيز إلى كلمات قلبه المهجورة الحروف·

.بل إلى موسيقى قلبه. ردَّ سينيكوس· .الموسيقى الأكثر صمتاً في صخبها. حدَّق إلى جوراك مليًّا:

- ماالطبل؟·

قطَّب جوراك بين حاجبيه: .الطبل؟!.، تساءل· .أأنت تمرِّن الكلمات على إقامةٍ في صوتك؟· تقدَّمْ بطلبِ لجوءٍ لها إلى دائرة الهجرة أوَّلاً.

رَبَت سينيكوس بيده على فخذ سيميال الصامتة: .جوراك لايعْرِف الطبل، لذا يُقْحِم دائرةَ الهجرة في موضوعنا. التفت إلى الخلف، عبر ظهر الأريكة متطلِّعاً إلى الموسيقي:

- أأنت من أصولٍ مهاجرةٍ، أمْ كنتَ موظفاً في دائرة الهجرة، قبل انتقالك إلى مسلخ الموسيقا؟·

.مسلخ الموسيقا؟!!.، تمتم جوراك· رفع ترسَه الدائري، المسنَّن الأحفَّة، الأسود عليه رسْمُ نجمتينِ بياضٍ· .تبدو الكلماتُ، في فمك، إمَّا هاربة من حرب، أو من مجاعة، أو تبحث عنْ عمل في السوق السوداء.

.تعجبني السوقُ السوداء هذه.، قال هيز باستخفاف· .ما عملُ الكلمات في السوق السوداء، ياجوراك؟.

.عملُها هو هذا الذي تكتبانه، أنت وسينيكوس· الكتابة سوق سوداء.، ردَّ جوراك·

.أرى العقولَ كلَّها أسواقاً سُوداً.، تمتمت ساكون البيضاءُ الناصعة البياض، البالغة نهايات عقدها الرابع·

.لاتفكري كثيراً، ياعزيزتي، حتى نسمع رأيَ جوراك في الطبل.، قال الممثل أولاك زوج ساكون· استدار بوجهه، في مجلسه على الأريكة، إلى الموسيقيِّ:

- ماالطبل، حقًّا؟·

.أأنت تنحاز إلى هيز؟.، ساءله بارو الرسام باستغراب·

.أنحازُ إلى الطبل.، ردَّ أولاك·

.أدخِلْه في طبل، ياجوراك.، قال بارو· .أولاك، نفْسُه، صوتٌ، وها هو يتنكَّر لنفْسه وينحاز إلى سينيكوس وهيز.

.أإنْ سألتُ جوراك جواباً في تعريف الطبل، صنَّفَتني صوتاً، يابارو؟· أنت من مدرسةٍ في اللون تبشِّر بالإستبداد.، قال أولاك·

.وماذا أنت إنْ لم تكن صوتاً محضاً، ياأولاك؟ كلُّ ماتفعله، في أدائك الأدوار على المسرح، هو التوسُّع في سيادة الصوت، وتمجيد انتصاره· كيانُك لايُرى إلاَّ صوتاً.، قال بارو·

.وماذا عن الأداء الصامت، يابارو؟.، ساءله أولاك·

.هو صوتٌ صامتٌ تسمعه العين.، ردَّ بارو·

أفرغ أولاك قدحَ شرابه عبَّا متَّصلاً· وضع القدح الحديد الفارغ بقسوة على المنضدة الحديد أمام الأريكة:

- أنتما على حق، ياسينيكوس وهيز· جوراك عاجز عن تعريف الطبل·

مال هيز جانبيًّا· مدَّ يده إلى الستارة الزرد فباعد بين سلاسلها في خشخشةٍ: .لماذا أنت صامتة ياسيميال؟.، قال بصوت مرتفع· .أنجدي أخاكِ بتعريفٍ للطبل.

قاطع أولاك جليسَه هيز:

- ربما هي دَعْمٌ لنا· لاتستثِرْها فتنحاز إلى أخيها·

.أوه.، تمتم هيز مستدرِكاً· .أنت تحبين الأشعار، ياسيميال.

.أحب الأشعار.، ردَّت سيميال من جانب ترسها المربع، الأخضر، برسْمٍ عيونٍ لاتُحصى، زرقٍ، لها أهداب ذهبية·

.أنتِ لا تحبين الأشعار.، قال أخوها جوراك، فردَّت سيميال:

- أنت تحب الأشعار، أيضاً·

.لم أعد أحبها.، ردَّ جوراك· قرع بحافة ترسه المنضدةَ الحديدَ: .أين النادل؟.، تساءل منفعلاً· .لماذا لايجلب سطلاً من الشراب عوضاً عن استبدال الأقداح الفارغة بملأى؟.

.قلْ له أن يجلب طبلاً من خليط المُسْكِرات· سنشرب الصوتَ.، قال بارو· رفع قدحه عالياً:

- نَخْبُ الصوت·

.نخبُ الطبل.، قال هيز· أردف: .البحرُ طبلُ الأرض.

.أهذا تعريفك للطبل، ياابن الكلمات؟.، ساءله جوراك· .الطبل هو المكان المفتوح بلا حدود· هو معركة.

.الطبل ليس من الموسيقا، إذاً· الموسيقا ليست معركة.، قال بارو·

.بل كل موسيقى هي معركة· والطبلُ توقيعٌ بالحروف النافرة على وثيقة استسلام الأعداء.، قال جوراك·

.حروف نافرة؟.، تساءل سينيكوس· .مابك انزلقتَ على وحل الصوت إلى حفرة الحروف؟ لا أمل لك في النجاة من الكلمة.

.الصوتُ أبُ الكلمات، وأمُّ الحروف· لم أنزلق على وحل خيالك، بَعْدُ، كانزلاق الحروف عليه.، ردَّ جوراك·

جاء النادل بصحْفة واسعة تعلوها الأقداح يحملها على راحة يد، ويحمل ترسه بالأخرى· انحنى، فتسلَّم كلُّ شاربٍ، من جلساء الأريكتين، قدحاً مليئاً، وأعاد الفارغ إلى الصحْفة·

.جِئْنا بطبلٍ مليءٍ شراباً.، قال بارو للشاب النادل الوسيم· ابتسم النادل متفهِّماً الطَّلبَ النَّهم· تهامست ساكون وسيدارو، فتلقَّف سينيكوس بعضَ الحروف المنتعشة رغبةً· .أعجبكما النادل.، همس كحال صوتيهما· مال على سيميال: .أأعجبكِ أيضاً؟.

ارتعشت أهدابُ سيميال الشُّقرُ المستعارة· أمالت رأسَها بالشعر الأشقر الطويل مضفوراً جدائل لا تُحصى من مفرقٍ في الوسط· تمتمت:

- لحمٌ مدهش·

.لحمٌ مدهش يصنع أخلاقاً مدهشةً.، قالت ساكون المتقلِّصةُ الشفة العليا عن أسنانها·

.من أيِّ دَوْرٍ اقتبستِ هذا السطر المدهش؟.، ساءلها سينيكوس·

.اقتبستُه من لحم النادل· لحمٌ متناسق يصنع أخلاقاً متناسقة للجَمال.، قالت·

.لا أخلاقَ في الجمال، بل عَرْبدة· اللحم يصنع أخلاقاً للالتهام· ألا تظنين ذلك؟.، ساءلها بارو·

.اللحم أصلُ الأخلاق كلها.، قالت ساكون·

.أهذا إلهامٌ من لحم زوجكِ أولاك؟.، تساءل هيز لَمْزاً· قرع بقدحه الحديد قدحَ جوراك: .أوافقُ ساكون· اللحم هو الأصل، لا الحروف؛ لاالصوت.

.وماذا عن قصيدتك المدهشة، التي وعدتنا بها؟ أهَزَمَها اللحم؟.، ساءله جوراك من فمه المستطيل، ذي الشفتين المفتوحتين أبداً·

.دعِ الشعرَ جانباً، الآن، ياجوراك· ثمَّت بزوغٌ لعصر جديد من الكشوف.، قال هيز من مجلسه· نادى: .ساكون· أكملي· نحن في عصر اللحم.

.لا عصرَ للحم· تنتهي العصور بأحوالها، وأهوائها، وأزيائها، وسياستها· اللحم لاينتهي: هو الوقتُ.، قالت ساكون· قرعت بقدحها قدحَ جليستها سيدارو: .ماذا ترين، يا صديقتي؟.، ساءلتْها·

نظرت سيدارو جانبيًّا إلى سلَّتها القصب برهةً· عادت فألقت بصرَها إلى ساكون، ثم مطَّت عنقها مائلةَ الرأس تستجلي سيميال الجالسة على طرف الأريكة القوسية:

- اللحم يصنع بتناسقه جسداً مدهشاً، لا الأخلاقَ· جسدُك مدهش، ياسيميال·

ابتسمت سيميال من فمِها المنتفخ الشفة العليا· خفضت رأسها تستطلع ببصرها جسدَها، متفقِّدةً كمائنَ مدهِشهِ· هزَّت رأسها كأنها لاتوافق سيدارو:

- جسدي عَضَلٌ·

.لكِ جسدُ رجلٍ مدهشٌ.، قالت سيدارو·

صدمتْها ساكون بكتفها لكْزاً خفيفاً على مزاحٍ:

- سيميال امرأة· أخلاقُ ذوقك تتراقص، ياسيدارو·

.يشبه لحمُها لحمَ رجل· لذوقي أخلاقُ حَكَمٍ على الراقصين.، قالت سيدارو·

نهض بارو عن الأريكة المقابلةِ بظهرها الأريكةَ الأخرى حيث تجلس أمه· انحنى موسِّعاً بإصبعه بين سلاسل الستارة الفاصلة:

- استمرِّي ياأمي· ضعي أخلاقَ اللحم، وأخلاقَ العقل جانباً، واستمرِّي·

.فيمَ عليها أن تستمرَّ، يا ابنَ اللون؟.، ساءله سينيكوس· : .تدبَّر لأمك لحماً كي تستمرَّ.

.ماذا كانت أُقصوصتك الأخيرة؟.، ساءله بارو وهو لايزال منحنياً، بصوتٍ فيه نبْرٌ من الهزو الدفين·

.أمُّك في مأزق، لا أقصوصتي.، ردَّ سينيكوس·

تنحنح بارو يدلِّكُ صوتَه بزيت المنطق: .أأنتِ في مأزق، يا أمي؟.، ساءلها متكئاً، في انحناءته، على حافة ترسه العليا، فوق الأريكة·

.لستُ في مأزق.، ردت سيدارو· رفعت غطاءَ سلَّتها قليلاً تستطلع الأفاعي الهادئة في الظلام الرمادي·

.أهو وقتُ إرضاع أولادك، ياسيدارو؟.، ساءلها سينيكوس· .اسْقَيْها قليلاً من كحولك كي تشاركنا الخيالَ في تعريف اللحم. قرع بحافة ترسه المستطيل، ذي الرسم العِظاءة، أرضَ الحانة المعدنَ:

- ما الكحول؟·

.هذيانُ الآلهة مُذْ صدَّقتْ أنها آلهة.، ردَّ أولاك·

.أهذا سطرٌ من أحد أدوارك؟.، ساءله سينيكوس·

.نعم.، ردَّ أولاك الممثل· .سطرٌ من دَوْري كلما أمسكتُ قدحاً· انا أُلَقَّنُ حين أشرب· الكحول تُلقِّنُ.

.للكحول أخلاقٌ كأخلاق اللحم.، قال بارو وقد استقام بعد انحناء، من غير أن يجلس على الأريكة·

.أنت تخطئ التركيب في الكلمات، يابارو.، قال سينيكوس· .اللحمُ صانعُ أخلاقٍ· لكنْ لاأخلاقَ للحم· العدْلُ الغامض، الذي يوزِّعُ اللحمَ متناسقاً على جسدٍ، مدهشاً، يجعل اللحمَ موزِّعَ أخلاقٍ على الجَمال· لاأخلاقَ للحم، بل موازين متنافرة الحجوم يكيل بها مقادير الطبائع، التي يوزِّعها على الحقائق. نهض عن الأريكة بترسه المستطيل المقوَّس في يد، وبالقدح في الأخرى· تمايلَ قليلاً ثم اتَّزنَ: .لحمٌ شهيٌّ، على جسد، يُحيلُ المعجبَ به رقيقاً، مهذَّباً في تودُّده توسُّلاً للفوز باللذة· لحم شهي، متَّسِقٌ نَحْتاً على جسدٍ، لحمٌ معذِّبٌ من فداحة القسوة في جاذبيته· لحمٌ شهي، مفصَّل بمقص الخياط الحاذق، على جسد، لحمٌ يثير اليأس لمن يعرف أن حظوظَه من الإغواء معدومة· لحم شهي، مفرطٌ في حصوله على النهائيِّ من اقتدار اللحم على الغواية، يجعلك تُحسُّ أنك ضعت نهائيًّا، بالقَدَر المخذول في لحمك الذي لايغوي. تنفَّس· عبَّ الشرابَ من قدحه· تمايلَ· .أنت.، قال مخاطباً شبحاً في غمام فكرته: .أنتَ، إذْ تجابه لحماً شهياً على مقاس شهوتك إلى تحصيل اللذة من جسدٍ، تصير إمَّا ودوداً، أو مغتصِباً، أو معذَّباً، أو يائساً، أو تائهاً، أو قاتلاً. مدَّ ذراعَه بترسه صائحاً: .خُذْ ترسي؟.

حدَّق إليه الجلساء الناعسو الأعين قليلاً من خفقات الشراب خالطتْ خفْقَ قلوبهم· بادره بارو مُذْ رأى القاصَّ ممدود الذراع بترسه إلى لأحدٍ:

ـ إلى من تمدُّ ترسك، ياسينيكوس؟·

.إليَّ.، ردَّ سينيكوس· .إليَّ· إلى اللحم ـ قياس الأخلاق الأخير: أخلاق الجسد، وأخلاق الطِّباع، وأخلاق المشيئة، وأخلاق الوقتِ، وأخلاق الإيمان بدِيْنٍ من لحمٍ متناسقٍ يؤكل لَعْقاً، ولمساً، وتقبيلاً، وعضًّا، والتهاماً بأسنان الخصية. جلس على الأريكة مُستنْفَداً·

.منذ متى لم تلمس امرأة؟.، ساءلتْه ساكون بعد هياج لسانه وصْفاً في متعة التهام اللحم، فردَّ سينيكوس وهو يميل بارتخاءٍ صوبها، على الأريكة: .منذ الآن.، قال· وضع يده بالقدح فيها على فخذ ساكون· ابتسم منتصراً· استدار إلى سيميال الجالسة على طرف الأريكة بعينين متراخيتيِّ الأجفان:

- سأهيئُ نفْسي لإغواء سيميال·

.الأفضل أن تغويني أوَّلاً.، قال جوراك من وراء الستارة· أردفَ بصوته العاديِّ النَّبْر: .لم تكن كلماتك في اللحم تخصُّ لحمك، ياسينيكوس· لحمك ليس شهيًّا كما أرى.

.سيصير شهيًّا ذات يوم.، ردَّ سينيكوس بصوت خافت، محدِّقاً إلى قدحه في يده·

.بعد الموت.، قال جوراك·

.بعد الحياة· قبل اللاحياة.، ردَّ سينيكوس·

خشخش الزَّرَدُ في سلاسل الستارة المعدن بين الأريكتين إذْ باعدتْها يدُ جوراك، لينظر عن كثب إلى سينيكوس:

- أنت بعد الحياة، وقبل اللاحياة، كالرسمِ العظايةِ على ترسك·

ضربت سيميال يدَ أخيها بظاهر يدها كأنما تريده أن يُفلِت سلاسل الستارة، فافلتها جوراك· تمتم من ورائها مخاطباً سينيكوس:

- في أية مرحلة من مراحل أخلاق اللحم أنتَ؟·

.في المرحلة الأقرب إلى أخلاق جسدَيْ رامونا، وتيرين.، ردَّ سينيكوس·

.ماذا؟.، تساءل أولاك· .لماذا تُقحم إبنتيَّ في هذيانك، ياسينيكوس؟.

.هذياني؟ هاأنت تنحاز إلى جوراك، وبارو، ضدي، وضد هيز.، قال سينيكوس بلسانٍ ثقيل مطرِقاً ينظر إلى قدحه·

.لماذا أقحمتَ ابنتيَّ في فكرتك المعذَّبة؟ لو كانتا هنا لسلختا كلماتك.، قال جوراك، فهدَّأهُ هيز: .لماذا تحتدم يا أولاك؟ لا شتيمة، أو تعيير، أو إهانة، في كلمات سينيكوس عن أخلاق جسديهما. نادى بصوت عال من وراء الستارةِ الحلقاتِ الحديدِ:

- ماذا عنيتَ، ياسينيكوس؟·

.أين رامونا، وتيرين، الآن؟.، تساءل سينيكوس من غير أن يعني أحداً بسؤاله، فردَّت أمهما ساكون، الجالسة على الأريكة ذاتها:

- لماذا لاتنهض وتبحث عنهما، ياسينيكوس؟·

.بعد قدحين، أو ثلاثة ربما، سأبحث عنهما، ليس في هذه الحانة بالطبع، أو المرقَص، أو في قاعة معرض الرسوم، أو في المكتبة، أو في المطعم، أو على مُشْرَف السفينة، أو في جيبي، أو تحت هذا الترس. قرع بقدحه باطن الترس حيث يمسك بالمقبض· .بل في مقصورتهما مع اثنين، أو ثلاثة، أو أربعة من ملائكة قبيلة الشطرنج الرُّوْقةِ الحِسَان· سأتمرَّغ معهم في أخلاق جسدَيْ تيرين، ورامونا.

نهضت ساكون قائمة، في هدوء· سكبت الشرابَ من قدحها على رأسه الأصلع، القصير الشعر جداً على جنباته·

شهق سينيكوس لا غير· بقي ساكناً، مستسلماً لخيوط الشراب منسابةً على أذنيه، و رقبته، وصدغيه، ولَحْيَيْهِ· مدَّ لسانَه يتسقَّط قطرةً منحدرة على عِرْنين أنفه· سقطت القطرة لم يتلقَّفها لسانُه· ابتسمَ· رفع وجهه متكاسلاً ليرى

أولاك محدِّقاَ إليه من خلل سلاسل الستارة الزَّرد· تمتم: .افْعَلْها أنتَ أيضاَ. نقر بحافة ترسه المنضدةَ الحديد:

- أين النادل؟ أين النادلة؟·

.خُذْ قدحي.، قالت سيدارو· مدت إليه قدحَها المليءَ نصفاً· عبَّ سينيكوس مافيه مبتلَّ الرأس· تكلمَ:

- سألني جوراك في أيِّ مرحلة أنا من مراحل أخلاق اللحم، وقد أجبتُه· في أيِّ مرحلة أنتَ، ياأولاك؟

.لا أخلاقَ للحم، بل يصنع أخلاقاً.، قال بارو بصوتٍ مثلوم قليلاً من تتالي الرَّشف· ارتعش فجاءةً: .لمسَ خاطري مذاقُ اللحم في غدائنا الأول على هذه السفينة· متى سيفعلها القبطان ثانيةً؟ لقد أطعمنا، ابنُ البحر، حقًّا، ما لم يخطر ببال موائدنا قبلاً· سأطلب الطعام ذاته غداً.

.لماذا لاتطلبه الآن؟.، ساءله هيز·

.الآن؟ ماذا تعني؟ أنهينا عشاءنا قبل أكثر من ساعة.، ردَّ بارو· مدَّ يده جانبيًّا فلمس كتف جوراك:

- أتستطيع نقلَ مذاقِ ذلك اللحم، في غدائنا الأول، إلى موسيقى؟·

.لم أرَ وجهَ الشابة التي ذُبحت بترس زميلها.، ردَّ جوراك·

.وجه الشابة؟ أنا سأصفه لك· لقد سألتك عن ترجمة مذاق لحمها إلى موسيقى.، قال بارو·

.أريد شيئاً من أحاسيسها أوَّلاً.، قال جوراك·

.اختلِقْ أحاسيسَ لها في صوت طبل.، قال هيز ساخراً· .إنْ لم تستطعْ سأختلقُ أنا أحاسيسَها أمامك، ياجوراك· كانت الشابة بلا أحاسيس.

.أحاسيسُ بلا أحاسيس· ذلك، حقًّا، وصْفُ شَعرها الأشقر إلى درجة البياض.، قال بارو· .دعْكَ من هيز، ياجوراك· كانت الشابة مرتاحة، كأنها تؤدي دَوْراً للمرة الألف، بثقة فائضة في الأداء. مدَّ عنقه صوب أولاك:

- ألم تكن الشابة كمن تؤدي دوراً في مسرح؟·

.ربما· علي أن أستعيد المشهدَ.، قال أولاك· نادى زوجته من وراء الستارةِ الزَّردِ المعدن:

- أَلَحَظتِ شيئاً من ذلك، ياساكون؟·

.حصل الأمر في سرعة.، ردت ساكون· تسلَّمتْ قدحاً جديداً من النادلة جاءتهم بصحفة عليها أقداح ملأى، على راحة إحدى يديها، ممسكة ترسها بالأخرى·

وزعتْها على جلساء الأريكتين تتبعها تنهُّداتٌ متلاحقة من سينيكوس وهيز بسُعار الرغبة غيرِ ملجومة· ابتسمت لهما النادلة· ابتسمت أكثر إذ لمستها سيميال، نفْسُها، من باطن فخذها اليمنى، تحت الثوب القصير معلناً جسارة لحمها الأبيض نقيًّا·

.ياه.، همست ساكون بعد رشفة من قدحها كأنها تذكرت، لَمْحاً، شرارةً في مجرى الرماد: .غمزتِ الشابةُ زميلها، الذي ذبحها بترسه.، قالت· خالجها شكٌّ في ملحوظِ ما رأتْ: .أمْ تهيَّأ لي ذلك؟.

.كان الشاب أجمل منها.، تمتمت سيدارو·

.ستأكلينه، قَطْعاً.، قال سينيكوس، الذي تلقَّط همسها، بالرغم من استرخاءأجفانه· مسح رأسَه بمنديلٍ ورقٍ: .سأطلب، بنفسي، من القبطان، أن يطهو ذلك الشاب.

.أضِفْ إلى طلبك، ياسينيكوس، أن يعرض القبطانُ الشابَّ علينا لنتفحَّص أحاسيسَه جيداً.، قال جوراك·

.سأفعل.، ردَّ سينيكوس· .ربَّما مكَّنك ذلك من ترجمة اللحم إلى موسيقى لصديقك بارو.

.ألم يقترح القبطان أن تكون الفتاة الصغيرة غداءَنا، لكنَّ الطاهي أفشَلَ المُفْتَرَح؟.، تساءلت ساكون بصوتها المختبئ حياءً في الحروف، فالتفت إليها سينيكوس:

- أبهذا الصوت المفرط في رقَّته الخجولة تصعدين خشبةَ المسرح؟·

.تصعد الخشبةَ على قدميها، ياسينيكوس· ليس لصوتها أقدامٌ تصعد بها إلى أيِّ مكان.، ردَّ أولاك مستبقاً زوجته·

نهضت ساكون عن الأريكة· باعدت بأناملها بين سلاسل الستارة· حدَّقت إلى زوجها:

- أصعد أدواري كلَّها بأقدام صوتي· بل أستطيع الصعود بأقدام صوتي العشْرِ حيث أشاء·

ضرب هيز بقدحه المنضدةَ الحديد مبتهجاً:

- أعيريني هذا السطرَ لقصيدتي القادمة، ياساكون·

.إذا أقنعتَ الطاهي.، ردَّت ساكون وهي تعود جالسة على الأريكة·

.أظنُّها مهمَّةَ سينيكوس أن يُقنِع القبطان هيغور بذبح الطاهي، إن لم يقبل الطاهي بطهو الفتاة الصغيرة غداءً.، قال هيز·

.الطاهي يفكر مثلكما، أنت وسينيكوس.، تدخَّل بارو بصوتٍ عالٍ، متباطئ·
.حوَّل موضوع طهوه إلى فرع من عِلْم النبات، والألياف، والفَلَك، والتاريخ، والجغرافيا، والاقتصاد،· إنه مدرَّب عناكب.

.الطهاة مدرِّبو عناكب· نعم.، تمتمت سيميال متراخية بعد قدحها الثامن·

ساد صمتٌ على الأريكتين· لم يكن إصغاءً منهم إلى ماقالته سيميال، بل دورةً أكملت طِباقَ منطقها على رحلة الشراب متَّصلاً منذ العشاء· تبادلوا نظراتٍ كسلى، مبتورةً، مقتصَدةً في صرْف الرؤية، منحنيةً ثقلاً· تلقطوا، في هدنة خيالهم، شذرات من صخب روَّاد الحانة·

تمتم هيز مكلِّماً نفْسَه، على الأرجح، بصوت خافت:

- سأُقْنع مدرِّب الذُّباب·

التفت إليه جوراك يستحثُّ خيالَه الشاحبَ على النَّكْتِ بعُودٍ في تراب المعنى:

- بمَ نمتحن أنفسَنا عادةً؟·

نظر إليه هيز متلقِّفاً خواءَ الكلمات· مرَّر لسانَه على شاربيه الرقيقين·

.نمتحن أنفسنا بأكثر الأسئلةِ طفوليَّةً، مثل: لماذا الأحمرُ أحمرُ وليس بُنِّيًّا؟.، ردَّ جوراك بجوابٍ على سؤاله المُبتَكرِ هوَ·

حرَّك الخَواءُ الجديدُ بخارَ مَنْطقه على ضفة الكلمات· تكلَّم بارو:

- لماذا لاتستخدمان الهواءَ كحبرٍ، ياهيز وسينيكوس؟·

.استخدمه الأنبياء.، ردَّ سينيكوس· .لذا يتنفَّس الناسُ اللهَ.

- من أكثر ذكاءً من الآخر: القَدَمُ أَمِ الإسكافيُّ، ياسينيكوس؟·

- القبائلُ التي تنسى أعمارها، ياباروـ القبائلُ التي يبيْضُ ذكورُها تسعَ بيضاتٍ في السنة، والنساءُ ثلاثاً، هي الأذكى·

- الغموض كالكالسيوم يجعل العظامَ أقوى، وكذلك قشورَ البَيْضِ، ياسينيكوس·

.قفزات بارو طويلة بين السطور· ليس كالرسامين.، قال هيز·

.ساقا خيالي طويلتان.، ردَّ بارو بصوتٍ عالٍ· رفع وجهه بغتةً من نقْرٍ قويٍّ على الأرض المعدن· ألفى القزمَ ملكاه رافعاً ترسه المثلث الصغير، الأسود عليه رسْمُ جرادةٍ بين ثديين ناهدين، بحلمتين مبالَغٍ في انتصابهما، يحدِّق إليه من المعبر الضيق بين سطور الأرائك· ربما كان قادماً يتلمَّس أريكة له ولقدحه الضخم ذي المقبض، وللمرأة اللَّفَّاء الفخذين واقفة إلى جواره· أطلقَ صوتَه الأخنَّ ملتمعاً باستياءٍ:

- ماذا قلتَ؟ ساقان طويلتان؟·

.ساقا خيالي.، ردَّ بارو مستغرباً بلسانٍ وَسْنان·

.أألمحْتَ بذلك، سخريةً، إلى ساقيَّ؟.، ساءله ملكاه القزم وقد أمال برأسه الكبير منتظراً ردَّا·

.ساقاك؟.، تمتم بارو· .مابهما ساقاك؟. وطَّأَ بصرَه ينظر إلى ساقَيْ ملكاه· ابتسم· رفع وجهه عموديًّا إليه: .أعجبني حذاؤك.، قال بإشارة إلى حذاء القزم العالي الأخمصين والعقبين عشرة سنتيمترات· نادى من أريكته الأريكةَ الأخرى:

- سيميال· تطلَّعي إلى حذاء هذا السيد· إنه يناسبك·

مالت سيميال بجذعها عن طرف الأريكة صوب المعبر مستقيماً بين الأرائك، متَّصلاً في نهايته بمسطبة الشراب يقف وراءها النُّدُلُ· حدَّقت إلى حذاء ملكاه·

.أتبيعني حذاءَك، أيها السيد؟.، سأل بارو القزمَ ملكاه·

.قلتَ شيئاً عن ساقيَّ.، قال ملكاه لبارو، وقد وضعت المرأةُ اللَّقَّاءُ الفخذين يدها على كتفه بالقدح فيها تهدِّئُه·

.قال شيئاً عن ساقَيْ خياله، ايها السيد.، ردَّت سيدارو مستبقةً ابنَها·

.لماذا تذكَّر ساقَيْ خياله في البرهة التي كنتُ أعبر فيها قرب هذه الأريكة؟.، تساءل ملكاه· أرخى كتفَه بالترس بعد رفعه متأهِّباً·

نهضت سيدارو· تقدمت خطوتين متجاوزةً الأريكة إلى المعبر بين الأرائك· واجهتِ القزمَ· حدَّقت إلى ساقيه:

- هما قصيرتان، لا تذكِّران بساقين طويلتين·

.أهما قصيرتان حقًّا؟.، تمتم ملكاه كالمتصنِّع أن يتذكَّر أمراً فاته·

.هما قصيرتان كعضو العنكبوت.، قال بارو مهتاجاً بالرغم من خَدَر أعضائه· .بِعْني حذاءك كي أهديه إلى سيميال أو أرِني ساقيك، أو إمْضِ.

رفع ملكاه القدحَ الضخم إلى فمه· عبَّ الشراب· التفت بوجهه عالياً إلى المرأة اللقَّاء الفخذين:

- صِفي لهذا السيد ساقيَّ حين تكونين متمدِّدة تحتي، ياليالو·

غمغمت المرأةُ الطويلة، المنتفخة الشفتين صناعةً:

- له ساقا باريس اللتان حمل بهما هيلين راكضاً·

.راكضاً؟!!.، تمتم ملكاه كالموبِّخ: .حملها في سفينة إلى طروادة، وليس راكضاً، ياليالو.

.نسيتُ.، ردَّت ليالو· ارتشفت شراباً من قدحها في كسل·

.كيف تنسين ماأسردهُ عليكِ قبل كل سباق، بساقيَّ هاتين، على الطُرق هنا. لمس بقدحه الضخم جسد ليالو في موضع فرجها تحت الثوب القصير· حدَّق من جديد إلى بارو:

- أتعرف باريس بن بريامُوس، أيها السيد؟·

.مَنْ؟.، تمتم بارو، فعاجله ملكاه ساخراً، متطلِّعاً إلى علياء المرأة معه:

- هو لايعرف باريس ابنَ القحبة· مااسم أمِّه، ياليالو؟·

.لا أعرف.، ردَّت ليالو، لامباليةً·

.ليكنِ اسمها ليالو.، قال ملكاه·

.هذا ليس اسمَ أمه· هذا اسمي.، قالت ليالو· طرقت بمقدَّم حذائها البرتقالي، ذي العقبين الأبيضين العاليين، عقبَ حذاء ملكاه·

.أعتذرُ.، قال ملكاه بعينين على بارو، الذي وضع قدحه على المنضدة، واشار بيده كأنه يصرِف القزمَ:

- ألن تجد لنفسك أريكة تستريح عليها من قدحك الضخم هذا؟·

.أفضِّلُ الوقوف في الممر.، ردَّ ملكاه بتحدٍّ·

.انضمَّ إلينا.، قال جوراك مقترِحاً، بلسان يكاد يلتصق بباطن فمه، وهو ينظر إلى فخْذَيْ ليالو في ثوبها القصير، فردَّ ملكاه:

- أفضِّل الممرَّ·

.أنت تضيِّقُ على العابرين.، قال أولاك، فردَّ ملكاه بعينين على بارو:

- فلينتظروا كجيش اسْبارتا: فليصنعوا أحصنة خشباً يطيرون على ظهورها من فوقي·

.أوه.، غمغم سينيكوس· .مرحباً، ياسيد يوليسيس.

تقدَّم ملكاه خطوةً يستجلي الأريكةَ الأخرى· نقل بصرَه على النساء الثلاث، ثم استقرَّ به على سينيكوس:

- أأنت تخاطبني؟·

.أخاطب السيد هوميروس.، ردَّ سينيكوس·

.لماذا لا تخاطبني أنا؟.، ساءله ملكاه بجحوظٍ أكثر في عينيه·

نقر هيز بحافة ترسه المنضدةَ أمام الأريكة· تمتم: .هِيْه.، مخاطباً ملكاه· .ألن تجلس، أو تنصرف يافسوةَ حصان طروادة؟ أمْ تريد حرباً كاللوطي باريس بن

برياموس؟.

لكزت ليالو بمقدَّم حذائها عقبَ حذاء ملكاه تحثه على الانصراف، فاحتدم القزم أكثر:

- أمن أجل حربٍ خطف باريسُ هيلينَ، أيها العنصريُّ؟·

.عنصريٌّ؟!!.، تمتم هيز مستقبحاً القزم· نقل عينيه الناعستين على جلساء أريكة أولاك، وبارو، وجوراك· مال برأسه يستجلي القزمَ بادياً له بنصفه من الممر، بوقوفه في الحدِّ بين الأريكتين:

- أأنت تحاصرنا، يافُساء حصان طروادة؟ لن تؤكل ولو طُهيتَ بتوابل الصين كلها·

.أنت عنصريٌّ.، غمغم ملكاه مُغْضَباً بصوته الأخَنِّ·

.نعم. ردَّ هيز· .لا يعجبني لونُ فرْج هيلين، التي أغرقت طروادةَ في منيِّ باريس.

.أنت عنصري.، كرَّر ملكاه· عبَّ شراباً من قدحه الضخم ذي المقبض·

.في الأرجح أنَّ باريس كان يكره طروادة، فخطف هيلين إليها ليُغرقها في منيِّه· إنها أسهلُ حالةِ تدميرٍ لمدينة في تاريخ الأساطير.، قال هيز·

.أنت تتحدث كبلهاء طروادة.، قال ملكاه·

.أتحدَّث بلهاءُ طروادة كحديث هيز الآن، ياابنَ الصوت الطويل الساقين؟.، سأل بارو القزمَ، فردَّ القزم:

ـ اسْمعْ ياصاحب الخيال الطويل الساقين· ماسمك؟·

- بارو·

.اسمي ملكاه، ياصاحب الخيال الطويل الساقين· اسْمعْني جيداً: قَبَّل باريسُ عشيقتَه هيلين نصفَ قُبلة في اسْبارتا· خطفها ليُتِمَّ نصفَها الآخر في طروادة· هذا هو كلُّ مافي الأمر· لو كنتُ أنا باريس، وسمعتُ بلهاء يستنكرون لِمَ خطفتُ هيلين، لصرختُ بهم: مابكم، ياأهل طروادة القذرين؟ لو عرف شعبٌ ماذا تعني قُبلَةٌ لم تُسْتكْمَل من فم هيلين لتمنَّى أن ينتحر من أجل أن أنهيها·

.ألهذا انتحرت طروادة، ياكاه؟.، ساءله بارو، فردَّ القزم موبِّخاً:

- اسمي ملكاه·

.حسناً، ياكاه ملكاه· لو كنت، أنتَ، باريس بن برياموس الحمار، لقلتُ لكَ: عُضَّ هيلين من فرجها، ودعْها تعَضُّ قضيبك، فلربما أقفل هوميروس، بعد سماع صراخيكما، بابَ الأسطورة.، قال بارو·

.كلكم عنصريون.، تمتم ملكاه بصريفٍ من أسنانه حَنَقاً· .تعالي.، قال لرفيقته ليالو·

تتبَّع بارو القزمَ ورفيقتَه بكلماتٍ من لسانه الثقيل:

- هشِّمْ بعضَ مناضد الحانة، واصنعْ حصاناً حديداً كهذه السفينة، ياطويل الساقين·

تمتمت سيدارو:

- ياللفخذين!!

التقط هيز همسَها فَجَاراها:

- يالإلهِ الفخذين·

.ماالذي تفعلهُ فخذا امرأةٍ كهاتين مع قزم؟.، تساءلت سيدارو بإلماحٍ إلى فخذي ليالو الطويلتين، اللفَّاوين·

.مابكم؟.، تنهَّد جوراك مُنَكَّسَ الرأس قليلاً من ثقل الفراغ في شرابه: .كلنا لاحظنا هاتين الفخذين في أنحاء السفينة مُذْ صعدناها، فلماذا تشهقون، الآن، إعجاباً؟.

.هناك، أبداً، ياجوراك، برهةٌ هي الأنسبُ في تاريخ الخيال للإعتراف بحقائقَ لطالما كانت جالسةً قرب أحدنا ولم يلتفت إليها· هذه برهةُ اعترافٍ أنضجتْها نظرتي، الآن، إلى فخذَيْ هذه المرأة· إنهما أول فخذَيْ إمرأةٍ أراهما.، قال هيز·

تنحنح بارو بعينين نصف مغمضتين:

- أريْهِ فخذيك، ياسيميال·

.أرِهِ فخذَيْ أمك، يابارو.، قال جوراك محتدماً·

جاهد بارو في فتح أجفانه أكثر، مستغرباً:

- مابك تحتدم سريعاً اليوم؟ تستطيع سيميال أن ترد·

.لم أسمع ردَّ أمك، يابارو.، قال جوراك· .ماأحوال فخذيك، ياسيدتي سيدارو؟.

.إهدأْ.، ردت سيدارو من الأريكة المعاكسة·

.حرب الحلفاء.، تمتم سينيكوس· .اللونُ يُزاحم الصوتَ على المملكة.

بادله هيز تحريضاً من الأريكة المعاكسة:

- مَنْ وُجِدَ أولاً، ياسينيكوس: الصوت أَمِ اللون؟·

.وُجِدتْ حروبِ الأشقَّاء أوَّلاً، ياهيز، ثم حروب الشقيقات أولاً، ثم حروب الآباء والأمهات أولاً، ثم حروب الحلفاء أولاً، ثم حروب المَطْهَر الأخير بين اللون

والصوت أولاً.، ردَّ سينيكوس· نقر بعقب قدحه الحديد المنضدةَ الحديد: .ربما كانت الأمور على النحو التالي، ياهيز: وُلِدَت الموسيقا الأكثر جلالاً إلى جوار الحروب الأكثر جلالاً.

.وُلدتِ الموسيقى إلى جوار الخوف من الدِّيْن.، قال أولاك الممثل·

.الدِّينُ ينتصر بالموسيقى، فكيف تلد الموسيقى إلى جوار الخوف من الدِّين؟.، تساءل جوراك·

.لا هذا، ولا ذاك.، قال هيز· .الموسيقا الأكثر جلالاً هي اعترافُ الإله بعجزه عن الظهور في الصوت، بل في الكلمات.

.هذه أول مرة أسمع الصوابَ في صوت هيز.، قال جوراك· .يعجز الله عن الظهور في الصوت فيظهر في الكلمات· أتعرف لماذا، ياهيز؟ الكلماتُ متسامحة· الصوت لايتسامح.

.الموسيقا إلهامُ الله· هما لايتفارقان.، قال بارو، فردَّ جوراك:

- أخطأتَ هذه المرة، ياحليفي· الموسيقى إلحادٌ صوتيٌّ، فكيف تكون إلهاماً من الله؟ ربما في حالٍ واحدة، يابارو: إذا كان الإلحادُ إلهاماً من الله·

.ماالموسيقا، إذاً؟.، سأل بارو صاحبَه جوراك المتوافق معه·

.الهلع. ردَّ جوراك·

.أنت، ياجوراك، تخرج من مأزق لتدخل مأزقاً.، قال سينيكوس· .ماتصنيفُك غيرُ المُقْنع هذا للموسيقا؟.

.ماالموسيقا إن لم تكن مأزقاً، أو مُعضِلة؟.، رد جوراك·

.يليق بك مُعْتَقَدُ الموسيقا المأزقِ، ياجوراك.، قال سينيكوس·

.علينا مجاراة الله في الخروج من مأزق للدخول إلى مأزق.، ردَّ جوراك·

.لكن الله يبدو مرتاحاً.، قال سينيكوس؟ أضاف: .إنه بلا مأزق. فردَّ جوراك:

- هكذا يبدو في الكلمات، لافي الصوت·

.حليفُك جوراك يحلِّق، يابارو، كقزم طروادة.، قال هيز·

.كقزم طروادة الجالس في هذه الحانة؛ كهيلين طروادة؛ كباريس طروادة؛ كحرب طروادة؛ كحصان طروادة؛ كسفن طروادة· لايهم· إنَّه يحلِّق، وهذا يكفي.، ردَّ بارو، فمال هيز إمالةً كاد يسقط الاثنان منها عن الأريكة، متشبِّثين بقدحيهما والترسيْنِ· تمتم الشاعر:

- ما اللونُ الأصفر؟·

.هو ما أستطيع أن أتسلَّقه.، ردَّ الرسام بارو·

- تتسلقه إلى أين، يابارو؟·

- إلى الأرجوانيِّ، ياهيز·

.أعِرْني هذا السطرَ لقصيدتي، يابارو.، قال هيز مستلطفاً ردَّ الرسام· نهض واقفاً يترنح· ضمَّ ترسَه بالرسومِ النِّمال إلى صدره· رفع صوتَه:

.سَرَقتْ أكثر الشواطئ حزناً في تاريخ المياه ـ شاطئ بحر هيلاكريتوثينيس،

وتركتِ السفنَ للرحَّالة·

سَرَقتِ الترابَ من حوض الورد·

لم تسرقِ الكنزَ، بل الإبريقَ النحاس·

لم تسرقْ قلبي، بل سرقتْ يدي·

سرقتْ حظيرةَ الخنازير جداراً جداراً· سرقتْ بابَ الحظيرةِ الخشبَ· سَرَقَتِ المذاودَ الخمسة، وحوضَ السَّقيِ، والسقفَ، والسماءَ فوق الحظيرة، وتركتِ الخنازير في العراء·

هي لم تسرقِ الجوادَ، بل حدوةَ قائمته الخلفية اليسرى،

وشعرتيْنِ من ذيله·

لم تسرقِ الوسادةَ المحشوة ريشاً ذهباً، وأقماراً ريشاً، ومتاهاتٍ ريشاً، بل الرسمَ التطريزَ على غلافها ـ الرسمَ الهرَّةَ·

لم تسرقِ الجهاتِ، بل ديكَ الريح المعدنيَّ·

لم تسرقِ المرآةَ، بل آخرَ صورةٍ لها في المرآة·

لم تسرقِ المجدَ، بل رسائلَ الجريح إلى أمه·

سَرَقَتْ محبرةَ العَدَم،

وورقته الخشنةَ،

ومنضدةَ أشباحه الشعراء،

وكلماتِه المدوَّنةَ معتدلةً في المنطق،

ومعقولَه الأنيقَ كالثغرةِ في النهاية·

لم تسرقِ الحديقةَ،

بل مقاعدَ الحديقة وممرَّاتِها·

لم تسرق البحرَ،

بل موجَ البحر، وجزائرَ البحر·

لم تسرقِ السماءَ،
بلِ الغيومَ في جهة السماء الشرقية·
لم تسرقِ الليلَ،
بل الظلامَ معبَّأً في جيوب المشرَّدِ وكيسه القُماش·
لم تَسرقِ النهارَ،
بل فجرَه، وصباحَه، والساعةَ الثانيةَ ممَّا قبل المغيب·
لم تسرقِ الريحَ،
بل المدنَ التي في طريق الريح·
لم تسرقني بعْدُ،
لأنها ليست في الأرضِ هذه؛
ليست قريبة من السماء هذه؛
ليستْ على مدخل الجهاتِ إليَّ·
هي لامِنْ هنا،
ولا من هناك·
هي ليستْ ماهي،
بل ماتسرِقُ.
رفع قدحه، في بطءٍ ثقيل، إلى فمه· ضحك جوراك:
- من أيةِ مَدْرسةٍ في اللصوصية استلهمتَ شِعرك هذا، ياهيز؟·
.من مَدْرسة الحياة.، ردَّ هيزٍ وهو يتكئ، مترنِّحاً، بحافة ترسه السفلى على الأريكة، ثم يجلس متكاسِلاً· اضطربَ الشرابُ في قدحه فانسكب بعضُ القليلِ من حافته· لعق حافةَ القدح بلسانه· تمتم: .يابظرَ الفردوس.
.ماالفردوس؟.، تساءلت سيميال من مجلسها على الأريكة الأخرى، فردَّ هيز مستنسخاً سؤالَها:
- ماالفردوس؟·
.الفردوسُ مكانُ مراقبةِ سلوك الله، أخيراً.، ردَّ سينيكوس·
رنَّ المعدنُ قويًّا في ارتطام تروسٍ بعضِها ببعض· تعالى صوتُ ملكاةَ الأخنُّ عويلاً: .ياقلوبَ العناكب. امتزجَ اللغطُ في قدح الفراغ·

.هناك عراك.، تمتمت سيدارو· نهض بارو، وأولاك، عن الأريكة صوب المَعْبَر يستجليان نهايته حيث اتجه ملكاه وليالو· بقي الآخرون جالسين مُذ لم تكن الستائرُ الزَّردُ تسمح برؤية شيء إن نهضوا·

.إلى هنا.، صرخ ملكاه· كان يتقدَّم في المعبر إلى الفسحة الواسعة أمام مسطبة الحانة حيث يخدم النُّدُلُ الجالسيْنَ على الكراسي الحديد الدائرية، والواقفين· .هنا· المكان أكثر سعة للعراك.، قال بصوته الأخنّ· .سأذبح أحداً.

ظهرت ليالو تلحق به مهدِّئة، فيما القزم يلحُّ على أشخاص أن يتبعوه إلى الفسحة· كادت سيدارو تسأل المرأةَ اللفَّاء الفخذين عما يجري، لكنها لم تتمكن لسرعة عبورها من خلف ملكاه· تمتمت: .ماذا هناك، يابارو؟.، سألت إبنَها·

.تلاسنٌ مَّا بين القزم وشبان من قبيلة الشطرنج.، ردَّ بارو· عاد جالساً·

.فلْنلحقْ بالقزم.، قال سينيكوس· .هذا عِراكُ العصر.

.وماذا عن قصيدتي؟.، هتف هيز بالجميع من رأسه المنكَّس ثِقلاً·

.ماذا عن قصيدتك؟ ألم تنته منها؟.، ساءله جوراك· اضاف: .أوافقك ياسينيكوس· فلنتفرَّج على العراك. نهض·

رفع هيز يده مستوقِفاً· تراخى جسده أكثر ببصره على القدح في يده:

.كُلُّ كلمة قلتُها، قُلتها خطأً·

كل نظرة منِّي إليكِ كانت نظرةً خطأً·

كل لمسة منِّي لأعطافك كانت لمسةً خطأً·

كنتِ خطأً في الوجود، فبادلتُكِ كلَّ شيءٍ خطأٍ بكل شيءٍ في وجودٍ خطأٍ:

هكذا أعدْنا إلى الخطأِ كبرياءَه.

انفرط عقدُ الجلساء على أريكة هيز· مضوا في الممر إلى الفسحة يلحق بهم جلساء الأريكة المعاكسة· تحلَّقوا، كالمتحلِّقين قرب المسطبة ـ الفاصل بين فضاء الحانة ورفوف الشراب وراء النُّدُل، من حول ملكاه هائجاً يهدِّئه ثلاثة من شبان قبيلة الشطرنج لايريدون الخوض في عراك بالتِّرَسة· أما القزمُ فاسترسل صدْماً بترسه تروسَهم وهم يتحامونه من غير عنف·

.ياقلوبَ العناكب.، دمدم القزم غاضباً، يتقدَّم قرْعاً ويتراجع·

.إنه يستعير منك ماعيَّرتَهُ به.، همس أولاك في أذن سينيكوس·

.يستعير ماذا؟.، ساءله سينيكوس·

.قلوب العناكب.، ردَّ أولاك·

.بارو عيَّرَ القزمَ واصفاً إياه بزُبِّ العنكبوت.، قال سينيكوس؟ .القزم يستعير الجملةَ من بارو مُحرَّفةً.

.ادفعْهم، ياطويل الساقين.، صرخت سيدارو بالقزم، حاملةً سلَّة الأفاعي بيد، والترسَ بالأخرى، تحرِّضه ضد الثلاثة الشبان يواجهونه متَّقيْنَ ترسه بلا رغبة في مجاراته قرْعاً بتروسهم· .إهدأ.، كان أحدهم يصرخ بملكاه· .لم ألمس فخذَ ملكتِكَ.

مال سينيكوس على سيدارو:

- مابكِ؟ كنتِ، قبل قليل، ذاهلةَ القلب في وسامة نادلٍ أقلَّ جمالاً من هؤلاء الشبان، وهاأنتِ تحرِّضين القزمَ عليهم·

.جَمَالٌ لاحظَّ لنا في التلذُّذ به جمالٌ يُنَكَّل به.، ردت سيدارو وقد عَلَت عينيها ومضةٌ متوحشة·

لم يَدُم القِراعُ بظاهرِ التِّرَسة طويلاً· نايورا، دهقان قبيلة الشطرنج، حشر ترسَه الدائريَّ، المسنَّنَ الأحفة، ذا الرسم الدماغ بتلافيفَ زرقاء، بين ترس ملكاه وتِرَسَة الثلاثة الشبان، الأقل إفراطاً من القزم في الهياج، والدوران كثور نِزَالِ الحَلَبات·

.أبعِدْ ترسَك.، صرخ ملكاه بنايورا· .سأهشم بعضَ الوجوه الليلة.

.حسناً، ايها السيد· ماذا فعلوا؟.، ساءله نايورا·

.تحرَّشوا بصديقتي.، ردَّ ملكاه· .أحدهم لمسَ صديقتي.

.منْ منهم؟.، ساءلهُ نايورا وقد لجمَ بظاهر ترسهِ التصاقاً ترسَ ملكاه·

.لا أعرف· أحدهم.، ردَّ ملكاه·

.ما التعويض الذي تريده؟ سيعتذرون إلى صديقتك، وإليك.، قال نايورا·

تراجع القزم قليلاً· نظر إلى ليالو يستشيرها بعينيه في مايتوجب فعلُه بعد عرْض نايورا· حمحم حَنَقاً· رفع وجهه إلى دهقان قبيلة الشطرنج: .لا أقبل اعتذاراً· سأكمل هذه المعركة في وقتٍ آخر.، قال· مشى بطيئاً، متردِّد الخطو، كأنما يلحُّ عليه قلبه أن يعود إلى الشجار· مدَّت إليه ليالو قدحه الكبير حملتْه طوالَ وقوفها في حلبة الحانة· تناول ملكاه القدح بيده· حرَّك كتفَ الذراع التي يحمل بيدها ترسه· وقع بصرُه على سيميال، التي رفعت قدحَها نَخْبه· هدأ خيالُه· تراخى عَصَبُ الإهانة· اقترب منها متمهِّلاً· ابتسم من فمه الواسع، الكبير الشفتين: .أعِدُك بكلِّ مافي الوجود من أشباح الأقزام مثلي عبيداً يخدمونك حتى نهاية الحياةِ بعدَ الحياة، إنْ منحتِني قُبلةً.، قال بصوته الأخنِّ·

دفعتْه ليالو لَكّزاَ خفيفاَ تصرِفُه فانصرفَ يتبعها· ألقى نظرةً إلى الوراء على شبَّان الشطرنج· تمتم:

- يازِبَبَةَ العناكب·

.كان سريعاً هذا الشجار.، قالت سيدارو خائبةً· لكنَّ خيبتَها استعادت شيئاً من الأمل في شجارٍ آخر بمجيء القبطان هيغور محتدماً، شاحباً:

- شبَّانك كثيرو الصخب·

.كثيرو الصخب؟.، غمغم نايورا بصوتٍ ذي مُسنَّناتٍ كترسه· .ماذا جرى للنار في حماماتنا، ياهيغور؟ ام لم تعُدْ مهتمًّا مُذْ صرنا غرقى؟.

.لاتبدو لي كغريق.، ردَّ هيغور، ذو القبعة الرمادية المستديرة اندلق شعرُه أبيضَ من أحقَّتِها سَبْطاً· .بل تبدو كجرحٍ.، أردفَ·

.الخدمة في هذه السفينة ستحيلنا، جميعاً، جراحاً· حمَّاماتٌ موهَنةُ النار لا تُنعشُ، بل تجرح· الجراحُ غاضبةٌ، عادةً، ياهيغور.، قال نايورا الطويل، الممتلئ الجسم، بصوته العميق المتمهِّل·

- أكُلُّ الجراحِ غاضبةٌ، يانايورا؟·

ـ كلُّ الجراح غاضبة، ياهيغور·

- حتى الخدوش الصغيرة، يانايورا؟·

- الخدوش الصغيرة هي الأكثر غضباً، ياهيغور·

.تعال· اجلس.، قال هيغور مشيراً على نايورا بالجلوس إلى كرسي مستدير أمامَ مسطبة خدمةِ الشراب في الحانة·

.أُفضِّل الوقوف.، ردَّ نايورا· .الشُّرْبُ وقوفاً تمرينٌ على شُرْبٍ آخر.

همهمت سيدارو خائبةً من جديد· .لاشِجار.، قالت لساكون·

.فلنخرجْ من الحانة.، اقترح أولاك·

خرج بارو، وأمه، وأولاك وزوجُه، وسيميال وأخوها جوراك، وسينيكوس، وهيز، من الحانة بأقداحهم في أيديهم إلاَّ أمَّ الرسام شُغِلَتْ يدُها الأخرى بحمْل سلَّتها· توقفوا برهة إذ التقوا، في المدخل، برامونا وتيرين، ابنتي أولاك، مسترسلتيْن، معاً، في إلقاءِ سطورٍ من دَوْر مَّا متداخلةً، بصوتٍ هامس، متَّصل· هزَّتا رأسيهما تحيةً للثُّلة، متجهتين إلى مسطبة خدمة الشراب· أكملت الثلةُ انسحابها قبل أن تتوقف، ثانيةً، من عبور الفتاة الصغيرة آتيما بهم، تصحب رجلاً وامرأة يحملان ترسين بلا لونٍ غير لونِ حديدهما· انحنت لهم فتصنَّعوا انحناءً·

.هذان أبواي.، قالت آتيما·

ابتسموا· جاوزوها مغادرين· دخلت آتيما الحانةَ برفيقيها ـ المرأةِ في عقدها الرابع، والرجل في عقده الخامس، اللذيْنِ التقتهما يومَها الأول على السفينة، على مدخل المكتبة صامتيْنِ جاهدت أن تستدرجهما إلى مُحادثَةٍ فلم يُستدرَجا· .تعالا.، قالت لهما، وهي تقودهما إلى مسطبة الحانة ـ الفاصلِ بين الروَّاد والنُّدُلِ السُّقاة·

.ماذا تريدان شراباً؟.، ساءلتْهما· ظلاَّ صامتين·

مدَّت آتيما عنقها صوب الأختين رامونا وتيرين· .ماذا تشربان؟.، ساءلتهما· أشارت تيرين بإصبعها إلى زجاجة خضراء على رفٍّ قريب·

.ثلاثة أقداح من ذاك الشراب.، قالت آتيما لنادلة شقراء، مشيرة بإصبعها إلى الزجاجة الخضراء·

سُكِبَ الشرابُ أخضرَ في أقداحٍ حديدٍ اعتقلتِ اللونَ بقيود الصُّلبِ المُصْمَتِ في معدنها· .نخبكما.، قالت الفتاة الصغيرة· شربت بِلْعَةً· أصغت، كبعض المصغين، بالرغم من صخب الحانة، إلى نايورا محتدماً: .نحن غرقى، وأنت لاتعترف.

.سأعترف حين أرى شبانك، هؤلاء، يأكلون حجارة الشطرنج.، ردَّ هيغور·

دمدم بعضٌ من شبان قبيلة الشطرنج استياءً· نقروا بأصابعهم على وجوه التِّرَسة·

نقر شُبَّانٌ من مرافقي القبطان على التِّرسَة، بدورهم، ردًّا·

ترنمت آتيما· حملت قدحها ومشت به إلى الممثلتين الأختين رامونا وتيرين· وضعت القدح بين قدحيهما، تماماً، على مسطبة الحانة: .اشربا ما في قدحي نخبَ هذه السفينة.، قالت· انحنت لهما· .مامن واحدة منكما هي ابنةُ أولاك.، أضافت· عادت أدراجها صوبَ الرجل والمرأة صامتين يرتشفان الشراب من قدحيهما·

علا صوتُ نايورا، الذي لم يهدأ، بنبرِ المتفاجئ: .أرأيتَ، ياهيغور؟.، قال· .هذان تبادلا ترسيهما. أشار بيده الممسكة بالقدح إلى الرجل والمرأة الصامتين· التفتت إليه آتيما مستغربةً إشارتَه، فيما استمرَّ دهقانُ قبيلة الشطرنج مسترسلاً في دَهَشِه: .تبادلا ترسيهما· لايحدث هذا إلاَّ في الأمم الغرقى. وضع قدحه على المسطبة: .اعترِفْ أننا غرقى، ياهيغور.

ضيَّقت آتيما بين أجفانها تحاصر نايورا بسؤال بصرها:

- أأنت تشير إلى هذين؟ هما أبواي لثلاثة ايام، ياسيد نايورا·

حدَّق هيغور إلى آتيما من موضعه قرب مسطبة الحانة واقفاً· أومأ إليها برأسه أن تقترب، فاقتربت آتيما· وضع هيغور يده على كتفها· مشى بها خطوتين مبتعداً عن نايورا يختلي بها· ابتسم هامساً:

- أتبنَّيتِ هذين أبوين؟·

.قد أتبنَّاك، أنت أيضاً، أباً، قبل نهاية الرحلة، ياسيد هيغور.، همست آتيما تُجاريه·

.اسمعي.، قال هيغور بعينين أرسلهما إلى الرجل والمرأة الصامتين:

- إنه يثور سريعاً· انتبهي·

.مَنْ؟ الرجل؟.، تساءلت آتيما·

- نعم·

- ماذا تعني، ياسيد هيغور؟·

- يثور فجاءةً بلا داعٍ· أخبرتني مترجمتُه بذلك·

.مترجمتُه؟!.، تساءلت آتيما بصوتٍ على نبرِهِ الهامس بَعْدُ· .مَنْ مترجمتُه؟.

.أمك.، ردَّ هيغور مبتسماً· .المرأة التي معه· أمُّ الثلاثة الأيام.

.أليست زوجته، أو صديقته، أو أخته، ربما؟.، تساءلت آتيما· حدقت إلى عيني هيغور الزرقاوين تخالطهما صُفرةٌ خلف نظارته: .مترجمتُه؟! ماذا تعني؟.

.هو غريب لايعرف لغتنا· وقد اتَّخذَ هذه المرأةَ مترجمةً. قرَّب رأسَه من رأس آتيما· تمتم: .هو أعمى.

ابتسمت آتيما كأنْ تلقَّت فكاهةً· حوَّلت بصرَها إلى الرجل الصامت، الحليق الرأس تماماً· تمتمت: .أعمى؟!! أنت تمزح، ياسيد هيغور.

- بل هو أعمى، ياآتيما·

.لا· لا.، همست آتيما· .أول مرة رأيتُه كان محدِّقاً إلى ألواح الكتابة على باب المكتبة· كلَّمتُه فنظر إليَّ· هو لايتكلَّم، لكنه ينظر إلى كل مكان· حين سألتهما البارحةَ أن يكونا أبويَّ، تأمَّلني· عيناه ليستا عيني أعمى، ياسيد هيغور· لاعصا معه، ولاتقوده المرأةُ من يده· أنت تمزح.

.هل كلَّمك، ياآتيما؟.، ساءلها هيغور·

.لا.، ردَّت آتيما·

.هو لايراك.، قال هيغور·

- هو لايسمعني، ربما، ياسيد هيغور·

- بل لايراك، ياآتيما·

.أأنت تمتحن فطنتي، ياسيد هيغوور؟ هو يسمع من عينيه، ولأنَّ عينيه لاتريان، فهو لايسمعني· أهو قصدك؟.، قالت آتيما· تصنَّعت ضحكاً: .مادمتُ أسمع فأنا أرى بأذنيَّ.

.هو أعمى· خذي الأمرَ على هذا النحو.، قال هيغور وهو يهمُّ بالرجوع إلى نايورا·

.لم اسمع المرأةَ تترجم شيئاً له، ياسيد هيغور· ماذ يفعل على هذه السفينة؟.، ساءلتْه آتيما·

.يفعل ماتفعلونه· إنه في الرحلة ليشهد رقصَ حوريات البحر.، ردَّ هيغور·

.بأية عينين سيشهد رقصَها، ياسيد هيغور؟.، ساءلته آتيما، فرد القبطان ذو الإنحناءة في ظهره:

- بعينَيْ مترجمته·

لَحِقَ بصرُ آتيما بخطوَتَيْ هيغور خطاهما إلى مسطبة الحانة ليجاور نايورا، الذي أشار إليها:

- تعالي، أيتها الفتاة الجميلة·

.لستُ جميلة.، ردَّت آتيما من بُعْدِها القيل عنه·

.متى سنأكلكِ؟.، رفع نايورا صوته ليجاوزَ به صخبَ الشاربين وقوفاً وجلوساً أمام مسطبة الحانة ـ الفاصلِ بين فضائها والسَّقَّائين·

.هذه ليست مشكلتي.، ردت آتيما· .إنها مشكلة الطاهي. مشت صوب الرجل والمرأة الصامتين·

.سنأكلك· سنأكل الطاهي.، قال نايورا· ضرب بعقب قدحه الحديدِ مسطبةَ الحانةِ الحديدَ: .وقد نأكل هيغور أيضاً.

.ستأكلني حين ننتهي من طهوِ آخر شابٍّ في قطيعك.، قال هيغور· اشار إلى نادلةٍ أن تعطيه قدحاً·

.أنت شاحب أيضاً، ياهيغور.، قال نايورا· نقرَ جدارَ المسطبة الحديد بظاهر ترسه المسنَّن الأحقَّة: .بل تبدو بارز عظام الوجنتين· لحمُك يتراجع تحت جلدك، ياهيغور· عيناك تغوران· نحن غرقى.

.قبطانٌ لا يزداد شحوباً في رحلةٍ قبطانٌ غيرُ جدير بالثقة.، ردَّ هيغور·

حمحم نايورا:

- إنني أرتاب فيك، ياهيغور· هناك أكذوبة في رحلة هذه السفينة·

.حين نكذب فذلك يعني أننا نزداد نضجاً، يانايورا.، ردَّ هيغور·

- الأطفال يكذبون، وهم ليسوا ناضجين، ياهيغور·

.الأطفالُ أكذوبةٌ· الأُكذوبةُ لاتَكْذِب.، ردَّ هيغور· عبَّ مافي قدحه فأفرغه· استدار مغادراً فتبعه مرافقوه المتشابهون شبَّاناً وشابَّاتٍ، كالتوائم، بتروسهم المستطيلة، الضخمة، عليها الرسْمُ ذاتُه مُستنسَخاً: ملاكٌ عارٍ بجناحين طويلين من ريش الطاووس ألواناً، وذيل مثله، ذو شعرٍ أسود، متماوج، طويل، يقبض بيده على عنق ملاكٍ طفل ذي جناحين وذيلٍ كجناحيه وذيله، مفتوح الفم اختناقاً، يجاهد أن يحرِّر عنقه بيدٍ، ممسكاً بالأخرى ترسَه المثلث الصغير·

مرَّ القبطان من جوار آتيما· استدار إليها بوجهٍ مغمض العينين فأغمضت آتيما عينيها· ترنَّمت بصوتٍ عالٍ من فمها المُطبَق· أشارت على المرأة والرجل أن يتبعاها فتركا قدحيهما وغادرا معها·

لم تكن آتيما متأكدة، في تلك الساعة من الليل، اين تتجه تحديداً، أإلى مقصورتها لتنام، أمْ تكملُ دورةً على بعض مَرَافق السفينة حيث ركابُها في هَرْجٍ من الحركة بُعْدُ؟ لكنها كانت متأكدة من رغبتها في الصراخ إذ وقفت أمام الواجهة الزجاج الصغيرة لصق مدخل المكتبة، لا من بروز عظام وجنتيها، والشحوب محيطاً بمحجَرَيْ عينيها، بل من غفلتها عن عماء الرجل معها لم تلحظ شيئاً من أثره، لافي حركةٍ منه، أو لفتةٍ· في اليوم الأول، الذي التقتْهُ والمرأةَ، مابَدَرَ لخيال بصرها أنَّ في الرجل مايُريب من صحَّة بصره· وهي مُذْ تخيَّرَتْهُ والمرأةَ أبوين، قبل يوم من ليلتهم تلك، ظلت مقتنعة أنها تمشي إلى جوار رجل يَرى لارجلٍ أعمى· حدَّقت إلى وجهه منعكساً على زجاج الواجهة مثل وجهها: كان بصرُهُ مسترسلاً، بإحكام، في التحديق إلى أحد عمَّال المكتبة لايُرى سواه، مستنداً بظهره إلى الرفوف، ساكناً، يحمل ترسه المستطيل، المجوَّف، الضخم، بيديه معاً فيغطي جذعه من الصدر حتى منتصفَيْ ساقيه العاريتين· كان مغمض العينين في وقفته كالمتأمل متاهةَ أعماقه على درَّاجة نارية·

.أأنتَ أعمى، حقَّاً؟.، سألت آتيما الرجلَ تبتَّتْه أباً، لابالنظر إليه، بل إلى مُنعَكَسِ وجهه على زجاج الواجهة لصق مدخل المكتبة تدلَّت من علائه ألواحٌ معلَّقة بسلاسل· .أكذب عليَّ هيغور، أم تكذِبُ عيناك بتصنُّعهما حركاتٍ كحركاتِ أعين المبصرين؟. التفتت إلى المرأة الطويلة واقفة إلى جواره صامتة: .يامترجمةَ الأعمى، لسانُك أعمى· تكلَّمي.، صرخت بها· اقتربت منها حتى كادت تلامسها· وضعت يدها على موضع فرْج المرأة من ثوبها الأسود الطويل حتى أرساغ قدميها· ألقت عليها كلماتٍ نافرةَ الحروف وخْزاً:

- أهذا أعمى ايضاً؟·

أسندت المرأة ترسَها الدائريَّ إطباقاً بفخذيها عليه· أخرجت غليوناً من حقيبة كتفها· حشتْهُ عشباً أبيض· أشعلتهُ بقدَّاح أضاء وجهها المستدير الناعم· وضعتْه في يد الرجل· اخرجت غليوناً آخر وضعتهُ في فمها فارغَ الجُوْرة من عشبٍ· حملت ترسها من جديد· حدَّقت إلى آتيما بعينيها الخضراوين· نفخت على وجه الفتاة الصغيرة كأنما تنفثُ دخاناً لامرئيًّا تنشَّقتْهُ من عشبٍ مشتعلٍ لامرئيٍّ في غليونها· تنهَّدت متعةً·

.غليونٌ أعمى.، تمتمت آتيما· لمحت الرفيقتين ناؤمي وليمسا داخلتين إلى المكتبة، ذراعُ الواحدة منهما حول خصر الأخرى· .أنا آتيما.، صرخت، فالتفتتا إليها· انحنت لهما الفتاة الصغيرة فانحنتا لها معاً·

.ستكونان أُمَّيْنِ لي، ذات يوم من هذه الرحلة.، قالت آتيما·

بدت الصديقتان كَأَنْ لم تسمعاها، إذ انعطفتا يساراً في دخولهما المكتبة· نقرت آتيما بيدها على ترسِها الدَّرَقة، تماماً فوق الحلقة النحاس في خَطْم الثور· .تاتّك المرأتان ستقتلان أحداً الليلةَ.، قالت ببصرها على وجه المرأة ذات الترس المستطيل بلا لونٍ سوى لونِ حديده· مشت إلى مدخل المكتبة· رفعت صوتَها صراخاً:

- أبوايَ لايتكلمان·

دخلت آتيما المكتبةَ أول مرة منذ بدء الرحلة· جاوزت العتبةَ ثلاث خطوات ثم توقفت تستعرض الزائرين جماعات، وأزواجاً، وفرادى، بأقداح كبيرة من الشراب في الأيدي· طنينٌ أصواتٌ بلغتْ من الأرض المعدن آخرَ رفٍّ من الرفوف التسعة عشر، أُسْنِدتْ سلالمُ حديدٌ إليها ليصعدها الخُدَّامُ في طلب الأعالي للطالبيْنَ· كان الزائرون ثَمليْن بتمامهم: هكذا بدوا في أحاديثهم مبتورةً، ثقيلةً، ضاجَّةً أو رخيمة؛ وفي نظراتهم ناعسةً تُرمى منحنيةً، مقوَّسة، من شخص على آخر· غير أن الأكثر استجذاباً قنْصاً لفضول آتيما كانت هيئاتُ الخُدَّام العشرة في المكتبة ـ أربعةٍ شبَّانٍ وستٍّ شابات، في قمصان سود، رقيقة، قصيرة حتى السُّرَر لاغير، عراة في ماتبقَّى إلاَّ من تبايْنَ ضيقة سودٍ أيضاً، حريرية الأقمشة، تُرى فيها فِلَقُ أردافهم، وتصاويرُ خجولةٌ لمنحَنيات الفروج وانتفاخات الزِّببة·

اتجهت آتيما صوب إحدى العاملات واقفةً، كالعامل رأتْه من زجاج الواجهة قبل دخولها، قرب سُلَّمٍ، مُستندةً بظهرها إلى أحد الرفوف، ساكنةً، ممسكة ترسها المستطيل، المجوَّف، بيديها معاً أمام جذعها، مغمضةَ العينين تتأمل رفوفَ خيالها، في الأرجح، بلا كُتب عليها، بل غيومٌ مُسوَّمة، متقاطعة، لكلِّ غيمة رقمُها المُثبتُ بحبرٍ مائيٍّ·

نقرت آتيما ظاهرَ ترس العاملة بأظافرها الطويلة· فتحت الشابَّة عينيها الزرقاوين: .كنتُ أنتظرك أن تسأليني ماستسألينني.، قالت مبتسمة·

فوجئت آتيما، الباديةُ الشحوب أكثر في الضوء منعكساً عليها من مصابيح الجدران الغائرة فيها، ومثلها مصابيح السقف· .ماذا كنتُ سأسألك؟.

.متى تغلق المكتبة أبوابها؟.، قالت الشابة العاملة·

.نعم· ربما.، قالت آتيما· .لم أدخل المكتبة قبلاً في أيِّ نهار، ولم أفكر، بالطبع، أن أدخلها ليلاً· ألا تنامون؟.

.ساعات الليل حتى الضحى هي الأكثر ازدحاماً.، ردت العاملة·

دارت آتيما بعينيها على الزائريْنَ:

- ايستعيرونَ كتباً، أم يقرؤون هنا؟·

.لايستعيرون، ولايقرؤون.، ردَّت الشابة المتدرِّجةُ الشعر، من شدَّة شُقرته، إلى بياضٍ· .يطلبونها· ينظرون إليها، ويعيدونها.

.أأستطيع أن أفعل ذلك؟.، ساءلتها آتيما، فردَّت الشابةُ بإمالةٍ من رأسها تأكيداً:

- بالطبع· اسأليني إن أردتِ· هل اخترتِ رقماً من فِهْرِسْتِ المكتبة؟·

.الفِهْرِست؟!!.، تساءلت آتيما تمتمةً· دارت ببصرها من حولها فرأت دليلَ المكتبة الكتابَ، المستطيل كترس العاملة الضخم، منتصباً على رمح حديد·

.لا.، قالت آتيما· .لم أخْتَرْ رقماً. التفتت إلى المرأة والرجل الصامتين من ورائها:

- هذان أبوايَ·

ابتسمت العاملةُ لهما·

.لقد تبنَّيْتهما، قبل يوم، أبويْنِ لي.، قالت آتيما موضحة· استدارت ثانيةً، إلى المرأة والرجل الصامتين· صرخت ملءَ حنجرتها:

- الم أتبنَّكما أبويْنِ؟ تكلَّما·

عادت بوجهها إلى العاملة مبتسمةً: .أتعرفين، الآن، ما عنيتُ؟.، ساءلتْها·

.ربما.، ردَّت العاملة· أرْخت إحدى يديها عن مقبض الترس، وأبعدتْه عن جذعها باليد الأخرى فبدا عريُها لجوجاً في القميص الأسود، القصير حتى السرة، والتُّبَّان الشفيف، الضيِّق الصغير، خاضعاً لمنحنيات لحمها·

.ماذا لو سألتُكِ أن تحضري لي كتاباً من آخر رفٍّ فوقَ؟.، سألت آتيما العاملةَ وهي تتدرَّج ببصرها عروجاً إلى أعالي المكتبة·

.سأحضره· مارقمُه؟.، قالت العاملة·

.لم اخترْ رقماً.، ردَّت آتيما·

.ولماذا تظنين أن ماتطلبينه قد يكون في الرفوف الأعالي؟.، ساءلتْها العاملة·

.لاأعرف· لكنني توهَّمت أن ماأطلبه لن يكون إلاَّ هناك.، ردَّت آتيما·

.حسناً· سأحضره.، قالت العاملة· صعدت السلمَ بيد واحدة مُذْ شُغِلَت يدُها الأخرى بحمل ترسها·

غمغمت آتيما:

- لم أذكر رقماً·

توقفت العاملة عن الصعود· نكست وجهَها أسفلَ صوب آتيما: .سمعتُ الرقمَ وأنت على عتبة المدخل إلى المكتبة.، قالت· مضت متسلِّقةً السلمَ إلى أعلى·

لم يدُم مكوث العاملة إلاَّ لحظة· نزلت السلم ممسكةً بين أسنانها بمجلد أصفرَ رقيق الجرْم بصفحاته القليلة، لاحروف على غلافه· وضعته في يد آتيما· تراجعت مستندة بظهرها إلى الرفوف، وهي تحمل ترسها الضخم من مقبضه أمام جذعها بيديها معاً·

قلَّبت آتيما بعض الصفحات· رفعت عينيها إلى وجه العاملة مراراً، وخفَّضتهما، بفمها النافر الشفتين مفتوحاً عن وَمْضِ دَهَشِها:

- هذه سيرتي!!·

.نعم.، ردَّت العاملة· .كلُّ الزائرين ينظرون إلى الكتب لَمْحاً ويعيدونها.

.سأخالف هذا.، قالت آتيما· .لن أعيد الكتاب.

.احتفظي به إن كنت تريدين العمل في المكتبة مثلي.، ردَّت العاملة·

استدارت آتيما إلى المرأة والرجل الصامتين· مدَّت المجلَّد الأصفر صوبها:

- هذه سيرتي·

لم يتحرك أحد منهما·

.أنا آتيما.، صرخت الفتاة الصغيرة· التفتت إلى العاملة بوجه غائر العينين قليلاً في شحوب وَقْبيهما: .أتحوجُكم مترجمةٌ؟. زاد صراخها: .هذه أمي· هذه مترجمةُ الأعمى· من يريد مترجمةً؟. ضربت بالمجلد الأصفر أرضَ المكتبةِ المعدنَ·

علا صوت كَمانيْنِ، معاً، من ركنٍ خافتِ الضوء في المكتبة: إمرأتان، مفرطتان شحوباً في جلد وجهيهما، ويديهما، صكَّتا الأوتار متساحقةً حكاًّ مرَّغَ الصوتَ في ألوانه متدرِّجةً من صُفرةٍ إلى بياض، ومِن رماديٍّ إلى شُقرةٍ، ومن سواد إلى

سُمرةٍ، ومن صُهْبةٍ إلى حُوَّةٍ، ومنَ شُكْلَةٍ إلى بنفسجيٍّ، فبرتقاليٍّ، فامتزاجِ زُرْقُمٍ· استعجلتا الصوتَ واستبطأتاه· انطقتاهُ مُتَحَقِّقَةُ المُسْتَوْهَم، ومؤجَّلَةُ الحقِّ· ألْهتاهُ، وكَتَمَتا عليه نفَسَه· وثْباً أطلقتا الصوتَ، وأرجعتاهُ طعيناً، جريحاً، عِيًّا، متراصًّا، مخلخَلاً، مُوهَناً، مشدوداً· أصعَدَتا الصوتَ سلالمَ النشوءِ ثابتةً على ظُلم أبيهِ الصوتِ وعدْلِ أُمِّهِ الصوتِ· توقَّفتا بغتةً برفعِ قوسَيِّ الكمانيْنَ عن الآلتين· حجزتا بثقل الفصل بين الأوتار المرتعشةِ عراكاً· انحنتا للمُصغين وغير المصغين· أطفئَ الضوءُ الخافت في الرُّكن الذي هما فيه· اختفتا في الشحوب المُعْتَقَل وراء قضبانه المظلمة·

.موسيقى عمياء.، هتفت آتيما باختفاء المرأتين الشاحبتين·

.هذا أفضل ماسمعته منذ صعودنا السفينةَ.، قال أحدهم قريباً من مدخل المكتبة، على بُعْدٍ قليل من آتيما·

التفتت الفتاة الصغيرة إلى المتكلِّم فألْفَتْه الشاعرَ هيز يماحك، ببعض المواربة، رفيقه الموسيقيَّ جوراك· .موسيقا عمياء، ياآتيما.، قال· .كلُّ موسيقى عمياءُ، لذا تتعثَّر بقلوبنا؛ تسقط عليها، أو تسقط فيها.

.بلْ كلُّ شِعرٍ أعمى، لذا تتعثر السطورُ فيه بالسطور، وتسقط المعاني في أفران أمَّهاتها.، قال جوراك· وضع قدحه على كرسيٍّ حديد· مسح فمَه بظاهر يده·

.أفران!!.، تمتم هيز مبتسماً، متمايلاً· .أُمَّهاتٌ وأفران· نحن قريبون، إذاً، من أساطيرنا، ياجوراك· نحن وأساطيرُنا جالسون إلى المائدة ذاتها، في الكونِ الآخر ـ كونِ الأفران، هي تقضم أعضاءَنا، ونحن نقضم سطورَها.، قال· نادى الفتاةَ الصغيرة:

- من سينتهي من التهامِ الآخر أوَّلاً، ياآتيما: ستلتهمنا أساطيرُنا أمْ سنلتهمها؟·

نقرتْ آتيما بيدها على رسم الثور نافراً في ترسها الدَّرَقة· صاحت:

- من يحتاج إلى مترجمة؟·

.أنا.، ردَّ الممثل أولاك بعينين نصف مغمضتين، تجاوره زوجُه ساكون، وسيدارو· لمس بيده ردفَ عاملة مرَّتْ قربه· .أنا أحتاج مترجمةً.

.أمي، هذه، مترجمةُ أبي الأعمى هذا.، قالت آتيما·

تقدَّم أولاك صوب آتيما:

- أريد من يترجم لي نار الحمَّام· لم أفهمها اليوم· هل استحممت، ياآتيما؟·

.استحممتُ.، ردت الفتاة الصغيرة· .لم يُنعشِ اللهبُ قدميَّ اليوم· لم يكن كافياً. حدَّقت إلى ساكون زوجة أولاك:

- لماذا يحتاج إلى مترجم؟ ألا تترجمين اللهبَ للسيد أولاك؟·

.أترجم له؟.، تساءلت ساكون· ابتسمت· .أترجم له سطورَ الدَّور القادم لم يُكتبْ بَعْدُ· أترجم له ماتقوله أفاعي صديقتي سيدارو من نقدٍ لألوان ابنها بارو.

غمغم بارو، ذو الترس المثلث عليه رسمُ الكائنِ النصفِ الإنسانِ النصفِ الثور:

- ماذا الآن، ياساكون؟ أصرتِ حليفةَ أبناء الكلمات؟·

.لاعضلَ لألوانك، يابارو· ساكون تحبُّ العضلَ.، قال سينيكوس· حدَّقَ ببصره إلى أحد عمَّال المكتبة نصف العاري· .اقتليه ياساكون.

.تستطيع ساكون أن تفعل.، قال هيز· .عبيدُ المكتبة يُسَخَّرون على أيِّ نحوٍ يريدُه الزائرُ· أنا سأقتل إحدى العاملات.، أضاف· .سأقتلها خَنْقاً بعضل ألوان بارو.

.لاعضلَ لألوانه.، قالت ساكون ثانيةً، فردَّ بارو من وجهه المُنكَّسِ ثَمَلاً:

- كلُّ ألواني عضلٌ؛ بل بّذْخٌ فائضٌ من العضل الإنساني، والحيواني، والإلهي·

.مابالُ تجريديَّاتك لم أرَ عضلَها؟.، سأل جوراكُ الرسامَ، فردَّ بارو:

- أنظرْ ماتحت اللون· عضلُ التجريديِّ تحت اللون·

.لاأرى في تجريديَّاتِك إلاَّ بياضاً محترقَ الثديين.، قال جوراك·

.أعِرْني البياضَ المحترقَ الثديين، ياجوراك.، قال هيز·

لمس بارو ظهرَ سيميال الصامتة بقدحه:

- تكلَّمي، ياسيميال·

.عمَّ؟.، تساءلت سيميال الظاهرةُ العضل تحت قميصها القطني الأصفر، الضيِّق·

.نعم· تكلَّمي ياسيميال.، قال سينيكوس القصير الشعر على استدارة صَلَعه مؤيِّداً هيز في تحريض سيميال· .كلِّمينا عن الكتب إذْ نفتحها نسمعُ همساً؛ عن الكتب حين نغلقها نسمع عويلاً· الأشياء هي بقايا أشياء يائسة، ياسيميال الرائعة· كلُّ شيءٍ قانونُ نقيضه، ياسيميال الذهبية· كلِّمينا عن الآرض كانت مَعْبَراً مسطَّحاً، مستوياً كالجسر بين الفراغ الأصل والفراغ المُسْتَنْسَخ في خاطر الإنسان. وضع قدحه على كرسيٍّ شاغر· أمسك بعَضُدِ سيميال الحاملة قدح شرابها· تقدَّم بها من آتيما المترنِّمة بصوت محتبَس، عصبيِّ النَّبر انتفخ منه وريــدا عنقها: .اسألي هذه الفتاة الصغيرة، ياسيميال، لماذا لم تردَّ على سؤال هيز: من سينتهي من التهام الآخر أوَّلاً، نحن أم أساطيرُنا؟.

.إنها لاتنظر إليَّ ياسيد سينيكوس.، قالت آتيما٠ وجَّهت بصرَها إلى الصديقتين ناؤمي وليمسا في ركنٍ من المكتبة تتبادلان إشاراتٍ صامتةً من أبجديات الرغبة٠ إنها تنظر إليهما، ياسيد سينيكوس. لمست يدَ الرجل الممسكة بعضُدِ سيميال: .أفْلِتْها.، قالت٠ أمسكت هي بذراع المرأة٠ مشت بها حثيثاً صوب الصديقتين، اللتين غالبهما الفضولُ من اقتراب آتيما وسيميال على نحوٍ مقتحِمٍ٠

.هي لكما.، قالت آتيما٠ استدارت راجعةً لم يزلْ بصرُها على الصديقتين:

- أقْتُلاها٠

غمغمت الصديقتان استطابةً٠ طوَّقتا سيميال، من فورهما، بأراييح من يقظة العصب الأول في اللذائذ الحكيمة والحمقاء٠ وضعتا قدحيهما جانباً على كرسي٠ حرَّرتا يديهما لتَشْغلاهما لَمساً مقصوداً، وغير مقصود، حيثُ قَدِرَتا من ذراعي سيميال وكتفيها٠ بالغتا اقتراباً منها حتى تناقرتِ التَّرَسةُ في أيديهن٠ أغلقن على أنفسهن الرُّكنَ الذي هُنَ فيه٠ لابَسْنَ المغيبَ الشاحبَ من ضوء الركن٠ غَرُبْنَ بقلوبٍ شموسٍ في مغيب اللون الذي أوْكَلْنَه الوجودَ داخل المكتبة، وأوكلْنَه حضورَهنَّ المحتجَبَ في برهتهنَّ، لا في برهة الوقت الظاهر على الساعات٠ تراشقن هَمْساً٠ عَضَضْن هَمْساً على الكلمات٠ جرَّحن النظر متقلِّباً على حدود أعضائهن ـ ما يَرَيْنَ منها وما يتخيَّلْنَ٠ وثَّقْنَ المشيئةَ عَهْداً ميثاقاً٠ تحرَّكن متجاوراتٍ يقصدْنَ مخرجَ المكتبة معاً، إلى حيث سيحتسين حساءَ الرغبة بملاعق من لحمٍ، في مكانٍ أو لامكانٍ٠ مررْن قرب آتيما مبتسماتٍ لها في خروجهن٠ رشَقت آتيما الصديقتين ليمسا وناؤمي بسؤال تذوَّقتاه بلسانِ وقتهما ـ وقتِ النَّهم:

- أستقتلان سيميالَ الليلةَ؟

قرع سينيكوس بقدحه ترسَ آتيما٠ تمايلَ:

- متى سيرسمك بارو؟٠

.الآن.، ردَّت آتيما بصوتٍ آمرٍ٠ أطبقت فخذيها في البنطال القطني الأصفر، الضيق على ترسها٠ أخرجت غليونها من حقيبة الكتف الصغيرة٠ حَشَتْه عشباً أبيضٍ فاضَ عن سَعَةِ جُوْرَته٠ أشعلت العشبَ بقدَّاحٍ٠ تنشَّقتِ الدخانَ وأطلقته زفيراً من حلم الخفيِّ٠ .سترسمني الآن، ياسيد بارو.

ضحك بارو٠ رفع قدحه إلى فمه فألْفَاه فارغاً٠ رمى به أرضاً٠ اختلس قدَحَ ساكونٍ من يدها٠ عبَّ منه حتى أتى على آخره٠ تمايل وهو يرمي بالقدح الثاني إلى الأرض المعدن٠ رنَّ الوقتُ في تصادُمِ الحديد٠ رنَّ المعدنُ في كلماته: .بِمَ أرسُمُك، ياآتيما؟. استدار إلى الممثل أولَاك: .أعطني خصيتيك، ياأولاك، كي أدرِّب يدي على دَوْرٍ لم تؤدِّه قبلاً.، فردَّ أولاك، ذو الأنف الطويل باستقامةٍ:

- ألم تكتفِ بتدريبهما على خصيتيك؟ أم هما فارغتان من اللون؟·

غمغمت سيداروبلا كلمات· شهقت مستعذبةً وهي ترى آتيما، الممسكة بين أسنانها بالغليون، تحكُّ فرْدةَ حذائها بالأخرى فتخلعهما من قدميها، ثم تحسر، بيد واحدة، مُذْ شُغِلتِ الأخرى بالترس، التِّكّةَ المطاطَ في طوق بنطالها حول الخصر فينحسر إلى أسفل عن ردفيها، ففخذيها الممتلئتين· داست على طرف نهاية ساق البنطال بقدمٍ وسحبت ساقها منه، ثم طوَّحت به قَذْفاً بقدمها الأخرى·

.جسدي هنا· ارسمني ياسيد بارو.، قالت آتيما بنبْرٍ وعيدٍ· مشت خطواتٍ صوب سلمٍ يقف إلى جواره أحدُ خُدَّام المكتبة: .هنا· سترسمني متكئة بكتفي على السلَّم.

.ليس معي ما أرسمك به، الآن، ياآتيما.، قال بارو في وقفته القلقة·

.معي جسدي، الآن.، دمدمت الفتاة الصغيرة في حَنَق·

.غداً أرسمك.، قال بارو بصوت متباطئ·

.معي جسدي، الآن.، صرخت آتيما·

وسَّع بارو بين أجفانه المتراخية· ابتسم ببعض الدَّهشِ على وجههِ المتكاسِل القسمات:

- أين سيكون جسدُك غداً، ياآتيما؟·

.هو معي، الآن، أتسمعني؟.، هتفت آتيما· قرعت بحافة ترسها السفلى السلَّمَ الحديد جانبيًّا فاهتزَّ السلم·

دخل هيغور المكتبةَ عجولاً في حركته، يتبعه سبعة من عمال السفينة ـ شابَّتان وخمسة شبَّان· وقف في منتصف الردهة الواسعة انتشرت فيها الكراسيُّ الحديد موزَّعةً بلا تناسق· لم يأبه لمرأى الفتاة الصغيرة عاريةَ الفخذين في تُبَّانها الضيِّق الأصفر· جاوزها ببصره بَحْثاً واضحَ الغاية أنَّه حضرَ إلى المكتبة في طلبٍ، وليس متفقِّداً مَرَافِقَ السفينة·

.سيد هيغور.، نادته آتيما وهي تنفث دخاناً من فمها ومنخريها معاً· .أنت تشبهني اليوم.

حدَّق هيغور إليها لَمْحاً· تمتم قبل أن يصرف نظرَه عنها مستعرِضاً بعينيه خُدَّامَ المكتبة تحديداً في أرجاء المكان:

- العظامُ متشابهةٌ أبداً·

اقترب بعضُ زائري المكتبة، ثَمليْنَ، من هيغور· تعالت همساتٌ متداخلةٌ، فغمغماتٌ، فأنصافُ كلماتٍ مطبقةٌ ـ جميعها ـ على معنىً واحدُ مطبقٍ بصراحة

الحدودِ فيه على استيائهم من خمول اللهب في الحمَّامات·

.لم أتذوَّقِ الدخانَ من جسدي كما أشتهيه.، قال أحدهم·

.لهبٌ لاأرى منه عظامي متَّقدَةً جمراً، تحت اللحم، لهبٌ رخيصُ التكاليف، أيها القبطان.، قال آخرُ·

.نارُ الحمَّام باتت جدَّةً بلا أسنان، ياسيد هيغور· أريد ناراً تَعَضُّني.، قالت امرأةٌ·

أبعد هيغور بترسه راكباً اقترب منه متمايلاً، يكاد يسقط من ثقل سُكْرِهِ· استرسل في استعراض خُدَّام المكتبة بعقلٍ منصرفٍ عن شكوى الشَّاكيْن· صوَّب الزاويةَ الرأسَ في ترسه المثلث، الطَّويل، إلى شاب واقفٍ، بَعْدُ، على مطْلعِ سُلَّمٍ: .هذا.، تمتم· أدارَ وجهَه إلى شابة تجاوره، فاتجهت، من فورها، على عجلٍ، إلى السلم· لمست ساقَ الشاب الذي يعلوها في وقفته على الدرجات الأولى من السلم الحديد نصفَ عارٍ· اِنْزِلْ.، همستْ·

نزل الشاب على مهل بيدٍ ممسكة بترسه المستكيل، الضخم، وأخرى ينقلها من درج السلَّم إلى درجٍ نزولاً· ابتسم لها إذْ واجهها· أمسكت به من عضُده، وقادتْه إلى وسط الردهةِ أبعدَ مرافقو القبطان عنها الكراسيَّ فجعلوها حلقةً· ابتسم هيغور للشابِّ شبيهِ الشبان جميعاً من عمَّال المكتبة، ومرافقيه، كتوائم، بشعور بُنِّية على شُقرةٍ، وعيونٍ على صُفرة، بيْضٍ، حليقي الوجوه· ازداد الشحوبُ دكْنةً في مَحجَرَيْ عينيه· رفع ترسَه، المثلث على سوادِ ظاهره رسمُ الديكِ صائحاً، حتى كاد أن يغطي بحافته العليا وجهَه الشاحب· أعطى الشابةَ إشارةً بخفض رأسه في القبعة الرمادية، المستديرة الأحِفَّة·

بنصف دورة من جسدها الطويل، في السترة الرمادية فوق ثوبٍ رماديٍّ واسع، قصير حتى الركبتين، أحكمتِ الشابةُ ضربةَ حافَّةِ ترسها المستطيل، الضخم، على حنجرة عامل المكتبة· سُمعتْ قرقعةُ الغضروف متهشماً يتبعها شخيرٌ مختنقٌ· سقط الترس المُسْتَنْسَخُ عن ترس الشابة من يد الشاب، المترنِّح جاحظَ العينين التمعتْ صُفرتُهما بسُعارٍ من عبور الجسد البرزخَ رَهَقاً عنيفاً· دارت الشابةُ من حوله· وقفت خلفه· صدمت بحافة ترسها باطنَيْ ركبتيه فانهدَّ جاثياً· رفعتِ الترسَ عالياً وهوت به على رقبته ضرْباً متسارعاً، متتالياً، بوجهٍ خالٍ من غضب أو رغبةٍ، أو خوف، أو أسَف· في كل ضربة قطعت عروقاً ولحماً، ومزَّقت جلداً· خارَ الشاب انبطاحاً بعنقٍ نصفِ مقطوع· فرَّجتِ الشابةُ بين ساقيها واقفةً· وضعت كلَّ قدم إلى جهةٍ من كتفيِّ الشاب المستلقي مهتزًّا· بلغَ زبدُ الدم الشاخبِ على الأرض المعدن حذاءها ذا العقبين الفضةِ العاليين· سدَّدت ضرباتٍ أخرى، من حافة الترس، على الرقبة الممزَّقة من علياء وقفتها، تنحني وتستقيم تباعاً، بإحكام الثقل في الترس رفْعاً وخَفْضاً· فصَلتِ الرأسَ عن الجثة· تراجعت إلى حيث يقف القبطان·

دار القبطان هيغور ببصره على زائري المكتبة التّملين: .هذا غداؤكم غداً.، قال، مشيراً إلى الشاب المذبوح·

تقدَّم البعضُ صوب الجثَّة يعاينُها، وبقي البعض، من زائري المكتبة ليلاً، في موضعهم· كانوا، جميعاً، بوجوه تنبسط فيها أحكامُ الرِّضا على الحدقات، وتتَّسع مطابَقاتُ التأييد· تحرَّكت تروسُهم في الأيدي كأنما انتعش المعدنُ بعد خمولٍ· تبادلوا نظراتٍ مصكوكةَ النقوش سَبْكاً في الرغبة· تذوَّقوا خيالَهم بلسانِ الأفاويهِ الخفيةِ في ذوق الإنسان· وضع أكثرهم أقداحَهم على الكراسي· حشوا غلاييِنَهم عشباً أبيض تنشَّقوا دخانَه كالسماءِ تتنشَّقُ غيومَها المشتعلة·

اقتربت آتيما نصفَ عارية، بالغليون في فمها، صوب الجثة، أيضاً، حين انبرى أربعةٌ من مرافقيْ هيغور إلى حملها في بساط رمادي· لمست بإصبعها شعرَ الرأس المقطوع بُنِّيًّا على شُقرةٍ ابتلَّت أطرافُ الخُصل منه بالدم· واكبتِ القبطانَ مغادراً ببصرها قبل أن تُرخيه متأمِّلةً سحابةَ البقاءِ تخثَّرتْ في حُمرة السائل المُزبد قليلاً على الأرض المعدن· رفعت وجهها إلى الرسام بارو: .جسدي معي الآن.، قالت· تراجعت عن وسط الردهة دامياً إلى حيث وقفت قَبْلاً، قرب الرفوف· وضعت آتيما الغليونَ بين أسنانها· تجرَّدتْ، في أناةٍ، بيد واحدة، من ثُبَّانها الأصفر· طوَّحتْ به بعيداً حين استقرَّ الثُّبَّانُ ساقطاً بين قدميها· اتَّكأت بكتفها على جانب السلَّم الحديد: .جسدي معي الآن.، ردَّدت· قبضت براحتها على رأس الغليون في فمها· تنشَّقت حريقَ عشبه من غير أن تفلتَه من بين شفتيها· نفثتِ الدخانَ من زاوية فمها·

ركع بارو على الأرض المعدن، قرب سحابة الدم· أسندَ رأس المثلث، في ترسه المثلث، على الحافة الحمراء تحديداً· غمس إصبعه في الدَّم ناقلاً بصره بين آتيما الظاهرة الفرْج ممتلئاً لايحجبه شَعرٌ أو زغبٌ، وبين الأرض المعدن أمامه· خطَّ مَسْلَكَ الضرورة في الشكل تعاريجَ أَوْلى· عمَّق التعاريجَ بإضافيٍّ من مغموس الدم، وأجرى ممرَّاتٍ حول الملامح فأوجدَها نافرةً أو غائرة· تراجع على ركبتيه يوسِّع استطالةَ الشكل المتمدِّد أحمرَ من هيئة آتيما على المعدن الرمادي· استرسل، بوجهٍ يعلو ويسْفلُ ـ بحسْبِ نَسْخِه بلا تطابقٍ كبيرٍ في الحجم مع الأصل ـ تسَارُعاً لايُفْلِتُ منه الشكلُ· وإذْ بلغ أسفل سُرَّةَ آتيما، حيث استقرَّت حاشيةُ قميصها على منتصف الخَتَلة، تأنَّى حركةً· رتَّب الدقيقَ من التفصيل على مقاس اللحمِ السِّرِّ، المُبشِّر بالأبديةِ ـ فرْج آتيما· ارتعشت أنْمُلتُه· أغمي على قطرةِ الدَّم سقطتْ من الأنْمُلة في مَجْثَم البظر بين الشُّفْرين·

الفصل السابع

(Calliactis Parasitica)

أحْنَتِ الحوريةُ كاليس زعنفة ذيلها البرتقالية إلى أسفل فأوقفت جسدَها منتصباً عمودياً· فعلت بناتُها الخمسُ ذلك باجسادهنَّ الزرقِ الحراشف· تبادلن نظراتٍ من دَهَشٍ الغرابة إذْ برز لهن، بعد الرُّبى المجلَّلة بالنَّبْت الطويل أصْهَبَ، في أعماقَ الغمر، بناءٌ قَفْرٌ ذو برج، وأعمدة تسند شرفاته العريضة فوق المدخل· كان بناءً ماءً، أقلَّ كثافةً ممَّا يَمَاسُّهُ في محيطه الماء، كأنْ هو زجاجٌ منحوتٌ صُبَّتْ عليه صُهَارةٌ زجاجٌ تجمَّدت فحَوَتْ منحوتَهُ مجسَّماً شفيفاً·

دارت الحوريات من حول الأعمدة الثمانية العالية· تقرَّين بأيديهن نقوشاً مائيةً عليها تفرَّقت، ثم تلاصقت والتحمت ثانيةً، بعد اللمس، أشكالاً من المحار، والقواقع، وأفراس البحر الصغيرة، نافرةً ماءً في الأعمدةِ الماء· سبَحْنَ في عرْصة القصر الشاسعة يقِسْنَ أبعادَها عمقاً وارتفاعاً· وقفن منتصباتٍ أمام مدخله المفتوح من غير اجتيازٍ للعتبةِ برزَ من شقوقٍ مائيةٍ فيها نبتٌ مائيٌّ الجسم ـ عشبٌ أكثرِ كثافة من محيطه بأزاهير ماءٍ على صُفرةٍ، متمايلةِ الأعناق، راقصةٍ شوقاً إلى مجهولِ جنْسِها·

مرَّرتْ بناتُ كاليس أيديهن على كؤوس الأزاهير فانفرط ورقُها مائعاً، ثم تكاثفَ فشكَّل، من جديد، ورقاً في الكأس يحضن التويجَ والأسدية· قطفت إحداهنَّ زهرةً من ساقها المنتصبة· بوغتتْ إذْ انبثقت قطرةٌ من الدم في موضع القطْف· تمدَّدتِ القطرةُ غمامةً منحلَّةً كدخانٍ· تفرَّستِ الحوريَّاتُ الصغيراتُ إحداهنَّ في الأخرى· تفرَّست أمهنَّ في منبت الأزاهير بسيقانها من شقوق العتبة· لوَّحت لهن بيدها أنْ لايلمَسْنها· عُدْنَ منساباتٍ سرباً صغيراً بأجسادٍ زيتٍ في الأركان، من حول البناء القصر، الفاره المخروط بسطوحه الثلاثة·

كان في مستطاع أبصار الحوريات أن تتميَّز ملامحَ شبحيَّةً لمحتوى البناء من خلالِ جدرانه المائية الشفيفة في فضائها الماءِ· لكنَّ الأشكال بدت متماوجةً قليلاً بتماوج الكثافة في الأعماق· حدَّقت كاليس مليًّا إلى داخل البناء، من سطحه المخروط· استجلَتْ عَطفات الأشكال وحدودَ أجرامها· انسابت، في حذر، من الأعلى إلى مدخل البناء القصر· تأمَّلت الداخلَ برهةً ثم انزلقت إلى عمقه، فتبعتها بناتُها·

بدا البناء، في الداخل، مهيباً فارهاً: بهو شاسع الأرجاء، تتوزَّعُه الأرائكُ بتصاميمَ قوسيَّة، والتخوتُ الماءُ بمساند اسطوانات، والمقاعدُ الماءُ صغيرةَ الحجوم وكبيرةً، بسيقان دقيقةٍ، ملتوية الصُّنْع· وفي زوايا البهو، وبطائحه، تماثيلُ ماءٌ كتصاوير الحوريات أنفسهن، لكنْ بأقدامٍ بدلَ زعانف الأذيال، حاملةً تروساً

عليها نقوشُ وجوهٍ مستنسَخَةٍ، بأفواه مفتوحة ينبثق منها الماءُ نوافيرَ فقاعاتٍ في كَنِيْفها الحَيِّزِ الماءِ·

دارت كاليس وبناتها من حول التماثيل· وضعن أيديهن في مجاري مَقْذَف النوافير يتلقَّفن الماء· حوَّمن من فوق التخوت· تمدَّدن عليها فغاصت أجسادهنَّ في أثيرها المائيِّ· جلسن على المقاعد فغاصت أجسادهن في أثيرها المائي· أطلقن أيديهن عبثاً بأبْعاد الأرائك ووسائدها، فتبعثرت أجزاءً مائيةً، ثم تكاثفت متلاصقةً أرائكَ ووسائدَ كَسِيْرَتها الأولى قبل اللَّمْس· طُفْنَ على جدران البهو الشاسع عَلَتْهُ رسومٌ معلَّقةٌ لحيتانٍ بيضٍ متحرِّكةٍ في حيِّز أُطُرها تنفثُ ماءً من مناخِر أقحافها· لكنَّ رُكناً مستقلاً عن البهو بجدار ماءٍ، منخفض قليلاً، ذي ثقوب، استعرضَ على أبصارهن، إذ التففن من وراء الجدار عليه، رفوفاً كثيرة، عريضة، مخرَّبةً بانحدار بعضها عن الجدار لم تسقط بعدُ، وسقوط بعضها تماماً· كانت كتبٌ مائية، ضخمة، مبعثرة على الأرض الرمل للقصر، وكتب أخرى مائلة فوق الرفوف تنتظر انزلاقها ربما·

تأمَّلتِ الحوريَّاتُ الكتبَ الماءَ على الرفوف الماء· كتبٌ يبلغ طولُ واحدها نصف طول الواحدة منهن، بعناوين فقاعاتٍ صغيرةٍ، رماديةٍ وصفرٍ عَكِرة، وبيضٍ أقربَ إلى شحوبٍ، تنبض على ظهور المجلَّدات العريضة بين دِفافها· أمَّا الساقطةُ أرضاً، مبعثرةً، فكان أوراقُ بعضها يتقلَّب، في هدوء، بمَسٍّ من أنامل التيارِ الباطنِ الهادئ يستعرض سطورَها على عقل الأعماق· همَّت إحداهن بلمسِ كتاب، ثم تراجعت من علمها أنهن ما لمسن شيئاً من المجسَّمات المائية نَبْتاً، أو أثاثاً، أو نقشاً، إلاَّ تميَّع مُنحلاً، ليرجع بعد المَيْع متجانِساً قِواماً على حاصلِ ماكانَهُ· لكنها نفخت من فمها على ورقاتٍ متماوجة، لم يحسم تيارُ الماءِ الباطنُ من لَعِبه بها أن يقلبها، فما انقلبتْ·

انضمَّت إليها أخواتها نفْخاً بأفواههن على الورقات حتى مالت منبسطةً· تقرَّبْنَ، على حذرٍ، بأناملهن أغلفةً تفرَّطت أوراقُها متناثرةً إلى قرب منها، فما انحلَّت أشكالها، أو تميَّعت· قَدِرْنَ أن يمسكن بها في أيديهن كأن الأغلفةَ ماءٌ جليدٌ صلبٌ· حملن كتباً مبعثرة فقَدِرْنَ على حملها بتمام أبعادها كتلاً شفيفةً، متراصَّةَ الهيئات ماءً· ابتسمن انتصاراً· التفتن إلى أمهنَّ يُرِيْنَها خصائصَ مائيٍّ لايتفرَّقُ إنْ مُسَّ، فألْفَيْنَها تقلِّب الكتابَ الأضخم على مِقْرَإٍ ذي قوائم أربع، عالية، كأنه الكتابُ السلطانُ في مَجْمَع الكتب هناك· وكانت، كلَّما قلَّبت ورقةً صدر صوتٌ من الصفحة أنيناً خافتاً يعقبه همسٌ بنبْرٍ كالصرير· تعمَّدتْ تقليب الصفحاتِ أسرعَ فازداد الصوت حدَّةً وجلاءً· تعمَّق مَخْرجُ الأنين من أفواه لاتُرى، وتحاكَّ الهمسُ فأضحى نشيجاً· أوقفت يديها· انتصبت عموديًّا فوق الكتاب بعلوٍّ خفيفٍ عنه· هزَّت زعنفة ذَيلها مروحةً قويةً عصفت بالأوراق تقلِّبها متصافعةً متلاطمةً واحدتُها بالأخرى· تعالى، في انطباقها المتلاحق من رَنَقِ زعنفة ذيل كاليس، صراخٌ رجَّ دفْقُهُ جسومَ الحورياتِ·

اضطربت بناتُ كاليس· تكوَّمن على أنفسهن قَلَقاً وذهولاً، فتوقفت الأمُّ عن عصف زعنفة ذيلها بالأوراق· كانت مضطربة بدورها، ظاهرةَ البلبلة في حدقتيها البرتقاليتين على بياض عينيها· لربَّما تمادت في فعلها انجذاباً فضولاً، على خوفٍ حتَّى، إلى استكناه الملغزِ صادراً صرخةً من صفحات الكتاب المائية· لكنها لم تسترسل أكثر مُذْ لحظتْ بناتِها منكمشاتٍ ذعراً، أو ذهولاً كالذعر·

حدَّقت كاليس إلى الكتاب مليًّا، عن بُعدٍ، بعينين متهيِّبتين، ساكنةَ الذيل تماماً كسكون أذيال بناتها ترقُّباً لِمَا لايعرفن·

لم يحدث شيء· الكتابُ الضخم، السلطانُ في مَجْمَعِ الكتب، ظلَّ صامتاً بعد الصراخ· اقتربت كاليس منه· حاذرت أن تلمسه· دفعت بزعنفة ذيلها كتاباً على رفٍّ مائل، أعلى الكتابِ السلطانِ، فانزلق الكتاب· سقط أرضاً سقوطاً أخرسَ· دفعت كتاباً آخر بالزعنفة، في هدوء، فانزلق كالذي قبله· دفعت بناتُها الكتبَ عن الرفوف المائلة، المخرَّبة، بأيديهن، كتاباً بعد آخر، فتساقطت ركاماً على الأرض الرمل للقصر· ازدَدْنَ عنفاً في لهوهنَّ الحَرِدِ· خلعنَ الرفوفَ الماءَ عن الجدرانِ الماءِ تهوي بما عليها· تقاذفن بالكتب· ضربن بها رؤوسَ بعضهنَّ ضرباً خشناً، فظًّا· بادلتهنَّ الأمُ كاليس قذْفاً بما تقع يداها عليه· ضربتهنَّ بالكتب كفعل بعضهن ببعض، فأحدَقْنَ بها مسعوراتٍ يضربنها بالكتب· بالَغْنَ في التصادم بالأجساد، واللَّطْم بزعانف أذيالهن مُذْ لم يعد الضرب بالكتب، في التقدير، يعْدِلُ جنوحهن إلى الإيلام رغبةً· تشاددْن بالشعور الصفرِ على الرؤوس الصغيرة· حاولنَ جذْب شعر أمهنَّ الكثيف، الشديد الزرقة، فما مكَّنتْهنَّ· راوغتهن لتشدَّ هي شعورَهن، وتعضَّهن عضًّا بليغاً من زعانف أذيالهن؛ كانت البثورُ النَّفَّاخاتُ، التي باتت زاحفةً بانتشارها حتى حدود ثُديهنَّ، تتفقَّأُ تحت أسنان كاليس، في عضِّها بناتِها، عن شَرَرٍ لهبٍ ناعمٍ، متلاحقٍ انبثاقاً لايخبو، كحال الشرارِ قبلاً يخبو إن ارتفع أنملةً، إلاَّ بعد صعودهِ في الماء ذراعاً أو أكثر·

عضَّت البناتُ بعضهن بعضاً كأنما يتهيَّأنَ لافتراسٍ، بأفواه مفتوحة عن أسنانٍ نصْليَّةٍ· ارفَضَّتِ الشراراتُ اللهبُ من فَوْءِ البثور· علقَ بعضُ الشرر بأسنانهن وبشفاههن، وبذؤابات شعورهن الصُّفْرِ برهاتٍ قبل أن يخبو· تكاثر الفَوْءُ من العضِّ، والخمْشِ بالأظافر، حتى بنْنَ في غلالة من ذَرُوْر اللهب سقط بعضُه ثقيلاً، كشرر الجَلْخِ، على المتناثر من كتبٍ عِيْثَ بها، ونُكِّلَ برفوفها·

حشرت كاليس، بعد نأيٍ بنفسها، زعنفة ذيلها بين بناتها· حجزت إحداهنَّ عن الأخرى صفْعاً بالزعنفة، ولَطْماً بيديها على ثُديِّهن فتباعدنَ متهدِّداتٍ، متوعِّداتٍ، بأظافرهنَّ، وبأسنانهن في الأفواه موصولةً فحيحاً مختنقاً يُقاسُ نبْرُهُ بالفقاعات· تمادى وجهها الطويلُ، الشديد البياض، طولاً أسبغه عليه

فمُها، ملقياً زئيرَ قلبها الصامتَ على أسماع قلوبهن، من شدقيها مفتوحين على وسعيهما· ارتعشت خَفْقاً عنيفاً من زعنفة ذيلها ضغطَ الماءَ متلاحقَ المدِّ بحلقاتٍ تبدُرُ من جسدها لتنتهي اصطداماً بجسوم بناتها، اللواتي تمايلن كأنهنَّ في تيَّارٍ باطنٍ· تراجعت بظهرها صوب مدخل البناءِ القصر، مبقيةً بصرَها عليهن ـ بصرَ الرقيب من حدقتيها البرتقاليتين·

أظهرتِ الحورياتُ الصغيرات امتثالاً لنقمةِ الأمِّ عليهن تمادِيَهنَّ في المُعاورةِ الفظَّةِ· انسابت أجسادهن هادئةً، مبالِغةً في الهدْأة، من حول الكتب المبعثرة إيذاناً بانصرافهن عنها· إحداهن حملت ورقاً متفلِّتاً من أصلِ مَضْمُوْمِهِ· مزَّقت ورقةً منها· سكنتْ مأسورةَ اللَّحْظِ مُذْ رأت دماً يتسرَّب من الشَّقِّ ـ موضعِ التمزيق· عمدت أختٌ لها إلى تمزيق ورقة بدورها، فتسرَّب الدمُ قِرمزاً من موضع البثْر كحال ورقة أختها·

هرعت إحدى الحوريات الصغيرات إلى أمها المنصرفة إلى المَخْرَج· لفتَتْها إلى الورق مدمَّى في أيدي بناتها الأخريات استرسلن في اقتطاعها من الكتب وتمزيقها· عادت كاليس إليهن مبهورةً· حركت يديها في الماء، حيث نزفتِ الأوراقُ الدمَ فتخَالَطَ· جذبت ورقاً من أيدي بناتها· مزَّقتْها كفعلهنَّ· انسلَّتْ جسداً زيتاً إلى مِقْرَإِ الكتاب السلطان، الضخم أبعاداً· فتحته على مهل· مزَّقت ورقةً منه فأنزَفَتِ الورقةَ دماً في موضع البثْرِ زَهريًّا، متَّصل النَّزف، يتداخلُ حلقاتٍ منطويةً منتشرة· مزَّقتْ ورقاً أكثر· أحكمت حول نفْسها نزفَ الدم يتولَّى خيالُ الزَّهريِّ فيه نَحْتَ سائِلِهِ، في الصميم الماءِ، صوراً أشباحاً في اقتتالٍ بالخناجر لاتلبثُ أن تميعَ قبلَ نَشْئها مُنجَزةً، لتُخْلي لصور أشباحٍ على عِناقٍ في القُبل، أو مُطارحاتٍ تتحرَّكُ بها الشفاه على عجلٍ، خُلسةً، كأنها تُدْرِكُ أنها ستميْع·

بناتُ كاليس انسللن من غمامة الدم أطلقْنَها في رُكن الكتب من البناءِ القصرِ، منجذباتٍ إلى الزَّهريِّ لوناً نزفتْه أوراق الكتاب السلطان من حول أمهنَّ رسوماً أشباحاً· أحطْنَ بها يلاحقْنَ بأبصار عيونهنَّ، ذوات الحدقات الصُّفرِ في سوادها، وبأبصار قلوبهن المتماوجة ماءً، تلك الأشكالَ الشبحيَّة يَنحتُها الشَّخَبُ الزهريُّ للدم خافتاً من مسيله من موضع المَزْقِ· رأيْنَ التَّعاقُباتِ السِّراعِ المتتالية في الاسْتِشْكالِ والانحلالِ؛ في التكاثُفِ صوراً وانفراطِها؛ في الهيئات تُبْرَمُ أبعادُها وتُنْتَقضُ: عراكُ كائناتٍ لايثبتُ لها أكيدٌ من جنسٍ، أو نوع· لقاءُ كائناتٍ حميمٌ تلابُساً وتَماسًّا لايثبتُ دوامُه· سُفنٌ معلَّقة بمخالب طيورٍ· عماراتٌ منكَّسةٌ· حورياتٌ مشطورةٌ أنْصافاً·

أنهت كاليس تمزيقَ الكتاب إلاَّ الورقةَ الأخيرة حرَّكتْها متمايلةً أمام أبصار بناتها، في الغمامة الزهرية من النزيفِ الدمِ زهريًّا· حدَّقت إلى الورقة تستنطقُها خَرَسَ المائيِّ في وجودها ورقةَ ماءً· قرَّبتها من فمها فاستثارت

فضولَ الحوريات الصغيرات· ابتسمتْ· عضَّت على الورقة بلا إسرافٍ ضغْطاَ، ثم أمعنت إطباقاً بنواجذها عليها· شدَّتها بيدها فتمزَّقتِ الورقةُ بين أسنانها· رفعتِ المِزْقَتَيْنِ تستطلع النَّزْفَ فلم يَسِلْ دمٌ من موضع الشَّقِّ، بل تفلَّتَ منه زفيرٌ كأنَّ البناءَ القصرَ اجتمعَ بأركانِهِ، وأوْسَاعِهِ، رئةً أطلقتْ زفيراً كظَمتْهُ القرون·

استطارت قلوبُ الحوريات· تصادمْنَ في انسيابهن السريع المضطرب هَرَباً· خرجنَ من البناء القصرِ أنفاساً من لهاثِ الماء·

الفصل الثامن

(Murex)

قبل ساعة من موعد الغداء في السفينة، حسمتِ الغيومُ المقسَّمةُ أجزاءً متساويةً تحالفاتِها فوق بحر تريتونفال· قدَّمت جحافلَها السودَ من مؤخَّر الشمال إلى تخوم الجهة العريضة في السماء الوسطى· وزَّعت الرعودَ على الخنادق بأصواتها الزئير، والنُّباح، والصهيل، بحَسَب النِّسَب الحيوانية في أرواح الرعود، وفي خَيال مُحاكاتِها للأرضيِّ· انهمر المطر فوق السفينة المهيبة، الرمادية في نِفَاسِ حديدها الأنثى لايَلِدُ أيَّ لونٍ آخر، فاستطلع الركابُ، من وراء الواجهاتِ النوافذِ الزجاج على مُسْتدار هيكلها الأوسط، امتدادَ مُشْرَفها في الرماديِّ تَخَالَطَ من لون المعدن بالمطر، الذي أحالَ البحرَ بُعْداً مَعْدناً·

.أيُّ رقصٍ للحوريات سنشهد إن كان موعدُ رقصهن ممطراً كيومنا هذا؟.، قالت ليالو اللَّفاءُ الفخذين تقاصَرَ ثوبُها أكثر عنهُما في جلستها، فخذاً على فخذ، فوق المقعد الحديد مواجهاً، من داخل السفينة، مُشْرَفَها الخارجيَّ، حيث يُمضي الركابُ، عادةً، آناءَ من وقتهم صباحاً، وبعد الغداء حتى العصر، أو المغيب، متخالطيْنَ جيئةً ورواحاً، وجلوساً أيضاً، يستروحون بأحاديث أبصارهم على مسمع البحر، وأحاديث ألسنتهم على أسماع رفقائهم·

بعد الغداء، تحديداً، هبَّ نازعُ الخلوةِ بالصِّحَابِ ديغار ـ تاجر الأسلحة، والمعماري لوتيانو، والقائد المهزوم رايْدين، والقزم ملكاه الحاذق في استنباط الزهر، وليالو، إلى مقعد نصف قوسيٍّ، من تلك الموزَّعة على الفراغات بين مقاصير النُّزلاء، يستطيع الجالسون عليها استعراضَ العابرين على مُشْرَف السفينة خارجاً من داخلها· أشعلوا عشبَهم الأبيضَ جميعاً· امتصُّوا الدخانَ من مباسم غلاييهم ونفثوه مهذَّباً في مُخاطبات الأشكال الهيولى للأشكالِ الهيولى·

.لاتقلقي ياليالو.، قال المعماري لوتيانو، ذو الترس الدائري الكبير، الرماديِّ لوناً كحديده عليه رسومُ سلالمَ مكسورة· .الأمور محسوبة بالدقائق، والثواني، على ميزانِ الطقس، في اليوم الرابع والعشرين من أيلول. لمس براحته فخذَ المرأة لمساً أنيقَ الحركة: .كهذا اللحم، تماماً. حدَّق إلى عينيها البنيتين، الداكنتين، جانبياً: .ماذا تفعلين لتحفظي لحمَكِ عمارةً من هندسة الرغبة، ياليالو؟.

.العمالُ كُثُرٌ.، ردَّت ليالو· أحْصَتْهم واحداً واحداً بأسمائهم: .أربعة عمَّالٍ يتدبَّرون صيانةَ أساسات فخذي، وردفيَّ، وثدييَّ، وشفتيَّ، كلَّ يوم، بشهيقهم وزفيرهم. نهضت عن المقعد متقدِّمةً صوب النافذةِ الواجهةِ العريضة تُرى منها الأقدام حتى الرؤوس إنْ عبر النُّزلاءُ قربها من خارجٍ· اتَّكأت على الزجاج السميك

بكتفها، ممسكة بترسها المستطيل، المجوَّف، الذهبيِّ الأحفَّة، في يدٍ، وغليونها في الأخرى: .الحركةُ، حتى وأنا نائمة تحت أحدكم أحلم بجدَّتي، تُبقي لحمي عمارةً. ضيَّقت بين أجفانها المنتفخة قليلاً في تساؤلٍ: .عمارة من ماذا، يالوتيانو؟.

.من هندسة الرغبة.، ردَّ المعماري·

غمغم ديغار، بلا كلماتٍ، غمغمة استيائه المتصاعد من ليالو، منذ اليوم الأول لصعودهم السفينة· تفهَّمتْ ليالو الغمغمةَ· واجهتْهُ ببصرها:

- حين تأتي بعاهرة إلى رحلةٍ توقَّعْ منها أن تظلَّ عاهرة، ياديغار· لقد احتملتُ غمغماتك، وزجْرَك، وانتهارَك إيَّايَ، كثيراً· اخترتَني بأجرٍ، وتكاليفَ رحلةٍ، لمتعتك ومتعة رفاقك، فَخُذْ منيِّ ماجئتَ بي من أجله، ودعْني طليقة في صناعة تاريخ الكلمات المغلَّفة بأصفانِ الخُصى، والملتوتة كالكعك في السميد والمنيِّ·

ضرب ديغار بحافة ترسه المثلث السفلى، عليه رسمُ الزوبعةِ، الأرضَ المعدنَ استياءً:

- طريقتُك في الكلام، وأنا لستُ متديِّناً ياليالو، باتت كهرطقة المارقِ، وتجديفِهِ، على سَمَع البابا·

نفثت ليالو دخاناً طويلَ الذيل من بين شفتيها المنتفختين:

- أأنت كاردينال، أم أُسقُف؟ أسمع تجديف خصيتيك وهرطقتهما، بأُذُنَيْ فرْجي المتديِّن، ولاأغتمُّ لذلك أو أهتمُّ· أنا متسامحة· دِيْنُ فرْجي متسامحٌ، ياديغار·

نفخ ديغار، الطويل الممتلئ، من فمه المائل إلى جهة اليسار فحيحاً· مال بصدره أماماً يستطلع صِحابه بعينين زرقاوين على صُفرةٍ دارتا عليهم:

- فكرةُ مَنْ كانت أن آتي بها معنا؟·

.كانت فكرتك أنت، ياديغار.، قال رايدين، الذي يتستَّر أبداً على تواريخ المعارك خسرها في سقوط أوروبا·

.لكنني اشترطت عليها، منذ البداية، أن تتصرَّف كسيدة.، قال ديغار مُحبَطاً· عضَّ ببصره على وجه ليالو:

- ألم يكن ذلك اتِّفاقَنا، يابنتَ القوَّادين في الجنة؟·

.تصرَّفتُ كسيدة، ولم أزل.، ردت ليالو وهي تنثر الرماد المُطفَأَ من جُوْرة غليونها على الأرض المعدن·

تصنَّع ديغار بكاءً من وجهه المستطيل تعبيراً نهائيًّا عن مَبْلغ يأسه منها، واحتقاره أيضاً:

- تصرَّفتِ كسيدة، ياليالو؟ لِمَ لمْ تولدي بلا لسان؟·

ابتسمت ليالو:

- كيف تتصرَّف سيدةٌ، ياديغار؟ ماالألفاظ الأكثر خَفَراً، وعفَّةً، وتهذيباً، ينطقُها فرْجُ سيدة شريفة، ولاينطقُها فرْجي؟ أم لبظر السيدة الشريفة قواعدُ في النحو أكثر عراقة من سُوْقيَّة بظري؟

نهض ملكاه مستهجناً:

- أسمعُ شيئاً من أشعار المنيِّ ونثره، الآن·

.إخرسْ أنت أيضاً، ياملكاه.، قال ديغار·

.كان عليك أن تجلب راهبة من راهبات الكأس الثالثة المقدسة معك· كنتَ أخرستنا جميعاً، وأخرستَ خُصانا.، قال رايدين، ذو الصوت الخفيض· نهض بدوره واقفاً يمزِّن ساقيه استقامةً وانحناءً من خَدَرٍ عَرَا إحديهما· نقر برأس غليونه على ترسه المستطيل، المجوَّف، الأحمر عليه رسمُ عربة تجرُّها هياكلُ عظامٌ آدميةٌ، وحيوانية· تناثر الرماد من جُوْرة الغليون على الأرض المعدن·

.كنتَ أنت يارايدين صاحبَ الفكرة.، قال ديغار متذكِّراً· .أنت اقترحتَ، بعد ليلة تشاركنا فيها ابنة القوَّادين في مملكة السماء، أن تصحبَها معنا ترفيهاً في الرحلة.

.لم أقترح ذلك قط، ياديغار.، ردَّ رايدين ذو الفم الكبير الشفتين على حُمرةٍ·

.هزائمُك، في سقوط أوروبا، اقترحتْ ذلك، يارايدين.، قال ديغار بنبرٍ مهين، فانبرى ملكاه محاولاً تخفيفَ ماتوجَّسه عاصفةً بين الإثنين· تكلَّم بصوته الأخنِّ:

- شكراً للهزائم على الترفيه عنا في هذه الرحلة·

.ترفيه؟!.، دمدم ديغار·

طقطقت ليالو بالعقب الأبيض العالي في حذائها البرتقالي على الأرض المعدن:

- أسمعتم؟·

.ماذا؟ نقْرَ حذائكِ؟.، ساءلها ديغار، فردت ليالو:

- فرْجي·

عضَّ ديغار على حافة ترسه: .أنت ميتة.، قال صارخاً·

.تمهَّل قليلاً، ياديغار.، قال ملكاه· نظر إلى ليالو: .ماذا قال؟.

.قال إنه مَنِ اقترحَ المجيء معكم في هذه الرحلة· فلا يتبادلنَّ ديغار، ورايدين، التهمةَ في تحميل أحدهما الآخرَ جريرةَ وجودي هنا· كونوا مسروريْنَ.، قالت

ليالو·

.حسمتِ المتعةُ الخلافَ.، تمتم ملكاه ساخراً، فدمدم ديغار:

- متعة؟! إنها رحلةٌ لاستعراض دقيقتين من رقصِ حورية، لأكثر، ستكلِّفنا عارَ الإصغاء إلى ليالو·

.عارٌ متعةٌ.، قال رايدين· صفَّر: .لماذا نحن في هذه الرحلة، إذاً، ياديغار؟.، تساءل، فردَّ المعماري لوتيانو ناهضاً عن المقعد بدوره:

- ليعود كلٌ منَّا من الرحلة بذاكرة· بحرُ تريتونفال وعْدٌ بذاكرة·

.أية حالٍ هي حالنا الآن، إذاً، يالوتيانو؟.، ساءله ديغار·

.بلا ذاكرة.، ردَّ لوتيانو·

نقر ديغار بحافة ترسه المثلث مسند المقعد الحديد:

- أأنت معماريٌّ، يالوتيانو، أمْ خططٌ ناقصة في بناء الجداران؟ وراء كلِّ مهندس خرابُ مدينة·

.هكذا إذاً؟.، ردَّ لوتيانو· أضاف، وهو ينقل ترسَه من يدٍ إلى أخرى: .أوراء خراب كل مدينة مهندسٌ أم بائع خُرْدة، أيها الأعزاء؟.

.لماذا تخلطان المَثَلَ الرائع، وتنتهكانه؟.، تساءلت ليالو، وهي تخلِّلُ شعرَها الأسودَ صِبغةً بأصابعها·

.ماالمَثَلُ الرائع، الذي تعنين؟.، ساءلها ملكاه، فردت المرأة اللَّفَّاء الفخذين:

- وراء كل رجل عظيم إمرأةٌ·

.أوه.، تمتم ملكاه من فمه الواسع، الكبير الشفتين: .إنهما يصحِّحان الحقائقَ المهزومة في حروب أوروبا، ياليالو، لذا يضعان الرجال وراء الأعمال المهولة.، قال ملكاه القزم: .وراء كلِّ خرابٍ رجلٌ.

.تعني، ياملكاه، أن وراء كلِّ خرابٍ هزيمةٌ من هزائم رايدين.، قال ديغار، فاستثقل ملكاه تحميله مالم يقُلْه:

- كلامي واضح· لاإشارة فيه إلى رايدين، ياديغار·

نقرت ليالو بأظافرها الطويلة على ظاهر ترسها الأخضر لوناً، برسومٍ غيومٍ مُضاءة في وسطها:

- إذا كان وراء كل رجل عظيم إمرأة، فأين موضع الرجل؟ هو وراء ماذا؟·

.وراء كلِّ جحيمٍ رجلٌ.، ردَّ ملكاه· هزَّ رأسه الكبير استحساناً لبداهته· أضاف: .ووراء كلِّ جحيمٍ إلهٌ.

.لأنه بائع أسلحة، لاأكثر.، تمتم رايدين غامزاً من شأن ديغار، الذي لم تفُتْه الوخزةُ:

- مَنْ، يارايدين؟·

.الإله، ياديغار.، ردَّ رايدين·

.هو ليس بائع أسلحةٍ حَسْبُ، بل يربح المعارك، يارايدين.، قال ديغار مبتسماً في سخرية من وجهه الشاحب·

.مِثْلي.، ردَّ رايدين·

.نعم· مثلك، تماماً، يارايدين.، قال ديغار وهو يحشو غليونه من جديد، مُطْبقاً ركبتيه على ترسه· .هزائمُ تنتصر في كلماتك.

.لاهزائم، ياديغار.، ردَّ رايدين· .الهزائم ليست من أقدار الإنسان· هو منتصرٌ في حروبه أبداً، بسلاح أو من دون سلاح· المهزومون هم باعةُ الأسلحة.

نهض ديغار عن المقعد مفتوحَ الفم عن ابتسامةٍ لاتُعلنُ انتماءَها:

- نحن نجمع المالَ، والنُّفوذَ· فما خلطُك بيننا وبين قُوَّاد مثلك جمعوا المهانةَ بهزائم معاركهم، والعارَ، وأخَلُّوا بشرف السلاح الذي نبيعهم لينتصروا؟ اعْتَرفْ مرةً، يارايدين، أنك هُزمتَ في معارك سقوط أوروبا·

.لم أُهزم لأعترف بهزيمة· هُزِمَتِ المعاني.، ردَّ رايدين·

اقترب ديغار من ملكاه· مازحه بكلماتٍ تخمش جلدَ القائد رايدين الشاحب، لاالقزمَ:

- هل هُزِمتَ قطُّ، ياملكاه؟·

همهم ملكاه يتقرَّى في كتاب عقله السطرَ المعقولَ ردًّا· انحنى يقيس طولَه بالإشارة:

- مثلي مثل رايدين· لم أُهزَمْ بعدُ·

.أنت سعيدٌ، ياملكاه.، قال ديغار مستديراً بوجهه الشاحب إلى رايدين: .ملكاه سعيدٌ.

.نعم· أنا سعيد.، قال ملكاه· .السعادة ضغطت عليَّ بثقلها من يوم مولدي حتى الآن، فجعلتني على قِصَرٍ لاموضعَ فيه لقَدَم الشقاء· شكراً للسعادة الطويلة على قِصَري.

.كلامٌ أشبهُ بفضول الله.، قال المعماري لوتيانو

.أللهِ فضولٌ؟.، ساءله ديغار، فردَّ لوتيانو شاحباً كالآخرين جميعاً:

- لو لم يكن لله فضولٌ ماخلقَ ملكاه·

.إلهٌ تاجرُ سلاح خلقَ السعداء.، تمتم رايدين بصوتٍ يُسمع· وجَّه عينيه الزرقاوين على حُمرة في العروق إلى وجه ديغار·

.هذه أفكارٌ عادلة تديرونها بلا عدلٍ.، قال ملكاه، فصفَّرت ليالو، النافرة الوجنتين عظاماً في شحوبها، من بين شفتيها المنتفختين:

- أنا أعرف كيف أدير أفكاراً غير عادلةٍ في عدْلٍ·

.أوه، يامؤرِّخة الأفكار!.، تمتم ديغار نافثاً دخاناً حكمةً في التصنيف· .هاتي مَثَلاً، يابنةَ القوَّادين في مملكة السماء.

.وراء كل مفكِّرٍ ناجحٍ مجزرةٌ.، قالت ليالو·

.أوه.، تمتم ديغار ثانيةً· .مازلتِ في موضع البحث عن الوراء، يانكبةَ الجغرافيا.

.بل وراء كلِّ عاهرةٍ إلهٌ شاعر.، قال ملكاه·

.أأنت تهيننني؟.، ساءلت ليالو القزمَ بعينين لم تستلطفا نظْمَهُ الكلمات·

.أنتِ آخر سعادة يخطر ببالي أن أهينها في مسيرة سعادتي الطويلة بعِجَالها على طُرُق جسدي القصيرة، ياليالو· استديري لأقبِّل ظهركِ من الردفين حتى عقبَيْ حذائك البرتقالي.، قال ملكاه متذلِّلاً· رفع وجهه إلى المعماري، من غير داعٍ:

- أريد، لمرَّةٍ، أن أُهين سوادَ لوتيانو·

.كيف تستطيع إهانةَ سواد لوتيانو الأبيض الشاحب، ياملكاه؟.، ساءله رايدين·

وضع ملكاه يده عل صدغه مفكِّراً: .امنحوني نصفَ قرنٍ، لاأكثر.، قال· غمغم: .بل وجدتُها. حدَّق إلى لوتيانو متفحِّصاً بأناةٍ مُتصَنَّعةٍ:

- قلَّ سوادُك اليوم· ماذا فعلتَ بنفسك؟·

.سقط قمرُ البارحة عليَّ· أنا جاذبيَّةٌ فضيَّةٌ اليوم.، ردَّ لوتيانو·

تبادل الآخرون نظراتٍ تزِنُ التوريةَ الملغزة في ردِّ لوتيانو·

راهنَ ملكاه على ربْطٍ لصْقٍ في المعاني المكسورة:

- هذا كلامٌ وثنيٌّ·

.كلنا وثنيون.، ردَّ لوتيانو· .حين لانعلن ذلك صراحةً نلجأ إلى ابتكاراتٍ ملتبسةٍ نأكلها كالكعك مع القهوة مستمتعيْنَ· انظروا حولكم· حيث نمرُّ في الطرق نرى التماثيل قائمةً على زَعْم التكريم، والمجد، والإبداع، كأنما نستجدي بها الرأفةَ من آلهة التكريم ألاَّ تحتقرنا، وآلهةِ المجد ألاَّ تُذِلَّنا، وآلهة الإبداع ألاَّ تتركنا لبؤس خيالنا الركيك· نتفاءل بالحجارة· نزين بها حدائقَ بيوتنا· نتفاءل بالألوان،

وبحِلاقات الشَّعر على هذا النحو أو ذاك، وبسلوك الطرق ذاتها مشياً، وبالوجوه إن صادفتنا بسماحتها، ووسامتها، و..

صرخ به ديغار:

- توقفْ، يالوتيانو. لم أحسَّ، في حياتي، أن التماثيل في الشوارع هي أكثر من زينةٍ كحلاقة لحيتي.

.بل كحِلاقة عانتي.، أضاف ملكاه. .صرتُ أتفاءل بذلك مُذْ علَّمتني ليالو كيف أحلقها. ابتسم من فمه الواسع، الشاحب الشفتين، للمرأة اللَّقَّاء، فحدَّجه ديغار بنظرةٍ سَلْخٍ:

- ألك عانةٌ؟ أين موضعُها من جسدك؟.

.إسألْ ليالو، ياديغار.، ردَّ ملكاه مبتعداً يتلافى ركلةً من حذاء ليالو.

.اقتليْه.، تمتم ديغار. نهض عن المقعد برهةً، ثم عاد جالساً: .ياهزائمَ الوثنيين.، قال بلا سياقٍ، فنقر لوتيانو بحافة تُرسه الدائري زجاجَ النافذة ـ الواجهة، الواسعة عرْضاً، والمرتفعة من حدود الأقدام أعلى من الرؤوس:

- الهزائمُ إلهامٌ غريزيٌّ، والانتصاراتُ تَرَفٌ. يتحتَّم علينا أن نُهزَم لنحيا. النصرُ يُقزِّبنا من الموت.

.واو.، غمغم رايدين. .المعماريون يزاحموننا، ياديغار، في منطق الوجود. ظننتُ المعاركَ، والأسلحةَ، جوهرَ الوجود، وزُبدةَ منطقه على خبز العقل محمَّصاً.، قال مستحسناً كلامَ لوتيانو. أضاف: .حسِبْتُكم لاتحسنون غير الأرقام في حساب الأبعاد، والزوايا، وقياس الليل، وتقسيم الرغباتِ بالكسور العَشْرية على العاشقيْنَ. جيدٌ، يالوتيانو. الهندسةُ شأنٌ قَدَريٌّ.

.ابتكرَ الإنسانُ الأرقامَ شوقاً إلى إحصاء هزائمه بلا نقصان. ومُذْ وُجِدَ المعماريون وَعَدوا الأرقامَ بإخراجها من مأزق حصْرها على إحصاء الهزائم إلى جَلالٍ يليق بها. شرفُ الأرقام، الآنَ، شرفُ العمارة.، قال لوتيانو.

.ألم يمنحها المعماريون لوناً، يالوتيانو؟.، ساءله ملكاه في خبثٍ، فردَّ المعماريُّ:

- الأرقامُ، أبداً، سُودٌ.

.ما لونُ شرفها؟.، تمتم ملكاه. استرسلَ: .ما لونُ شرف العمارة، أيضاً؟.

.كشرف السلاح.، ردَّ رايدين استباقاً، فاقتحمت ليالو المحاوَرةَ بلسانها:

- كشرف السلاح الذي هنا.

نظر إليها ديغار مشيرةً بيدها إلى فرجها. نهض هاتفاً حَنَقاً: .يا ابنةَ القوادين في مراحيض السفن. اقترِب منها رافعاً زاوية تُرسه المثلث الحادة يصوِّبها، بتهديدٍ

جليٍّ، إلى وجهها: .سأسحق هاتين الشفتين أوَّلَ ما أفعل. أبقى الترسَ مرفوعاً برهتين قبل أن يخفضه· عاد جالساً على المقعد· وضع ترسه بين ركبتيه· أعدَّ غليونَه محشوَّا عشباً· أشعله· .لاأحبُّ القتلَ· لكنني في البرزخ.

.مامهنتُك؟.، ساءله رايدين سؤالَ المُذكِّر لا المستفسِر·

.لِمَ تسألني عن مهنتي، يامؤسِّسَ أوروبا المهاجرة بعد سقوطها؟.، ردَّ ديغار·

.لاتحبُّ القتل وتبيع السلاح· منطقُك شريفٌ، حقًّا، كشرف القهوة صباحاً.، قال رايدين·

.أوقِفِ المعاركَ لأُوقِفَ ماتُلْزِم به المعاركُ شرفَها من ضرورات القتل.، ردَّ ديغار· .تتضرَّع الحروبُ إليَّ، وتتذلَّل، كي أُنجِدَها· كل ما أفعله أنني لا أريد الحروبَ ذليلةً، منكسرةً· أشفق عليها فأنتشلُها من بؤسها· يتمزق قلبي أن أراها يائسةً، مُهانة، فقيرة· لاأريد أحداً يقتل أحداً· أبيع السلاح، نعم، لكنني لا أبيع الرغباتِ في القتل.

.يالقلبك، ياديغار· إنه بئرُ الآلهة كلها· أحضِرِ الحروبَ معك، في المرة القادمة إلى رحلة كهذه بدَلَ ليالو· سنرفِّهُ الحروبَ· سنتلذَّذ ونُلذِّذُها إن كانت لها فروج للنكاح، وإن لم تكن لها فُروج فسنكتفي بذكريات أسِرَّتنا من الرحلة الشريفة شرفَ السلاح.، قال رايدين· عاد فجلس على المقعد نصف الدائريِّ: .ماالأسلحة المفضلة لديك، في التجارة، ياديغار؟.

.المفضل عندي مايقتل.، ردَّ ديغار·

.هي أسلحة، ياسليل الكهوف· الأسلحة كلها تقتل.، قال لوتيانو المعماري·

حدَّق ديغار مليًّا إلى لوتيانو· هزَّ رأسه أسفاً على مالايعرف: .سوادُك شاحبٌ. أدار بَصره على الآخرين: .نزداد شحوباً.، تمتم·

.لا أهتمُّ، قط، وأنا أرى شحوبي صباحاً في مرآة حمَّامي المتراخي اللهب.، قال ملكاه الجاحظ العينين في وقبين أحاطتْهما دكْنةٌ غائرةٌ·

.أترى نفسك في المرآة؟.، ساءله ديغار·

.أراها حتى عانتي.، ردَّ ملكاه· أطبق فخذيه على ترسه بالرسم الثديين الناهدين عليه· حشا غليونه· أشعله· تنشَّق نَفَساً قويًّا في مصِّهِ المَبْسِمَ الرفيع· مدَّ الغليون إلى ليالو المتكئة بكتفها على زجاج الواجهة: .أكملي أنتِ.، قال· ابتسم وهو ينظر إلى رايدين:

- أحسُّ، في هذه البرهة، بهزيمةٍ·

.مانوعها؟.، ساءله لوتيانو·

.هزيمةٌ رقميَّةٌ.، رد ملكاه٠ .أنا أميْلُ إلى أنَّ للأرقام ذاكرةَ المؤن في مخازن الملوكِ الآلهة٠ هناك، في المخازن، ولدتِ الأرقامُ كي تُحصى بها غلالُ الآلهة، وخصومُها السرَّاقون.

.لم أفهم نوعَ هزيمتك، بعدُ، ياملكاه.، قال لوتيانو٠

.سأعود إلى شرح الأمر في طريق عودتنا من هذه الرحلة.، ردَّ ملكاه٠ أرسلَ بصرَه إلى تُرس ديغار:

- لماذا لا تستبدل رسمَ الزوبعة برسمٍ سلاحٍ؟٠

رفع ديغار ترسه بيديه يتأمل الرسمَ الزوبعةَ حمراءَ تحيط بها دوائرُ صغيرة:

- ما تراه هنا، ياملكاه، هو السلاح النهائي٠

.هِهْ.، همهم ملكاه٠ .سألك رايدين عن سلاح مفضَّل تبيعه فلم تُجب، ياديغار.

.بنادق القنص، المكتومة الصوت، بمناظير ليلية.، ردَّ ديغار٠

.قتْلٌ صامتٌ.، تمتم ملكاه٠

.أفضِّل نوعاً آخر من الأسلحة أيضاً.، قال ديغار٠ .البنادق الفاسدة. هزَّ رأسه مؤيِّداً ما قال٠ .خصومٌ يبيعوننا بنادقَ بسعر زهيد شرط أن نبيعها إلى خصومهم٠ دولٌ تفعل ذلك وهي في حروب مع متمرِّدين عليها٠ يُعدِّلون في أجزاء إطلاق النار من البنادق، فتنفجر حين إطلاق النار منها بين أيدي مستخدميها٠ نربح كثيراً.

.ألا تخشون انتقامَ مَن غششْتموهم، ياديغار؟.، ساءله ملكاه٠

.لانعود إليهم ثانيةً٠ أو ربَّما لن يكتشفوا الأمرَ إلاَّ بعدَ فوات الأوان.، ردَّ ديغار

نظر ملكاه إلى ليالو٠ رفع ذراعه كالمستسلم لأحابيل العالِم ومهازله الدموية٠ أعادت إليه ليالو غليونه٠ همست: .لماذا تنظر إليَّ مُرتاباً؟. وضعت يدها على مطرح فَرْجها: .مامن قطعة في جسدي خضعتْ لحِيَل التعديل كي تنفجر بكم.

.من أين أنتِ، ياليالو؟.، ساءلها رايدين، فردَّت المرأة اللفَّاءُ الفخذين بلا مبالاة:

- من الجحيم٠

.كلُّنا من الجحيم.، قال لوتيانو٠ فعاد رايدين إلى سؤاله ببعض الإضافة:

- من أيِّ عمارة في الجحيم أنتِ، ياليالو؟٠

.من عمارة القوَّادين.، قال ديغار مُقْحِماً لسانَه في البياضِ الهواء بين السطورِ الهواء٠

نقلت ليالو تُرسها المستطيل من يد إلى أخرى:

- اسألْ ديغار، يارايدين·

.عمَّ تريدينه أن يسألني، ياليالو؟.، تساءل ديغار بصوتٍ تهيِّئُ الحروفُ فيه كمائنَ ساخطةً·

.من أين أنا؟.، ردَّت ليالو·

.إنْ لم تكوني من عمارة القوَّادين، فأنَّى لي أن أعرفَ ياابنةَ القوادين في مملكة الفردوس؟.، تساءل ديغار·

.أين التقيتني؟.، تمتمت ليالو·

.أين التقيتُك لايعني أنك من هناك· لقد التقيتُك على باب داري، وأنتِ في مشادة مع مُرافقيَّ الحرَّاس· ادَّعيتِ أنكِ قصدتِ البابَ الخطأ مع الإصرار على لقاء صاحب الدار· كنتِ مرتبكة، أو تصنَّعتِ ذلك· أدخلتُك الدارَة· سقيتُك شاياً.، ردَّ ديغار·

.ثم ماذا، ياديغار؟.، ساءلته ليالو·

.لاشيء· ظللت تتردَّدين على داري وأنا أدفع لك· ثم دعوتُك إلى الترفيه عن صحابي في هذه الرحلة.، ردَّ ديغار·

.من أين أنتِ ياليالو؟.، ساءلها رايدين سؤالَه المخصَّص ذاتَه·

.من بحر تريتونفال· أنا الحورية التي ستشهدون رقصتَها دقيقتين.، ردَّت ليالو·

.رقصة كالوجبات السريعة.، علَّقَ ملكاه·

.هذه هي الأمور العظيمة، ياملكاه.، قالت ليالو· ربتَتْ بأصابعها على مطرح فرجها: .وجبات سريعة.

ابتسم ملكاه وهو ينفث الدخانَ من منخريه:

- الأمور العظيمة، حقًّا، وجبات سريعة· خُلِقَ كلُّ شيء في أسبوع· خُلِقْنا في يوم منه· خَلْقٌ سريعٌ، والله يحبُّ ذلك·

.هزائم سريعة.، تمتم ديغار مُختلِساً نصفَ نظرةٍ من لَحْظِهِ إلى رايدين: .لماذا لاتستبدل حذاءَك الأبيضَ المُصْفرَّ كألوان جلودنا بقَبْقاب النوم؟.

.سأستبدله حين تستبدل أسلحتك بشاحنات الإغاثة للجوعى.، قال رايدين·

.معاركك تركتِ الناسَ جوعى، يارايدين· أنا صانع أحلام تخفِّف قليلاً من عار المهزومين كدَّسْتَ لهم انتصاراتٍ هزائمَ في خططك.، ردَّ ديغار·

.ياللأحلام!!.، تمتم رايدين بنفْرٍ من إصبعه على رسومِ تُرسِه الهياكلِ العظام·

.السلاح حلم الإنسان الأول، وأمثالي يؤنِّقون ذلك الحلمَ في الزمن، يارايدين· السلاحُ اجتهادٌ في تفسير النصوص المُعْضِلة، وتصويبٌ لخطأ الحياة في

تصريف الأفعال.، قال ديغار·

.ماهذا؟.، تساءل المعماري لوتيانو· .أنت تسرق مني خُططاً هندسية.

.الحياة صادقةٌ، وبلا خيال.، أكملَ ديغار من غير اهتمام بجملة لوتيانو، الذي قاطعه ثانيةً:

- هذا ماعنيتُه· المعماريون يستولدون للحياة خيالاً، ياديغار·

تجاهل ديغار تعليق لوتيانو· أكملَ:

- الحياة عاجزة عن تلفيقٍ ساحرٍ· عاجزة عن التعبير عن حدودها المُهِينة· هي هكذا، متخاذلة، ولاأحدَ يقدِّم مواساةً عن هزائمها إلاَّ السلاح·

.المعماريون يَهَبون الحياةَ تعويضاً.، قال لوتيانو، فحدَّق إليه ديغار:

- تعويضٌ عَمَّ؟ مانفْعُ التعويض بالهندسة؟ يَلْزَمُ الحياةَ المرتبكة ما تطمئنُّ إليه لتُصْلِحَ عجزَها، يالوتيانو· السلاحُ طمأنينةُ الله، وهو التوازنُ المفقودُ لم نعرفه منذ كوكبنا الأصل·

هَأْهَأَ ملكاه:

- ماكوكبُنا الأصل؟·

.المكان الذي لم تكُن الأسلحةُ فيه آلاتٍ، بل رغبات تتحقَّق من فورها: رغبات الحماية، رغبات التدمير.، ردَّ ديغار·

.ماذا كان سيبقى منا على كوكبك الأصل، ياديغار؟.، ساءله رايدين، فردَّ ديغار:

- الكثير· أعني يتبقَّى اثنان، ربما، لاغير، متواجهيْنِ برغبتين لايتمكَّنان من إنجاز قصدها· رغبتان متحيِّرتان: مَنْ منها يكون الأخير الذي يدمَّرُ، ومَنْ يكون الأخير الذي يدمِّر· كان سيتبقَّى اثنان متحيِّريْنِ في اختيار الدَّوْر·

.مَنْ منهما كان سينتصر، ياديغار؟.، ساءله لوتيانو·

.لا أعرف.، ردَّ ديغار· .لكنني واثقٌ من أنْ كل منتصر في معركة تناول وجبةً قوية قبل خوضها.

.أهذا تعميم من عباقرة بيع الأسلحة؟.، ساءله رايدين، فردَّ لوتيانو:

- هذا قانون الانتصار·

.أنت تبحث عن كلماتٍ من المجد لاحضورَ لكَ فيها.، تمتم رايدين، فاحتدمَ ديغار:

- أتحدَّثُ عن انتصارات لا حضور لك فيها، يارايدين· كنتَ تتناول وجباتِ طعام سريعةً، لذا سقطتْ أوروبا·

.أنا سآتيكم بشيء فيه حضورُ المجد ذاته.، قال ملكاه· .سأعود بعد قليل. نظر إلى ساعة يده· مضى مسرعاً صوبَ الممرِّ إلى السلَّم الآليِّ·

.ماذا سيجلب مكاه؟.، تساءلت ليالو، فردَّ لوتيانو:

- سيجلب بزورَ اللهب يستنبط بها زهراً في مشاتله·

.قد يفعلها ابن العنكبوت هذا.، علَّق ديغار· .جلب إليَّ من مشاتله زهراً نَمَا على أوراق كؤوسها ثمرٌ كثمر الصبَّار، مفرطٌ في الصِّغر، عليه شوك· وهو يتحدث، الآن، عن استنباط زهر تستطيع جذوره الانتقال به، في التربة، من موضع إلى آخر، في بطء، كأنه يمشي· ستكون في حدائقنا ألوانٌ تمشي.

سُمعْت جلبةٌ من جهات السلم الكبير، الوسيط نقْلاً بين طبقة السفينة العليا والطبقة الوسطى، ثم ظهرَ ركابٌ مختلطون استطاع ديغار، ومَنْ معه، لمحَهم في عبورهم بين سطر الغُرفِ المقاصير، من موضعهم عند الواجهةِ الجدارِ الزجاجِ ِ الواسعة· كان بعض الجمْعِ يظهر، بقدومه، في المتاح رؤيتُه من الفاصل في امتداد المقاصير متراصفة على استدارة السفينة، في وسطِها، ثم يختفي ليظهر بعضُه الآخر اللاَّحقُ به· كان الجمْعُ في دورةٍ التفافٍ، من نهاية مقاصير النُّزلاء، صوب المَعْبر إلى الباب الواسع، ذي الدَّفتين تتوسطهما كوَّتان زجاجٌ ـ الباب المفضي إلى مُشْرَف السفينة خارجاً· وفي اختفاء الجمْع، بعد عبور الفاصل المتاح رؤيتُه من المقعد حيث يجلس ديغار، ظهر مُقدَّمُه على مُشرف السفينة، ظاهراً بناسِه وراء الجدارِ الزجاجِ الواجهةِ الواسعة، على مرأى من بصر ليالو، ولوتيانو، ورايدين، وديغار، تحت المطر منهمراً·

لم يكن مسموعاً ماتتقاذف به الأصواتُ من الأفواه المفتوحة كأنْ هي مُقبلةٌ على نهشٍ· لكنَّ التِّرَسة، التي هبَّتْ متصادمةً، مكَّنتِ الرؤيةَ من أن تصير الرؤيةُ صوتاً· نهض ديغار عن المقعد ليجاور ليالو مُلصقةً وجهها بالزجاج: .إنها معركة.، غمغم·

.كان في حَدْسي أن شيئاً مَّا سيجري اليوم· كاد نايورا أن يحوِّل الغداء إلى أوبرا بصراخه في وجه هيغور.، قال لوتيانو·

.فتيات القبطان هيغور كدْنِ يفْرِمْنَ نايورا بأصواتهن ردًّا عليه، لولا هيغور نفسه.، عقَّبت ليالو· .ربما كُنَّ حورياتٍ في جَوْقِ بحر تريتونفال، تحت هذه السفينة.

شُبَّانٌ، وشابَّاتٌ من طائفتيِّ القبطان هيغور، ودِهقان قبيلة الشطرنج نايورا، تبادلوا قِرَاعاً بالتِّرسَة عنيفاً، متواصلاً، بالرغم من الشحوب الذي يُبديهم مُوْهنيْنَ· وكانت ثِللُهم المتداخلة عِراكاً تتكشف، لَمْحاً، في بعضِ الحين، عن نايورا وهيغور واقفيْن، قرب حاجز السفينة القُضبان، يستعرضان المعركة بوجهين برزت عظامُ وُجُناتهما نافرةً، وتمطَّت أشداقهما عن لسانين يتقلَّبان

غضباً في سَبْك الكلمات، وهما يتواجهان بعيونهما تارةً، ويرسلان بصرَيهما، تارةً أخرى، إلى المتعاركيْنَ يحثَّانهم على بَذْر القوة في أثلام الوجود المتوازية، تحت المطر·

.أين ملكاه ليشهد هذا؟.، تمتمت ليالو· نظرت إلى رايدين:

- إنها معركة·

مال رايدين بوجهه صوب ديغار:

- أعْطِهم أسلحةً ليكون المشهد أكثر تشويقاً· أليس في حقيبتك مدفعٌ، أو لغم، أو قنبلة عنقودية؟·

.أعْطِهم معركةً من معارك سقوط أوروبا· أعطِهم هزائمَ قائد مثلك، يارايدين.، ردَّ ديغار·

.الهزائم لاتُهدى، أو تُعطى· الهزيمةُ أملٌ، ياديغار.، قال رايدين·

.ماالانتصارُ إذاً؟.، ساءله ديغار·

.سخرية من الأمل.، ردَّ رايدين·

.ماذا تفضِّل، يارايدين: السخريةَ أمِ الأمل؟.، ساءله ديغار، فردَّ رايدين:

- أفضِّلُ كلَّ سخرية: الانتصارَ السخرية· المعارك السخرية· الوجود السخرية· الأبدية السخرية·

.وأنا أيضاً، يارايدين· أفضِّلُ أنْ أكون سخرية على أن أكون مهزوماً.، قال ديغار· ضغط بجبينه على زجاج الواجهة الجدار يُشرف ببصر قلبه على المعركة: .تناقضاتك تتطاير، يارايدين· لم تُهزم!! لم تنتصر!! ماذا عندك من البراعات المبتورة الأذيال؟.

.أنا، أيضاً، لم أفهم، يارايدين.، قال لوتيانو· .أليست الهزيمةُ سُخرية؟.

احتَكَمَ ديغار إلى ماقاله المعماري لوتيانو:

- أتسأَلُ معلِّمَ المنطق رايدين؟ جوابُه غيرُ ماترى، في الأرجح·

.واو.، صرخت ليالو· .سقط أحدهم من فوق حاجز السفينة إلى البحر

.رأيتُه.، تمتم لوتيانو·

باتَ المطرُ الذي تنفلق بزورُه في ارتطامها بالأرض المعدن، على مُشْرَف السفينة، يَنْتشُ، من فوره، فسائلَ حمراءَ دقيقةَ السيقان، ترتفع من مَسْقط القطرِ بتيجانٍ صغيرة، ثم تنهار ذائبةً· أحقَّةُ التُّروس، في أيدي طائفة نايورا، التمعت بالرسم المُسْتنسَخِ أوْحَدَ ـ وجهِ فتاة مختبئ بنصفهِ في خُصَلٍ من شعر أبيض متماوجةٍ أفاعيَ، تحت زحف التروس المجوَّفة، المستطيلةَ، بالرسم

الأوحد مُستَنْسخاَ لملاكٍ رجل يخنق ملاكاَ طفلاً، في أيدي طائفة القبطان هيغور· توسَّع الحديدُ في تورياته صوتاً من أحوال الشوق إلى المعاني الرنين· تجاورَ الحديدُ الشَّارِحُ والحديد المفسِّر في مُشرف السفينة، بعيونٍ معدنٍ على اللحم ينشقُّ عن أعناقٍ، وعلى العظام تتغوَّر كسْراً من نطحِ أحفَّة التُّروسِ الرؤوسَ· ثيابُ المتعاركَيْنَ ضاقت ببللها مختنقةً· ثيابُ طائفة القبطان الرماديةُ بناطيلَ وقُمُصاً للشبان، وسُتراتٍ فوقَ أثوابٍ قصيرة للشابات؛ وكذا ثياب طائفة نايورا الثلاثين نَفَراً، المتشاكلةُ لوناً وزيًّا· ألصقَ المطرُ الثيابَ باللحم إلصاقَهُ الشعورَ بالرؤوس، والأعناق، والوجوه، فإنِ انفلتتِ الخُصلُ انفلتَ معها الماءُ مقذوفاً قطراتٍ تلتهم القطرات·

.جئتكم بشيء من حضور المجد.، قال ملكاه بصوته الأخنِّ، قادماً من الفاصل بين سطر المقاصير إلى حيث التصق رفاقه بالجدارِ الزجاجِ الواجهةِ حاجبيْنَ عنه أن يرى: .إلى ماذا تحدِّقون؟.، هتف بهم فضولاً·

كانت إحدى يدي ملكاه منشغلة بحمل التُّرس، والأخرى بكيسٍ يحوي شكلاً مستديراً في داخله· ضرب بحافة ترسه المثلث الصغير باطنَ ركبةِ ديغار، ثمَّ باطنَ ركبة ليالو: .وسِّعا لي قليلاً.، قال، فأبعد الإثنان سيقانهما يُمكِّنان القزمَ من رؤية مُشْرَف السفينة·

.أظهرت الحوريةُ أبكرَ من موعدها؟.، هتف ملكاه مبهوراً بالتروس يهوي بعضُها على بعضٍ، أو تتصادم دفْعاً، وبالمتحاربيْنَ تتواجه أفواههم صُراخاً لايُسمع من داخل السفينة· كان الجهدُ الأشدُّ في العراك أن يقذف الغريمُ بغريمه من فوق الحاجز إلى البحر، أو يصرعه فلا ينهض· وكان واضحاً، أيضاً، لعيون ديغار، وملكاه، وليالو، ورايدين، ولوتيانو، أن طائفتَيْ نايورا، وهيغور، على قَدْرٍ من الحِذْق في المنازَلة باستدارتهم حركةً، واعتماد الانحناء الرشيق تحامياً، واحتساب المسافات بعضهم عن بعض تمكيناً للتِّرَسة أن تسدِّد الضربَ بأحفَّتِها المستديرة، المسننة في أيدي طائفة نايورا، والمستطيلة الضخمة في أيدي طائفة هيغور·

دِيْسَتْ أجسادٌ متهالكةٌ· تراجعت أجسادٌ رَهَقاً من صَعْقِ الجروح· بدا نايورا، ومثله هيغور، يُعِيْنان بعضاً من المُرْتثِيْنَ على الإتكاء بظهورهم إلى حاجز السفينة، ويسحبان من بين الأقدام من بهم رمَقٌ يُجلسانهم على مقاعد الاستراحات، أو يمدِّدانهم قرب الزجاج الجدران الواجهات، حيث الأبصار شاخصة، في الأرجح، من كل فسحة بين مقاصير النزلاء، إلى ماتستطيع رؤيته من المُنَازلة، بحسب الممكن من وقوع الواجهات فاصلاً بين داخل السفينة ومُشْرَفها الخارج مكشوفاً مَشُوْفاً تحت المطر·

.من سينتصر؟.، تساءل لوتيانو·

.لن يُهزمْ أحدٌ.، ردَّ رايدين· .الهزيمةُ انتصارٌ لاتتَّسع له المعركة.

.أسمعتُم؟.، غمغم ديغار· .هذا ردَّ أحد قادتنا إلى معارك سقوط أوروبا.

.وماذا فعلت أنت لأوروبا، ياديغار؟ ماذا فعلت أسلحتُك؟.، ساءله رايدين من غير أن يرفع بصرَهُ عن جِدال التروس في منطق المعدن صِدَاماً، وقِرَاعاً·

.انت قائد، يارايدين· تختار الأسلحة لجيشك، وتوزِّعه بحسب مقتضى أطلس المعركة· نعم· لكنَّ مهزوماً مثلك لم يفهم الأسلحة بإحساس الرِّقة فيه، أو بإحساس التماثُل الذي ربما تفتقِدُه· لاشيء أجمل من أن تكون مُحاطاً بالأسلحة· الوقتُ أجملُ مُحاطاً بالأسلحة· المحادثاتُ أكثر عمقاً بمجازاتها وأنت محاط بالأسلحة· أشدُّ المصطلحات طولاً يُلفظ صحيحاً بحروفهِ وأنت محاط بالأسلحة· الخططُ الأنقى إحكاماً تُنْجزُ في مكان محاط بالأسلحة· الله، والدِّيْنُ رائحتان من روائح الدخان في انطلاق قذيفة من مدفع، أو انفجار لغم، أو انهيار عمارة بصاروخ· السلاح خروجٌ من المتاهة إلى تأسيس أُمَّة· السلاح بُشرى وصول الرُّسل بأنباء من ثراء المناجم· السلاحُ صلاةُ الخوف الأولى، وصلاة السَّكينة بعد الخوف، وصلاةُ المعقول بعد كلِّ جنون· السلاحُ اتِّزانٌ روحيٌّ.، قال ديغار بنَفَسٍ واحد من غير انقطاع، كبصره لم ينقطع عن ملاحقة التروس التي سقطت سائرةً على أحفَّتِها كعِجَالٍ فوق الأرض المعدن·

.أيُّ أسلحة هذه، ياديغار؟ أتتحدث عن نساء، أمْ أطعمة، أمْ أديان، أمْ حمَّامات بلهب تتوهَّج منه الأسنانُ أربعين يوماً بعد خروجنا منها؟.، سأل ملكاه تاجرَ الأسلحة·

.أظن أنَّ ديغار نسي شيئاً.، قال لوتيانو المعماري·

.ماذا نسيتُ؟.، ساءله ديغار·

.أنَّ الأسلحة مقدِّماتٌ في كل منطق.، ردَّ لوتيانو·

.لاشكوك للأسلحة حتى تكون من مقدِّمات المنطق· هي هويةُ كل منطق.، قال ديغار·

تراجع ملكاه عن الواجهة خطوة· رفع وجهَه إلى ديغار:

- أهذا ينطبق على كل منطق؟·

التفت إليه ديغار الطويل، الممتلئ، من علياء وجهه:

- ماذا تعني، ياملكاه؟·

- أينطبق على منطق السود، والبيض، والعمالقة، والأقزام، والسحاقيات، والمثليِّيْنَ اللوطيين، ياديغار؟

تأمله ديغار برهةً· رفع كتفه:

- ربما· المنطق منطقٌ، ياملكاه·

.أفهمتَ منطق ديغار عن منطق السلاح، ياملكاه؟.، ساءله رايدين·

.ليس بعد.، ردَّ ملكاه· .كنتُ تمنَّيتُ لو سمعتُ هذا منه وأنا سِحاقيَّة.

.سِحاقيَّة؟.، تمتمت ليالو· .تعني·· ماذا تعني؟ أنتَ ذَكَر ولستَ أنثى.

.حين كنتُ سِحاقية.، ردَّ ملكاه· .في حياتي الماضية، قبل هذه، كنت أنثى، سِحاقية منذ السابعة من عمري.

ضحكت ليالو:

- ألم يكن الوقتُ مبكراً على طفلة في السابعة أن تكون سحاقية؟·

.لا.، ردَّ ملكاه· .في مملكتنا ـ مملكة رايْسْتا تكون الأنثى سحاقية وهي في الثالثة.

.منذ متى كانت رايستا مملكة، ياملكاه؟ هذه ضاحية مُفلِسة يحكمها مهاجرو أوروبا بعد سقوطها.، قال ديغار·

.لايهم ذلك الآن· فلْنبقَ في موضعنا: في الحياة السابقة على حياتي السابقة، كان كل من في مدينة ليهولم سحاقيات ولوطيِّيْنَ.، قال ملكاه·

.كيف تكاثروا؟.، ساءلته ليالو بنبرٍ مازحٍ·

.السحاقياتُ استأجرن المنيَّ من اللوطيين.، ردَّ ملكاه·

- استأجرْنَ المنيَّ، ياملكاه؟·

- نعم ياليالو· إنْ انجبْنَ ولم يعجبهنَّ المولودُ أعدْنه إلى صاحب المنيِّ المُسْتأجَر· وإن أعجبهنَّ اشتريْنَه·

لم يكن الجمْعُ الصغير ـ ديغار، ولوتيانو، وملكاه، وليالو، ورايدين، على قلقٍ في شهودهم العراكَ الدمويَّ، أو توجُّسٍ مَّا، أو تهيُّبٍ مما يشهدون· كانوا يراقبون، ببعض الفضول، لاغير؛ بل بيقظةٍ من خيالِ المَذاق مرَّغَ لوتيانو لسانَه فيه، وهو يرى المتهالكيْنَ يزدادون:

- ستكثر وجباتُ الغداء القوية·

غمغم الآخرون ترديداً بألسنةِ صمتهم نشيدَ المَذاقِ، وقد ارسلوا عيونهم إلى الصرعى في العراك، والخامديْنَ جثثاً· حشوا غلاييهم عشباً أبيض· استولدوا الدخانَ بلهب قدَّاحاتهم تتسلَّق منه الأشكالُ هيولى زجاجَ الواجهةِ الجدار· مال ديغار ببصره صوب ليالو:

- انضمِّي إليهم· سأدفع لكِ على ذلك·

.انضمَّ، أنتَ، إليهم، ياديغار، وسأعيد إليكَ مادفعتَ لي.، قالت ليالو·

.سارمي بكِ عن هذه السفينة.، تمتم ديغار، فتِصنَّعَ ملكاه الفَرَقَ والأسى:

- ماذا سنفعل بأنفسنا، ياديغار؟ سترتكب خطأ قد يجعلنا يائسيْنَ·

نظر ديغار إلى ملكاه يقيسه بأشبار بصره، فهزَّ ملكاه رأسَه متفهِّماً تلك النظرةَ الناطقةَ:

- جسدي هو الخطأَ مجسَّماً· أأرضيتُك؟·

.ليس بعد.، ردَّ ديغار معيداً بصَره إلى العراك فوق مُشرَف السفينة·

.ليس بعد.، ردَّد ملكاه جملةَ ديغار· .ليس بَعْدَ إداراتٍ وهميةٍ، بلا أوامر، بَعْدُ· الأوامرُ ضرورة جسدية، والعبودية مساومةٌ على الأرق.

قاطعه لوتيانو:

- على ماذا تدرِّب لسانَك، ياملكاه؟·

.على كُلِّ ماليسَ لهُ بَعْدُ· على الوجود مُخْتَزَلاً في عِلْم المَشَاتل؛ على الدِّين، والتاريخ، والهذيان المنظَّم؛ على الحدائق حين تكون الحدائقُ تبريراً للتجانُسِ المُختَلِّ؛ على المياه المعسكرات بلا مؤنٍ؛ على المقاييس المناهجِ البرتقالية؛ على النفي القسريِّ للمعاني، والنَّفي الإرادي؛ على هذه السفينة ـ المكتبِ الإستشاريِّ في قوانين المعقول؛ على كُرْهيَ الحدائق وحُبِّيَ المشاتِلَ؛ على جيش الشكِّ يمشي معي إلى قلاع الخطط؛ إلى الحروبِ ـ أقدامِ البشرية على ضفة حقيقة البشرية.، قال ملكاه بصوتٍ خفيض كالتمتمة·

.أنت تسرق كلماتي، ياملكاه.، قال رايدين مبتسماً·

.لم أسمعك تقول شيئاً من هذا، يارايدين· لقد قاطعتَني.، هتف ملكاه كأنه يخاطبه من بعيد·

.ماذا لديك أيضاً؟.، ساءله ديغار، فردَّ ملكاه:

- لديَّ أقدام البشريَّة، التي على ضفة حقيقتِها الحروبِ، وأقدامُها الأخرى، التي على ضفَّة الله·

ابتعدت ليالو خطوتين عن الجدارِ الزجاجِ الواجهةِ: .هذه ثاني مرة ينطفئ العشب، كأني بهؤلاء المتعاركين ينفضون رَذاذاً عن رؤوسهم فوق غليوني.

.نعم· الرذاذُ يتطاير من أفواههم.، قال ملكاه· مسحَ جبينَه متصنِّعاً مَسْحَ بَلَلٍ· .لقد مسَّني الهواءُ هارباً من صخب التروس.

.يُمتِعني التدخينُ من غليوني في الريح.، قال لوتيانو·

.قد تكون الأول في التاريخ يحبُّ استنشاقَ دخانٍ معذَّبٍ.، علَّق رايدين·

.بل يكون الدخانُ مُحَارِباً، لامعذَّباً، في الريح.، ردَّ لوتيانو· .يندفع من فمك، حين تنفثُه، مستشاطاً غضباً· ينفجر في كل اتجاهٍ ليُسيطرَ أكثر.

.هذا منطقُ قُوَّادٍ سلّموا أوروبا لأول هاربٍ إلى أوربا. قال ديغار في هَأْهَأةٍ· .خيالُك لايتبع المنطقَ في الدخان، يالوتيانو· أليس كذلك، يارايدين؟.

.هاعقلُك المغمى عليه يستعيد وعيه، ياديغار· أصبتَ· هذا منطق بائع أسلحة.، تمتم رايدين· حدَّق إلى لوتيانو:

- دخانِ الغليون، في أمكنة معصومة من الريح، أو الهواء المتعجرف، منتصرٌ، متمكِّن من نحت الأشكال، حاذق في مجادلاته الخفيضة، أو الجهيرة· دخانٌ دِعَةٌ؛ رصْدٌ للحركة؛ مُعلِّم؛ خياطٌ بمقص لايخطئ·

.أريد إضافةً، إن سمحتما لي.، قال ديغار· لم ينتظر موافقةً: .دخانُ الغليون، في الريح، اشبهُ بسارقٍ مطارَدٍ، او هارب من معركة من معارك أوروبا.

.نسيت أن تضيف إلى الدخان شيئاً آخر، ياديغار.، قال رايدين·

.ماذا نسيتُ؟.، تساءل ديغار·

.نسيتَ نوعَ السلاح الذي يكونُه الدخانُ تنفثُه من فمك في الريح، أو في مكان مغلق.، قالَ رايدين·

.هذا التذكيرُ حكمةٌ منك، يارايدين· سأعود إليك بتوصيفٍ للدخان على أنواعِ أسلحة لم يعرفها جيشُك في معارك سقوط أوروبا.، قال ديغار·

.أحدثت معاركُ نجهلها في أوروبا؟.، تساءل المعماري لوتيانو· .أمِ استسلمتْ أوروبا طَوْعاً، يارايدين؟.

.استسلمت لمن؟.، ساءله رايدين الكبير الشفتين تراجعت حمرتُهما للسواد الخفيف، الشاحب·

.لهم· أنت تعرف لمن استسلمت أوروبا.، هتف ديغار· .للذين دفعوا بأوروبا إلى الهجرة.

.عمَّ يتحدث ديغار؟.، تساءلت ليالو·

.عمَّ يتحدث كلنا؟.، صرخ ملكاه· .فلْننضمَّ بتروسنا إلى المحاربين.

.اذهبْ وحدك.، قال ديغار· دفع القزمَ بترسه فترنَّحَ القزمُ·

.دعْهُ.، تمتمت ليالو بنظرة توبيخ إلى حركة ديغار الفظَّة· أنزلت بصرَها إلى ملكاه، ومنه إلى الكيس الأبيض وضعه أرضاً بين قدميه:

- ماالذي جئتَ به، ياملكاه؟·

.آآآه.، قالها ملكاه مديدةً كالمؤنِّب نفْسَه· .أنساني نَسْلُ المحاربين ماجئتكم به· تعالوا. حمل الكيس متراجعاً إلى المقعد الحديد نصف القوس· أطبق

فخذيه على ترسه محرِّراً يديه· فتح الكيس· أخرج بأناةٍ صحناً حديداً، مستديراً، عليه كعكة بُنِّية بقشدة بيضاء غلافاً، تتوسطها شمعة صفراء واحدة·

.أشعلي الشمعة، ياليالو.، قال ملكاه جائلاً ببصره على الوجوه العالية تتأمله ببعض الفضول· غمغم ديغار:

- أكعكة احتفالٍ هذه؟ من مات من عائلتك، ياملكاه؟·

.إنه عيد ميلادي، اليوم، ياديغار.، قال ملكاه·

ضحك ديغار· .أَلكَ ميلادٌ، ياملكاه؟ ظنَنتُكَ ملِكاً أزليًّا نبيًّا بين حَوَارِيِّيْنَ. دار بعينيه الزرقاوين على الآخرين· .بين حَوَاريين مثلنا. مال بجسده الطويل على الكعكة:

- مارسالتك، ياملكاه، إلى أمم العالم؟·

لمس رايدين كتف ملكاه:

- من أين سرقتَ الكعكةَ؟·

.أوصيتُ طاهيَ السفينة عليها منذ البارحة.، ردَّ ملكاه· .طلبتُها بنكهةٍ من دم تلك الفتاة الصغيرة آتيما، لكن لم يقتلها أحدٌ بعدُ. قرَّب فمه من الشمعة التي أوقدتها ليالو بقدَّاحها· نفخ عليها فأطفأها· تراقص دخانٌ خيطٌ موهَنٌ، ثم تراجع مختبئاً في ثنايا بياضه· مدَّ يده إلى باطن الكيس· انتشلَ أضمومةً من المناديل الورق عليها رسومُ تنانين حمرٍ طويلة الأذيال· أعطى كلَّ واحد منديلاً· قطَّع الكعكة أجزاء صغيرة بملعقة مفلطحةٍ كالكفِّ· وضع قطعة من الكعكة على كل منديل بسطه واحدهم على راحة يده·

.ماهذه الطريقة في تقديم الكعكة؟.، همهم ديغار مستغرباً· .كعكة على منديلٍ ورق!! أما من صحون، أو ملاعق، ياملكاه؟.

.هي ألذُّ هكذا، ياديغار.، ردَّ ملكاه· .تأكلها مباشرةً بفمك من فوق المنديل. استدار بوجهه إلى الزجاجِ الجدار: .تستطيع تناولها هناك بيد واحدة، من غير أن يفوتَك عناق القتلى.

حمل كلٌّ منهم قطعة الكعكة في المنديل الورق إلى قُرْبٍ من الزجاجِ الجدارِ شاهداً، بعيني آثار الإنسان، على نزيفه فوق آثار الوجود النازف·

.لو لم يكن مطرٌ لمضيتُ بالكعكة آكلها على مقعد فوق مُشْرَف السفينة· لانرى الجهاتِ كلَّها من هنا· يفُوْتُنا الكثيرُ.، قال لوتيانو بصوته المتقطِّع النَّبر· أطبق فخذيه على ترسه الدائري الكبير عليه رسومُ سلالم مكسورةٍ، ملتهماً نصفَ القطعة بقضمة واحدة من فوق المنديل أمسكه بيديه معاً· غمغم: .مانكهتُها؟ إنها شهية، ياملكاه؟.

.هي بنكهة فخذ ليالو.، ردَّ ملكاه· مسَّ بطرف لسانه عُرْيَ إحدى فخذيها، فابعدت المرأة فخذَها:

- لاتلوِّثْني بدَبَقِ السُّكر·

.لم أذُق كعكتي، بعد، ياليالو· لسُكَّر فخذك، وحده، دَبَقٌ على لساني.، ردَّ ملكاه· ابتسم من فمه الواسع تحت الأنف المحدَّب· استدار مواجهاً الجدارَ الزجاجَ بدا المتحاربون خلفه مرهقين، فيما يروح هيغور، ونايورا، ويجيئان، متفخِّصيْنِ، مستحثَّيْنِ، يقرعان بقبضتي يديهما على ظاهري ترسيهما، وهما ينفخان مع الكلمات، التي لاتُسمع، رذاذاً من مَسِيل المطر إلى شفاههما·

.أسمعُ الرنينَ.، قال ملكاه، فتساءل لوتيانو من غير نظرٍ إليه:

- بأية أُذنٍ، ياملكاه؟·

.بأُذِن عيني، يالوتيانو.، ردَّ ملكاه· .هم يحملون في جيوبهم نقوداً لرشوة ملائكة الجحيم.

.إذَنْ هم على قُرْبٍ من الكواكب الأرجوانية.، قال لوتيانو· مسح فمَه بالمنديل الورق: .أرى اثنين من المتعاركيْنَ في فَلَك الخنزير الأكبر، وثلاثة في فلك العظام· الشابَّاتُ هنَّ في فلك الثدي المُرْضِع، والتروس الساقطة أرضاً في فلك الأخلاق.

.أين موضعك أنت في هذا؟.، ساءله ملكاه·

.أنا مرةً في العُمران الأصل، ومرة في أخلاق العمران· العمرانُ أخلاقٌ سوداء· وأنا أسود· أنا أخلاقُ العمران السوداءُ وشرفها.، ردَّ لوتيانو·

.للعمران شرف، إذاً.، تمتم ديغار·

.كشرف السلاح.، ردَّ لوتيانو·

.ماشرف العمران، يالوتيانو؟.، ساءله ديغار·

.الظلال المكتنزةُ، ياديغار، حيث تستلقي السماء مسترِدَّةً أنفاسَها بعد طَلْقٍ كاذب.، ردَّ لوتيانو·

- أهذا انتقامٌ من السماء، أم رأفةٌ بالسماء، يالوتيانو؟·

- هذا توصيفٌ للسماء في وجود العمران، ياديغار·

- سماءٌ منهكةٌ، منهارة، يالوتيانو· سماء بلا سيادة·

- السيادة للعمران أولاً، فالدولة، فالسماء، ياديغار·

- ثمَّتَ انتقام من السماء في مُفاضلات السيادة لديك، يالوتيانو·

- الإنتقامُ عمارة أكثر تعقيداً من الكاتدرائيات· نحنُ كائناتُ انتقام، ياديغار·

- ممَّ ننتقمُ؟ ممَّن، ياابن كُوْسِ النجَّارِيْنَ، يالوتيانو؟ً·

- من كل شيء، مُذْ لانعرف على أية جهة من صَدْر الله يقع قلبُه، ياديغار·

نقَرَ ملكاه الأرضَ المعدن بترسه المثلث احتجاجاً:

- لم يبادرْ أحدٌ منكم إلى تقديم تمَنٍّ لي في يوم ميلادي، أيها المتوحشون·

.هوو.، تمتمت ليالو حروفاً حناناً، فاتحة ذراعيها بالترس في إحدى يديها، وقطعة الكعكة في الأخرى:

- أتمنَّى لك طولاً أفضل في حياتك التي بعد هذه·

هزَّ ديغار رأسه موافقاً ليالو، ببعض الإضافة:

- أتمنّى لكَ مشاتل تستنبطُها زهراً عبقريًّا في التشريع للزهر·

.كفى.، قال ملكاه· وزَّع نظرةً على رايدين ولوتيانو: .لاتقولا شيئاً.

.كما تشاء.، علَّق لوتيانو· .لكنَّ ماتسمعه، في أعماقك، من تَمَنٍّ لنفْسك، هو ماأعرضُه أنا أيضاً عليك.

.لستُ قويًّا كفاية لأسمع نفْسي، يالوتيانو.، قال ملكاه· تنهَّد: .بي رغبةٌ في الركض· من يريد أن يسابقني؟.

.سيسابقُك لوتيانو إنْ سلكتَ الطريقَ، راكضاً، حول آيات لسانه عن العُمران.، قال ديغار ببصره على المعماري· .قُلْ لي، يالوتيانو، أيُّ الأمكنة تفضِّلها على غيرها لبناءِ عمارةٍ؟.

.لكلِّ مكان حظٌّ يخصُّه· والمعماريُّ الحقُّ من تُوافِقُ خطوطُه، في تصاميم البناء، مجرى حظوظ المكان.، ردَّ لوتيانو· رمى بالمنديل الورق مدعوكاً فوق الكيس الفارغ، الذي جاء ملكاه بالكعكة فيه: .على العمارة، التي أنشئتْ مواجهةً مهبَّ الريح دواماً، أن تكون ذات سطح مستوٍ لاتعلوه مداخن، وفيها دهاليز لاستراحة قاطِنيْها الفلاسفة.

.ألا تصلُح لسُكنى غير الفلاسفة، يالوتيانو؟.، ساءله رايدين مبتسماً، فردَّ المعماري:

- تصلحُ للصُمِّ أيضاً·

رفع ديغار حاجبيه متعجباً ومُعْجِباً بالتصنيف· سأل المعماريَّ: .وماذا عن عمارة فوق أرضٍ رابيةٍ، أو في وادٍ مُنْخَفَضٍ؟.، فردَّ لوتيانو:

- على العمارة، بناءً فوق رابية، أن تكون بثلاثة مداخل، ونوافذ من جهة الشمال والجنوب، ودَرَج ضيق بين طبقاتها السفلى والعليا لصعود قاطنيْها المُختلِطيْ الأهواء ونزولهم·

.ماذا تعني بمختلطي الأهواء؟.، ساءله رايدين، فردَّ لوتيانو:

- أناس على غضب لم يخرجوا منه بالرغم من رفاهة حياتهم· وأناس يتدرَّبون على مناهج السرقات، وأناس لايخلعون قباقيبَ نومهم الحديدَ حتى لو حملوا تروسهم· وأناس يأكلون واقفين على الشرفات· وأناس لاينتحرون إلاَّ فجراً، بعد الفراغ من تدخين غلايينهم· أما العمارة، التي تُبنى في وادٍ منخفضٍ فعليها أن تكون بسطحٍ مخروطٍ، وثلاثة جدران، وشرفات تنزل منها سلالم إلى الشرفات الأخفضِ، ولها حوضٌ للأسماك، في حديقتها، يتصيَّد منها قاطنوها المتَّجِرون بالأجبانَ والحلوى·

.هذه عمارة رقيقة المعنى.، قال ديغار·

.العمارة الرقيقة المعنى هي المزوَّدة بنظامٍ للإنذار من كل جهة.، قال لوتيانو·

.ماالعمارة الفظَّة، إذاً؟.، ساءله رايدين، فردَّ لوتيانو:

- هي التي يخرج قاطنوها للنزهة، لاإلى الحدائق، بل إلى قبوها·

تداخلتِ الأسئلةُ، مرفَّهةً عن ألسنة أثخنَها سُكَّرُ الكعكة جروحاً حلوةً، بابتكار التصنيف لأجناس العمران:

- مالعمارةُ الشِّعرُ، يالوتيانو؟·

- عمارة التدمير البطيء للقاطنين·

- مالعمارةُ النثرُ، يالوتيانو؟·

- هي المزدوجة المعنى لايهدأ قاطنوها عن تلفيق سِيَرهم·

- ماالعمارةُ الوجدانُ، يالوتيانو؟·

- هي التي يكتفي قاطنوها، طوال عمرهم، بالقُبلة الأولى·

- ماالعمارةُ الأسطورةُ، يالوتيانو؟

- هي التي يؤثِّثُها قاطنوها برغبات الله·

- ماالعمارةُ الواقعُ، يالوتيانو؟·

- هي التي يعلِّق قاطنوها فؤوساً إلى جدران أبهائهم كزينةٍ بدلَ التصاويرِ الرسوم·

- ماالعمارةُ الخيانةُ، يالوتيانو؟·

- هي التي لامصْرَفَ للقُمامة فيها، أو قُربها·

- مالعمارةُ النقاهةُ، يالوتيانو؟·

- هي التي يُجازُ فيها للقاطنين أن يقتلوا كلما تمكَّنوا من ذلك·

- ماالعمارةُ الحريةُ، يالوتيانو؟٠
- هي التي تنفجر فيها مواسيرُ المياه بعد كل إِصلاحٍ، حتى الأبديةِ القيامة٠
- ماالعمارةُ القيامةُ، يالوتيانو؟٠
- العزلة٠
.هذه ليست عمارة، بل فكرة.، قال ملكاه، فردَّ لوتيانو:
- نعم٠ هي فكرةٌ٠ لكنها أصلُ كلِّ هندسة٠
عادتِ الأسئلةُ بعد سكونٍ كالسكَّر ذاب على الألسنة:
- ماالعمارةُ الثوابُ، يالوتيانو؟٠
- هي التي يخطط قاطنوها لقلق شاسعٍ؛ قَلَقٍ بلا نهاية٠
- ماالعمارةُ العِقابُ، يالوتيانو؟٠
- هي التي تتشابكِ فيها الأيدي مصافحةً، ثم لايقْدِرُ أحدٌ على انتزاع يده من يد الآخر أربعين عاماً٠
- ماالعمارةُ المواساةُ، يالوتيانو؟٠
- هي التي لايصادفُ أحدٌ من قاطنيها أحداً آخر في دخوله إليها٠
- ماالعمارةُ الشفقةُ، يالوتيانو؟٠
- هي التي ينسى قاطنوها مفاتيحَهم في الأبواب وهم يغادرونها٠
- ماالعمارةُ السِّلْمُ، يالوتيانو؟٠
- هي التي يعرف قاطنوها أنَّ الحربَ هي إبنةُ السِّلْمِ المدلَّلةُ٠
- ماالعمارةُ المعقولُ، يالوتيانو؟٠
- هي التي شُرفاتها واسعةٌ، أو ضيِّقة، بحسب فكرة قاطنيها عن الله٠
.ومن سيحكم على جدارة فكرةٍ عن الله بشرفاتٍ واسعةٍ، أو ضيِّقة؟.، تساءل ديغار بصوته القوي، الواثق٠
.ذلك هو المُشْكل، الذي لم تجد الهندسة له حلاًّ.، ردَّ لوتيانو٠
.أأنتَ مملٌّ، يالوتيانو، أمْ لانستطيع اللحاقَ بالقَدْرِ الهائل من الأُنسِ المُبتَكَر في خيالِ كلماتك؟.، ساءله ديغار، فردَّ لوتيانو:
- المَلَلُ أبيضُ، وأنا أسْود، فأين الشَّبه، ياديغار؟٠
.البياضُ سوادٌ في المَلَلِ٠ ذلك هو الشبه.، ردَّ ديغار٠

.هذا تلفيقٌ ركيكٌ، لكنه على الطريقِ الصواب في تركيب جملةٍ قَدَريَّةٍ، ياديغار.، قال لوتيانو·

احتشدت وجوهُ الخمسة ملتصقةً بالجدار الزجاج حيث انهالت شابَّتان من طائفة هيغور، بترسيهما معاً، على شاب من طائفة نايورا متراجعاً إلى حاجزِ السفينة القضبان· تحامتا بترسيهما وهما تنحنيان فترفعانه، من ساقيه، كلٌّ بيدٍ، وتلقيان به في البحر·

.إنهما من النَّسْل الذي ينام فوق ظهور الجياد.، قالت ليالو مبتهجةً لانتصار الشابتين·

استدار ديغار بوجهه إليها:

.مابكِ ياسيدة التاريخ تذكرين المغولَ، مراراً، في يومك هذا؟.، ساءلها، فردَّت ليالو:

- تعلمتُ منهم النومَ تحتَ··

قاطعها ديغار:

- تحت خصيتي ملكاه· أليس هذا ماستقولينه من جديد؟·

مطَّت ليالو شفتيها المنتفختين باحتقارٍ مُضْمَر:

- أردتُ التأكد أنك فهمت، ياديغار·

حمحم ديغار، بدوره، احتقاراً· صرفَ قلبَه عنها بمداعبــة ملكــاه:

- هذا يوم ميلادك، ياملكاه· كيف تتوقَّع أن يكون يومُ موتك؟·

.لارغبةَ بي أن أتوقَّع كيف أموت· لكنَّ رغبتي أكيدةٌ في أن أموت مختنقاً بفخْذَي ليالو ملتفَّتين على عنقي.، ردَّ ملكاه، وقد جحظت عيناه أكثر في شحوب وجهه محدِّقاً إلى العراك لايهدأ·

.أين تريد أن تُدفَن؟.، ساءله رايدين، فردَّ ملكاه بصوته الأخنِّ:

- في مقهى، أو في مصنع قطارات·

.رغباتُك كلُّها معقولةٌ، ياملكاه.، قال رايدين بصوته الخفيض· قرَّب ظاهر تُرسه بالرسمِ العربةِ تجرُّها هياكلُ عظميَّةٌ لبشر وحيوانات من وجه ملكاه:

- ماالحياةُ؟·

نقر ملكاه بترسه المثلث الصغير تُرسَ رايدين:

- الحياةُ ليست شيئاً، يارايدين· الموجودُ في الحياة هو معناها·

- ماذا في الحياة، ياملكاه؟·

- أحياءٌ تائهون يظهرون بين الموتى، يارايدين، وموتى تائهون يطيرون بين الأحياء·

نفخ رايدين من فمه الكبير الشفتين على الزجاج الجدار· غمغم: .انفخوا معي، فلربما أسقطْنا هؤلاء المتعاركين، جميعاً، في البحر. أدار وجهَه إلى حيث سمع تَرَنُّماً محتَبساً، فألفى الفتاة الصغيرة آتيما واقفة قرب المقعد الحديد النصف القوس· أدار الآخرون وجوههم صوبها، أيضاً· ابتعد ملكاه عنهم مقترباً منها: .تعالي.، قال· .عندي لك قطعةٌ من كعكة ميلادي، ياآتيما.

كان الصحن الدائري الحديدُ فوق المقعد بثلثٍ من الكعكة البُنية عليها بَعْدُ· وضع ملكاه منديلاً ورقاً برسمِ التنين في راحة آتيما· اقتطع جزءاً من الثلث الكعكة بالملعقة المفلطحة· وضعه فوق المنديل· .لاتعاتبيني، أنتِ أيضاً، على طريقتي في تقديم الكعكة هكذا، كما عاتبني ديغار.، قال بصوت يسمعه تاجر السلاح·

لم تُعلِّق آتيما· رفعت قطعةَ الكعكة بالمنديل الورق إلى فمها فالتقَمَت بعضَها· غمغمتْ لَذَاذَةً· مشت صوبَ الأربعة الآخرين ينقلون أبصارهم بينها وبين مايرون من المشهد الطاحن على مُشرَف السفينة·

لمَحت آتيما الأشكال المتلاحمة في المطر، من بين جَسدَيْ ديغار وليالو· ابتسمتْ: .إنهم يستعدُّون. قالت· التَقَمَتْ بقية الكعكة دفعةً واحدة انتفخ منها خدَّاها·

.يستعدُّون؟.، تساءل ديغار· .من أجل ماذا، ياآتيما؟.

ابتلعت آتيما المضْغةَ الكبيرة على مهل· مسحت فمها بالمنديل الورق:

- ليشهدوا رقصة الحورية·

نقل ملكاه بصَره من وجه الفتاة الصغيرة إلى وجه لوتيانو:

- كم يوماً لنا في هذه السفينة؟·

نظر لوتيانو إلى ساعة يده المقسَّمة مراتبَ دائريَّةً على مينائها المستطيل ـ مراتبَ ثوانٍ متوكِّلة بحفظ حقوق الوقت، ومراتِبَ أعشارِ ثوانٍ مجتهدةٍ في تفسير يقظة الوقت، ومرتبَ تقويماً لشهور السنة وخنادقها الأسابيع، وحَرَسها الأيام: .يوم واحد.، قال·

.يوم واحد؟!.، غمغم ملكاه مستثقِلاً مزاحه، فردَّ لوتيانو:

ـ ساعتي متوقفة عند تاريخ اليوم الأول لصعودنا السفينة، ياملكاه·

ترنَّمت آتيما بفم مطبَقٍ وهي تلصق وجهها بالجدار الزجاجِ ارتطم به تُرس طائش، ثم تبعه سقوطَ امرأة شابة مفقوءة العين اليسرى من شَدخٍ وَسَمَ

وجهها· اتَّكأتْ على جنبها متمدِّدةً أرضاَ· نظرت إلى الوجوه محدِّقَةَ الأعين إليها· أغمضَت عينَها الزرقاء الناجية، بلا ألم في سيمائها· ظلَّت هكذا متكئةً·

نقرت آتيما على الزجاجِ الجدارِ نقْراً خفيفاً بحافة ترسها الدَّرَقةِ كأنما توقظ الشابة المستلقية اتِّكاءً على الأرض المعدن لمُشْرَفِ السفينة· ضمَّت فخذيها على ترسها: أخرجت غليونها· حَشَتْه وأشعلته· تَنشَّقتِ الدخانَ مكتنزاً بياضاً، ونفثتْه متقطِّعاً على الزجاجِ الجدار يصدمهُ فيرتدُّ على وجهها· .أنا آتيما.، قالت· .تبنَّيتُ، الآن، ليالو، وملكاه، أبويْنِ لثلاثة أيام.

أطلقت آتيما كلماتها هيِّنةً لم ترفع معها عينيها عن العراك إلى وَجْهَيْ ملكاه، وليالو، كارتفاع الكلمات إلى سمعهما مترجرجةً بشحم حروفها·

انفرجت شفتا ليالو المنتفختان، الشاحبتان، عن أسنانها ترحيباً: .هاأنا أُمٌّ، أخيراً. أمسكت بعضد آتيما تهمُّ باحتضانها، فأمسك ملكاه بيدها معترضاً:

- أنا أوَّلاً·

لكزت ليالو بحافة ترسها المستطيل ترسَ ملكاه تبعده عن آتيما: .لاتَلزَّها.، قالت متوعِّدةً· .أنت أبوها، الآن. غمزتْه·

.أتَتبنَّيْنَ عاهرةً أُمًّا، ياآتيما؟.، تمتم ديغار ساكباً نظرةَ عينيه على وجه ليالو·

.ماالعاهرة؟.، ساءلته آتيما، فردَّ ديغار:

- هي التي كلما فتحت أصابعها سقط فرْجُها من يدها·

.أريْني يديك.، قالت آتيما للمرأة اللَّفاء الفخذين، ففتحت ليالو يدها اليسرى، ثم نقلت الترس إليها من اليد اليمنى التي فتحتها أيضاً· تكلمت بصوتها البحَّةِ:

- في يديَّ مافي يَدَي ديغار: الترس، والهواء·

نقر رايدين بأنامله على ترس ديغار المثلث عليه رسمُ الزوبعة: .ممَّ أنت غاضب ياديغار؟.، ساءله فاستغربَ ديغار السؤالَ:

- لم أفهم·

.كلما خاطبتَ ليالو خرج قلبُك من عينيك ينفثُ دخاناً· هي لم تفعل مايوجب غضبَك.، قال رايدين· .أهي نارُ الحمَّام تقلقُك؟ إنها تقلقنا كلَّنا· لي أيامٌ لم أرَ عظامي مسجَّرةً، متَّقدةً في غلافها اللحم· علينا جميعاً أن نغضب مثلك، لكننا نتمالك أنفُسَنا.

نقر ديغار بإصبعه على الجدارِ الزجاج يُلْفت بصرَ رايدين إلى مايجري خارجاً: .أتظنُّهم يتبادلون التهاني على استحمامهم بلهب يلعق الجلدَ لعْقَةً ويتراخى، يارايدين؟· إنهم غاضبون. أعاد عينيه مثبتتين على وجه آتيما:

- احذري، أيتها الفتاة الصغيرة· ثلاثة أيام كافيةٌ لتضع ليالو فرجَكِ في يدك·

.أنت لاتُخاطبُها كسيِّد، ياديغار.، احتدمت ليالو· .لقد تبنَّتني الفتاةُ أمًّا.

.مامعنى أن تكون عاهرةٌ أُمًّا؟.، دمدم ديغار من وجهه المستطيل ازداد شحوباً·

ضمَّت ليالو فخذيها على ترسها· أخرجت القدَّاحَ من حقيبة كتفها· أشعلته بيدٍ ووضعت سبَّابةَ يدها الأخرى فوق الشعلة· توهَّج ظفرُ سبابتها، بعد برهةٍ، ملتهباً: .هذا هو معنى أن تكون مثلي أُمًّا، ياديغار.، قالت ليالو· .لحمي منتعش.

استلهم رايدين من رؤية إصبع ليالو فوق شُعلة القدَّاح مايغمزُ به من وجدان ديغار:

- سنعيرك، جميعاً، قدَّاحاتنا، ياديغار· أدخلْ بها الحمَّامَ، وافعل ماتفعلهُ ليالو· ستخرج منتعشاً في الأرجح، وأقلَّ غضباً·

.كلماتك الحكيمة تقود إلى حماقات.، قال ديغار·

.ماالحماقة في ماقلتُ؟.، ساءله رايدين·

.الحماقةُ في ذلك أنك، أنتَ، من قالها.، ردَّ ديغار·

هزَّ رايدين رأسَه استخفافاً· عاد ببصره إلى المتعاركيْنَ على مُشرَف السفينة بتروسهم:

- هاتِ بعض الأسلحة، ياديغار، كي ننضمَّ إليهم·

.خُذْ ليالو· هي سلاح المهنة الأولى في الوجود.، قال ديغار· انحنى بطوله صوب ملكاه قليلاً:

- ماذا قلتَ مرَّةً، ياملكاه؟·

.ماذا تعني؟ قلتُ الكثير.، ردَّ ملكاه·

.وراء كلِّ عاهرة إلهٌ شاعرٌ.، تمتم ديغار· .هذا ماقلتَهُ.

.أأنت تهيننني، ياديغار، أمام آتيما؟.، صاحت به ليالو، فبدت وجنتاها الشاحبتان أكثر بروزاً بالعظام فيهما· .مامهنتك؟.، قالت بصوتٍ بحَّةٍ زئيرٍ·

.مهنتي؟!!.، تمتم ديغار بعينين ضيَّق بين أجفانهما· .لِمَ تسألونني، اليوم، عن مهنتي؟.، دار ببصره على الآخرين مستغرباً·

.أفهم مهنتك، ياديغار.، قالت ليالو·

.ماذا تفهمينَ من مهنتي؟.، ساءلها ديغار·

.مهنةٌ لم تُقنِعك أن تتصرَّف كسيد.، ردت ليالو·

تراجع ديغار عن الجدارِ الزجاج· تصنَّع اتِّزاناً في نبر الكلمات:

- لم يقنِعني وجودُك أن أتصرَّف كسيدٍ، ياليالو·

قرع ملكاه بترسه ترسَ ديغار مقتحماً محاورات اللسان الغاضب:

- ليالو منحتْنا حظوةَ أن نتصرف كأسياد، مُذْ أحسسنا، في حضورها، أننا أسياد، ياديغار·

زفر ديغار من فمه ومنخريه معاً:

- لم تكن سيداً إلاَّ في حضور ليالو، ياملكاه؟ ماالذي جعلك قزماً هكذا؟·

.شرحتُ الأمرَ.، ردَّ ملكاه· .ثقل السعادة، وضغطُها المتواصل، صيَّراني قزماً· اضِفْ إلى ذلك ثقلَ الأحمال اللامرئية على أكتاف البلهاء.

.على كتفيك تعني.، قال ديغار·

.لا.، ردَّ ملكاه بصوتٍ أخَنَّ باردٍ· .صرتُ قزماً من أساي في رؤية البلهاء يحملون أثقالاً لامرئية· أسفي لهم، وشفقتي عليهم، صيَّراني قزماً.

.من تقصد بالبلهاء، ياملكاه؟.، ساءله ديغار·

.مهنتي استنباطُ زَهر بخصائص ليست للزهر، في مشاتلي، وليس تصنيف الوجود، والسلالات.، ردَّ ملكاه·

.هِهْ.، غمغم ديغار· .أرى حقًّا أنك تتصرَّف كسيدٍ درَّب بظرُ ليالو لسانَه على التهذيب.

.لستَ سيداً· لاتتصرف كسيد، ياديغار.، صرخت ليالو·

دفع ديغار المرأةَ اللفاء الفخذين بترسها فرنَّحها· .ماذا؟ أهذا صوتُك، ياابنة القوادين في مملكة السماء؟.، قالها حمحمةً كحصانٍ، فردَّت ليالو صارخةً به:

- هذا صوتي، ياابن فردوس القوَّادين·

صدمَ ديغار المرأةَ بترسه قدْرَ مااستطاع جسده أن يستعير من الغضب قُواه الزرقَ· ترنَّحت ليالو فالتقطها رايدين بصدره يقيْها السقوطَ· اتسعت عيناها البنيتان باتساع احتقارها لديغار، واتساع إحساسها بالمهانة منه· خلعت حذاءها البرتقاليَّ، ذا العقبين الأبيضين العاليين، صَكَّا من قَدَم بالأخرى· تراجعت خطوةً، ثم وثبت بترسها المستطيل الأجوف على ديغار، فتحاماها بترسه المثلث الصغير· التَحَما· طوَّقها الرجلُ الطويل من عنقها بذراعه، محاولاً أن يُحْكِمَ تسديد ضربة إلى وجهها بزاوية الترس المسنونة، لكنَّ هياجَ جسدها النابض عنيفاً في المُدَافَعةِ لم يُمكِّنه من النزول بترسه عليها حيث يريد· فكَّ عنها طوقَ ذراعه· أطبق على شعرها بأصابعه استحالت مخالبَ شاحبةً· ألوى رأسَها شدًّا، وضرب بساقه باطنَ ساقها فمالَتْ ليالو· ترك شعرَها ليدفعها بترسه، من جديد، فسقطت المرأةُ أرضاً· ارتجَّ اللحمُ في فخذيها من مديح الأرض المعدن، وإطرائه· وضع ديغار قدمه الكبيرة، بالحذاء الأسود الملتمع

فصاحةً من سواده، على بطنها، وهوى بالزاوية النَّصْل في ترسه المثلث على بلعومها فأغمدَها في الغضروف· سلَّ زاويةَ ترسه، على صوت نَخيْرِ ليالو، من بلعومها وأهال بها، من جديد، على فمها تحديداً فشقَّ الشِّدقيْنِ· غَار المعدنُ المسنونُ في أصل اللسان، فاللَّهاةِ، حتى خرقَ قَمَحْدوَةَ رأسها· رفعَ الترسَ منتصباً· سال خيطٌ لزجٌ من الدم عن حافته المسنونة· دارت الزوبعةُ الرسمُ دورتين في أفق اللون على الترس، ثم سكنتْ·

زفرَ ديغار مستعيداً قدمَه عن بطن ليالو المنتفضة الأعضاء في النَّزْع· دارت حدقتا عينيها البنيتان إلى باطنَيْ وَقْبيْهما· سطع البياض أنيقاً بين الأجفان قبل أن تنطبق· ارتخت أصابع يدها عن مقبض الترس تخالطت الغيومُ في الرسم عليه، والتحمت الشقوق بينها فامَّحتِ الشعاعاتُ الرؤيا كالتي في رسوم الأحبار القدِّيسينَ·

لم ينظر ديغار إلى أحد· مشى، في ثقل، صوب المقعد الحديد· جلس عليه· أطبق فخذيه على ترسه· حشى غليونَه عشباً وأشعله·

انحنى ملكاه، ولوتيانو، ورايدين، على جثة ليالو، يتتبَّعون، في غمام البُعْد اللامنظور، خطواتها راجعةً إلى مجثم الأجساد غماماً، وراء الذي وراء ذاته بُعْداً· انحنت آتميا أيضاً· تمتمت:

- هل سنأكل أُمي ليالو؟·

شهق ملكاه شهقةً شاحبةً من بين شفتيه الشاحبتين· حدَّق بفمٍ مفتوح إلى ديغار، من وجهٍ لاألم فيه، أو وعيدٌ، أو خيبة، ثم دار بعينيه الجاحظتين على الوجوه الشاحبة، الأخرى، من حوله، خاليةً كوجهه من ألمٍ، أو أسىً، أو استنكار· مشى صوب المقعدِ النصفِ القوس· ضمَّ فخذيه على ترسه· وضع الصحن الحديد ببقية الكعكة والملعقة المفلطحة في الكيس الأبيض· حمل الكيس ومضى صوب الممرِّ المفضي، من جوار مقاصير النُّزلاء، إلى الباب الواسع، ذي الدفتين تنفتحان دفْعاً إلى خارجٍ أو داخلٍ· غابَ عن أبصار الناظرين إليه·

.ماذا يفعل ملكاه؟.، تمتمت آتيما· أطبقت فمها وترنَّمت بصوتٍ مُحتَبَس·

ملكاه، الذي دفع بظاهر ترسه إحدى دفتيِّ الباب، ذواتيِّ الكوَّتين الزجاج، صار خارجاً بقدمين في الحذاء الأسود، العالي العقبين والأخمصين، على مطلع مُشْرَفِ السفينة· قطرتا المطر الأوليْنِ تلقَّتْهما أهدابُ عينيه الجاحظتين، ثم تلقَّفه المطرُ من جهات جسده كلها في السترة البرتقالية، والبنطال الأبيض، إذْ أوغل عبوراً صوب الصخب مبتلاًّ بعويل المعدن في التروس·

القليل، الذي تمكَّن ملكاه، والآخرون، رؤيته من وراء الزجاجِ الجدار، من داخل السفينة، لم يكن ـ بحقٍّ ـ وفيًّا للأبصار· هم لم يروا، من موضعهم هناك،

صناديقَ الشطرنج مكبوبةً على وجوهها، مفتوحة، أو مقفلةً بَعْدُ· لم يروا حجارةَ اللعب الدُّمى ـ الشاهاتِ، والفِيَلَةَ، والأفراسَ، والفرازين، والرِّخَخَةَ، والبياذقَ، متناثرةً خليطاً من خطط العقل في محابهات المعقولِ وبأسِهِ من معقولِهِ· لم يروا الجثثَ الأربع عشرة ممدَّدةً أرضاً لصقَ هيكل السفينة، أو فوق مقاعد المنتزِهِيْنَ على مُشْرَفِها· لم يروا الصرعى، والمجروحين، ومُرتثِّيْ الأعضاء كسوراً، متكئين، جلوساً على الأرض، بظهورهم إلى حاجز السفينة القضبان، أو جدار هيكلها المعدن· لم يروا التِّرَسَةَ المقذوفة بعيداً عن الأجساد يخمش المطرُ، بمخالبه المائية، رسومَها الشكلَ المُستَنْسَخ ملاكاً بالغاً يخنق ملاكاً طفلاً، ورسومَها الوجهَ المُستنسَخَ لفتاة مختبئاً بنصفه في خُصل شعرها البيض متماوجةً أفاعيَ· لم يروا الكلماتِ مراوحَ من أسلاكٍ حول الشفاه· لم يروا اللهاثَ مُطبقاً نَهْشاً بأسنانه على الرئات· لم يروا الشهيقَ، والزفير، فاجريْنِ يسخران من مُعْتَقَدِ المطر· لم يروا التعبَ يقطرِ عَرَقاً من أنفاسه ـ أنفاسِ المُصارع· لم يروا الشحوبَ ناضجاً على الجلود تتحلَّبُ عصارتُه من المسامِّ· لم يروا المطرَ كما يُرى مطرٌ لَمْساً بلسان الخوف· لم يروا نايورا، وهيغور، متجاورين شريكين يقرعان ظاهِرَيْ ترسيهما بقبضتيهما الشاحبتين أُدْمِيَتا تحريضاً للهِممَ على إفراغ خزائنها من مُدَّخراتها الأقسى، وتحريضاً للفتك على إطلاقِ لامعقولــه·

مالم يره ملكاه وصَحبُه، من وراء الجدار الزجاج لايُري إلاَّ فضاءً محدوداً من مُشْرَف السفينة، رآه ملكاه في استعراضه مشرَفَ السفينة بعينيه المتراجعتيِّ الجحوظ من سقوط المطر هائجاً عليهما· تحامى العبورَ قريباً من المتعاركيْنَ استنفدوا عصارةَ قُواهم فباتوا ثقيلين في القِرَاعِ والصَّدْم· مرَّ من جوار هيكل السفينة، لصق صفيحها، والجدرانِ الزجاجِ كلٍّ على بُعْدِ ثلاثة أمتار من الآخر، على مستدار هيكلها· تجنَّبَ الجثثَ· تجنب النظر إلى الكَلمى المجروحين لايئنُّ أحدٌ منهم، أو يعتصر سيماءَه وجعٌ· كانت عيناه على هيغور، ونايورا، تَخَالَطَ صوتاهما من فميهما مفتوحَيْنِ صراخاً هديراً، يتحركان في حيِّز ضيق من الموضع اختاراه إلى جوار حاجز السفينة القضبان، للإشراف تحريضاً وتثويراً· لم يلتفتا إليه، مُذْ صرفا قلبيهما إلى مشاغل النَّحت في الدم يقلِّبُ المطرُ تماثيلَه السائلة·

سيد هيغور.، نادى ملكاه القبطانَ، الذي استدار إليه بِضْعاً من ثانيةٍ ثم تجاهله·.

سيد نايورا.، نادى ملكاه دِهْقانَ قبيلة الشطرنج، فلم يسمعه نايورا في دويِّ.
صوته هُوَ مستثيراً طائفَتَه على المُجالَدةِ بالتروس·

جلس ملكاه أرضاً بثيابه الغريقة على هيكل جسده· استند بحافة ترسه المثلث، المسنَّنة، على السطح المعدن، وفتح بيده الحُرة الكيس الأبيض عن الصحن عليه بقيةٌ قليلة من كعكة ميلاده· أخرج الصحن من الكيس· حمله

ناهضاً باختلالٍ، ثم اتَّزَنَ· عرضَ الحَلواءَ البُنية بالقشدةِ غلافاً على الرجلين: .إنه يوم ميلادي، ياسيد هيغور.، قال· مدَّ ذراعَه أكثر: .إنه يوم ميلادي، ياسيد نايورا.

حدَّق الرجلان الهائجان، بخيالِ الدمويِّ فيهما، إلى ملكاه، فإلى صحنه المعدن معروضاً على بصريهما ببقية الكعكة انتقرَها المطرُ بمناقيره فورَ انكشافها·

.ماهذا؟.، صرخ هيغور، فابتسم ملكاه من فمٍ انحدر ماءُ السماء من زاويتيه:

- إنه يوم ميلادي، ياسيد هيغور·

نظر هيغور إلى نايورا، في برهةٍ مُخْتَلَسةٍ من عقلِ تأمُّلِهِ المُنْسَحِب:

- خُذْ مضغةً من هذه الكعكة، يانايورا·

.بل، أنتَ.، ردَّ نايورا· أردفَ صارخاً: .يالقيطَ سُفنِ الغرقى.

.إن كنتُ لقيطَ سفن الغرقى، فمن أنت، يانايورا؟.، ساءله القبطان من غير أن تتوقف قبضتُه المدماةُ مفاصلُ أناملها قرْعاً على ترسه· .يالقيطَ اللعب بلا نهاية.، أضاف، ثم اشار برأسه الغريق في قبعته الرمادية الغريقة إلى صحن ملكاه: .خُذْ لُقمةً· أنت على مفترق طُرق، يانايورا، مُذْ تحدَّيتني.

.نحن على مفترق الأعماق، ياهيغور.، ردَّ نايورا قارعاً بقبضته على ترسه الدائريِّ المسنَّن الأحفَّة· أوقفَ القرعَ: .لقد تحدَّيتك· نعم· حمَّاماتُك المُهينة أقْسَرتني على التحدي· ريبتي في تكتُّمك على ماجرى للسفينة من صدمَتِها، أول يوم، أقسرتْني على التحدي· شحوبُنا المتواصل صعوداً من أقدامنا إلى شفاهنا أقسَرتْني على التحدي· أتقودنا إلى هاوية، ياهيغور؟.

.الهاويةُ فيك، أنت، الهاويةُ الشطرنج· إنني أقودك إلى يقينك، يانايورا.، ردَّ القبطان·

.ماأليقين الذي أتثبَّتُه لنفْسي إن شهدتُ رقصةَ حورية، ياهيغور؟.، ساءله نايورا·

.هي ليستْ رقصةً، حَسْبُ، يانايورا· هي التزامُك، أخيراً، بنظام المعقول.، ردَّ هيغور·

.أكنتُ أخالف المعقول، أبداً، ياهيغور؟.، ساءله نايورا·

مدَّ هيغور يده إلى صحن ملكاه، ثم استردَّها من غير أن يلمس الكعكةَ:

- لماذا لم تأتِنا بشرابٍ كحولٍ بدلَ هذا الحساء؟·

غمغم ملكاه لايَحِيْرُ جواباً، وقد أرخى بصرَه إلى الصحن امتلأ ماءً·

.ألا توافقني، يانايورا؟.، سأل القبطانُ غريمَه·

.على ماذا؟.، ردَّ نايورا السؤالَ بسؤالٍ·

.أننا بحاجة إلى جرعة من شرابٍ كحولٍ.، قال هيغور· .الكحولُ غريزة النشأة الأولى للإنسان حوصر بحيرتِهِ من نفْسه ومن السماء· بشَّرتْهُ الأديانُ بدماءِ أنبياء آلهتها نبيذاً· ووعدتْه أديانٌ بأنهار منه في الملكوت المفقود· الكحولُ إغراءٌ دينيٌّ.

.نحن غرقى.، قال نايورا· .أنت لاتحتاج إلى كحولٍ، الآن، بل إلى اعترافٍ بأننا غرقى، ياهيغور.

.سأعترف حين تعترف طائفتُك أن الشطرنج ذاكرةٌ مائيةٌ، وأنكم أقمتم معي، في خيالي، قبل المجيء إلى هذه الرحلة، يانايورا.، ردَّ هيغور·

.هذا ابتزازٌ، ياهيغور.، قال نايورا· .تقتصد في لهب الحمَّامات لتبتزَّنا· ولاتعترف بالغرقِ لتبتزَّنا· ماذا تريد؟.

.أريد التزامكم بنظام المعقول.، ردَّ هيغور·

.هذا ابتزازٌ آخرُ غير مفهوم.، قال نايورا·

قرع هيغور بقبضته على ظاهر ترسِهِ ـ الرسمِ الملاكِ يخنقُ ملاكاً طفلاً:

- أنت لم تفهم بعدُ، يانايورا·

.ماالذي لم أفهمه، بعدُ، ياهيغور؟.، ساءله نايورا·

.لم تفهم حقوقَ الموتى بعد.، قال هيغور·

.ماحقوقهم؟.، تساءل نايورا·

.ألاَّ تسرق ملائكةُ الجحيم نقودَهم· ألاَّ يُقْسِروهم على المقامرة بنقودهم في الجحيم.، ردَّ هيغور·

.أنحن موتى؟ أهذا ماتلمِّحُ إليه، ياهيغور؟.، ساءله نايورا·

.أترى، يانايورا؟ أنت لاتفهم.، ردَّ هيغور· أدار وجهه إلى البحر غريقاً في الرماديِّ المُكتنز ثخانةً من مطر السماء المكتنزة رماداً سيلاً:

- أترى سائقي الريح؟·

لم ينظر نايورا إلى حيث ينظر هيغور· خفض وجهه صوب ملكاه الواقف حاملاً صحنه على راحة يده، يسيل من جوانبه الماءُ بُنِّياً من مَيْعِ الكعكة فيه:

- لاشيء عند هيغور·

.هم يشعلون غلاييهم الآن.، قال هيغور ببصره على الرماديِّ العنكبوت جاثمةً في فراغ هَلَلِها الرماديِّ·

.من هُمْ؟.، ساءله نايورا·

.سائقو الريح، يانايورا.، ردَّ هيغور·

غمس نايورا أطرافَ أنامله في صحن ملكاه· لعقها أنملةً أنملةً: .لاشيء عندك، ياهيغور.، قال تمتمة· .كلُّ كلمة فيك على خطأ.

.أتظنُّ أنني قد أُعيد الصوابَ إلى كلماتي إنْ أكلتُك نيئاً، يانايورا؟.، تساءل هيغور من فمه في الغلافِ الماءِ·

ابتسم نايورا:

- النيِّئُ هو المذاقُ الدِّينيُّ، ياهيغور· فلنوقفِ العراكَ، الآن، ولنحدِّدْ يوماً تأكلني فيه نيئاً، فوق مُشْرَف السفينة، هنا، أو آكلك نيئاً· لاتنسَ: فليُحْضِرْ طاهي سفينتك سكِّينَه·

.أي يوم تريد، يانايورا؟ حدِّدْهُ الآن.، قال هيغور·

.اخْتَرْ أنت، ياهيغور.، ردَّ نايورا·

وجَّه هيغور بصره إلى ملكاه ذائباً في المطر كبقية كعكته في الحوضِ الصحنِ:

- أيُّ الأيام أَصْلَحُ لعراكٍ ينتهي بوليمة من لحمٍ نيِّءٍ؟·

.الأيام التي تتَّجه جنوباً.، ردَّ ملكاه·

أوقف هيغور القرعَ على ترسه، متأمِّلاً وجهَ القزم برهةً، قبل أن ينقل عينيه الزرقاوين وراء زجاج نظارته إلى وجه نايورا:

- أتوافق أن نختار يوماً من الأيام التي تتَّجه جنوباً؟·

.ماالأيام التي تتجه جنوباً، ياهيغور؟.، ساءله نايورا، فأحال هيغور السؤالَ، بإشارة من رأسه، إلى ملكاه:

- أجبْ، ياسيد ملكاه·

.هي التي لانعرف تماماً ماالخطَّةُ الأصلحُ لقتل أُمَّهاتنا في مغيبها.، ردَّ ملكاه·

اقترب نايورا من القزم أكثر· مسح بكمِّ سترته الغريقة في المطر عينيه الزرقاوين:

- ألا تتجه الأيام مع المرء حيث يتجه، ياسيد ملكاه؟·

.لا.، ردَّ ملكاه· .للأيام خيارُ اتجاهها، ونحن نتجه معها حيث تتَّجه، ياسيد نايورا.

.مااليوم، هذا، الذي نحن فيه،؟.، ساءله نايورا، فردَّ ملكاه:

- هو من الأيام المتجهةِ شرقاً·

.ماخصِّيْصةُ الأيام المتجهة شرقاً، ياملكاه؟.، ساءله نايورا، فردَّ ملكاه وهو يضع الصحنَ أرضاً:

- هي التي نؤجِّل فيها أفكارَ الفجر إلى الغداء، ثم لانلتقي بأحد على الغداء لنعرضها عليه فننساها·

.ماالأيام المتجهةُ غرباً، ياملكاه؟.، ساءله نايورا، فردَّ ملكاه ناقلاً من يدٍ إلى يدٍ ترسه المتماوج الرسم بالثديين ذَوَي الحلمتين المفرطتين انتصاباً من جريان المطر عليه:

- هي التي نستطيع تقسيم جروحنا على ساعاتها بالتساوي·

- ومماالأيام التي تتجه شمالاً، ياملكاه؟·

.هي التي لاتعرف أننا أعدَدْنا لها غفراناً كاملاً عن مآزقها.، ردَّ ملكاه·

.فلْنختَرْ يوماً من الأيام المتجهة غرباً، يانايورا.، قال هيغور·

هزَّ نايورا رأسَه وترسَه معاً، رفْضاً:

- بل نختار واحداً من المتجهة شمالاً، ياهيغور·

تأمَّل هيغور وجه ملكاه المستطيل، الحليق، من جديد، صامتاً، ثم دار ببصره على المتعاركيْنَ سقط بعضُهم راكعاً إعياءً، مشتبكين، متعانقين خصماً إلى خصمٍ لايريدون فَلاَتاً منهم أو إِفْلاتَهم· تمتم كلماتٍ لم يُسمَع منها إلاَّ اسمُ ملكاه·

.ماذا قلتَ، ياسيد هيغور؟.، ساءله القزمُ، فرفع هيغور صوته مغمضاً إحدى عينيه وراء زجاج نظارته:

- أيُّ الأيام تختار أنت، ياسيد ملكاه، لعراكٍ ينتهي بوليمة من لحمٍ نيِّئٍ؟·

.أختار يوماً من الأيام المتجهة جنوبَ شرقٍ، ياسيد هيغور.، ردَّ ملكاه·

.كيف تعرف أنه اليوم المتجه جنوبَ شرقٍ، ياسيد ملكاه؟.، ساءله نايورا، فردَّ القزمُ:

- تعرفه من صباحه يوقظك فيه احتباسُ نَفَسِك من حلمٍ مذهل·

تبادل نايورا، وهيغور، نظرةً متجانسةَ الفكرة· همَّا معاً بالكلام فسبق القبطانُ دِهْقانَ قبيلة الشطرنج:

- أخْبِرْني إنْ أفقتَ محتبِس النَّفَس من حلم مذهل، يانايورا·

.سأنتظر أن تخبرني، أنت أيضاً، إنْ أفَقتَ مختنقاً، غريقاً، من حلمٍ مذهل، ياهيغور.، قال نايورا·

رفع الرجلان ترسيهما قُبالة المتعاركين من طائفتيهما· توزَّعا الفصلَ بين التروس المرتعشة في الأيدي رَهَقاً· تراجع الملتحمون بعضُهم عن بعض بركابٍ صَكَكٍ إعياءً، وبأصواتٍ حشرجةٍ يتنفَّس منها الماءُ على شفاههم رملَ

التعب· اصطفَّتْ بقيةُ كل فريقٍ جَمْعاً متواجهيْنَ يقف نايورا، وهيغور، حدَّا بينهما، قبل أن يعمد الجمعان إلى تفقد قتلاهم، وجرحاهم·

هيغور دار بعينيه على القتلى من الطائفتين، تحديداً· أشار بتُرسه إلى أربع من الجثث تخيَّرها بعناية بصره: .انقلوا هذه إلى برَّادات السفينة، وارْموا بالبقية إلى البحر.، قال· اقترب من نايورا يستفتيه، صامتاً، في أمر قراره، فلم يعترض نايورا صوتاً أو حركةً·

كلُّ قادرٍ من المتعاركين على حمل جثَّةٍ حملها، أو تعاون اثنان على حملها· وكلُّ قادرٍ على إعانة جريح بإسناده إليه أعانَهُ وَسَنده، بعد أن فرغوا من إلقاء بقية القتلى إلى البحر من فوق حاجز السفينة القضبانِ· التفت هيغور إلى نايورا: .سأنتظرك بأساطير اللذائذ.، قال، فردَّ دِهقان قبيلة الشطرنج:

- وسأنتظرك أنا، ياهيغور، بأساطير التيه·

غادر الجميع مُشْرَفَ السفينة مشياً مُرْهَقاً إلى الباب ذي الدَّفتين· دفعوا بهما دفْعاً صارماً، وغابوا في جوف السفينة·

ضمَّ ملكاه بيدٍ صَدْرَةَ سترته البرتقالية مرتجفَ الشفتين· نظر أسفلَ إلى الصحن المعدن تفتَّتت بقيةُ الكعكة فيه، وفاضَ منه الماء· رفع ترسه عالياً فوقَ رأسه مظلَّةً· تقدَّم من حاجز السفينةِ القضبانِ يستوضح البحرَ جرحَه الرماديَّ غشَّاهُ المطرُ بهَلَلِهِ ـ هَلَلِ العنكبوت السماوية· تراقصَ على إيقاعٍ صاعدٍ من عظامه، يرفع قَدَماً ويضع أخرى فيتفرَّق الماءُ من حول حذائه مذعوراً على الأرض المعدن· وضع فمه على القضيب الأوسط من حاجز السفينة الثلاثة القضبان الموافق طولَه· مرَّغ شفتيه على معدنه متوقِّفاً عن التراقُص· عضَّ عليه لايستطيع فمُه الإحاطةَ بثخانة القضيب فتنزلق اسنانُه عن الحديد· قرع بقبضة يده على ظاهر ترسه، فوق رسْم إحدى الحلمتين المفرطتين انتصاباً، كأنما يحرِّض أشباحَ بَدْوِ البحر اللامرئيين على عراكٍ، في شرفاتهم الرمادية وراء هَلَلِ العنكبوتِ المطرِ· تراجع عن الحاجز· استدار متجهاً إلى الباب ذي الدفتين· دفع إحديهما داخلاً·

مشى ملكاه بخطوات ترتسم حدودُها ماءً على ممرِّ الأرض المعدن، التي بدت فيها أحقَّةٌ لم تجفَّ بَعْدُ لخطواتٍ سبقتْه إلى الدخول مبتلَّةً مثله· التفَّ يميناً إذْ جاورَ مطلعَ السطر الطويل لمقاصير النُّزلاء· مشى أمتاراً، ثم انعطفَ إلى الفسحة المُفضية نهايتُها إلى الجدارِ الزجاجِ، والمقعدِ النصفِ القوس·

كانت جثة ليالو هناك، بعْدُ، اتَّسع مدُّ الدم المتخثِّر حول رأسها مرآةً حمراء وقف ديغار، ولوتيانو، ورايدين، يعاينون صورهم فيها· آتيما كانت منحنية على ليالو، تترنَّم بصوتٍ محتبس في فمها المطبق· استقامت إذْ رأت ملكاه: .عاد

أبي.، تمتمت· .أنا آتيما، ابنةُ هذه القتيلة. مدَّت يدها إلى سترة القزم البرتقالية ملتصقةً به بَللاً:

.نفدَ عشبي.، قالت· تحسَّستْه فوق أضلاعه·

وضع ملكاه يده في جيبِ سُترته الباطنِ· اخرجَ كيساً صغيراً، مبتلاًّ· وضعه في يد آتيما، ثم أخرج غليونه من الجيب ذاته· أمسك به بين أسنانه·

ضمَّت آتيما فخذيها على ترسها· حشت غليونَها عشباً مبتلاّ· قبضت عليه بأسنانها· انتزعت غليونَ ملكاه من بين اسنانه· حشَتْه له وأعادتْه إليه· جاهدت، طويلاً، أن تشعل العشب بالقدَّاح، ثم أعادته خائبةً إلى حقيبة كتفها· أبقت الغليون المُطفأ بين أسنانها· حملت ترسها من جديد: .تعال.، قالت، وهي تشدُّ ملكاه من رُدن سُتْرته: .اقترب موعدُ العشاء.

.لن أجوع.، تمتم ملكاه· نظر إلى ديغار: .سيتأخر المغيبُ اليوم، لكنْ لن يتأخر موعدُ العشاء.

لم يفهم ديغار السياقَ في تخصيص القزم إيَّاهُ بالنظرة والكلمات· أدار وجهه صوب المعماري لوتيانو:

- ماذا الآن؟·

.ماذا تعني؟.، ساءله لوتيانو·

.ماهذه العمارة؟.، قال ديغار الشمعيُّ البشرة ازدادتْ لمعةً بشحوبها·

.أية عمارة؟.، ساءله لوتيانو متتبِّعاً خطوطَ المُلغِز يرسمها ديغار بنظرتِهِ القلمِ الفحمِ على خواءِ قصده·

.العمارة التي يجتمع فيها خمسةٌ حول جثة عاهرة.، قال ديغار· حدَّق إلى رايدين تحديداً: .أمْ عليَّ أن أسألك أنت؟.

.سؤالك فاسدٌ منذُ نطقْتَهُ كالأسلحة الفاسدة· ربما ينفجر بك.، ردَّ رايدين ذو الشعر الأبيض، القصير، بصوتٍ خفيض من أعماق عقد عمره النصف بعد السادس· .اذهبْ إلى مقصورتِك منذ الآن· تعرَّ· ارتدِ قَبقابك الحديد، واجلس على كرسيٍّ حتى الصباح متفكِّراً في ترتيب سؤال يليق بتاجر أسلحة لم يدفع له زُبُنُه ثمنها.

نقرت آتيما بغليونها المُطفأ على ترسها: .تعال، ياملكاه.، قالت· .سآخذك إلى مقصورتي. تقدَّمت نصفَ خطوة من جثة ليالو:

- أتستطيع حملهما؟·

.لا.، ردَّ ملكاه بصوت عميق الخنَّة· .لن أحملهما حتى لو قدرْتُ على حملهما· أنا ذاهب إلى الحانة. مشى فتبعتْه آتيما·

نزل ملكاه وآتيما السلم الآليَّ إلى الفناء الواسع، في الطبقة السفلى من السفينة انتصب على أرضها العمودُ المعدن الأسطوانة بقاعدته حتى قمته، المنتهية عُنُقاً تحت القبةِ السقفِ ـ الزجاجِ أبيضَ غيرِ نقيٍّ· مرَّت آتيما إلى جوار العمود المُرقَّش وحده، من دون سائر السفينة الحديد، بألوانٍ رسومٍ حمرٍ، وسودٍ، وذهبية ـ رؤوسٍ نافرةٍ، ذات ملامح غضْبى، وأفواه فاغرة عن صرخاتٍ تكاد تسيل على ألسنتها القِرْمزِ· لمست الفتاة الصغيرة فماً من تلك· قايَسَتْ اتِّساعه بأصبعها: .إنه يكفي لابتلاع ديغار.، قالت، فأشار عليها ملكاه أن تتابع مشيَها·

توجَّها إلى الحانة الأقربِ مَرْفِقاً إلى المكتبة من أيِّ مَرْفِقٍ آخر في السفينة، يسارَ هيكلها ـ الجزءِ الأسفل· دخلاها متَّجهيْنِ إلى مسطبتها ـ الحاجزِ بين الرواد والنُّدُلِ السَّقَّائيْنَ· جلست آتيما على كرسيٍ دائري بلا مساند، مرفوعٍ على سيقانٍ معدنٍ· وقف ملكاه إلى جوارها يبلُغُ بعنقه حافة المسطبة اصطفَّت عليها أقداحٌ تنتظر الشاربين·

.اصْعَدْ كرسيًّا.، قالت آتيما، فهزَّ ملكاه رأسَه إشارةَ اكتفاءٍ ببقائه واقفاً·

.ماذا ستشربين؟.، سأل القزمُ الفتاةَ الصغيرة، ناقراً بأنملةٍ على ظاهر ترسها، فوق الحلقة النحاس في خطم رأس الثور النافر·

نظرت آتيما مبتسمةً إلى الشابة النادلة: .ماذا تنصحين فتاةً مثلي بالشُّرب في هذه الحانة؟.، ساءلتها، فردَّت الشابةُ ذات القميص القطن الأبيض، الضيق، بطوقٍ قوسٍ فوق منتصفيْ ثدييها:

- الماء مثلَّجاً بنكهة النعناع·

.أنا أريد الشراب الأقسى، أيتها الجميلة.، قال ملكاه للنادلة·

ملأت الشابة الشقراء، الممسكة بترسها المستطيل، الضخم، عليه رسمُ ملاكٍ يخنق ملاكاً، قدحاً من الشراب لملكاه· عادت بوجهها المبتسم ابتسامةً ثابتةً نقْشاً على شحوب شفتيها، إلى آتيما:

- ماطلبُك؟ ماءٌ مثلَّج؟·

.بل أريد حليباً.، ردَّت آتيما بصوت شاحب كالدُّكنة حول عينيها الغائرتين قليلاً في وَقْبيْهما·

.هِهْ.، غمغمت النادلة· ربتت براحة يدها على ظاهرِ يد آتيما المستلقيةِ في ارتخاءٍ شاحب على المسطبة ـ الحاجز:

- حليبُ حُوْتٍ، أمْ حليب دُلْفين؟·

ابتسمت آتيما· قرَّبت صدرها من النادلة قدْر ماتستطيع، من فوق المسطبةِ الحاجز:

- حليبك أنـت·

.لِمَ لا؟.، ردَّت الشابة النادلة· .لديَّ سطلٌ منه في البراد.، قالت· همَّتْ أن تمضي لجلب حليبٍ، في الأرجح، لكنَّ آتيما مدَّت ذراعَها فأمسكت بالنادلة من طوق قميصها الضيق، القطن، فوق منتصفَيْ ثدييها· شدَّتْها شدًّا ليِّناً من الطوقِ فانْمَطَّ· أمالتِ النادلةُ جذعها فوق المسطبة، مقربةً بصدرها من آتيما: .ماذا تريدين أيتها الفتاة الصغيرة؟.، ساءلتْها وسط نظراتٍ من بعض الواقفين، والجالسين، على حدود المسطبة الحاجزِ بأقداحٍ في الأيدي·

.أرَيْني ثدييك.، قالت آتيما·

اتَّسعت الابتسامةُ الثابتةُ نقشاً شاحباً على شفتيِّ النادلة الشاحبتين· مدَّت يدها، بدورها، إلى صدر آتيما: .عمَّا قريبٍ ستنظرين، كلَّ يوم، إلى ثديين هنا، وهنا.، قالت· نقرت بأنملة سبابتها على الجهة اليمنى من صدر آتيما، فالجهة اليسرى· .هنا، وهنا.، تمتمت· قرَّبت رأسها، أكثر، من الفتاة الصغيرة: .داعبيهما جيداً· لاعبيهما حتى التعب· اقذفي بهما عالياً قَدْرَ ماتستطيعين· انفخي عليهما دخاناً من غليونك· مسِّديهما بظاهر ترسك وباطنه· كلميْهما، كلما استطعت، في الحمَّامِ اللهب· وبِّخيهما أحياناً· حرِّضيْهما على الكفر بك· فلْيُقبِّلْهما أوَّلاً مَنْ يريد تقبيلَ فمك أولاً· بُثَّيْهما مالاتَبثيْنَ أحداً من نجوى جسدك· كُليهْما قبل أن يأكلهما أحدٌ آخر.

.كيف آكلهما؟.، ساءلتها آتيما، فردَّت النادلةُ تمتمةً:

- انتحري قبل أن يكبرا·

أرخت آتيما أصابعها عن طوق قميص الشابة النادلة· ارتدَّت بجذعها مستقيمةً جلوساً على الكرسي· ارتدَّت الشابةُ النادلةُ بجذعها، أيضاً، عن حافة المسطبةِ الحاجزِ:

- هل آتيكِ بحليب، الآن، أيتها الفتاة الصغيرة؟·

.بل جيئيني بشراب كالذي يشربه أبي.، ردَّت آتيما، مشيرة برأسها إلى القزم·

وضعت النادلةُ قدحاً من الشراب الأقسى، بحسب وصف ملكاه لطلبه شراباً، أمام آتيما· غمست الفتاة الصغيرة إصبعها فيه· لعقتها· التفتت ببصرها إلى الباب دخلت منه ليمسا، وناؤمي، متشابكتي اليدين الحرَّتين من ترسيهما، من المرفقين، بيدي رجل طويل، مرفوع الترس بإزاء صدره، عضليِّ القوام، في بِزَّة سوداء· نزلت آتيما عن كرسيها· انحنت للثلاثة الشاحبين:

- تستطيعون الانضمام إلينا· هذا أبي ملكاه·

حدَّق الثلاثة، الرجلُ والصديقتان، إلى ملكاه: .ابنتُك شابة جميلة، ياسيد ملكاه.، قال الرجل ذو الوجه الواسع القَسمات بنُقْرةٍ في ذقنه أضفى عليها

الشحوبُ دُكّنةً كالتي حول عينيه·

.تفضلوا شاركونا.، قال ملكاه مشيراً بيده إلى الفراغ على جهة آتيما اليمنى· أبقى بصَره على وجه الرجل متأمِّلاً·

.سنجلس إلى أريكةٍ.، ردَّ الرجل· تصنَّع هو والمرأتان معه نصفَ انحناءة لآتيما، ومضوا في الممر بين صفوف الأرائك متجاورةً بالستائر الزردِ المعدنِ بينها·

لمس ملكاه كتف آتيما، مواكباً ببصره الرجلَ مبتعداً، يعتصر ذاكرتَه لحاقاً به:

- أعرفه· أنا واثق أنني أعرفه·

.هو سيميال.، ردَّت آتيما·

ازدردَ ملكاه جرعةً من قدحه: .سيميال.، كرر الإسم باستغراب· .هو··.

قاطعتْه آتيما:

- هو المرأة سيميال· ليست امرأة، ياملكاه، بل رجل·

.كان ابن القحبة جميلاً كامرأة.، قال ملكاه بصوته الأخنِّ· حدَّقَ إلى آتيما:

- كيف عرفت؟·

.عرفتُ ماذا؟.، ساءلته آتيما، فردَّ ملكاه:

- أنها رجل، وليست امرأة·

.هو لم يُخْفِ ذلك قط· كان رجلاً في زِيْنَةِ امرأة.، قالت آتيما·

.فلْننضمَّ إليهم.، تمتم ملكاه في فضول منجذباً·

نزلت آتيما عن كرسيِّها· حملت القدحَ متجهةً حيث جلس سيميال، وناؤمي، وليمسا، يتبعها ملكاه· بَلَغا الأريكَةَ· انحنت آتيما لهم:

- سأختاركم، بعد أيام، أباً وأُمَّيْنِ لي· أتَقْدِرُ أن ننضمَّ إليكم، الآن، أنا وأبي ملكاه؟

.تفضلا.، قالت ليمسا السوداء العينين الواسعتين، واضعةً يدها على فخذ سيميال·

جلست آتيما إلى جوار سيميال، وجلس ملكاه في نهاية الأريكة القوسية·

مال سيميال على ناؤمي يحجز بينهما ترسه المربع، الأخضر لوناً، برسوم عيونٍ لاتحصى، زرقٍ ولها أهدابٌ ذهبية· قرع قدحه بقدحها: .نَخْبُ آخر قُبلةٍ.، قال·

.بل نخبُ القبلة القادمة أيضاً، أيها الشرير.، ردَّت ناؤمي بصوتٍ رغبةٍ كنظرة عينيها·

سُمعَ نقرٌ على معدن، من وراء الستارة الزرد بين أريكتَيْ سيميال والتـي تليها ظهراً إلى ظهر· .أيها المختبئون تحت السلالم.، قال المتكلم بصوتٍ تصنَّع تهديداً· .قولوا لسيميال شيئاً غيرَ الذي تقولونه لي.

ابتسم سيميال المنتفخ الشفة العليا· غمز ملكاه:

- إنه هِيز· لم يزل تائهاً في إحصاء السرقات ينسبها إلى فتاة خياله·

.أنا أسمعكَ، ياسيميال.، تكلَّم هيز·

أغمض سيميال عينيه العسليتين:

- ماالذي سرقتْه فتاةٌ كلماتك من متجر الكلمات، اليوم، ياهيز؟·

.سرقتْ موسيقى أخيكَ جوراك.، ردَّ هيز· أمَرَّ أنامله على الستارة بين المقعدين فَصَلْصَلَ الزردُ متقارعاً صليلاً كالهمس·

.يبدو هيز واقعياً اليوم في تلفيق سرقات سيدة قلبه.، قال الموسيقي جوراك بصوته العادي النبرة، من وراء الستارة· .ماالجملة الفلسفية، الأكثرُ صلاحاً في ثباتِ منطقها إن وصفتُ حالَ هيز؟.، تساءل من غير أن يخصَّ أحداً بسؤاله: .أنت واقعيٌّ، إذاً أنت تاجر خُرْدةِ القانون، وثيابهِ المُستعمَلة.، ردَّ·

.هذا منطقيٌّ.، قال الرسام بارو مؤيداً، من المقعد الذي لايُرى جُلساؤه، صاحبَه جوراك· .لهيز، هذه الأيام، يقظةٌ هَرِمةٌ لاتُمكِّنه إلاَّ من أحلامٍ هرِمةٍ.

.هذه حربٌ.، ردَّ هيز بصوتٍ تصنَّع هَلعاً· .أين أنت، ياسينيكوس؟.، صرخ، فأتاهُ صوتُ سينيكوس، في البرهة تلك، قادماً في اتجاههم من الممرِّ بين صفَّيِّ المقاعد:

- أنا هنا، أمشي بخطوات الجَمال معي·

ظهر سينيكوس القاصُّ ترافقه رامونا، وتيرين، ابنتا الممثل أولاك، مطوِّقتين خاصرتيه كُلاًّ بذراعٍ من جهة·

.أيَّتُما ساقين تحتملان ما تحتمله ساقاي من أحمالِ الجَمال معي؟.، قال سينيكوس مشيراً بوجهه الدائري، الشاحب، إلى الفتاتين· توقف إذْ بلغ المَقعد اجْتَلَسَهُ سيميال ومن معه· جال ببصره عليهم: .هذه وليمة تسبق العشاء.، أومأ تلميحاً إلى المرأتين والفتاة الصغيرة، التي نهضت واقفةً بالقدح والترس في يديها· انحنت لسينيكوس، ورامونا، وتيرين·

.لماذا هذا الانحناء، ياآتيما؟.، ساءلها الروائي سينيكوس بصوتٍ فيه نَبْرُ الكحول·

.أنا آتيما.، ردت الفتاة الصغيرة·

.أنتِ آتيما، حسناً، ياآتيما· لِمَ لَمْ أستطع كتابة أكثر من سطرين صباحَ اليوم؟.، ساءلها سينيكوس شاحباً كالآخرين، أو أكثر، بالشحوب أصلاً في بشرته الأصل· .أنا لاأغفر ليوميَ إن لم يمنحني حظوةَ سطور أقرؤها، وسطور أكتبها· الوقتُ عندي من سطورٍ· الوقتُ سطورٌ تُقرأ، وسطور تُكْتب، لاغير.، قال· .أبدو عارياً من الوقتِ اليومَ.

.تَعَرَّ من الوقت، ياسينيكوس.، صاح جوراك· .تعرَّ من السطور· لن تغوي أحداً.

.معي اثنتان أغويتهما.، قال سينيكوس الأصلع ينقل بصرهُ بين وجهي الفتاتين الممثلتين برزتْ عظامُ وجناتهما تحت الجلد المتراجع انكماشاً في شحوبه·

.هذا جزء من دَوْر تؤديه تيرين، ورامونا، ياسينيكوس.، قال جوراك· فتح الستارةَ الزردَ السلاسل بين أريكته والأريكة الأخرى· نظر إلى أخيه سيميال الملتفت إليه: .إلى أية وليمة يلمِّح سينيكوس؟.، ساءله· دار ببصره على الجالسات مع أخيه ـ الصديقتين ناؤمي، وليمسا، والفتاة آتيما· أثبتَ عينيه على القزم:

- أتكفي لوليمة؟·

رفع ملكاه قدحه نخبَ جوراك:

- أكفي ثلاث وجبات ونصفاً، لاأكثر·

جاوز سينيكوس أريكة سيميال ليصير إلى جوار الجالسين على الأريكة الأخرى ـ جوراك، وهيز، وبارو: .لانساءَ معكم· وسِّعوا لنا.، قال مقتحماً بنفسه، وبالأختين معاً، الحيزَ الباقي من الأريكة القوسية، فتلازَّ الجالسون وتلازقوا· نهضت تيرين ذات العينين الشهلاوين، بعد جلوسٍ خاطفٍ، مُذْ لم يكن مريحاً تلاصقُهم· جلست على طرف المنضدة الحديد أمام الأريكة، حيث استراحتِ الأقداح· وضعت ساقاً على ساق في ثوبها الرمادي فانكشف الثوب عن مطْلِعَيْ فخذيها الشاحبتين·

غمغم هيز من تحت شاربيه الرقيقين:

- الاغتصابُ حلمٌ لايعتري الحالمين إلاَّ في واقع نائم·

ابتسم جوراك متطلعاً إلى ساقي تيرين الجالسة على حافة المنضدة أمامهم:

- أألهمك لحمُها شيئاً، ياهيز؟·

.ألهمَني استحضارَ تاريخ النيك في السفن الغريقة.، ردَّ هيز·

.معنا سيدتان· ووراءنا على الأريكة المعاكسة سيدتان وفتاة صغيرة، ياهيز· أعِدْ لسانك مُعْتَقَلاً في القُمْقُم.، قال جوراك الخفيف الشعر من تساقطه·

.سأعيد لساني عفيفاً إلى القمقم حينَ يتوقف لسانُ البشرية عن الزجِّ بنا في إدارةِ أعمالٍ تبدأ بأسواق الله وتنتهي في أسواق الإنسان.، قال هيز· .ماالذي تصلُحُ لهُ الألسنة؟.، تساءل· دار بعينيه على الجالسين· ردَّ: .تصلح للَّعْق؛ للصَّفْع؛ للمدح؛ للمجاملة؛ للشتم؛ للإستغابة؛ للنقد الأدبي؛ للمصِّ؛ لغسل الأجساد؛ لتبليل صمغ المُغلَّفات الرسائل؛ لتسخين الكلمات وتبريدها؛ للتوقيع بالحروف الأولى على ميثاق البظور.

.أهذا هو تاريخ اللسان، ياهيز؟.، ساءلتْه رامونا، الناعسة العينين·

.اللسانُ مشيئةُ الصلح المفقود.، ردَّ هيز· .لاتاريخ للمشيئة. حدَّق، من جديد، إلى ساقَيْ تيرين: .الفكرُ يستمرُّ في تمارينه· الجسدُ يتوقف عن تمارينه. ارتشفَ جرعةً من قدحه· تمتم بحروف الخفيِّ المستيقظ فيه:

- أأنا أراك أول مرة، ياتيرين؟·

.ماذا تعني بكلماتك على فكر يستمر في تمارينه، وجسد يتوقف عن ذلك؟.، ساءلتْه تيرين، فردَّ هيز:

- أردِّدُ سطراً من قانون الرغبة·

.قتلتَ جسد تيرين، ياهيز.، قال الرسام بارو· انحنى بصدره على المنضدة، متكئاً على حافة ترسه المثلث، محدِّقاً بدوره إلى ساقيِّ الفتاة:

- لاتخافي، ياتيرين· لديَّ من الألوان ماأستعيد بها الأجسادَ من الجحيم·

.تبدو كدخانٍ، ياباروِ.، قال سينيكوس· نقرَ بحافة قدحه، جانبياً، قدحَ رامونا· .الظلامُ مختبئٌ، أبداً، في الدخان· هذا قانونٌ دينيٌّ. قرعَ بترسهِ ترسَ الجالسةِ إلى جواره يُلفتُ الأسماعَ إليه:

- قلْ شيئاً، ياسيد ملكاه·

.أنا آتيما· ملكاه أبي اليوم.، ردت الفتاة الصغيرة من وراء الستارة المعدن بين الأريكتين·

.ربما الأفضل أن تجدي صديقاً، أيتها الفتاة الصغيرة، بدلَ تَبَنِّي آباءٍ وأمهاتٍ.، قال سينيكوس، فاعترض جوراك نُصْحه:

- الصداقةُ عبودية· علينا البحث عن أعداء أولاً، ياسينيكوس·

.وماذا تفعل بالأعداء إنْ وجدْتَهم؟.، ساءله سينيكوس، فردَّ جوراك:

- أعتذرُ· السياقُ كلُّه خطأٌ هنا· نحن لانبحث عن أعداء لنعثر عليهم· هم موجودون قبل أن نعرفهم ويعرفونا·

.حسنٌ.، ردَّ سينيكوس. .ثم ماذا؟.، ساءله·

.نحرِّض الأعداء على قتل أصدقائنا لننجو.، قال جوراك·

.ننجو ممَّن؟.، ساءله سينيكوس·

.مِنَّا.، ردَّ جوراك·

.أهذا جزء من تاريخ الرغبة؟.، تساءل هيز·

.هذا قانون.، ردَّ جوراك·

.فلْنغيِّر القانونَ.، قال سينيكوس بصوتٍ متراخٍ فوقَ لحيته القصيرة، السوداء·

.لاجدوى، ياسينيكوس.، قال جوراك· .لايتغير الإنسانُ· لم يتغير منذ عثرتْ عليه فكرتُه. رشَف جرعةً من قدحه· .تغيَّر أمرٌ واحد في الوجود مُذْ عثر الوجودُ على الإنسان في فكرةٍ· تغيَّرتْ تقنيَّاتُ القتل.

.أهكذا تستلهم الموسيقا، ياجوراك؟.، ساءله سينيكوس· .هاأنا أتخيَّلك تعزف على أوتار متَّصلةٍ من حنجرة جسدٍ ميتٍ مفتوح الصدر والبطن، بعظم عصْعصه. لطم بظاهر ترسه ترسَ رامونا: .جثةٌ قيثارةٌ.

صلصلتِ الستارةُ الزردُ بين الأريكتين باعدتْ سلاسلَها يدُ ملكاه واقفاً يعاين المتخاطبين: .القوانين انتصارُ اليأس.، قال· غمزهم بإحدى عينيه الجاحظتين·

التفت إليه سينيكوس والآخرون· رفعوا أقداحَهم نَخْبه·

.اليأسُ جاذبيةٌ جمالية.، قال الرسام بارو·

.بل الطغيانُ جاذبيةٌ جمالية.، قال جوراك·

.بل العبوديةُ جاذبية جمالية.، قال هيز·

.ألستم جائعين؟.، تساءل سيميال بصوتٍ فيه نَبْرُ المقاطعة والمَلَل معاً، فردَّ سينيكوس:

- سأخبرك إذا أعطيتني وصفاً مُقْنِعاً لرحلتنا هذه، ياسيميال·

.إنها سوءُ تفاهم مع الموت.، ردَّ سيميال·

غمغم سينيكوس مستظرفاً جوابه· توجَّه بصوته إلى جوراك:

- ألديك وصفٌ أفضل من وصف أخيك؟·

.أحضِرْ لي بيانو لأصف لك هذه الرحلة.، ردَّ جوراك·

.ماذا لو قلتُ إنَّ هذه الرحلة هي سوء تفاهم بين سفينة هيغور والبحر؟.، قال هيز، فرفع سينيكوس يده بالقدح معترضاً:

- لمَ لانسأل النساء هنا؟·

.النساء يعرفن وصفَ المدن، لاوصفَ الرحلات.، قال بارو·

.المدن سوءُ تفاهم مع الموت.، قال ملكاه الواقف، بَعْدُ، مُباعداً بيدهِ سلاسلَ الستارةِ الزردِ·

.بل المدنُ هدنةُ الطبيعة، التي يتريَّثُ الوجودُ في توقيعها.، قال هيز صارخاً· .إنه التاريخ.

.مابك؟.، ساءله جوراك· .يزيدُ سُعارُك كلما ذكرتَ كلمة التاريخ، ياهيز.

.العارُ للكلام إن لم يكن مسعوراً في الحديث على التاريخ.، ردَّ هيز· .التاريخُ فكرةٌ سعارٌ، وعلينا أن لانُهين ذلك السُّعار بحديثٍ هادئ كالذي نتجاذبه حول مستعمَرات الشرقيين في أوروبا قبل سقوطها.

.أليس في التاريخ جاذبية جمالية؟.، تساءل الرسام بارو، فردَّ سينيكوس متطوِّعاً:

- جمالُ كل حشرة، أو حيوان، أو طائر، إمَّا للتمويه، أو للإغواء: الجمالُ الخوفُ، والجمالُ الرغبة·

.ماجمالُ الإنسان، ياسينيكوس؟.، ساءلتْه تيرين، فردَّ الروائيُّ:

- تحويل الخوفِ إلى غوايةٍ، والرغبةِ إلى خوف·

.ماالجمالُ في هذا؟.، ساءلتْه تيرين من جديد، فردَّ سينيكوس:

- الجمالُ فيه أنه يصنع تاريخَ شاعريةِ القتل·

.هاأنت وجوراك متصالحان، ياسينيكوس.، قال الرسام بارو· .الوجودُ كلَّه إمَّا تقنياتُ قَتْلٍ، أو شاعريَّةُ قَتْلٍ· أنتما على حافة اللون.

.أأنتم تستعيرونَ مقتبساتٍ من تسويات الرعب، أيها المتوحشون؟.، قال سيميال بصوتٍ متباطئِ النَّبر، وراء الستارة، فاعترضه أخوهُ جوراك:

- سيميال· ماذا يعني أن تكون رجُلاً؟·

.يعني أنْ أتخلَّى طوْعاً عن تهذيب الأنثى فيَّ، ياجوراك. ردَّ سيميال· أرْفَقَ كلماته بنَقْرٍ مسموعٍ من قدحه على أقداح جلاَّسه·

.وماذا تعني تسوياتُ الرعب، هذه، التي نقتبس سطورَها؟.، ساءله جوراك، فردَّ سيميال:

- قَتْلُ الأمِّ أولادَها، ياأخي الموسيقيُّ·

نهض سينيكوس متطلِّعاً من عليائهِ إلى ساقَيْ تيرين في جلستها على حافة المنضدة: .أحسُّ بجوعٍ.، قال· .أتصحبانني أم تبقيان؟.، سأل الأختين·

.ابْقيا.، قال هيز مقترِحاً على الأختين· أردف: .ليذهبِ العشاءُ إلى الجحيم، فإنْ أحسَسْنا جوعاً أكلنا قدمَيْ تيرين، وأكملنا الشربَ بحذائها.

.يا للغَرَاميل.، تعالى صوتُ سيميال فجاءةً من وراء الستارة·

.ماذا أثارك، ياسيميال؟.، ساءله سينيكوس واقفاً بظهره إلى الأريكة المعاكسة لأريكتهم· فردَّ سيميال بصوته المتباطئ النَّبر:

- لم أعدْ أحتمل مماحكات القبطان هيغور ونايورا·

.تعني الغُرْمولَ هيغور، والغُرْمولَ نايورا.، تمتم سينيكوس·

.يعني غُرْمولَ الماء.، ردَّ ملكاه مستبقاً سيميال، بصوته الأخنِّ مرتفعاً·

.إلى جوارك فتاةٌ صغيرة، ياسيد ملكاه.، قال سينيكوس· غادر موضعَه ليصير في الممر مواجهاً أريكة سيميال وجُلاَّسه· حدَّق إلى القزم:

- ماذا يشبه غُرْمولُ الماء؟·

.يشبه غُرْمولَ آتيما.، ردَّ ملكاه مختنقاً شحوباً زاد من جحوظِ عينيهِ في وَقْبيهما الداكنين·

نقل سينيكوس بصرَه عن ملكاه إلى آتيما مترنِّمةً بصوتٍ خفيض، هامسٍ، مُحتَبس: .سأصحبك معي إلى قصة لم أكتبها بعد.، قال·

.اجعلْ لقصتك مَخْرَجيْن، ياسيد سينيكوس· إنْ أدخلتَ آتيما إليها أَخْرِجْها أيضاً.، قال ملكاه· .أنتَ تكتب قصصاً مسحورة· قرأتُ واحدة.، أضاف·

.هي ليست قصصاً.، صاح جوراك من وراء الستارة تعليقاً ّإذْ تلقَّف حديثهما· .أنتَ، ياسينيكوس، وُجدْتَ في فكرةٍ اقترحتْ عليك الخروجَ منها ماشياً، فخرجتَ راكضاً· هنا الخلل· لاتركضْ في خروجك من الفكرة، بلِ امْشِ. قهقه بصوتٍ خفيض·

غادر سينيكوس الممرَّ وحيداً· قرعت ناؤمي بقدحها قدحَ الجالسين على الأريكة ذاتها، واحداً واحداً: .لاأحسُّ بجوع.، تمتمت بصوتها الخشن أثقلَه شرابُها، فمال عليها سيميال، مُبْعِداً ذراعَه بالترس كي يطوق كتفها باليد الأخرى· غمرَ فمَها بفمه· أطلق شفتيها محتقنتين بعد رشْفٍ عادلٍ وقْتاً· نقل ترسه إلى ذراعه الثانية· مالَ على ليمسا· لعقَ بطرف لسانه شفتَها السفلى الممتلئة· استثارها برهةً، ثم اعتقلها بين شفتيه·

ارتفع صوتُ آتيما مترنِّماً بعدما كان هَمْساً· قرَّب ملكاه رأسَه منها· وضع إصبعه السبَّابة على فمها كأنما يستمهلها: .أعنيتِ حقًّا، ياآتيما، أن تأخذيني إلى مقصورتك حين غادرْنا جثةَ ليالو؟.، ساءلها·

توقفت آتيما عن ترنُّمها:

- أردتُ أن تستحمَّ معي·

.معِك؟.، تمتم ملكاه ملقياً على وجهها نظِرةً تقطر شحوباً·

.سأغتصبكَ.، قالت آتيما من وجه فارغ إلاّ من شحوبه·

.في مقصورتك؟.، ساءلها ملكاه، فردَّت آتيما:

- في حمَّام مقصورتي·

.اغتصبيني· افعلي ماتشائين.، قال ملكاه بصوتٍ ازدردَه إلى جوفه مع رشْفةٍ من قدحه·

.أتريد ذلك قبلَ قَتلِكَ، أمْ بَعْده؟.، ساءلته آتيما ملتفتةً إليه بعينيها العسليتين على صُفرةٍ·

تمهَّل ملكاه في الردِّ برهةً يستنطق جوعَ قلبه· تمتم هامساً:

- افعلي ذلك قبل قتلي، أو بعده· لايهم· اغتصبيني·

.ماالذي تتهامسان فيه؟.، ساءلتهما ناؤمي من جوار سيميال الجوَّالِ بقبلته المُهاجرةِ على مضائقِ شفتَيْ ليمسا·

.أنا آتيما.، قالت الفتاة الصغيرة· نهضت واقفةً· صرخت من أعماق رئتيها:

- قُتِلَتْ أمي اليوم·

انفصل فمُ سيميال عن فم ليمسا· همهم الجميعُ الجلوسُ إلى الأريكة ذاتها، والأريكة المُعاكسة حيث هَبَّ الجالسون الخمسة هناك ـ بارو، وتيرين، وجوراك، ورامونا، وهيز ـ انتقالاً إلى موضع أريكة سيميال· حدَّقوا إلى وجه آتيما: لم تكن صرختُها القوية متطابقةً مع ملامحِها الخالية من أيِّ انفعال، بل بدت الصرخةُ منفصلةً بنقوشها الخشنة عن عينيها الهادئتين في الشحوب المحيط داكناً بِوقْبيْهما، وبفمها المتكاسل بالشفتين النافرتين تتهيئان لصفيرٍ ربَّما·

نهضَ سيميال عن الأريكة· تقدَّم خطوةً من آتيما· نقر بظاهر ترسِه الرسومِ عيوناً لاتُحصى وجهَ الثور النافر في ترسها· انحنى عليها بجسده الطويل ذِي الثرثراتِ العضلِ· طوَّق رقبتَها بأصابع راحته الواسعة، وأفلتَ شفتيه من منحدراتِ حقائق اللَّمس الكبرى على شفتيها· ذوَّبهما مصَّا·

أحاطت ليمسا، وناؤمي، بسيميال غارقاً في شَفتيْ آتيما· باعدتا بين وجهِ الرجل ووجه الفتاة الصغيرة في رِفْقٍ· تناوَبتا، بدوريهما، نَهْبَ فم آتيما، كلٌّ بقبلةٍ من القُبَلِ الأمهاتِ خُططاً في النهب·

تهدَّل ملكاه· تهدَّل الرسمُ الثديان الناهدان في سواد ترسهِ، وشهقتِ الحَلَمتان·

الفصل التاسع

(Amphianthus Dohrni)

عبرت الحورية كاليس من تحت جسرٍ ماءٍ ببناتها الخمس، في أعماق بحر تريتونفال· تسعةُ جسور، أو أكثر، كانت متحاذيةً، بامتدادٍ لاينتهي، من الجنوب الشرق إلى الشمال الغرب· جسورٌ ثخينةُ الرَّصْفِ من ماءٍ عكرٍ قليلاً، على صُفرةٍ، في فضائه المائيِّ، بأعمدةٍ أسطواناتٍ ماءٍ ثابتٍ في جِرْمِه النَّحْتِ ماءً في ماءٍ·

كانت سطوحاً تلك الجسور، لاأحفَّةَ لها في ثباتها عالياً فوق الأعمدة، انسابت كاليس، والحوريات الصغيرات، على علوٍّ أنملة من أحدها، بل لمسْنَ سطحَ الجسرِ بأصابعهن فغارت في مائه· ارتفعت كاليس صعوداً، أمتاراً من السطح، ثم نكَّست جسدَها أسفلَ، دفْعاً بزعنفة ذيلها· رشقتِ السطحَ الماءَ بجسدها فاخترقتْه حتى أسافل الجسر، ثمَّ ارتدَّتْ عكْساً، من أسفل إلى أعلى، متلَوِّيةَ الهيكل فاخترقتْه شَقًّا في الماء انطبقَ من فوره، والتحم·

بناتُ كاليس حاكَيْنَها رشْقاً بأجسادهن سطحَ الجسر يَخْرِقْنَه صعوداً ويَخْرقْنَه نزولاً، دفْعاً بزعانف أذيالهن الرمادية· تراقصن ارتعاشًا هزًّا منتصباتٍ، بثباتٍ متَّزنٍ فوق سطح الجسر قبل أن يتصادمْنَ قصْداً، في عبثٍ فظٍّ· تماديْنَ تصادُماً تناثر منهُ بعضُ شعرهن الأصفر متماوجاً في هبوطه إلى الأعماق· حدَّقت إليهن كاليس بلا رغبة في زَجْرِهن· لكنها صفَّقت بيديها مُحدِثةً صوتاً يتواتَرُ رَسْلُه أخرسَ لاتسمعه إلاَّ كائناتُ الماء بأسماعهن، إن كُنَّ ذوات أسماعٍ، أو بالنَّبْرِ ينقله الماءُ موجاً خفيًّا يحْسَسْنَه حِسًّا· توقفت الحوريات الصغيرات عن عبثهن الفظِّ متطلِّعاتٍ إلى أمهن، التي أدارت وجهها إلى جسرٍ من تلك التسعة يسير عليه سربٌ من الجواميس الرمادية بقرون وأظلاف متوهجة كالجمر، وزعانفَ حُمرٍ على ظهورها، وبيْضٍ ذواتِ رُقَطٍ سودٍ في نهايات أذيالها القصيرة·

حورياتٌ صغيرات، ذهبياتٌ من شعورهن حتى زعانفِ الأذيال، منساباتٍ على ارتفاعٍ قليلٍ من ظهور الجواميس، كُنَّ يسُقْن ذلك السربَ فوق الجسرِ الماءِ نَخْساً بحَسَكٍ في أيديهن· تحركت كاليس صوب أوْلالِكَ الرواعي وجواميسهن تتبعها بناتُها· اقتربن من الجسرِ الماء تلمس سطحَه الأظلافُ المتوهجة لهباً أو تكاد، فلا يُعْرَف أتسبح أولئك الحيوانات أم تمشي·

سكنتِ الحورياتُ الرواعي متوجِّساتٍ من اقتراب كاليس وبناتها· ثبتْنَ منتصباتٍ برهةً يستطلعْنَهنَّ فحْصاً موثوقاً يؤكدن به هاجسهن أو يتخفَّفْنَ منه، ثم تعلَّقن، من أيديهن، برؤوس الجواميس الماشية، وهنَّ يرمقن الغريبات الفضوليات·

لم تتمادَ كاليس وبناتها اقتراباً من السرب ورواعيْهِ· كُنَّ في جَرْسِ سؤالهنَّ الصامت عمَّا تفعله حورياتٌ من جنسهن بحيواناتٍ جواميسَ· تخاطَرْنَ، من ألسنة عقولهن الغلاصم الخرساء، بمقاديرَ تخمينٍ في التفسير: ربما يتخذ هذه الجنسُ من الحوريات حيواناتٍ جواميس مائيةً للتسالي في ساحات قُراهنَّ الكهوفِ، أو يتقرَّبْنَ برعايتهنَّ إلى إلهٍ من آلهة البحر الخجولة· الحوريات لايأكلن لحوماً سوى بعض المحار، وقد يكتفين بخسِّ الماء وبَقْله· هكذا خمَّنَّ· هكذا اكتفت عقولُهن المتخاطِرةُ بتفاسيرها·

لوَّحت إحدى بنات كاليس للرواعي الملتفتاتِ، بَعْدُ، بأعناقهن على علوٍّ خفيض من ظُهران الجواميس، فتوقفت الرواعي عن انسيابهن في الماء· استدرْنَ إلى حيث الحوريات الغريبات· تقاربْن برؤوسهن، كلٌّ ثلاث أو أربع، تأويلاً لتلويحة بنتِ كاليس· رنَّقْنَ بزعانف أذيالهن تَرْنِيقاً رفيفاً قويًّا، ثم انطلقن مندفعاتٍ صوب كاليس وبناتها، بأفواه مفتوحة الأشداق عن أسنانٍ مناشيرَ، وأيدٍ مضمومة على حَسَكِ أسماكٍ كبيرة·

اضطربت كاليس وبناتُها من النُّذُرِ واضحةً في اندفاعة الرواعي صوبهن· أرْعَشْنَ زعانف أذيالهن متماوجاتٍ أجساداً كأفاعٍ· ارتدَدْن على أظْهُرهن منتصباتٍ، يستنفدْنَ التقديرَ في مايتوجب فعْلُه· حسمن الموقف· انعطفن على أنفسهن وانطلقن هارباتٍ لايلتفتنَ·

قُرْب سطح الجسر الثاني من الجسور التسعة، أو أكثر، التقطت كاليس وبناتُها أنفاسَهن· ألقيْنَ أبصارهنَّ، من بُعْدهُنَّ ذاك، إلى الجسر الأول عادتِ الرواعي إلى سَوْق جواميسهنَّ عليه، من غير أن يتخلين عن حذرهن، إذ يُرسلن، كل بعضٍ من البرهات، بواحدة منهن، أو اثنتين معاً، في انسيابٍ عنيف، مهدِّد، محذِّرٍ، بضعة أمتارٍ في اتجاه كاليس وبناتها، اللواتي لم يخْفَ عليهن التحذيرُ المتوعِّد، فابتعدن أكثر، حتى صِرْن إلى جوار الجسر الثالث من الجسور التسعة، المتشاكلة بناءً ماءً من نَحْتٍ ماءٍ·

استدارت كاليس إلى ابنتها، التي أثارت تلويحتُها الرواعيَ الحورياتِ فاستشطْنَ غضباً· أمسكت بها، بغتةً، من شعرها الأصفر بأناملها الطويلة الأظافر· جذبتْها نزولاً إلى الأعماق· دقَّتْ رأسَها بالحصى أرضاً، ثم أفلتتْها مخطوفةَ النَّفَس مذهولةً، مصعوقةً· انتصبت قُبالتها· أفردت أصابعها عن شعر منتوفٍ من رأس ابنتها· فغرتْ فاها على نحوٍ يتَّسع شدقاه لرأس الحورية الصغيرة بتمامه، كأنما ستلتهمها غيْظاً· نضنضت بلسانها الرماديِّ من بين أسنانها النِّصالِ، ثم اندفعت صاعدةً، بخفقٍ عنيفٍ من زعنفة ذيلها البرتقالية· اخترقت رصيفَ الجسرِ الماءِ من أسفله إلى أعلاه· التحم الصدْعُ المائيُّ مستوياً سطحاً·

لم يدُم انسيابهن غوْصاً بين أساسات الجسور الأخرى طويلاً· على الجسر الثامن، تحديداً، ألفيْنَ رواعِيَ حورياتٍ، سوداوات الحراشف، بزعانف ظهور وأذيالٍ سودٍ، يقُدْنَ، بدورهن، قطيعاً مختلطاً من أبقار وتيوس صُفر الألوان، ذوات زعانف رمادية على الظهور، وزعانف بيْضٍ واسعة في نهايات الأذيال· توقفت كاليس وبناتها متفرِّجات، في حذرٍ مفرط، يتفادين أن يلفتْنَ أبصار الرواعي، اللواتي انصرفن، بأسواطٍ من نبتٍ مجدول في أيديهن، إلى حثِّ القطيع على السير فوق الجسرِ الماء بأظلافها الشديدة الزرقة· لكنْ لم يسعفهن الحذرُ أن يتفادين انكشافاً، لمَّا التفتت إليهن راعيةٌ حوريةٌ، من بُعْدها، ثم أشارت على أخرياتٍ أن ينظرن إلى كاليس وبناتها·

هرعت كاليس ببناتها إلى الأسطواناتِ الأعمدة تحت الجسور يتخفَّيْن وراء ثخانتها النَّحْتِ من عَكَرةٍ في الفضاءِ الماءِ الرائق· تخفِّيهن بالأعمدة لم يحجبهن: كُنَّ منكشفاتٍ بَعْدُ، لاتنجيهنَّ العَكَرةُ من الأبصار إلاَّ بقَدْرٍ كالمختبئ في ظلٍّ· توجَّسنَ من الحوريات الرواعي على الجسر الثامن ماتوجَّسْنَه من الرواعي على جسرٍ سابق· تأهَّبْنَ بزعانف أذيالهن، وزعانف قلوبهن، للهرب إنِ اشتبَه عليهن التخمينُ ـ هُنَّ الدخيلاتُ ـ وتشكَّكْنَ في السلامة· بَيْدَ أنَّ الحورياتِ الراعيات على الجسر الثامن لوَّحن بأيديهن لكاليس وبناتها، فتأوَّلتِ الأمُّ الحركاتِ على استئناس الرواعي بهنَّ، ربما· اقتربت ببناتها بِطاءً من الجسر، يتكلَّفْنَ اطمئناناً ليس محسوماً بعْدُ·

كان واضحاً أنَّ الحورياتِ الرواعي أحسسْنَ تردُّدَ كاليس وبناتها، ولمسْنَ حذرهنَّ ـ حذرَ الغريب المتقبِّض، فأظهرْنَ ترحيباً لَعِباً يُغري بأنْ يقتربن· رفعت ثلاثٌ منهن تيساً عن الجسر وأطلقْنَهُ في الفضاءِ الماء، أعلى أمتاراً من أظْهُر القطيع المتهادي، وصفَّقن له تصفيقاً أخرسَ بالأسواطِ النَّباتِ متعرِّجةً أفعواناتٍ من حول التيس الدائر حوْل نفسه، برفيف قوي من زعنفة ذيله البيضاء وزعنفة ظهرهِ الرمادية· كنَّ كالمدرِّباتِ له على لهوٍ، لايُصبْنه بأسواطهن، بل يكلِّمْنه بها تلقيناً على الحركات دَوَراناً، وتقلُّباً، وانسياباً سريعاً، أو بطيئاً، ووقوفاً فجاءةً لايتحرك، ثم يجعلنه يُرَنِّقُ بزعنفتيه رفرفةً تَرْنيقاً يدوِّرُ الماءَ حلقاتٍ من حول جسده، ويستثرنَه فيقترب منهن كأنه سينطحهن، لكنه يتراجع مكتفياً بالتهديد الساخر·

كان لهواً مثيراً ذاك الذي استعرضت به الحورياتُ الرواعي التَّيْسَ على الغريبات، فاستحسَنَّه، بل تخفَّفْنَ من تحفُّظهن الحذِر عن التمادي اقتراباً· إحدى بنات كاليس كانت الأسرع في اطمئنانها· انسابت مختلطةً بأولئك الرواعي السوداوات الحراشف والزعانف· لمست قرنيِّ التيس الشديديِّ الزرقة كأظلافه· تمايلت بهْجاً· انضمَّت إليها أخواتها الأربع الأخريات· غُصْنَ نزولاً مقتربات من ظُهران القطيع المتهادي على الجسرِ الماءِ ينطبع سطحُه آثاراً كلما مسَّتْه الأظلافُ، ثم يمحوها الماءُ بممحاته·

التمَّت الحورياتُ الرواعي، السود، على بنات كاليس الزرقاوات الحراشف· وضعن أسواطاً في أيديهن يَحْثَثْنهنَّ على محاكاتهن في التطويح بها فوق ظُهْران القطيع من غير مسٍّ فطوَّحت بها بناتُ كاليس بلا إتقانٍ· تطلَّعن صوب أمهن يُرغِّبْنها بنظراتهن في الإنضمام إليهن لاهياتٍ· لكنَّ كاليس اكتفت، من بُعْدها القليل، بالنظر حصاداً من سُنْبل اللهو وعِرْناسه·

ساعةٌ، أو أكثر، مضت على بنات كاليس في صحبة الحوريات الرواعي وقطيعهن، على الجسر الثامن، تواكبهن أمهنَّ عن بُعدٍ قليل من حافة الجسر· توقفت بغتةً ببصرها إلى الأعماق· رنَّقت بزعنفة ذيلها ثابتةً كتَرْنيق الطائر بجناحيه من غير طيرانٍ· فتحت فمها مستهولةً إذِ انفجر الرملُ من حول عمودين متقابلين من أعمدة الجسر الكثيرة· انقذفت أجسادٌ بِيْضٌ من العَكَرة، أسفلَ، صاعدةً أعلى· هبَّت كاليس هاربةً في اتجاه بناتها اللواتي تشمَّمنَ هلعاً في انسيابها العنيف· التففن حولها لحظةً قصيرة كالومض، ثم تبعْنَها مندفعاتٍ سهاماً في ابتعادهن عن الجسر·

حورياتٌ بيْضُ الأجساد، والشعور، والزعانف، اخترقنَ سطح الجسر من كمينهن تحت الرمل، الذي رأته كاليس منفجراً حول أساسات الأعمدةِ الماءِ· كُنَّ فاغراتِ الأفواه بأشداقٍ مفرطة في سَعتها، ولاندفاعهن سُعارٌ من تثنِّي أعطافهن تثنِّياً شديداً إنْ صدَمْنَ أطَحْنَ، أو رضَضْنَ، أو هشَّمْنَ·

بلغ الذعر بالحوريات الرواعي من الحوريات البيض، الغازيات، مبلَغَه ذهولاً· استطارت عقولهن· شلَّهنَّ الهولُ· صُعِقَت عظامهُن فَخُذِلْن لايقوين على استنهاض عضلةٍ لجَبْهِ الغازيات أو للفرار· لبثْنَ على حالهن خفقاتٍ مائةٍ من قلوبهن المغشيَّة عليها، قبل أن يفِقْنَ من زمَعهن على جلود بعض التيوس تتمزق، ولحم بقرٍ يُنتَش أحمرَ بأسنان الحوريات الغازيات· تردَّد بعضهن على بعض مضطربات لايدرينَ أيهربن، أم يدافعن بالحسك العظام في أيديهن عن القطيع تفرَّق بطيءَ الفرار، اختطفت منه الحوريات البِيضُ بقَرةً هنا، أو بقرةً هناك، وعجَّلهنَّ الجوعُ فانقضضن على تيسٍ هنا، أو تيسٍ هناك، نهشاً شرساً في لحم الأعناق·

تجرأ بعض الحوريات الرواعي فهدَّدْنَ الغازياتِ بالحسَك العظام لوَّحن بها، ثم تجاسرْن أكثر فاقتربن منهن بأشداقٍ مفتوحةٍ على وعيد· تمادَين اهتزازاً بزعانفهن، وتثنِّياً قويَّاً بأجسادهن لعلَّهن، إيحاءً بالفَتْك والثُّبور، يردعن الغازياتِ فيتَّرِكْنَ بعضَ مااختطفن· تحاملن عليهنَّ إغارةً، فاحتوتهن الحورياتُ البيضُ تطويقاً، فمزَّقن ذراعَ إحدى الرواعي من كتفها عضَّاً·

تراجعت الحوريات الرواعي وقد هالهُنَّ أن يَرين ذراعَ إحداهن ممزَّقة ينزفُها الدمُ سحاباً ممطراً ذعراً· ابتعدن مصعوقاتٍ، مستسلماتٍ لأقدار الأعماق هائجةً، في يومهن ذاك، على أجنبةِ الجسورِ الماءِ في الأعماق· واكبْنَ، بعيونٍ

أزْبَدَ النظرُ منها حسرةً، أولئك الغازياتِ البيض منكفئاتٍ عن الجسر بأسلابهنَّ، يجرُرْن بقراً من زعانف أذيالها، وتيوساً من القرون الزُّرق، موغلاتٍ بُعْداً.

كاليس، وبناتها، شهدن النهبَ من مَبْعَدَةٍ أمانٍ، بأبصار قلوبهن المغمضة جزعاً، وبأبصار عيونهن المفتوحة على ضراوة الصُّور تسدُّ على الجفون أن تنطبقَ، وعلى الأهداب أنْ تَرِفَّ خُلْسَةً. تراخت فكوكهن، وجمدتِ الألسنُ. كُنَّ ساكناتٍ، حجريَّاتِ الأحوال، جُوْفاً إلاَّ من ريحٍ حديدٍ، وهُنَّ يرينَ الغازياتِ يبتعدن بمغانمهن، ويَرَين الحورياتِ الرواعي منكبَّاتٍ على جمع الشارد من قطيعهن على الجسر ثانيةً. تبادلْنَ خواطرَ عقولهن الصامتة متوافقةَ النَّبْرِ في المقصد واضحاً: أن يغادرن الموضع بأقصى ماتقْدِرُ زعانفُ أذيالهن أن تقذف بهن نأياً عن الجسور، وأساساتها الأعمدة. لكنْ استوقفَ كاليس عن قصدها، برهةً، ماأبصرتهُ على جسد إحدى بناتها من أمر البثورِ النُّفاخاتِ، التي اتسع زحفُها حتى بلغ ثدييها؛ عاينت بناتِها الأخريات، فوجدتهن على الحال ذاتها. عاينتْ نفْسَها: كُنَّ، كلُّهن، مُكتنَفاتٍ بالبثور كالأُشْنة تكتسح الحجرَ في الموضع الرطب. فقأتْ نُفَّاخةً بثرةً بلغ حجمها حجمَ حدقة عينٍ، بين ثدييها تماماً. سطعت شرارةٌ منقذفة، أكثر من إصبع طولاً. نشَّتْ قبل أن تخبوَ خَبْوَاً بطيئاً.

غادرت كاليس وبناتُها المكانَ، مرشوقاتِ الأجسادِ سهاماً في انسيابهنَّ القويِّ.

الفصل العاشر

(Lima Lima)

استيقظت آتيما فجراً على ضِيْقٍ خفيف في النَّفَس، ذلك اليوم المعدود من القليل الباقي على موعد السفينة مع رقصة الحوريات· أحسَّت لسانها جافًّا من استنشاقها الهواءَ بفمها لابمنخريها· أزاحت عن جسدها غطاءَ السرير الرماديَّ، ذا الرسوم المواسير الحديد مقطَّعةً بَتْراً· نزلت عن السرير بقبقابها الحديد الصغير في قدميها· رنَّ تماسُّ القبقاب بالأرض المعدن للمقصورة· مشت متثاقلةً إلى البراد· أخرجت إبريقاً حديداً شربت ماءً من حافته· وضعتْه فوق المنضدة المربعة قرب زاوية السرير، من جهةِ الوسادة، حيث مدَّدت ترسها على وجهه ـ وجهِ الثور النافر، وأودعت تجويفَه المقعَّر حقيبة كتفها، ومفتاح المقصورة، والغليونَ مطفأ الخيال برماد العشب فيه لم تفرِّغه آتيما· اتجهت صوب المرآة المستطيلة على باب خزنة الثياب، والمتاع، الحديد· تأمَّلت نفْسَها مترنِّمةً بفم مطبق·

كانت الفتاة الصغيرة أكثر شحوباً، بوجهٍ تراجع فيه اللحمُ للجلد ملتصقاً بعظامه، غائرةَ العينين في دُكْنة وَقْبيهما· لمست بيديها، معاً، صدرَها، فوق الثديين المَسْحاوِيْن، الضَّهياوين· قرَصت الحلمتين المحتقنتين سواداً على حمرةٍ فانعظتْهما· صمتت عن ترنُّمها· أخرجت لسانها مقتربةً من المرآة· استدارت ماضيةً إلى باب الحمَّام مشياً رنيناً، حفحفةً من عقبَيْ قبقابها على الأرض المعدن· فتحته ودلفت إلى داخله· أدارت قُرصاً صغيراً على أحد الجدران، وتراجعت إلى الدائرة وسط الحمام·

خرجت خيوطٌ من منيِّ اللهب رقيقةٌ، برؤوس نُفَّاخاتٍ، من ثقوب ثلاثة جدران، ومن الأرض، تحت قدمَيْ آتيما· مسَّتِ الخيوطُ اللهبُ جلدَها برهةً، ثم تراخت، وانحسرت حتى كادت تلتجئ، ثانيةً، إلى مخابئها الثقوبِ، فاضطرت الفتاة الصغيرة، وهي تعَضُّ على نواجذها حَنَقاً، أن تلتصق بثقوبِ نَفْثِ اللهب على أحد الجدران، وأن تمرِّغ جسدَها في حديده ظَهْراً، فبطناً، فجنبيْنِ، أو ماقدِرَت أن تُلْصِق من أعضائها برؤوس اللهب المتراجع إلى الثقوب قَبل أن يخمد اللهبُ تماماً·

صرخت آتيما من بئر حنجرتها صرخةً مديدةً، معدنيةَ النَّبر· قرعتِ الجدارَ براحتي يديها، وبمقدَّمَيْ قبقابها· .ياحِيْتان السماء. ـ دوَّم صوتُها؛ .أيتها الحيتان المسلوخة. وضعت يداً على فرجها· ضمَّتْ شُفْرَيْهِ كأنها تنتزعه من بين فخذيها· نقرت بجبينها نقْراً خفيفاً على الجدار الحديد· تراجعت· خرجت من الحمام مترنِّمةً بصوتٍ محتَبَسٍ ذي صرير·

ـَ

جلست على حِفاف سريرها، من زاويته المتصلة بالحائط· ضغطت زرًّا صغيراً مراتٍ، على تعاقبٍ من مراتب الموسيقى بوْحاً بالتِيهِ المُخلِّص، أو بوْحاً بالهدايةِ الضلال· موسيقا شامتة، متقطِّعة النَّبر نَهْشاً بآلاتٍ وتريَّة· موسيقا حسودة، عالية النبرِ إيقاعاً من طبلٍ صفيح· موسيقا هازئة، يتوازى في نبرها، بلا تماسٍّ أو تَحَاكٍّ، ترديدٌ وَتَريٌّ وقرعٌ صلصلة· موسيقى معتدلة المنطق بمخاطبة الوتريات للنايات· موسيقا متأملةٌ يرتدي النبرُ فيها، أمام مرآة النبر، شكَّهُ الخافتَ، الصغيرَ الجيوب· موسيقا متَّسخة، وقحة، بنبرٍ من طنين الذباب عالقاً في إناءٍ زجاج· موسيقى جريئة، بقدمين عاريتين في ماءِ النَّبر· موسيقى عذراءُ تتمنَّع برهةً قبل تسليم فرْجها·

مراتٍ ضغطت آتيما الزرَّ الصغير تتتابعُ في الضغط أصواتٌ من مراتب الوضيع، ومراتب المتعالي، ومراتب المتسامح، ومراتب الأمين، ومراتب اللص، ومراتب المتردِّد، ومراتب المتصالح على مضض، ومراتب المتطفِّل، ومراتب المخلوع عن سلطانه، ومراتب الزاهد، ومراتب المغتصِب·

أوقفت آتيما الضغط، تحديداً، عند الصوت المُصنَّف عميداً على خزائن مؤنِ الصوت: أبواقٌ مختنقة، موصولةُ النَّفخ تدرُّجاً في العلوِّ، وطبلٌ خافتٌ، وناي· نهضت عن سريرها إلى البرَّاد· فتحته· تأملت أعماقه الفارغةَ إلاَّ من قطعة كعكة، صغيرة يابسة، وتفاحة حمراء لاتعرف لِمَ هي هناك· تناولت الكعكة· قضمتْها ثلاث قضماتٍ متتالية وهي ممسكة بباب البرَّاد مفتوحاً· انتشلت التفاحة الحمراء، الأنيقة اللون في لمعةٍ من طلاءٍ حافظٍ كالشمع· أغلقت باب البراد· عضت على التفاحة عضَّا متأنياً، طويلاً· تخلَّلتها أسنانُها ضغطاً بالفكَّيْن حتى انطبقت، مقتطعةً لقمة كبيرة· مشت في قبقابها إلى النافذةِ الكُوَّةِ المستديرة، في الجدار المواجه لسريرها· بلغت حِفَافَ النافذة بذقنها·

لم يكن يُرى من مُشرَف السفينة، الذي تطلُّ عليه النافذة، أبعد من الحاجز القضبان: ضبابٌ مُحنَّكُ الطَّبع، بحريٌّ، سَرَدَ عِظَةَ خياله الطويلة على بصر آتيما بصوته الرماديِّ· أزاحَ ستارةً عن ستارةٍ من صور العَدَم نقيَّةً في رماد اللاَّشكل· ضبابٌ بُعْدٌ وقُرْبٌ في عمق ذاته وسطحه؛ كتيمٌ وسرِّيٌ؛ معركةٌ لاحركةَ فيها بلْ لهاثٌ خافت للبحر في فجره المغتصَب·

مسحت آتيما على الزجاج براحتها· مامن بخارٍ كان هناك لتزيحه عن مَسْربِ بصرها إلى الخَلاءِ المُعتَصَر· لكنها بدت كأنها ترى، إلى الوراء من خيالها هي، خلاءَ الدَّورة الكُلِّية من طبائع المعلوم، والعِلَل المنتسبة إلى المعنى واللامعنى· رأتْ ماتريد أن تراه: شحوبَ الكون· ولو حدَّقتْ أكثر، باستسلامٍ عنيدٍ، إلى مجثم الضباب بَانَ بيضةُ الكُراتُ في الأعشاش، لاستبانت حول البَيْض قوافلَ دائرةً على آثارها الدائرية ـ أشباحاً مستورةَ الجذوع العُليا وراء التروسِ الضبابِ، بهديرٍ من أصواتٍ تقول كلَّ شيءٍ بنَبْرٍ من قول اللاشيء؛ ولاستبانت،

أيضاً، حرائقَ ضباباً، بـألسنةٍ من لهبٍ ضبابٍ، وطيوراً ضباباً في اللهب، وسُفناً ضباباً يحملها ركابها على الأكتاف، ماشيْنَ بها بسيقان مفرطةٍ طولاً، خَوْضاً في البحر؛ أو، ربما، استبانت نفْسَها، واقفةً بقبقابها الحديد، قوق حاجز السفينة القضبان كوقوف بهلوانةٍ على حَبْل، بذراعين مفتوحتين في قبضة كل يدٍ منهما ترسٌ، مُزمِعةً أن ترمي بالجسد الذي هي فيه إلى مسقط وجودها.

تراجعت آتيما عن النافذة. قضمتْ قضْمةً من التفاحة الحمراء. هزَّت أعطافَها من توالي الوهج صعوداً في رَنَم الموسيقا الموصولة نَفْخاً من أبواقٍ، وإيقاعاً خافتاً من نايٍ يُلابسُهُ طبل.

ضاعفت آتيما اهتزاز جسدها العاري إلاَّ من قبقاب في القدمين. ضاعفت من قضم تفاحتها ـ الثمرةِ تخيِّرَها العقلُ رئاسةً للغواية التي دحرجت الإنسانَ من الفردوس المُلفَّقِ إلى الخيبةِ الملفَّقة إثماً. رقصت بإيقاعٍ قوي كالقفز قصيراً على الأرض المعدن للمقصورة. صَلْصَلَ الصوتُ الحديدُ أجراساً تتناقر، وكثافاتٍ رنيناً تتناهش. تراجع الإيقاع منسحباً من لمس القبقاب للأرض إذِ انسحب نفخُ الأبواق في الموسيقى، تدرُّجاً حتى التلاشي. أوقفتِ الموسيقا، بصمتها، وحيَ الحركة. أوقفتْ آتيما رقصَها. نظرت إلى النافذةِ الكوَّة. رمتْها بالبقية القليلة من لُبِّ التفاحة المقضومة فتهشمت على الزجاج، مخلِّفةً بقعةً عكرةً في مركز الارتطام سال منها خيطٌ ضعيف، قصير، من العُصارة. أحسَّت دغدغةً على كتفها اليمنى. تحسَّستها فألْفَتْ شَعَراتٍ ساقطةً. خلَّلت شعرَها الأحمر، القصير، بأصابعها. جذبت بالسبابة والإبهام خصلةً رقيقة فانفصلت الخصلة، بلا ألم، عن فروة رأسها. أفلتتِ الشَّعَراتِ الحُمْر تترنَّح متمايلةً في نزولها إلى الأرض المعدن.

عمدت آتيما إلى خزنة الثياب فأخرجت سروالاً داخليًّا، أصفر، ارتدتْه؛ وقميصاً قطنياً داخليًّا، أبيض، يصل إلى أرْبيَّتَيْ فخذيها، لأكثر. مضت إلى ترسها. حملت من باطنه مفتاحَ المقصورة متصلاً برُقاقة معدن عليها حروف التذكير اليائس: .لاتنسَ مفتاحك داخلاً. لاتنْسَه خارجاً. واجهت الجدارَ الواسع يُلاصقُه السرير من جهة الوسادة عليه. صعدت بقبقابها السريرَ واقفةً. خطَّت، في صريرٍ مختنقٍ، بالمفتاح على الجدار المعدن: .أنا آتيما. لستُ ابنةَ أحد.

كان أثرُ الحروف باهتاً من مقاومة معدن الجدار للنقش عليه حكًّا بالمفتاح المعدن. أعادت آتيما تثبيت الخطِّ حزًّا على موضع الحروف مراراً، أثراً على أثر، حتى استبانت، قليلاً، ماكتبتْهُ رماديًّا فاتحاً في معدن الجدار الرماديِّ الداكن. نسختِ الجملةَ ذاتَها، ثانيةً، قرب الأولى. نزلت عن السرير ماضيةً بصريرِ مفتاحها هَتْكاً في المعدنِ الجدارِ، من حِفاف السرير حتى باب الحمام، الذي اكتفت بنقشِ اسمها عليه مفرداً لااتصال له بسياقٍ إلاَّ صوتها: .أنا آتيما.، كأنما تختبر الحَياءَ الرماديَّ للفضاء الرماديِّ معدناً. ابتعدت عن الجدار إلى

وسط الغرفة· تأمَّلت الحروفَ منقوصةَ البيان وضوحاً، لكنها تُرى· خَطَتْ صوب ترسها· وضعت الغليون في حقيبة الكتف· تنكَّبتِ الحقيبة· حملت الترس، وخلعت القبقاب· مشت حافيةً صوب باب المقصورة· فتحته خارجةً، وأطبقته خلفها· غلَّقتْهُ بالمفتاح دورتين طقَّتين· همَّت بالمغادرة ثم سكنت متفاجئةً: كان تُرس ليالو مسنوداً إلى الجدار قرب باب مقصورتها، بالرسوم الغيوم على خُضرة فراغه مضاءةً من وسطها بشعاعٍ كالرؤيا بزوغاً على أفئدة القدِّيسين· تلفتت آتيما إلى جهتيِّ الممر الطويل بين المقاصير خالياً، بعْدُ، في الفجر، إلاَّ من خادمٍ تحمل صحفةً عليها إفطارٌ طلبٌ مُبكر· حملت ترسَ ليالو بيدها الأخرى، ومضت صوبَ الخادم:

- أرأيتِ أحداً وضع هذا الترس إلى جوار باب مقصورتي، أيتها الشاحبة؟·

ابتسمت الشابة الخادم، الشقراء، الشاحبة، في ثوبها الرمادي القصير، وهي تنظر إلى قدميِّ الفتاة الصغيرة الحافيتين:

- أظنني لمحتُ حوريةً بخمس زعانف على ظهرها، أيتها العاريةُ الفخذين والقدمين·

حدَّقت إليها آتيما بلا استلطاف لجوابها· أكملت عبورها في الممرِّ لم تحسم أين تتَّجه تحديداً: أإلى مُشرَفِ السفينة محتجباً في الضباب البحريِّ، أم إلى الطبقة العليا تستجلي رسومَ المعرض كيف تبادلت الألوانَ، ذلك الفجر، وتعاوَرَتِ الأشكالُ الأشكالَ فيها، واستعارتِ الكثافاتُ وأعارت، أمْ إلى الطبقة السفلى تستعرض الألواحَ المعدنَ متدليةً بسلاسل من علياء باب المكتبة، بقاطنيها الجُددِ ـ كلماتٍ أزاحت أخواتها عن سُلطة المعنى، أو نَحَرتْها في مخادع الحروف؟ وصلت إلى الفسحة العريضة ـ المُسْتقَرِّ الذي يستبدلُ الركابُ فيه جهتَهم صعوداً على السلَّم الآلي إلى أعلى، أو هبوطاً إلى الطبقة السفلى· مسَّت بقدمها اليسرى، الحافية، الدرجةَ الأولى في السلمِ الحديدِ نزولاً، ثم رفعتها مرتدَّةً إلى الوراء من صعود الرجل الغريب، الأعمى، بترسه بلا لون عليه إلاَّ لون المعدن، تدفعه المرأة المترجمةُ دفعاً عنيفاً بترسها من ظهره·

كانا قادمين من الطبقة السفلى، ذلك الفجرِ المُنذِرَ بصباحه الوشيك· الرجل يتعثر بأحفَّة الدرجات، والمرأةُ تنطحه نَطْحاً، من الوراء، كأنما لاتريد السلمَ المتحرِّك أن يصعد بهما، من تلقاء حركته، بل أن تختصر المسافةَ القصيرة من الطبقة السفلى إلى الوسطى موئلِ الركاب في مقاصيرهم·

كان الغريب الأعمى يرفع قدماً عن دَرَجة ويضعها على درجةٍ أعلى في سوءِ تقديرٍ، فيصدم بها الحِفاف· وكانت المرأة المترجمة، كما زعمَ هيغور لآتيما، المثلثةُ الشفتين في انطباقهما، لإتأبه للشطط في صعوده مترنِّحاً من دفعها إيَّاه بترسها الشبيه بترسه رمادياً لارسمَ عليه، ومن العَجَلةِ تكلَّفتْها المرأةُ

لتنجز صعودهما ـ هما اللذان تبنَّتْهما آتيما أبوين صامتين ثلاثة أيام خَلَت من أيام الرحلة·

وصل الرجل ذو الوجه المتهدِّل اللحم عند الحنكين، والمرأة ذات العينين الخضراوين، إلى مُسْتَقَرِّ الدرجة الأخيرة حيث تقف آتيما، في الفسحة تتوزَّعُها ممراتٌ بين المقاصير· نظرت المرأة إلى الفتاة الصغيرة نظرةً متراجعة المعنى إلى حجاب الوصف· نقلت بصرَها بين الترسين في يديها وبين قدميها الحافيتين· صفعت رأسَ الرجل الأصلع من قَمَحْدُوَته براحة يدها تحثه على المشي، بانعطافٍ صوب الممرِّ المفضي إلى باب مُشْرَف السفينة· تتبَّعتهما آتيما ذاهبيْنِ على النحو ذاته من دفْعِ المرأة للرجل بظاهر ترسها المستطيل، ومن ترنُّح الرجل الصامت لايردُّ عن نفْسه الدَّفعَ، أو يتحامى عشواءَ بترسه الدائريِّ الفقير نَقْشاً إلاَّ من لون حديدهِ الرماديِّ·

لم تفتح المرأةُ البابَ، ذا الدَّفتينِ المتحركتين إلى خارجٍ وداخلٍ إنْ دُفِعتا، للرجل، بل صدمت به البابَ عبوراً إلى مُشرَف السفينة لايُرى في المحيط حولها إلاَّ الحاجزُ القضبانُ بليلاً من عَرَقِ الضباب، المُصارع بآلاتِهِ الضبابِ الرمادية·

بعد خطوات من قذف المرأة للرجل دفْعاً به، من ظهره، صوب حاجز السفينة، توقفت بوجهها إلى جهة البحر المُختطَف في شِباكِ الضباب· استقام الرجل، بعدَ ترنُّحٍ، بوجهه ـ كالمرأة ـ إلى جهة البحر، ساكناً في معطفه البني الرقيق القماش، الطويل حتى عَقْبَيْ حذائه الأسود· لم يلهث من اقتياده هكذا على عجلة، مُعنَّفاً في صمت؛ لم يلتفت أو ينعطف· كان يحصي، ببصره المرتدِّ إلى عَماء الصُّور، العيونَ التي تراه من غمام الشكل الأعظمِ ـ الشكلِ المفقود· دارت المرأة البالغة عقدَها الرابع من حوله، بعد توقُّفٍ قليلٍ وثَّقت به غايةَ الوجود تدويناً في سِجِلِّه المُعْضِل· قرَّبت فمها من أذنه· تمتمت كلماتٍ لم تسمعها آتيما، ثم تراجعت تنتظر انفعاله ممَّا قالته·

أرخى الرجل البالغ عقدَه الخامس، البدين قليلاً، يده عن ترسه· سقط الترس برنينٍ مكبوتٍ في ارتطام معدنه بالأرض المعدن· مدَّ ذراعه أمامه متلمِّساً ـ على نحوٍ لم تعهده آتيما متلمِّساً، كأعمى، خلاءَ المكان ـ بيده عبوراً لعينَيْ خياله المغلق على الصور المفقودة· مشى نصف خطوة، فصرخت به المرأة ذات الثوب الأسود، الطويل حتى أرساغ قدميها في الحذاء الأبيض:

- إلى أين أنت ذاهب؟·

كانت أول مرة تسمع فيها آتيما صوتَ المرأة واثقَ النَّبر آمراً· تقدمت صوب المرأة بسؤال لم يُفتِّق لسانُها، بَعْدُ، القشرةَ الرقيقة عن بزور حروفه، فأوقفتْها المترجمةُ بإشارة من يدها· عادت بوجهها إلى الرجل هاتفةً به من جديد:

ـ أليس لديك ماتسألني عنه؟· تعمَّدتَ، كل هذه الأيام من رحلتنا، أن لاتسألني شيئاً قط· تعمَّدتَ أن تمشي أمامي كأنك تدلّني على الموطِئ الآمن لأقدامنا في فراغ المكان·

نقرت آتيما بحِفافِ ترسِ ليالو، المستطيلِ، السطحَ المعدنَ لمُشْرَفِ السفينة تُلْفِتُ المرأةَ إليها· أدارت المرأة وجهها، في الشعر المصبوغ حُمرة على شُقرة، صوب آتيما· نطقتْ:

- أنتِ لستِ ابنةَ أحد· أنا لستُ ابنةَ أحد· مامن أنثى هي ابنةُ أحد· لاتتكلمي قبل أن أسألكِ الكلامَ·

تقدَّم الرجل نصف خطوة أخرى، لاغير، إلى حاجز السفينة، متلمِّساً بيد ذراعه الممدودة أمامه نقوشَ الضباب المُنحسِر، فانهالت عليه المرأة بحِفاف ترسها المستطيل ضربتين متلاحقتين أصابتا رقبتَه تحديداً· زفرَ الرجلُ مترنِّحاً زفيراً معدنيَّ النَّبر كلمس حذاءِ المرأة ترسَه الملقى أرضاً·

.اسألْني: أين نحن؟ اسألْني: أهذه سفينة؟ اسألني: مالون ثيابي؟ اسألني ماالذي أراه، أيها المختبئ في السخرية؟.، قالت المرأة الطويلة· صفعت وجهَه بظاهر ترسها·

قرعت آتيما الترسين، في يديها، أحدهما بالآخر، قرعاً خفيفاً كصنجيْن· مرَّغت باطنَيْ قدميها الحافيتين ببلل الأرض المعدن من رَقْدةِ الضباب عليه· ترنَّمتْ مطبقةَ الفم بصوتٍ مُحتبَس·

.أهذا صوتك أم صوتي؟.، سألت المرأةُ الفتاةَ الصغيرة· .لاتُجيبي إلاَّ حين أسألك.، أضافت· صفعت، ثانيةً، وجهَ الرجل فترنح من ثقل الحديد في ترسها· أمسكت بكتفه· شدَّتْه حتى بلغت به حاجزَ السفينة: .ضعْ يديك هنا.، صرخت به· وضعت إحدى يديه على قضيب من القضبان الثلاثة للحاجز· دارت إلى ناحيته الآخرى واضعةً يده الأخرى على قضيب الحاجز كالأولى·

.اسألْني مَنْ أنا؟ اسألني: من أنتَ، أيها المختبئ في لون ترسك؟.، ساءلتْه بصوت لايريد جواباً في الأرجح· صرخت: .لِمَ أسقطتَ ترسك؟ لم أنتهِ من أسئلتي بعد. رفعت ترسها بيديها معاً، عالياً، هي الأطول منه· انهالت بحفافه أربعَ ضربات متتالية على رقبته· تخاذلت ساقا الرجل فانحنتا· ثلاث ضربات أخر أخَرَّتْهُ جاثياً، مُسنداً جبينَه إلى قضيبٍ من الثلاثة في حاجز السفينة، على استدارة مُشْرَفها·

.اسألْني: أين نحن؟ اسألني شيئاً عن هذه الرِحلة؛ عن قبطانها هيغور؛ عن الطعام الأطيب مذاقاً على موائد الغداء؛ عن الشحوب الذي ينظر إليك من جلودنا؛ عن لهب الحمَّامات لاسعيرَ فيه يُنعش الجلود؛ عن التاريخ الذي استحمَّ أول كائن من نوعنا فيه باللهب؛ عمَّا أفعله بك الآن· اسألْني مالم تسأل أحداً

قبلي.، قالت المرأة ذات الوجه المستدير، الناعم في شحوبه الخشن· التفتت إلى آتيما: .لاتعرفين، بالطبع، اسمَ هذا الرجل· لاتعرفين من أين هو· لاتعرفين اللغة التي يتكلمها. استدركت: .أم هو لايتكلم قط؟. صفعته بالترس: .نلتُ أجراً على الترجمة له من لغتنا إلى لغة لم يقولوا لي ماهي، ولم أسألهم ماذا تكون· لم يخبروني أنه أعمى· هيغور أخبرني.، قالت لاهثةً في عياء· .ألَحَظتِ أنه أعمى، أم يتصنَّع العِمى؟. صفعتْه من جديد بالترس على رأسه، صارخةً: .تكلَّمْ. أشارت إلى آتيما واضعةً إصبعاً على فمها طالبةً منها السكوتَ· .تعالي· اضربي أباكِ السابق بالترسين. ابتسمت· .لاتتكلمي. نظرت إلى يدي آتيما: .لِمَ تحملين ترسين؟. لم تنتظر ردَّا· همستْ: .لاتتكلمي.

اقتربت آتيما من الرجل الشاحب في سُمرة بشرته الفاتحة جاثياً، مُسْنِداً جبينَه إلى قضيب من قضبان الحاجز الثلاثة المتوازية· لمست بترس ليالو كتفه كأنما توقظه· تمتمت:

- قلْ شيئاً·

لمست المرأة الطويلة كتف آتيما بترسها: .لاتتكلمي.، غمغمت· هوت بحافة الترس، مرات متتالية، على فروة رأسه: .لاتقلْ شيئاً· ابقَ صامتاً. كررت الكلمات في كل ضربة·

سال خيطٌ من الدم على جانب وجهه الأيمن· شدَّته المرأة من كتفه في محاولة لإنهاضه من غير جدوى· .اقتربي.، قالت لآتيما· .ساعديني على الإلقاء به في البحر.

تقدمت آتيما· انحنت على الرجل ثم رفعت وجهها إلى المرأة الطويلة، الخضراء العينين:

- لن أتمكَّن· معي ترسان·

.تخلَّي عن أحدهما، ياآتيما.، قالت المرأة الطويلة آمرةً·

أسندت آتيما ترس ليالو إلى حاجز السفينة· أمسكت بالرجل من تحت إبطه· نظرت جانبيًّا في انحناءتها إلى المرأة الطويلة:

- أنتِ لم تُجْهِزي عليه بعد· أليس الأفضل أن تقتليه أولاً؟·

.مافعلتُ به يكفي.، ردَّت المرأة· .ساعديني على إنهاضه.

جاهدت آتيما والمرأة، معاً، في رفع الرجل واقفاً على قدميه فلم تقدِرا على ذلك، كلٌّ بيدٍ واحدة· لهثتا إعياءً· تركت المرأة كتف الرجل· استقامت متطلعة حولها في الضباب المتراجع مهزوماً· .إبقي هنا.، قالت لآتيما· غادرت مسرعةً إلى الباب ذي الدفتين· دفعت بهما معاً ودخلت جوفَ السفينة·

ظلت آتيما وحدها مع الرجل الجاثي صامتاَ، بخيطين من الدم بلغا، من جهة وجهه اليمنى، عنقَه، وانحدرا إلى طوق صدر عباءته· انحنت عليه· لمست كتفه· تمتمت: .أأنت أعمى حقاً؟. وضعت ترسها الدَّرَقَةَ، ذا رأس الثور رَسْماً نافراً عليه، بين فخذيها العاريتين· أخرجت غليونها من حقيبة الكتف· حَشَتْه عشباً وأشعلتْه· نفثت من فمها دخاناً على رأس الرجل· .أتريدني أن أشعل لك غليونك؟. استندت بكتفها إلى حاجز السفينة القضبان الثلاثة المتوازية· استنشقَت نَفَساً من دخانها الأبيض ذي الذاكرة البيضاء· حدَّقت إلى الرجل من علیائها مشرفةً عليه بوجهها: .أجئت حقاً من أجل رقصة حورية لاتستطيع أن تراها، أم من أجل أن ترمي بك هذه المرأة إلى البحر؟. نظرت إلى البحر تستعير منه إضافةً إلى قولها: .أعني أمي السابقة، ياأبي سابقاً. استدارت بعينيها إلى ترس ليالو مسنوداً باستطالته المجوَّفة إلى حاجز السفينة: .أين أنتِ ياأُمَّا سابقةً أيضاً من جَمْعِ أمهاتي؟.، تساءلت، ثم تطلعت إلى الباب ذي الدفتين تُفتحان على خارج وعلى داخل: .ماذا تفعل مترجمتُكَ، ياأبي سابقاً؟ لمَ أبقتني وحدي معك؟· لاأحد على مُشْرف السفينة بَعْدُ، هذا الصباح. تطلعت صوب الضباب المتراجع بعيداً في الصباح البليل، لكنِ الدافئِ أيضاً· .سيكون اليومُ مشمساً.، قالت آتيما· .أتحبُّ الأيام المشمسة؟.، ساءلت الرجل الجاثي· صرخت به:

- أنا لاأحبُّ الشمسَ أمَّ القُمامة·

نثرت آتيما الرمادَ من جُوْرة غليونها على الأرض المعدن، فاصاب بعضُ نِثارهِ قدميها المبتلتين· مرَّغت إحديهما في الرماد المبتلِّ ترسم به دائرةً· حدَّقت إلى الرجل الجاثي· لَحَظْته يرفع وجهه صوبها، ناظراً إليها بعينيه البنيَّتين متأمِّلاً، بلا ألم في قَسماته· انحنت آتيما· حاصرت عينيه، تحديداً، ببصرها· رأت صورةَ وجهها على حدقتيهما معاً: .لاتتصنَّعْ أنك لاتراني الآن.، قالت همساً· سمعت صَفْقَ دفتيِّ الباب الحاجز بين جوف السفينة ومُشْرَفها· رأت المرأة قادمة يتبعها شابٌّ شاحب، من خُدَّام القبطان هيغور، بارز العظام في جلد وجهه، يحمل ترسه المستطيلَ ذا الرسمِ الملاك يخنق ملاكاً·

.هذا هو.، قالت المرأة للشاب بصوتٍ عجول كحركة جسدها· اقترب الشاب من الرجل الجاثي، المتطلِّع بعينيه إلى آتيما تحديداً· وضع يده الحرَّةَ تحت إحدى إبطيه· وضعت المرأة يدها تحت الإبط الأخرى: .ساعديني ياآتيما.، تمتمت، فانبرت آتيما إلى إعانتهما مطوِّقةً بذراعها خصرَ الرجل·

أوقف الثلاثةُ الرجلَ على قدميه، متكئاً بصدره على حاجز السفينة البالغ سُرَّته ارتفاعاً· ضغط الشاب على جذع الرجل العُلويِّ فأحناهُ ببطنه على حِفاف الحاجز: .ادفعيْه من ظهره.، قال لآتيما، فوضعت آتيما ظاهر تُرسها على ظهر الرجلِ دفْعاً بيديها معاً، فيما تولَّت المرأةُ، والشابُّ، رفعَه ممسكيْن بفخذيه·

انحنى جذع الرجل في اتجاه البحر· تنفَّس الثلاثةُ عميقاً، ثم احتبسوا أنفاسهم كتصميمٍ منذرٍ بالحسم· أمالوا الرجلَ كليًّا صوب الأسفل· أرْخوا أيديهم عنه فهوى·

خفض الشاب رأسَه للمرأة علامة العون المُنْجَز· استدار، في صمت، مبتعداً كأنْ تأخر عن شأنٍ ينتظره· انحنت آتيما على حاجز السفينة تستطلع مهوى الرجل من المياه· لم ترَه· زبدٌ من شَقِّ السفينةِ الماءَ شَقًّا هادئاً، لاعجلة فيه، نثر بذارَه على جنبها فأنبَتَ البَذْرُ زبداً، من فوره، فحصدَه الزبدُ·

استدارت آتيما إلى المرأة الطويلة تملأ جُورة غليونها عشباً أبيض، وقد ضمَّت فخذيها، في ثوبها الطويل، على ترسها·

.مانكهة عشبك؟.، سألتها آتيما، فردَّت المرأة:

- نكهة الغرق·

.ضعي في غليوني شيئاً منه.، قالت آتيما·

مدَّت المرأةُ علبةَ العشبِ الصغيرةَ، الفضيَّة، إلى آتيما:

- إملأي غليونك·

حشت آتيما غليونها عشباً من علبة المرأة· أشعلته بالقدَّاح بعد ضمِّ فخذيها العاريتين على ترسها· تنشَّقت نفَساً من الدخان عميقاً· أغمضت عينيها: .لِمَ لم أسألك، قَبْلاً، شيئاً من هذا العشب؟.، تمتمت متسائلة· فتحت عينيها العسليتين على صُفرةٍ:

- تبنَّيتُكِ أُمًّا ثلاثة أيام مَوَاضٍ من أيام رحلتنا هذه، ولم تتفوَّهي بكلمة· أين كنتِ تخبِّئين صوتَك؟·

نفثت المرأة دخاناً من فمها ومنخريها معاً، متطلعة إلى آتيما في صمت· استدارت مغادرة· أطبقت آتيما أسنانها على غيونها· حملت ترس ليالو· هرعت تسبق المرأة إلى الباب ذي الدفتين· فتحته لها ضغطاً بالترسين في يديها، معاً، وأبقت جسدها حاجزاً على إحدى الدفتين كي لاتنغلق: .تفضلي.، قالت، فدخلت المرأة· لحقت بها آتيما خطوتين· جاورتها متكلمةً والغليون بين أسنانها:

- ماسمُكِ؟·

لم تردَّ المرأة الطويلة· انعطفت إلى ممرٍّ بين الغُرفِ المقاصير· توقفت آتيما· تابعتها ببصرها مبتعدة، نصفَ برهة، ثم اتجهت إلى الفسحةِ المُسْتَقَرِّ يبدِّل منها الركاب اتجاههم على الأربعة السلالم الآلية، كلٍّ اثنين متوازيين، متعاكسيْنِ حركةً إلى أعلى وإلى أسفل· أسلمت قدميها الحافيتين للسلم النازل إلى الطبقة السفلى· ترنَّمت بصوتٍ محتبس في فمها المطبَقِ الأسنان على الغليون منتشياً بدخانه·

فوجئت آتيما بذلك الحشد في ردهة الطبقة السفلى من السفينة، حول قاعدة العمودِ الأسطوانةِ الضخم· وفاجأها أكثر صمتُ الحشد الخاشع متحرِّكاً في خَرَسٍ·

كانت بقايا طائفة نايورا، وبقايا عمال القبطان هيغور وخدَّامه، تتَّخذ أماكنَها حلقةً واسعة، متقطعة أقواساً، من حول نايورا وهيغور متواجهين بترسيهما، بالغيْنِ مبلغَهما شحوباً، بعظام بارزة في وجناتهما، وتقلُّصٍ للشفاه عن الأسنان·

لايعرف أحد منذ متى كان الرجلان هناك، في هيئتيهما المتأهبتين لعراكٍ مَّا، ذلك اليوم الجديد من أيام الرحلة الموشكة على بلوغ موضع ظهور الحورية راقصةً· مامن أحد من ركاب السفينة كان في الردهة الشاسعة، بَعْدُ، بالرغم من تقدُّم الصباح على جبهة الوقت· آتيما اتَّخذت لوجودها في المشهد موضعاً إلى جوار شابة من خدَّام هيغور، ببصرها على الرجلين في وسط الحلقة الكبيرة، يتهامسان متقاربيْنِ بوجهيهما· وضعت ترس ليالو بين فخذيها· باعدت فكَّيها عن الغليون· لم تُعدْه إلى حقيبة كتفها، بل دسَّتْه في النِطاق المطاط لسروالها الداخلي، الأصفر، ظاهراً من نهاية قميصها القطني القصير، الضيق، البالغ ردفيها طولاً· حملت ترس ليالو من جديد· أمالت رأسها صوب الشابة الشقراء، الشاحبة، ذات الثياب الرمادية: .عمَّ يتهامسان؟.، ساءلتها·

أدارت الشابة وجهها إلى آتيما· تأملتها قليلاً: .عن إغراق السفينة.، ردت تمتمةً·

أبقت آتيما بصرَها على وجه الشابة غائرةَ العينين الزرقاوين في وَقْبيهما· ساءلتها ثانية:

- هل سيقتل أحدُهما الآخرَ؟

لم تُجب الشابة· صرفت بصرها إلى جهة السلم الآليِّ هابطاً بالبعض الأوائل من الركاب الشاحبين، الظاهري التعب، قادميْنَ للإفطار، ربما، في المطعم· تراجع نايورا خطوتين عن هيغور كأنما يرسم حدوداً جديدة لحركته· استدار إلى الشبان ـ البقايا الناجين من عائلة الشطرنج· دار عليهم ببصره من وجهه المتطاول، المُهْمَل الحلاقة: .قرأتُ هذه البرهة في النجوم. قال بصوته العميق المُتمهِّل، والمتعَب أيضاً· .لاأتذكر أنني رأيت بحراً مذ صعدتُ سفينةَ هيغور، لكنني رأيــت نجومــاً، فــي الأعالــي، لاتكــون إلاَّ فوق البحر. نقر بأصبعه على ظاهر ترسه الدائري الضخم، ذي المسنَّنات الأنياب البرتقالية على استدارته· .حلمتُ حلماً احتبسَتْ أنفاسي من مُذْهِلِــه.

.تتحدث عن النجوم كعرَّاف، يانايورا.، قال هيغور· فتجاهل نايورا تعليقه· ساءله:

- ماذا كان حلمي، تحديداً، ياهيغور؟·

.كان حلمي ذَاته، يانايورا.، ردَّ القبطان·

.ماذا كان حلمك، ياهيغور؟.، ساءله ذو الحذاء الأبيض برُقعٍ بُنية، فردَّ القبطان:

- هذه الردهة الفسيحة· هذا العمود الأسطوانة بالرسوم النافرة للوجوه الغِضاب عليه· هذان السلَّمان الآليان، المتوازيان كالوقت في رحلتنا ذهاباً وإياباً· هؤلاء الركاب الشاحبون، الذين أفاقوا اليوم متأخرين· هذه الفتاة الصغيرة الميتة·

.أنا؟ أنا آتيما.، تمتمت الفتاة الصغيرة في استغراب من إشارة هيغور بيده إليها، وبلسانه إلى وصفها· رفعت صوتها:

- إن كنتُ ميتةً فكلُّكم موتى، أيها القبطان·

.هذا ماعنيتُه.، قال هيغور، في كلمات ألقاها من بصره إلى بصر نايورا·

.تعني أن المكانَ غريقٌ.، تمتم نايورا مقترباً من هيغور ثانيةً: .فلْنبدأْ.، قال· تحامى بترسه متهيئاً لاحتمال أن يناوشه هيغور، أو أن يصدمه·

أرخى هيغور ذو الانحناءة الخفيفة في الظهر، يدَه بالترس المثلث، ذي الرسمِ الدِّيك، إلى جنبه· بدا كالمتدبِّر خططاً للموقف وهو يجول بعينيه على خدَّامه وعماله· غمغم: .عبيدي· أيها الشاحبون. ابتسم مثبتاً عينيه على نايورا· غمغم ثانيةً: .أيها الشاحب، ياسليلَ حِيلِ الشطرنج، لماذا لانستمتع باستنشاق دخان من غليونينا قبل أن نبدأ؟.

.ليكُنْ.، ردَّ نايورا·

في لحظاتٍ حضر غليونا الرجلين محشوَّين عشباً مشتعلاً، يحملهما شاب من قبيلة الشطرنج، وشابة من خدَّام السفينة· تنشَّق نايورا وهيغور نَفَسين طويلين، في أناةٍ متزَفة، من دخان السماء المحترقة في غليونيهما· أثبت كلٌّ بصرَه على الآخر، صامتيْنِ حتى آخر قطرةٍ مُستنْزَفَة من خيال الرماد· أعادا الغليونين إلى من جاءا بهما· تباعدا قليلاً متهيئين بترسيهما مرفوعين حتى صدريهما· أرخى هيغور جوارحَه المشدودةَ فجاءةً، مُسْتمهِلاً خصمَه نايورا·

.ألسنا هنا على رغبة في أن ينتهي العراك بوليمة من لحمٍ نيءٍ، يانايورا؟.، سأل هيغور دِهْقانَ قبيلة الشطرنج·

أرخى نايورا، بدوره، جوارحَه المشدودةَ تأهُّباً: .ثم ماذا، ياهيغور؟.، قال·

.لماذا المُقارعةُ، والضرْبُ بالترس، يانايورا؟ لديَّ اقتراح لإعادة الاعتبار إلى الألم بتكريمه.، قال هيغور· رازَ بعينيه خيالَ خصمه·

.ماتكريم الألم، ياهيغور؟.، ساءله نايورا، فردَّ القبطان بصوته الخشن:

- قدرتُنا على احتمالهِ·

.أتختبرُني ياهيغور؟.، سألهُ نايورا باستخفاف· أردفَ: .هاتِ اقتراحَك.

صمت هيغور برهةً يستقصي الثِّقلَ في ميزان فكرته· عدَّل نظارته على قصبة أنفه:

- فليقتطعْ أحدُنا من لحم الآخر مضغةً، بالسكين، مناوبةً، وليأكلْها· مَنْ يهزمْهُ الألمُ أوَّلاً يُذْبَحْ· أتقْبل؟·

.أقبلُ.، ردَّ نايورا من فوره، بلا عَرْضٍ للتفصيل على نَقْدِ خياله للتفصيل·

استدار هيغور إلى أحد خُدَّامه:

- فلْيأتنا الطاهي سِيْنون بسكينين رهيفين سنَّهما توَّا·

وضعت آتيما ترس ليالو بين فخذيها العاريتين تريح ذراعَها من ثقله· لفَتَها، بازدياد عدد الركاب، شاحبيْنَ ومرهقين، مجيءُ ناؤمي، وليمسا، وسيميال، الذي استعادَ هيئةَ الأنثى ـ الأهدابَ الشقرَ المستعارة، والجدائل الكُثر مضفورةً من فَرْق رأسه، والشفتين مصبوغتين، والتزويق الظلالَ حول عينيه الغائرتين في وَقْبيهما كسائر العيون، في السفينة، غارت منحسرةَ الكُرات إلى أعماق الجماجم· كما ارتدى ثوباً قصيراً من ثياب النساء، رمادياً، ظاهرَ الفخذين المفتولين في شحوب جلديهما·

حملت آتيما ترس ليالو بيدها الأخرى· خَطَتْ صوبهم· وقفت قبالتهم وهم يستطلعونَ المشهدَ مستفسريْنَ بأبصارهم· .ياسيدة ليمسا، وياسيدة ناؤمي· أتبثَّاكما اليومَ أُمَّيْن لي، وأتبنَّى السيدَ سيميال أباً.، قالت·

نظر سيميال إلى فخذي آتيما العاريتين، ظاهرةَ السروالَ الداخليِّ الأصفر من حِفاف قميصها الضيق، القصير، الأبيض نسيجاً قُطناً· نزل بنظرته إلى قدميها الحافيتين· تمتم:

- أتتهيئين للركض في مضيق رغبتي، ياآتيما؟·

لكزتْه ناؤمي بمرفقها تقوِّضُ من أناةِ نظرته المتمهِّلة لمساً، بأناملها المائة، كيانَ الفتاة الصغيرة· صوَّبت كلماتها إلى آتيما:

- لماذا تحملين ترسين؟·

.هذا الآخر ترس أمي القتيلة ليالو.، ردَّت آتيما وهي ترفع الترس المستطيل بالرسوم الغيوم عليه، في ثقلٍ·

اقتربت ناؤمي من آتيما حتى لامستها، أو كادت· داعبت بيدها الشاحبة شعر الفتاة السَّبْطَ، الأحمر، القصير:

- سأفصِّل لك، بنفْسي، ثوباً ياآتيما·

.أيُّ طراز في التفصيل ألهمك حمَّامُ الصباح الباهتُ اللهب، ياناؤمي؟.، ساءلتها صديقتها ليمسا وهي تطوِّق بذراعها خصرَ سيميـــال، الــذي انحنى، من فوره، فلحس بلسانه شفتيها اختلاســاً٠

حدَّقت ناؤمي إليهما من وجهها المستدير يوزِّع الشحوبُ الظلالَ على قسماته: .لن تُبقي من شفتيها شيئاً، أيها النمر٠ أنت تلعقهما منذ الفجر٠ ستمَّحيان.، قالت بصوتها الخشن ازداد صلْصَةً في فمها المنتفخ الشفتين الداكنتين٠

نفخ سيميال من فمه نَفَساً هواءً كأنه يُبعد ناؤمي٠ طوَّق بذراعه عنقَ ليمسا، التي عادت إلى سؤالها:

- ماذا ألهمك حمَّامُ اللهب الباهت، هذا الصباح، من خططٍ لتفصيل الأزياء؟٠

دارت ناؤمي ببصرها على الحضور في الردهة الفسيحة من حول العمود الضخم:

- ألْهمني تفصيلَ قمصان، وسترات، مغلقة بلا أزرار٠ كلُّ قميص وسترة بكُمٍّ واحد، وفُتحة ضيقة لاتتسع لخروج الرأس٠ أريد أن أرى بشراً، في الطرقات، عليهم الثيابُ هذه كأنهم خرجوا من بيوتهم من غير أن ينجزوا ارتداءَها٠

.لكِ، هذا الصباح، خيالُ إدارة السجن في جنوب العالم.، قالت ليمسا٠

.لي خيالُ تأديب البشرية.، ردَّت ناؤمي وهي تحاول إرخاء ذراع ليمسا عن خصر سيميال٠

رفع سيميال ذراعَه المطوِّقة عنقَ ليمسا، وشدَّ بها ناؤمي صوبه، بغتةً٠ طوَّق عنقَها٠ أطبق على فمها بفمه في قبلةٍ عضٍّ٠ أطلقها: .أدِّبيني.، قال تمتمةً٠

تباعدت بعض الأجساد المتقاربة حلقةً بشرية واسعة، في ردهة السفينة السفلى الواسعة٠ عبر الطاهي البدين بالوِزْرة الزردِ الحديد الطويلة عليه، من عنقه حتى ركبتيه، إلى حيث يتواجه نايورا وهيغور٠ .معي ماطلبتَ، أيها القبطان.، قال٠ .سكِّينان شفرتان.، لمس براحته جرَاباً معدنياً، عريضاً، ضيقَ الجوف كجيب يتسع لشفرات السكاكين، فيما تبقى مقابضُها ظاهرةً من أحقَّته٠ كان الجراب معلَّقاً بحلقتين إلى حزام بنطاله فوق الخاصرة اليمنى، فيه اربعةُ سكاكين مستقرةٌ بمقابضها الفضة، يجاور الجرابَ كَلْبَتانٌ مِلْقطٌ حديد، يتدلى من حلقة ثالثة٠

بدأ هيغور بفكِّ أزرار قميصه الخارجي واحداً واحداً٠ نزعَه عنه بعد نقلٍ لترسه من يدٍ إلى أخرى٠ نزع قميصَه الداخلي الأبيض٠ فكَّ أزرار بنطاله٠ أسقطه أرضاً عالقاً بحذائه٠ خلعَ الحذاء صَكًّا للفردة اليسرى باليمنى٠ أخرج قدميه بالجوربين الأسودين من الحذاء٠ أنزل تِكَّةَ سرواله الداخلي القصير٠ أسقطَ السروالَ أرضاً٠ وقف عارياً بتمامه، ظاهرَ الانحناءة العظم في فِقَرات عمود هيكله٠

حجب بالترس ملتقى فخذيه· ابتسم: .دورك الآن، يانايورا· أمْ تريد أن يسترك الطاهي سينون بترسه؟.

نظر نايورا إلى ترس الطاهي الكبير، السداسي، برسمٍ عليه من ستة وثلاثين سكيناً، طُرُزاً أشكالاً من صناعة الحُذَّاقِ الحدَّادين لِطهاة مطابخ الملوك· غمغم: .فلْيحجبْ مؤخرتك الأنيقة بترسه، ياهيغور. فكَّ أزرار سترته السوداء: .في كل يوم نذهب بالحِيَل عاريةً إلى لَعِبِ الشطرنج، ونرجع بها مكتسيةً خُططاً· الشطرنج، ياهيغور، سريرُ الفكرة العارية· نحن، أهل الشطرنج، نخرُجُ من عُرْيٍ لندخل عُرْياً بلا حجاب· إنْ نتعرَّ نحتجِبْ.، قال مكملاً نزعَ ثيابه قطعة قطعة، مع نقْل ترسه من يد إلى أخرى· وقف بجسده الطويل الممتلئ قبالة هيغور·

جثا هيغور على ركبتيه فوق الأرض المعدن· جاراه نايورا جاثياً· غمغم:

- مَنْ يبدأ أوَّلاً؟·

.فلْنقتَرعْ.، ردَّ هيغور·

.كيف؟.، تساءل نايورا·

.على أيِّ نوعٍ أردتَ قُرْعةً، يانايورا، أردتُها أنا أيضاً.، ردَّ هيغور·

دار نايورا بوجهه على المحيطين الشاحبين بهما حلقة شاسعة:

- مَنْ لديه فكرةٌ عن قُرْعة؟·

انحنى عليه الطاهي سينون:

- في جرابي أربعة سكاكين مختلفة الأطوال· مَنْ يستلُّ الأقصرَ يبدأْ·

تطلَّع كلٌّ من الرجلين إلى الآخر يتأكد من قبوله اقتراحَ الطاهي، فاعترض نايورا عن شكٍّ ساوره:

- ربما تعرف، ياهيغور، أطوالَ السكاكين التي مع طاهيْكَ·

.لاأعرفها.، رد هيغور· .لكنني أقبل أن يَسَلَّ شخصان سكِّينين، من هؤلاء الحضور.

.هذا مُنْصِف.، قال نايورا· .أنا أختار الشخصين.

.إختَرْ.، ردَّ هيغور·

ألقى نايورا بصَره إلى الجمْع فألفى القزمَ ملكاه يشقُّ موضعاً له بين الحضور: .أختارُ هذا.، قال· نقل عينيه عن ملكاه فاستقرَّتا على آتيما غير بعيدة عنه: .وأختارُ هذه.

جلب الطاهي سينون، بنفسه، ملكاه وآتيما· قادهما إلى وسط الردهة الفسيحة حيث جثا الرجلان·

.من ينوبُ عنكَ في سلِّ سكين، يانايورا؟.، سأل هيغور دِهقانَ قبيلة الشطرنج، فردَّ:

- أختار القزم·

.حسناً· لاخيار لي إذاً.، قال هيغور· .آتيما تنوب عنِّي.

انحنى الطاهي على الرجلين الجاثيين: .أتريدان شراباً؟.، ساءلهما·

.أريد ماءً.، ردَّ نايورا·

.وأنا أيضاً.، قال هيغور·

أومأ الطاهي إلى ملكاه، وآتيما، أن يسَلاَّ من جِرَابه المعدنِ الرقيق سكينين· استدار بجنبه إليهما·

سلَّت آتيما سكيناً من الجراب، عريض الصفحة، طويلاً· وضعته في يد هيغور·

سل ملكاه سكيناً رقيق الشفرة، أقلَّ طولاً من سكين آتيما· وضعه في يد نايورا·

جذب الطاهي من حلقة حزامه كَلْبَتَاناً مِلْقطاً، صغيراً، كالعارف ماتقتضيه اللعبةُ الدموية· جثا على ركبتيه كالرجلين· نظر إلى نايورا، الذي منحتْه القُرْعةُ حظوةَ السَّلْخ الأولى:

- من أيِّ عضوٍ في جسد القبطان تريد مُضْغةً، ياسيد نايورا؟·

.الكتف.، تمتم نايورا بصوته المتمهِّل، العميق·

أطبق الطاهي فكَّيِّ الكَلْبتانِ على مقدارٍ مايتسع الفكَّان له من لحم كتف هيغور اليمنى· شدَّهُ فمطَّه· بتر نايورا بسكِّينه القصير مُضغة من اللحم حملها الطاهي، بملقطة الكُلْبتانِ، إلى فم دهقان قبيلة الشطرنج·

لاكَ نايورا المُضغة بأناةٍ، محدِّقاً من عينيه الزرقاوين، الغائرتين في وقبيهما، إلى وجه هيغور المتمالك قسماتِه الشاحبةَ لجْماً للألَم· سالَ الدَمُ حتى تقطَّرَ من مرفَق ذراعه·

ابتلعَ نايورا المُضغةَ· رفع الطاهي قدحَ ماءٍ حديداً إلى فمه فسقاه، مذ باتت يدا نايورا مشغولتين، إحداهما بالسكين، والأخرى بالترس· تنفس عميقاً·

.أيُّ عضوٍ من جسد السيد نايورا تريد؟.، سأل الطاهي سينون قبطانَ سفينته·

.الكتف.، ردَّ هيغور·

شدَّ الطاهي من لحم كتف نايورا اليمنى قدْرَ ماأطبق فكّا الكَلْبتان عليه· مطّه، فاقتطع هيغور بسكينه مضغةً· رفع الطاهي المضغة بين فكَّيِّ الكلبتان إلى فم هيغور· لاكَها القبطانُ بأناة· طلب أن يُسقى فسقاه الطاهي رشفةً من القدح الحديد·

مِثل هيغور كانت المُكابرة على أشدِّها في وجه نايورا· غمغم:

- أريد قطعةً من لحم ثَندُوَةِ هيغور اليسرى·

مطَّ الطاهي ماقَدِرَ فكَّا الكلبتانِ أن يطبقا عليه من ثدي هيغور الأيسر، قريباً من قلبه· اقتطع نايورا مضغةً· لَاكَها وازْدردها، فسقاه الطاهي رشفة من ماء القدح، بعد أن علَّقَ الكلبتان المِلقطَ إلى حلقة في حزامه·

تنشَّق هيغور نفَساً شهيقاً، مكبوتاً· زفرَ الهواءَ على حُرْقة مستورة في ملامحه· أومأ إلى الطاهي:

- مَكِّنْ سكِّيني، ياسينون، من لحم العاتق·

مطَّ سينون الطاهي، بالملقط الكلبتانِ، قَدْرَ ماالتقطه الفكَّان الحديدان من اللحم، بين أصل كتف نايورا اليسرى وعنقه· أنَّ نايورا·

مضغ هيغور اللقمة طويلاً بأسنانه، من غير أن يرفع عينيه، في نظَّارته الرقيقة، من عينَيْ نايورا، الذي يصغره بنصف عقدٍ، في الأرجح·

تراجع ملكاه، الذي لم يزل قريباً من الرجلين والطاهي، منذ اختار سكيناً في القُرعة· شدَّ آتيما من كتفها، فتراجعت بدورها خطواتٍ· نظر إلى يديها:

- لماذ تحملين ترسَ ليالو؟·

.وجدتُه على باب مقصورتي، هذا الفجر.، ردَّت آتيما·

.أين جثة ليالو؟.، سأل ملكاه الفتاةَ الصغيرة، فردَّت:

- لاأعرف· أأُلقِيَتْ إلى البحر؟·

.لم أخرج من مقصورتي منذ ثلاثة أيام.، قال ملكاه·

نظرت آتيما إلى رأس ملكاه الكبير· ضمَّت فخذيها العاريتين على ترس ليالو· أمَرَّتْ راحةَ يدها على شعره الأسود، القصير:

- أعِرْني شفرةَ حلاقة، ياملكاه·

.شفرة حلاقة؟.، تمتم ملكاه، رافعاً وجهه الشاحب إلى وجه الفتاة الصغيرة· .ماذا ستفعلين بشفرة حلاقة؟. ضيَّق بين أجفان عينيه:

- أستذبحين أحداً؟·

.لا.، ردت آتيما·

.لماذا تريدين شفرة حلاقة؟ لاشعر على جلد إبطيك· لاشعر على جلد عانتك. ارخى بصرَه إلى سروالها الداخلي، الأصفر، والفخذين العاريتين· لهث غُلمةً منتعِظَ الخيال: .كلُّ خليةٍ فيَّ ستنفجر مَنيًّا.، غمغم· استدار مغادراً على عجلٍ: .سأبحث عن جثة ليالو.

.ماذا عن شفرة الحلاقة؟.، ساءلته آتيما·

.سآتيكِ بشفرة حلاقة.، ردَّ ملكاه يتبَعُهُ صوتُه·

.أوه.، غمغم نايورا للمرة الأولى، بصوتٍ نازف، حين اقتطع هيغور مضغَةً من لحم حَقْوِه، رفعها الطاهي بالكلبتانِ الملقطِ إلى فمه·

كان الدمُ أكثر عجرفةً من أن يُوصف على جسديِّ الرجلين· لونُهُ، قرمزيًّا، حصدَ من حقلَيْ جلديهما بعضَ الشحوب القوي، وغطّى ماحصد· توسَّع استيلاءً بزحف لونه من عاتقيهما وكتفيهما، وثندوتيهما، إلى ركابهما الملتصقة بالأرض المعدن في جُثوّهما، قبل أن يطلب نايورا من الطاهي أن يُمكّن سكّينه من خدِّ هيغور الأيسر·

ارتعشت ركبتا هيغور: .لم أحتسِبْ أن يكون لحمُ الوجه خياراً، يانايورا.، قال كأنه خُدِع، فردَّ نايورا:

- لم اسمع منك أنك استثنيت موضعاً من البَتْرِ·

زفر هيغور· تمتم:

- ليكُنْ·

التقط الطاهي سينون بالكَلبتانِ خدَّ هيغور الأيمن، الضامر اللحم تحت الجلد· مطّه، فاقتطعه نايورا بسكينه الرقيق الصفحتين: .مرِّغْ هذه القطعة في قليل من الدم، أيها الطاهي.، قال·

مرَّغَ سينون قطعةَ اللحم في الدم سائلاً من خدِّ هيغور· نقلها بالكَلبتانِ إلى فم نايورا·

ابتسم هيغور ابتسامةً متشققة جَفافاً في شحوب وجهه: .لم يكن مؤلماً كما توهَّمتُ.، قال· أومأ إلى الطاهي:

- التقط لي بكلْبتانك شيئاً من عضلة العنق، أسفل الحنك الأيسر·

غمغم نايورا استياءً:

- أمزمعٌ أنت، ياهيغور، على قطع وريدي؟·

.لاتَخَفْ.، ردَّ هيغور· .أريد أن أتذوَّق بعض العروق.

.أنت تستنزفني دمي على عجل، ياهيغور.، قال نايوا مرتجفَ الشفة العليا، الأكثر امتلاءً من السفلى·

لم يردَّ هيغور· أومأ إلى الطاهي، الذي قبض بالكلبتانِ الملقطِ على عضلة العنق، عند أصل الحنك· مطَّها مطًّا شديداً ارتجف منهُ كيانُ نايورا·

اقتطع هيغور ما أمكنه بسكينه من عضلة عنق نايورا· نفر الدمُ قويًّا· قرَّب الطاهي المضغةَ من فم هيغور بكلبتانه الملقط، فهرعت إليه شابة من خُدَّام السفينة تستوقفه: .انتظرْ، ياسينون.، قالت· انحنت على القبطان:

- فلتكنْ هذه اللقمةُ لي·

رفع هيغور وجهه المجوَّرَ الخدِّ الأيمن، المتصل النَّزْفِ خيطاً عريضاً متعرِّجاً على لحيته المدبَّبة، القصيرة الشعر على الحنكين· تمتم:

- هي لكِ·

وضع نايورا يدَه المطبقة الأصابع على سكينه فوق الجرح الشاخب، الملتصق به أطرافٌ من شعره الطويل، الأشقر خالطهُ الرماديُّ، مردوداً إلى خلف أذنيه: .أنت تستنزفني دمي، ياهيغور.، تمتم بصوته العميق مكسورَ النَّبرِ ألماً· نظر إلى الطاهي:

- التقطْ لي كبدَ هيغور·

زفر هيغور من حنجرة ترجرج الصوتُ فيها:

- كنتُ أكلت قلبَك لو اتفقنا على أكل مافي جوفينا·

ارتفع صوتُ آتيما مترنِّماً من فمها المطبَق، في الردهة صمتت الألسنُ فيها لتتكلم العيونُ سطورَها الخرساءَ وصْفاً للمذبحة الصغيرة وسط حلقة الحضور· وقف رايدين، في مجيئه، إلى جوار الفتاة· بدا وجهُه المستدير، المُهْمَل الحلاقة، عظْماً مكسوًّا جلداً، لاغير· نقر بترسه المستطيل، ذي الرسمِ العربة يجرُّها صفان من هياكلَ عظامٍ لبشر وحيوانات شتَّى، الترسَ الآخر في يد آتيما:

- ماذا تفعلين بترس ليالو؟·

رفعت آتيما عينيها إلى وجه الرجل الطويل، الضخم· تمتمت:

- أين جثة ليالو؟ ملكاه يبحث عنها·

.لم أخرج من مقصورتي منذ ثلاثة أيام.، ردَّ القائد، الذي يزعم ديغار أنه خسر المعارك في مكان مَّا قبل سقوط أوروبا·

.هاأنت، أيضاً، لم تغادر مقصورتَك ثلاثة أيام· أكنتُ وحدي أغادر مقصورتي؟.، تساءلت آتيما·

.من سوايَ لم يغادر مقصورتهُ؟.، ساءلها رايدين ذو العينين المحمرَّتيْ العروق، فردَّت آتيما:

- ملكاه·

التفتا معاً إلى أولاك وزوجته ساكون يقفان إلى جوارهما· .ماذا يجري؟.، سأل الممثلُ ذو الترس عليه رأس صقر بعينين خضراوين، القائدَ رايدين·

.إنسان واحد، تائهٌ، يعني سبعة آلهة تائهة.، ردَّ رايدين·

ابتسم اولاك الشاحب من فمه الممتلئ الشفتين، المحتقنتين دُكْنةً، متأمِّلاً ذلك الجوابَ غير المنتَظر عن سؤاله في الذي يجري بين نايورا وهيغور:

- ألا يشبه ماقاله السيد رايدين سطراً ألقيتُه عليكِ، قبل قليل، ياساكون؟·

.ماسطرُكَ؟.، ساءله رايدين، فردَّ أولاك بصوتٍ قوي، متأنٍّ، لَفَتَ إليه أنظارَ بعض الحضور القريبين منه:

- إنسانٌ واحد، مفقودٌ، يعني ثمانين إلهاً مفقوداً·

.لم يكن هذا هو السطر الذي ألقيتَه عليَّ، ياأولاك.، قالت زوجته ساكون، ذات الصوت المختبئ في الحروف حياءً، حدَّقتْ إليه من بياض وجهها المختنق في شحوبه·

.ماذا كان السطر الذي ألقيتُه عليكِ، قبل قليل، إذاً؟.، ساءلها أولاك·

.تكلَّمتَ على سطر لم يستسلم للسانك بعدُ.، ردَّ ساكون·

عادت آتيما مترنِّمةً بصوتها المحتبَس· وضع رايدين يده على كتفها: .ليس الآن· إنني أبحث عن السطر غير المروَّض في قفص السطور.، قال· التفتَ إلى أولاك· تصنَّع إلقاءً كفعل الممثلين بأصواتهم:

- شعبٌ لايؤمن، يعني أنَّ الآلهة خسرت معركة الكون·

.أنت قائد عسكري، كما علمتُ.، قال أولاك، فرد رايدين:

- نعم·

.أمعارك الآلهة من معاركَ؟.، ساءله أولاك·

ارتفعت صرخة مختنقة من حنجرة هيغور، حين اقتطع نايورا بسكينه قطعةً من عضلة عنقه مطَّها له الطاهي بكلبتانه الملقطِ: .إنها أكبر مما اقتطعتُه من لحمك، يانايورا.، قال القبطان ناطقَ العينين بحروف الوجع· عضَّ على نواجذه:

- أنتَ لاتتصرف كغريق·

.فات الأوان كي أتصرَّف كغريق.، ردَّ نايورا· لاكَ اللقمةَ العضلَ· ازدردَها من غير مضغ واضح· تنحنح من ضغط عبورها في بلعومه· .إسقِني.، قال للطاهي،

فسقاه الَطاهي رشفتين متتاليتين من القدح الحديد·

غطى الدمُ نصفَ صدر هيغور الأيسر· عاينَ بعينيه الزرقاوين خالطتهُما صُفرةٌ أعضاءَ نايورا يتخيَّر منها موضعاً لاقتطاعٍ جديد· زفر طويلاً· دار على ركبتيه فوق الأرض المعدن، من حول دِهقان قبيلة الشطرنج· استعرضَ ظهرَه: .هنا.، قال للطاهي وهو يضع نصلَ سطينه العريض الصفحتين بين تَرْقُوتَيْ نايورا: .العضلة· هنا.

وقف الروائي سينيكوس، القادم توًّا إلى الردهة الشاسعة، على قُربٍ من أولاك وزوجته ساكون· قرَّب رأسَه من رأس الممثلة الشقراء الشعر طويلاً حتى كتفيها:

- يبدوان كدجاجتين بحريَّتين·

.مَنْ؟.، تساءلت ساكون، فردَّ سينيكوس الأصلع تمتمةً:

- نايورا، وهيغور· أمْ هناك دجاجٌ غيرهما في هذه السفينة؟·

نظرت ساكون إلى سينيكوس جانبيًّا· ساءلتْه:

- ماالدجاجُ البحري؟·

.الإنسانُ عارياً وتُرسه في يده.، ردَّ سينيكوس· أحكمَ النظرَ من عينيه إلى نايورا وهيغور: .أيأكل أحدُهما الآخرَ؟.، تساءل مبتسماً في شحوب وجهه القويِّ· .أين الملحُ، وأين التَّابل؟.

.عليك أن تسأل، ياسينكوس؛ أين النبيذ؟.، قال أولاك·

.متى بدأ هذا العَرْضُ، ياأبي؟. كان ذلك صوت رامونا، إبنة أولاك، منضمَّةً هي وأختها تيرين إلى المتحلِّقيْنَ النَّظَّارة·

.ربما تكون آتيما أدرى· كانت هنا قبلنا.، ردَّ أولاك من بين شاربيه الكثَّين، البُنيين·

وضعت تيرين، الطويلة، الشهلاء العينين، راحةَ يدها على رأس آتيما، فردَّت آتيما من غير أن تسمع سؤالاً:

- منذ الغداء الأول في هذه السفينة·

.هذا جوابٌ مقنع.، ردَّت تيرين، ذات الترس المثلث مغطًّىً بنُقط حُمر، ورسمٍ لشجرة· أنزلت بصرَها إلى فخذي آتيما العاريتين·

هرعت شابةٌ أخرى من خدَّام هيغور إليه:

- امنحني هذه المضغةَ، أيها القبطان·

.هي لكِ.، ردَّ هيغور، فرفع الطاهي قطعةَ اللحم بكَلّبتانه الملقط إلى فم الشابة، التي لاكَتْها وهي عائدة إلى موضعها بين طائفة عمال السفينة وخدَّامها·

أصدر نايورا خُواراً من فمه المفتوح على آخره· استدار بوجهه إلى طائفته من الشبان الحاملين صناديقَ شطرنجهم تحت الآباط:

- أما من أحد منكم يريد مضغةً من لحم هيغور؟·

تقدَّم شاب في بِزَّته الرمادية، بترسه الدائري الصغير، وصندوق الشطرنج تحت إبطه· وقف إلى جوار الطاهي، الذي مطَّ بكلبتانه قطعة من عضلة ترقوة هيغور اليسرى، فَحَذَفَها نايورا بَتْراً بسكينه· وضع الطاهي المضغة في فم الشاب إذ انحنى يلتقطها· استدار راجعاً إلى موضعه بين الباقين من طائفة الشطرنج بخطواتٍ تركت من حذائه، على الأرض المعدن، أثراً دمويًّا·

كانت رقعةُ الدم تتمدَّد تحت الرجلين الجاثيين، والطاهي الجاثي قربهما ملطَّخَ الوِزرةِ الحديد، واليدين· عيونُ الجمهرة ـ الحلقةِ الكبيرةِ تتالى انتقالَها نَحْلاً من غصنٍ في ألم نايورا إلى غصنٍ في ألم هيغور؛ وتتالى طنينُها الأخرسُ ـ طنينُ الذباب حائماً بين أفاويح الموت· آتيما تقدمت خطوتين إلى عمق الحَلَبة: .من سيتنازل لي منكما، ياسيد هيغور، وياسيد نايورا، عن المضغة التالية؟.، ساءلتهما، فالتفتا إليها مرهقيِّ الجفونِ الثِّقالِ·

.أنا.، ردَّ هيغور·

.بل أنا.، قال نايورا معترضاً·

دخل ملكاه عمقَ الحلبة فجاءة· أمسك بعضد آتيما وعاد بها إلى الحلقة حيث يقف رايدين، وأولاك، وزوجته وابنتاه: .لم أجد جثة ليالو.

.أين تبحث عنها؟.، ساءلته آتيما، فرد ملكاه:

- لا أعرف·

بدا جوابُه محيِّراً قليلاً· هزت آتيما رأسها: .سألت رايدين· هو لايعرف، أيضاً.، قالت·

.رايدين؟.، تمتم ملكاه متسائلاً: .أين رايدين؟.

.أنا هنا.، ردَّ رايدين لامساً براحة يده رأسَ القزم الكبيرَ: .بصرُك يغدو قصيراً مثلك· لامسْتَني في عبورك ، يا عضو العنكبوت.

.مَن تظنه يعرف شيئاً عن جثة ليالو، يارايدين؟.، تساءل القزم، فردَّ ذو الحذاء الأبيض المصفرِّ رايدين:

- تركتها في رعاية المعماري لوتيانو، وديغار الحوت·

.ديغار.، غمغم ملكاه· تنفَّس كعدَّاءٍ· غادر مسرعاً تتبعه تمتمتُه:

- أين جثة ليالو؟·

ترنَّمت آتيما بصوت خفيض من فمها المطبق· أبعد سينيكوس الممثلة ساكون قليلاً يستجلي جسد الفتاة الصغيرة أكثر· غمرها ببصره من سروالها الداخلي، الظاهر من حاشية قميصها، حتى قدميها الحافيتين:

- لحمُك يَعَضُّ، ياآتيما·

لم تلتف إليه آتيما، بل التقطت ساكون كلماتِه:

- ليس للحمها أسنانٌ بعْدُ·

.ربما لاتريْنَ أسنانَ لحمها· إسألي لحمي المرتعد رغبةً· إنني أُمْضَغُ، ياساكون.، قال سينيكوس· مرَّر يدَه، خَطْفاً، على ردف آتيما· مسَّ سروالها الداخلي وبعضاً من أُرْبيَّتيها: .كأنها آخر مرَّةٍ ألمس امرأةً.، تمتم، فاستهجنت ساكون لمستَه وهي تلحظ يدَه المختلِسة:

- هي طفلة، ياسينيكوس·

.نعم· عمرُ طفلةٍ في لحمٍ أزليٍّ.، ردَّ· .لقد ولِدَتْ آتيما مُذْ ولِدَتْ رغبةُ الذَّكَر.

.منذ متى لم تلمس امرأةً؟.، ساءلتْه ساكون، فردَّ:

- منذ لحظة، أو منذ مطلع تاريخ البشرية·

التفت رايدين الطويل، الضخم، إلى سينيكوس الطويل مثله، الممتلئ بلا سُمنة· ساءله:

- ماالسِّمة التي تجمع تاريخ البشرية؟·

.أنَّ كلَّ شعب سلخَ جلدَ شعب آخر وهم أحياء.، ردَّ سينيكوس· أضاف: .كلُّهم شعوبٌ من اقتصاد الهلع.

.ماذا؟.، تساءل رايدين·

.اقتصاد الهلع.، ردَّ سينيكوس· .كلَّما ازدادت الشعوبُ إرهاباً ازدهرَ رخاؤها.

فتح رايدين فمه يهمُّ بكلام ثم توقف· أحسَّ نقراً على كتفه· التفت فرأى المعماريَّ لوتيانو طاعناً في الشحوب، منفرج الشفتين كعادة فمه، متطلِّعاً من خلفه إلى الجسدين الجاثيين في الحلبة ببقعٍ ممزَّقة من اللحم· تمتم:

- أهذه بقية من معاركك، بعد سقوط أوروبا، يارايدين؟·

.ربما سقطت خططُ العُمران في أوروبا، لكن لم تسقط أوروبا.، ردَّ رايدين· تصنَّع تأملاً في وجه المعماري الظاهر العظام تحت جلده:

- ماعمرانُ الهلع؟·

.عمران الهلع؟!.، تمتم لوتيانو متسائلاً في مغزى كلمات رايدين، فانبرى سينيكوس بجوابٍ:

- كلماتُ الإخضاع هي عمران الهلع·

.مارخاءُ الهلع،إذاً؟.، ساءله رايدين·

.سنسأل هيز.، ردَّ سينيكوس وهو يرى الشاعرَ منضمًّا إليهم مع الرسام بارو، وأمه سيدارو ذات السلة·

.ماذا ستسألونني؟.، تساءل هيز·

.هل الشعر، حقًّا، إرهابٌ لغوي؟.، ساءله سينيكوس·

لفتَ نظرَ هيز، قبل أن يجيب، اللحمُ العاري لَحَظَهُ من بين أجساد الذين انضمَّ إليهم· أبعد بيده سينيكوس عن مرمى بصره، ففهم سينيكوس حركته:

- نعم· إنها نصف عارية، وحافية، وتحمل ترسين، أيضاً·

.هذه الفتاة الصغيرة تفهم مايتدرَّبُ الشعرُ على فهمه منذ السطر الأول في خيال الإنسان.، قال هيز· ألقى بصَره أبعدَ، إلى العُريِ الأخر في حلبة الردهة الشاسعة، حيث عَرَض اللحمُ ـ مُنْتَزَعاً بالسكين ـ منطقَ الألم أحمرَ بكلمات الدم: .الوجودُ، بلا إرهابٍ، وجودٌ غشٌّ.، أضاف مسترسلاً·

.أردتَ جواباً عن سؤالك، يارايدين· خذْه من السيد هيز.، قال لوتيانو·

.ماذا كان سؤالي؟.، تساءل رايدين، فردَّ لوتيانو:

- مارخاءُ الهلع؟·

.السيد هيز شاعر· أليس كذلك؟.، تساءل رايدين سؤالَ العارف· .الشعراء مهتمُّون بمواساة البشرية· نصنع، نحن، حروباً، وهم يجمعون اشلاءَ القتلى تحت وسائد الورد.

.من أيِّ نقدٍ أدبيٍّ تستعير مصطلح التعريف هذا، ياسيد رايدين؟ إننا مولعون بالتسوُّق في أسواق الهلع لشراء كلماتٍ لامواساةَ فيها.، قال هيز· مال بعنقه ليتمكن، ثانيةً، من تسديد بصره إلى فخذي آتيما: .الجملةُ الرعبُ، في الكتابة، هي سيدةُ السطور.

.لم أسمع ممَّا ألقيتَه علينا من شعر غيرَ إشاراتٍ إلى امرأة لصَّة، وديعة· اين الإرهاب، ياهيز؟.، تساءل الرسام بارو، النحيف، ذو اللحية السوداء·

.تلك السرقة، التي تظنها وديعةً، كلَّفتْني تمزيْقَ تاريخ من المعاني· فإن لم يكن ذلك إرهاباً، فما الإرهاب، يابارو؟.، ردَّ هيز· .انظر إلى هيغور، ونايورا، كم هما

وديعان في جُثُوِّهما أرضاً كأنْ سيتعانقان بعد قليل.

.مانراه هنا مختلفٌ عمَّا سمعناه من شعرك.، قال بارو· .ليس القتل سلوكاً دمويًّا، بل هو الأكثر تهذيباً في الخضوع للبقاء.

.أسمعتَ فلسفةَ اللون هذه، ياسينيكوس؟.، تساءل هيز في سخرية من الرسام· .أنت، يابارو، ينقصك أن تتلمَّس الكلماتِ في اللون؛ أن تسمع الكلماتِ في اللون· ينقصُك أن تصير لوناً، لذا لاتفهم، تماماً، إرهابَ المعنى الوديع.

.توقَّفا عن هذا.، قال أولاك· .استمتِعا بالذي تريان هنا.، أومأ برأسه صوب وسط الردهة تقوَّس فيها نايورا وهيغور، كأنْ سيسجدان بعد قليل·

.معنىً غيرُ متسلِّط معنى لايدوم.، قال هيز ردًّا على لأحد· .لامعنى ينجو من انجذابه إلى كلمة متسلِّطة· لاثقةَ للمعاني في الكلمات العادلة.

.أأنت تهذي، ياهيز؟.، ساءله بارو· التفتَ إلى أمه سيدارو شاحبةً، مفتوحةَ الفم في تحديقها إلى هيغور، ونايورا: .أين حليفي جوراك لننهي حرباً ضد أهل الكلمات؟.، ساءلها، فدارت أمه بوجهها إليه مغمغمةً كأنها لم تفهم·

.جوراك.، تمتم بارو·

.جوراك؟ مابه جوراك؟.، تساءلت سيدارو·

.أهو في سلَّتك، ياأمي؟.، ساءلها· التفت إلى هيز من جديد:

- ماالكلماتُ العادلة؟·

.هي التي تصيب السطورَ بعدوى البكاء.، ردَّ سينيكوس ممازحاً· وجَّه بصرَه، جانبيًّا، إلى ناؤمي مع سيميال وصديقتها ليمسا· أثبتَه عليها:

ــ أحبُّ الكلمات المنتفخةَ الشفاه·

.نعم.، غمغم لوتيانو المعماري: .تنتفخ شفتا المرأة حين تكون عاشقة.

التفتت إليه ساكون في شحوبها الغامر مبتسمةً:

- هذا يسهِّل على الأزواج اكتشافَ خيانة زوجاتهم·

لَفَتَهم الصوتُ الأخنُّ من حنجرة ملكاه اللاهثِ، جاذباً سترةَ لوتيانو الرقيقةَ القماش، الخضراء داكنةً:

- أين جثة ليالو؟·

أمسك لوتيانو بيد ملكاه يبعدها، في هدوء، عن سترته:

- أنَّى لي أن أعرف؟·

.كنتَ، وديغار، مع الجثة حين غادرتكما.، قال ملكاه الواضحُ الرَّهَق في حركاته·

.غادرتُ تاركاً ديغار عند الجثَّة.، ردَّ لوتيانو·

.أأخبرك ديغار بشيء عن الجثة؟.، ساءله ملكاه، فرد لوتيانو:

- لم أخرج من مقصورتي منذ ثلاثة أيام· لم أرَ ديغار·

دار ملكاه على نفْسه نصفَ دورة مُغْضَباً: .أنا، وأنت، ورايدين، كلٌّ منا لم يغادر مقصورتَه ثلاثة أيام· ماالمصادفةُ هذه؟ ربما أكل ديغار الجثةَ· أين ديغار؟.، تلفَّت من حوله كالمكلَّم نفْسَه· نقر بِحفاف ترسه المثلث الأرضَ المعدن· صرخ: .آتيما.، فانبرت آتيما مقتربةً من بين الأجساد القريبة منها· كلَّمتْه متسائلةً:

- أعثرتَ على جثة ليالو؟·

.عثرتُ على جثتي.، ردَّ ملكاه جَنَقاً· .كيف لاتعرفين أين جثة ليالو؟ أنت الوحيدة منا، التي غادرت مقصورتها كلَّ يوم.

صدمَت آتيما بترس ليالو في يدها اليسرى ترسَ ملكاه، فترنَّح: .خذْه مني. قالت· دفعت بالترس إلى صدره·

.إنه ثقيل.، ردَّ ملكاه· .لن أحمله.

.تعبتُ من حمله.، قالت آتيما· .خذْه، أو سأرمي به أرضاً.

تناول ملكاه الترسَ المستطيل، المجوَّف ـ ترسَ ليالو من يد آتيما، فلم يبق من جسده ظاهراً سوى نصف وجهه· استدار مبتعداً يجرُّ حافةَ الترس السفلى على الأرض المعدن في صريرٍ·

تتبَّع سينيكوس بعينيه خطوات ملكاه المتعرِّجة إرهاقاً قبل أن يلتفت إلى رايدين:

- أأنت حقًّا من قُوَّاد حروب أوروبا الأخيرة؟·

.اسألْني ماذا تريد، بلا تمهيدٍ.، ردَّ رايدين البالغ منتصفَ عقده السادس·

.من أين يأتي الشرُّ؟ من الشرق، أم من الغرب، أم الجنوب، أم الشمال؟.، ساءله سينيكوس·

.الشرُّ؟!.، تمتم رايدين بصوته المتقطع النَّبر· حدَّق إلى وجه سينيكوس:

- من الأعالي·

.أنت عسكريٌّ، لكن في ودِّيَ أن أسألك عن أمرٍ يتماحك فيه أهل الأدب· أتسمح لي؟.، ساءله سينيكوس·

.اسألْ· الكتبُ علَّمتني الحربَ قبل أن أصير عسكريًّا.، ردَّ رايدين·

.هل الجَمال سطوةٌ، أمِ السطوةُ جمالٌ؟.، ساءله سينيكوس·

رنَّت صرخةٌ من فم نايورا على الأرض المعدن حين اقتطع هيغور بسكينه عضلةَ ثدي نايورا، المتصلة من ظاهر الإبط الأيسر بالكتف اليسرى· تلوَّى برهةً· انحنى، فتراخى شعره الرماديُّ المردود إلى خلف أذنيه حتى مسَّ فخذَيْ هيغور·

فتح أولاك لنفْسه ممرًّا في الحلقة البشرية، بدفعٍ عنيفٍ من يده ومن ترسه· .اتبعيني، ياساكون.، قال· سار بخطوات عجولة إلى حيث جثا الرجلان والطاهي: .لدينا دَوْرٌ نؤدِّيه في هذه الردهة، أيها السيدان.، أضاف بصوتِ الممثل فيه· نظر إلى زوجته وهو يضع قدمه اليسرى، في الحذاء، على حِفاف بقعة الدم متطاولةً قرب نايورا وهيغور:

- ياأولادي، افتحوا البابَ لكل من يحمل سكيناً·

.لاتسمعوا أباكم، أيها المنتصبو الرؤوس مقطوعةً على حجارة السور.، ردَّت ساكون بصوتها متعزِّياً من نَبْر اختبائه عادةً في الحروف· رفعت ذراعيها، بالترس في أحدهما، من حول الرجلين· حدَّقت إلى هيغور:

- أعطِني عنادَ الرغبة، وغضَبَ الآثار في الثلج· أعطِني آخرَ حريقٍ أضرمه زوجُ العاشقة في خزانة ثيابها· أعطِني ثياباً جديدة لحضور الجنون·

.هيْه· هيه.، صرخ أولاك بصوت مديدٍ· طأطأ برأسه محدِّقاً إلى رقعة الدم:

- لن يرى أحدٌ أحداً بعد الآن· تبادلتِ الكلماتُ حماقاتها نظيفةً كإخلاصٍ أحمقَ·

قرعت ساكون بيدها على ظاهر ترسها المثلث، الصغير، عليه رسمُ ستِّ أرانب بِيْضٍ، كلٌّ بعين واحدة، حمراء، في جبهتها:

- كم من الخطأ يكفيك، ياماليكي، لتعرف أنك كنتَ على صواب؟·

تمايل أولاك المعتدل الجسد طولاً في سترته السوداء بلا كُمَّين· أطلق الحروفَ من لسانه متباعدةً:

- الموتُ ليسَ مَدِيْناً لكِ بشيء، ياسيدتي، بل للعشيق الذي لم يتسلَّق الشرفةَ إليك ليلة البارحة·

.ألا تزال على شكوكك ذاتها، ياماليكي؟.، قالت ساكون بصوتٍ تلابسْه الرقةُ، فردَّ زوجها مادًّا ذِراعَه صوبها كأنه سيطوقها:

- ظلُّكِ ظِلُّ حصان، أيتها السيدة الصغيرة· صوتُك صوتُ الحقل بعد الحراثة·

.سأكرهُك.، ردت ساكون متصنِّعةً غضباً في سطور الدَّوْر: .سأكرهكَ أكثر، من غير أن ينقص حبِّي لك، ياماليكي.

.أهذه طبول حرب؟ أأسمع حرباَ، ياسيدتي؟.، تساءل أولاك بعينين بالِغَ في جحوظهما· فتح راحةَ يده أمام وجهها يطلب السكوت· .المَدافع أكثر رقَّةً في اليوم الرابع من المعركة· أصواتُها نجوى الموت مُمتنًّا للأحياء على إخلاصهم. صمت كأنه يصغي إلى دويٍّ مَّا: .قرْعُ الأجراس إيذاناً بنهاية الحرب له نَفَسُ الحرب. خبط بقدمه رقعةَ الدم فانتثرتْ قطراتٌ· .أيها الشجعان· ياأولاديَ التماثيلَ البرونزَ في حدائق الموتى، سأغسل يديَّ في الصحن بماءٍ مالح قبل ارتداء قفَّازي للمصافحات.

قرعت ساكون بترسها ترس زوجها· انحنت· غمست إصبعها في الدم· صبغت به زرًّا كبيراً من أزرار قميصها الأبيض:

- هذه ليست فكرتي، ياماليكي، بل فكرتُكَ· الوجودُ ليس فكرتي·

.ماذا تنتظرين مني، إذاً، ياسيدتي؟.، تساءل أولاك·

.ماانتظرتُهُ من الملكة ـ شرفَ وسادتها.، ردت ساكون·

.اذهبي إلى الملكة· خذي بناتِك معك.، قال أولاك· دار بوجهه إلى الحلقةِ البشرِ الواسعة في الردهة الواسعة: .لايدخلَنَّ أحدٌ عليَّ اليوم· إنني أنتخبُ الأنبياءَ للحيلة القادمة.

غمغمت ساكون· هزَّت رأسها معترضةً اعتراضاً من موجِب مايقتضيه الدَّوْر:

- تبدو متعَباً، ياماليكي·

.لستُ متعباً· المكانُ متعَبٌ.، ردَّ أولاك·

.ماذا ستفعل، ياماليكي؟.، ساءلتْه ساكون، فردَّ أولاك الملكُ في الدَّوْر:

- سأخذل المكانَ·

.قد تخذل بناتِك الثماني أيضاً، ياماليكي.، قالت ساكون، فردَّ أولاك:

- لم أعرف أن بناتي هُنَّ سِيرةُ المكان، لاسِيرتي·

.أغلقِ البابَ عليك، إذاً، ياماليكي.، قالت ساكون السيدةُ الغامضة نَسَباً في الدَّوْر، فردَّ أولاك:

- هو مغلقٌ، ياسيدتي·

في إعياء فتَّت عضلَهما، ومفاصلَ جوارحهما، تتبَّع هيغور ونايورا، بعيون متراخية الأجفان، نُقلاتِ جسدَيْ أولاك وزوجته متواجهيْن، مستدْبريْنِ، ثابتين، متحرِّكين، هامسيْنِ، صارخين· كان الممثلان يؤديان دوراً مَّا في سطور بلا ضوابط تجعلهما مَلِكاً، وسيدةً لايُعرَف أهي عشيقته، متداخليْنِ، متشابكين على حدود الكلمات، حتى أن سينيكوس نفْسَه لوَّح لهما بيده، هاتفاً:

- أنتما تخلطان مصادرَ السطور· لكلٍّ منكما ستةُ أدوار في دَوْر واحد·

لم تكن ساكون وزوجها على اهتمام بمنطق المحادثة، التي يتوجب في حفظها أن يكون المتحادثان بهويتين واضحتين، لكلٍّ منهما انسجامٌ يخصُّه حتى لو بدا مختلاً· هما استرسلا مستعيريْن من شفق خياليهما محفوظاتٍ شتَّى، منجذبين بدافعٍ واحد، ربما، هو عَرْضُ الوقت نفْسَه محسوساً في مشهدٍ لحمٍ يُمْضغُ مقتطَعاً بسكين· مشهدٌ لايغلبه مشهدٌ؛ وساكون وزوجها لن يفوّتا قيامةَ السطور من مجاثم إيمانها·

.مَنْ هم الخَوَنة؟.، تمتم أولاك مقترباً بكتفه من كتف ساكون·

.مَنْ هم الذين ليسوا خونةً؟.، ردت ساكون· .لاتتصنَّعْ، ياماليكي، هَلَعاً· لايخيفُك شيء· هؤلاء.، أشارت بترسها المثلث إلى الحلقة الأجساد في الردهة الشاسعة: .يتظاهرون أنهم موتى· يسيرون كالموتى· يقتلون كالموتى، لأنهم ربحوا الحربَ التي خسرها الأحياء.

.لم يكونوا، قطُّ، على صواب.، قال أولاك بوجهٍ مُنكَّس· اضاف: .لذا أُعجبتُ بإصرارهم على أن يهزموني.

.لم تُهزم، بعدُ، ياماليكي.، قالت ساكون بصوت مواسٍ·

هزَّ أولاك رأسَه مستخفًّا:

- حين نريح أكتافَ الكلمات من أثقال الشكِّ ينهار المسرح·

.ليكُنْ، ياماليكي· حَسْبُنا أنَّ آخر حقيقةٍ هي هناك.، قالت ساكون بصوتها المؤاسي، فردَّ أولاك متسائلاً:

- أين؟·

- على باب الفردوس، ياماليكي· لكنها الحقيقةُ الحاجز·

- سأعانقُها، إذاً، ياسيدتي·

- عليك أن تهشِّمها، ياماليكي، كي تدخل الفردوس·

أنَّ أولاك بصوت طويل النَّبر: .إعطوها عظاماً· إعطوا سيدتي عظاماً، يالُقطاء الطرق المقفلة.

أمسكت ساكون بترس زوجها· تصنَّعت إصغاءً إلى نايورا المنطوي: .هل وصل الأعيانُ، ياماليكي؟.، تساءلت· نظرت إلى القدح الحديد في يد الطاهي سينون: . سَمٌّ في الشراب· سمٌّ على الشفاه إن قبَّلتْ قتلتْ· سمٌّ في الكلمات تتلوَّى منه السطورُ ألماً، أو تتقوَّض صرعى.

.كلهم يشبهونني حين يعترفون.، قال أولاك متحسِّراً، فابتعدت ساكون خطوتين:

- من يشبهك، ياماليكي؟·

.الذين لايشبهونني، ياسيدتي.، ردَّ أولاك· وتأمَّلها: .تسعة قلوب في جيبك، والعاشر في يدك.، تمتم: .لاتقولي إنني لاأُحسِنُ العدَّ حتى العشرة. استدار استدارة عنيفة، متوجِّهاً بصوته إلى الشبان الحاملين صناديق شطرنجهم:

- لاتَدَعُوا أخواتِكم يقبِّلْنَ الخادمات في المطابخ·

غمست ساكون مقدَّم حذائها الأيسر في الدم قرب فخذ هيغور اليمنى· تكلَّمت بصوت متلطِّف في نُطقه:

- مُبكرٌ عليك أن تصير إلهاً· تعلَّم حِيَلَ الآلهة أولاً؛ تمرَّد على الإنسان·

.لن أتمرَّد على أحد.، قال أولاك موَبِّخاً· .الملوك لايتمرَّدون، بل يتمرَّد الرعاع. ابتسم رافعاً بصرَه إلى أعالي العمود الأسطوانة في ردهة السفينة: .رائعٌ خبرُ النافذة· لقد رأيتُ الحمامةَ عابرةً تلحق بالسهم. أشار بإصبعه إلى السقف القبَّة الزجاجِ الأبيض، المعتلِّ غيرِ النقي·

.أهو سهمُك، ياماليكي؟.، ساءلته ساكون، فردَّ أولاك:

.القوس هي قوسي، لكنني لاأعرف سهمَ مَنْ هذا السهم·

.أين بندقيتك، ياماليكي؟.، ساءلته ساكون·

.في المسرح· سأقتُل بها أوَّلَ داخلٍ.، ردَّ أولاك·

جسَّت ساكون جبينَ زوجها الشاحب براحة يدها كأنها ظنَّتْه محروراً· أنزلت يدها:

- حرارتُك عادية، يامولاي· أعطني دَورَك، وخذْ دَوري·

.لاأقبل.، ردَّ أولاك·

.ماذا نفعل بالملكة؟.، ساءلته ساكون، فردَّ أولاك:

- لاشيء· ستنتحر الملكة، على أية حال، إذْ تراك أكثر احترافاً ممَّا اعتقدتْه·

.وماذا سنفعل بفرسك، يامولاي؟.، ساءلته ساكون·

.لاأعرف ماذا أفعل بيَخْتي، وبدرَّاجتي النارية.، ردَّ أولاك·

.سألتُكَ عن فرسك.، قالت ساكون· .لديَّ اقتراح.

- ماهو، ياسيدتي؟·

.جميلةٌ فرسُك بالصِّباغ على شفتيها.، قالت ساكون بعينين تتأملان الفراغَ أحمرَ في الدم من حول نايورا وهيغور· .جميلةٌ فرسك بالكحل على جفونها، وبالطِّلاءِ الفضة على حوافرها· كم تبدو فرسُك متهيئةً لقُبلة.

.أهذا اقتراحٌ، ياسيدتي، أم غَزَلٌ؟.، ساءلها أولاك، فردت ساكون:

- فليذْهَبْ بها آمرُ حَرَسك إلى سوق القوَّادين· سيكون سعيداً من يستأجرها ليلةً لفراشه·

.ماذا سيفعل بها مستأجرٌ في فراشه، ياسيدتي؟.، ساءلها أولاك·

.ماذا سيفعل بها في فراشه؟ أتظنُّه سيسرق شبابَها؟.، ساءلته ساكون محتدمةً·

.لا تغضبي، ياسيدتي· سألتُك ماذا سيفعل بها؟.، تمتم أولاك·

.سيضاجعها.، ردَّت ساكون·

.كلُّ مضاجعةٍ اعترافٌ من اعترافات الألم.، قال أولاك· أضاف متسائلاً وهو يقرِّب أذنَه من فمها:

- ماذا قلتِ، ياسيدتي؟·

.لم أقل شيئاً.، ردَّت ساكون·

.بل قلتِ شيئاً عن شبابك· ماذا عن شبابكِ؟ لاأسمع كلماتك جيداً· أنتِ بعيدة· أنتِ أبعد من شرفتي العالية عن معركة في الساحة· تركتِ شبابكِ في مكانٍ مَّا، هناك، خلف الوقت الذي أنتِ فيه· أنا، أيضاً، تركتُ شبابي هناك، حُرًّا، غيرَ عابئٍ بحاضري الذي أسرق من جيبه المعارك.، قال أولاك·

.ماشقاؤك هذا، ياماليكي؟ يؤمِنُ بكَ الوقتُ فكُنْ مؤمناً به.، قالت ساكون· دارت بيدها على الحلقة الواسعة في الردهة الواسعة: .للمرة الثامنة، في أيامك السبعة، تتبادل والخدَّام، هؤلاء، دَوْراً بدَوْرٍ في مَتْجَرِ الموتى يبيعون المدنَ، ويشترون الأنهار.

تبادل الحشدُ الحلقةُ الشاحبون نظراتِ التقدير لأداء الممثليْن وهما يدوران من حول الطاهي بكَلْبتانه المدمى، ومن حول نايورا وهيغور، اللذيْنِ باتا يتنفسان في ثقل، مطأطِئيْنِ، متواطئين على هدنةٍ، ربما، قبل أن يتابع أحدُهما التهامَ الآخر مُتخَماً من اللحم النيء·

من غير توطئة، بغتةً، اجتاحت ابنتا أولاك وساكون، الممثلتان رامونا وتيرين، مركزَ الردهة الواسعة، واقفتين إلى جوار أبيهما وأمهما، كأنما استُدْعيتا· تبادلتا غمغماتٍ بلا كلماتٍ، غاضبةَ النَّبر ومُعَاتِبةً· حدَّقتا إلى نايورا وهيغور، الممزَّقيِّ اللحم في أمكنة شتى من جسديهما· تكلمت رامونا:

- مُذْ لم أعد أؤمن بنفْسي، آمنتُ بكل إنسان غيري·

.هذا إيمانٌ جليلٌ، أيتها المنتقمة من الأشكال.، قالت أختها تيرين· اقتربت من أبيها متمثِّلةً هيئةَ انقضاضٍ: .الأشكالُ إخفاقُ الله في ابتكارِ مالانعرف، أيها

الملك النبيل.

قرع أولاك براحته على حديد ترسه:

- الملك الأكثرُ نبلاً هو ذاك، الذي لم يزل طائفاً بأكياسه الخمسة من ثمر الكاكاوعلى الموتى، منذ أربعة آلاف عام، كي يُقْنعهم بالعودة إلى الحياة، فيُمانِعون·

.أكثِرْ من أخطائكَ· كُن مخيفاً، أيها الملك النبيل.، قالت تيرين الشهلاء العينين الكبيرتين، الصارخةُ شحوباً· أضافت: .يومُك هذا صالح لتعرف عن الله مقدارَ جهلِكَ به.

قبض أولاك، بغتةً، على ذراع زوجه ساكون: .أتسمعين؟.، ساءلها همساً· .يومي، هذا ـ الأكملُ في سِيرة الأيام، جديرٌ بقتل كلب· يوم كهذا يومٌ لقتل كلب.

.أنت تحب كلابك، ياملِيكي.، قالت ساكون بنبرٍ شفقةٍ، فردَّ أولاك:

- أكره كسَلها، يوماً بعد آخر· لكنْ لاينقص حُبي لها· هي تَصلح للقتل اليوم·

مدَّت رامونا يدَها إلى يد أبيها الممسكة بذراع أمها:

- يحتاجُك الله حين لاتخافه·

.أبعدي يدَك، أيتها الطفلة، عن يد أبيكِ الملك.، قالت ساكون· نظرت إلى الجَمْعِ الحلقةِ يرصدون أداءهم:

- هؤلاء المؤمنون يعرفون عن الآلهة أكثر مما تعرف الآلهةُ عن نفوسها·

وضعت رامونا يدها، بدورها، على يد أختها تيرين· قرَّبت رأسَها منها هامسةً:

- أخبري الملك أن الأعمى نائم، وليس ميتاً· العُميُ الموتى يتسللون إلى أحلام الملوك·

.لاتخبري الملكَ شيئاً.، صرخت ساكون متوعِّدةً· .الثقةُ حيلة متبادَلة.

.الثقة؟!.، تمتمت رامونا الكلمةَ بامتعاضٍ في وجهها· استرسلت: .الثقة هي الخطوة المتأخرة في الوصول إلى وقتٍ عادل.

.تتحدَّثين كَمَن كلَّمها اللهُ، أيتها الطفلة.، قالت ساكون لابنتها رامونا، فردَّت ابنتُها الأخرى تيرين:

- كلُّ شخص يزعم أنْ كلَّمه اللهُ يضعُ قدمه في أول المجزرة، أو يهيئ نفْسه لقتل العناكب·

.ماالعناكب؟.، ساءلتها أمها، فردت تيرين:

- الملائكة العناكب·

.أأنت أمٌّ فاشلة، أيتها الطفلة؟.، سألت ساكون ابنتَها تيرين، التي ردت:

- الأمهات، والآباء الفاشلون هم من خدعوا أطفالهم بقدسيَّةِ الخوف، أيتها السيدة·

.سيدة؟!!.، تساءلت أختُها رامونا، وهي تدور نصفَ دورة من حول أمها: .ماذا تفعل هذه السيدة مع الملك؟.، استدارت إلى أبيها أولاك:

- أية عاشقة قتلْتَ في مخدعك اليوم، ممدِّداً جثتَها على السرير بينك وبين ابنتها العاشقة؟·

.أنتِ· أنتِ.، تمتم أولاك في استياء· مدَّ إصبعه صوب ابنته رامونا:

- لا أستطيع العبور معك من هذه الجحيم إلى أية حديقة· لا أحب الطواويسَ في الحدائق· لا أحب مقاعد الحدائق· لاأحب شجرَ الحدائق· لا أحب زائري الحدائق· يبدو البشر مزعجين في الحدائق، كذابين، منافقين، سعداءَ كالخطأِ سعيداً بحقيقته·

هبَّت تيرين كالراكضة، أو متصنِّعةً ركضاً، صوب نايورا وهيغور· غمسَت زاويةَ ترسها المثلث في الدم قربهما· نظرت إلى الطاهي سينون تحديداً:

- أيُّ حَذَرٍ هو حَذرُك، وأنتَ قلتَ ماقلتَ للحمقى آمنوا بك إيمانَهم بالحذر منك؟ .

نقر الطاهي بالكلْبتانِ الملقطِ الحديد في يده على ترسه في اليد الأخرى· نزلَ ببصره من وجه تيرين إلى فخذيها في البنطال القطنِ الرماديِّ الضيِّق· سألها:

- أتريدين مضغةً من اللحم النيئِ، أيتها الممثلة؟·

.لم تفهم· أنتَ.، غمغمت تيرين· استدارت إلى أبيها أولاك:

- لم تعد للكهوف ثقةٌ بالعقل·

.هذا هو القانون.، قال أولاك· رفعَ بصَرهُ متسلِّقاً العمودَ الأسطوانةَ: .وهذه هي شجرة الحياة.

.شجرة الحياة؟!!.، تمتمت ساكون مستغربةً· .الشجر يأكلُ الجثثَ المتحلِّلة، وورقَ الشجرِ المتحلل، ياسيدي· يلتهم كلَّ شيء، كالإنسان يأكل اللحمَ والنبات· لاتكرِّرِ الإشارةَ إلى الحياة مقرونةً بالشجر المتوحش. قرعت بحفاف ترسها المثلثِ الأرضَ المعدنَ: .هذه مطابخ الحياة.

.مَنْ هذه السيدة؟.، ساءلت رامونا أختَها، بعينين على أمها· استدارت إلى أبيها: .من هذه السيدة؟ تعال نعبر الجحيم إلى الحديقة، أيها الملك.، قالت·

.ماالجحيم، أيتها الطفلة؟.، ساءلها أولاك، فردَّت رامونا:

- حقول الذَّرة·

.هي جحيم رائعة، إذاً.، قال أولاك·

.نعم· لكنَّ المعذِّبَ في أمرها أنها حقول ذُرة· الداخلون إلى الجحيم، والخارجون منها، يذوبون من تكرار سؤالهم: لِمَ الجحيم هي حقولُ ذُرة؟· وهم يأكلون الكثير من الذرة، ويأكلون غربانَ حقول الذرة نيئةً بريشها.، قالت رامونا·

غمغم أولاك مستدركاً:

- جحيم رائعة· لكنني لاأستطيع العبورَ منها إلى أية حديقة·

وضعت تيرين راحةَ يدها على كتف أبيها:

- إيمانُك واضح· إيمانُك لايُحتمَل، أيها الملك· تعطي الآلهةُ الإنسانَ ما لا تحتمله الآلهة، والإنسانُ يحمِّلُ الآلهةَ مالايحتمل الإنسانُ· إنها مضايقاتٌ لا مُحتمَلةٌ إلاَّ في كتب الأنبياء الصالحة لمناهج التعليم الإبتدائية في السماءِ الإبتدائية·

.أُقْسِمُ بهذه السفينة أنني مُلحدٌ، أيتها الطفلة، وخُصيتاي متديِّنتان.، قال أولاك بهزَّة تأكيدٍ من رأسه·

.لم أسألْكَ عن مقدار ماتَدِيْنُ به لدِيْنٍ، ايها الملك.، قالت تيرين· .رأيتُ إيمانك واضحاً فوصفتُه لك.

.أين الوصفُ، أيتها الطفلة؟.، ساءلها أولاك·

.في فكرتي.، ردت تيرين·

.مافكرتُكِ؟.، ساءلها أولاك·

.منذ الفجر أحفر فكرتي فلا أعثر على سروالها الداخليِّ.، ردت تيرين·

نقرت ساكون بحفاف ترسها حِفافَ ترس ابنتها تيرين· ساءلتْها مبتسمةً:

- وماذا عن حذاء فكرتكِ؟·

.فكرتي، أبداً، حافيةٌ.، ردت تيرين·

استدارت ساكون إلى زوجها:

- إنها جميلة هذه الطفلة، أيها الملك· واثقةٌ من نفْسها·

.كلُّ جميلةٍ واثقةٌ من نفسها· كلُّ وسيمٍ واثقٌ من نفْسه.، قال أولاك· تحسَّس بأصابعه صفحةَ وجهِ تيرين المستطيلِ اليمنى:

- لاتثقي بأبويكِ حين يؤمنان بشيء· لاتَدَعي حيلتَهما تنطلي عليكِ·

.هـذه قاعــدةٌ، أيهــا الملــك.، قالــت تيرين· .الشيوخُ يشعرون بخذلان المستقبل لهم، والشبابُ يحسُّون بخذلان الماضي لهــم.

.وماذا عن خذلاننا هذا؟.، ساءلت رامونا أختَها· .أنتِ لاتُحدِّثين هؤلاء من حولنا· انظري إليهم.، أشارت بترسها الدائريِّ، الأبيض صِباغاً عليه رسمُ إناءٍ بفاكهةٍ فيه، إلى ركاب السفينة متحلِّقيْنَ في الردهة الشاسعة: .اصرخي بهم: اغتصبوا أمهاتِكم، وأخواتِكم، وخدَّامَكم، وبناتكم· كونوا طيبين كما عَهَدناكم· كونوا حلاَّقين مزيِّني شَعرٍ في هذه السفينة· مزيِّنو الشعرِ، في هذه السفينة، عجولونَ، وعَجولاتٌ. لمستْ شعرَها مصبوغاً خصلاً طويلةَ شُقراً، وأخرى بيْضاً· شدَّتْهُ غاضبةٌ: .شُعورنا ليست على مايرام· حلاقتُها، وتسريحُها ليسا على مايرام. انحنت على هيغورِ المتهدِّل الأعضاء، والمرتجف ألماً: .مزيِّنو الشَّعر، الحلاقون، المزيناتُ الحلاَّقات، مُحبَطون مذْ صعدنا هذه السفينة· شعورنا رطبةٌ· جافة· مملَّحة· متبَّلة· مدَّهنةٌ زيوتاً من زيوت البنادق· شعورٌ بَحريَّة، متراخيةُ الخُصل· شعورٌ محبَطة.

هتفت امرأة من بين الحشدِ الحلقةِ:

- شَعري محبَطٌ·

.شَعري يائس.، صرخت امرأة أخرى·

رفع أولاك ترسه عالياً كأنما يطلب السكوتَ· غمغم: .شعبي.، في نبرة أسى· استرسل بصوتٍ باكٍ: .بناتي ينقلن مملكتي المنهارةَ، قطعةً قطعة، على ظهور الحمير.

لمست ساكون كتفَه لمسةَ عزاء:

- ليس على حمير، ياماليكي، بل على ظهور بغال خُصِّصت لها مقطوراتٌ مرفَّهةٌ في قطار الضواحي·

.ضواحي أين؟.، ساءلها أولاك·

.ضواحي الجليد.، ردت ساكون·

.لاأريد أن أنهار الآن.، قال أولاك بعينين مغمضتين يأساً· .لاأريد أن أنهار قبل وجبَتَيْ طعام أحبهما.

.الطاهي هنا، ياماليكي· ماالأحبُّ إلى نفسك طعاماً؟.، ساءلته ساكون، فردَّ أولاك:

- سُوْشِيْ اليوم، وحساءٌ من لحم السلاحف النهرية غداً·

طغا صوت آتيما مترنِّمةً، فجاءةً، على كل صوت، من فمها المطبَق، لكن بنبرةٍ صراخٍ في باطن حنجرتها· التفت إليها أولاك، وابنتاه، وزوجته· رفعت رامونا

يدها بالترس هاتفةً:

- لم نُنْهِ الدَّورَ بعدُ، ياآتيما·

.تلزمكم موسيقى، يارامونا.، هتف سينيكوس من موضعه· اضاف: .وصَل جوراك.

تأمل الموسيقيُّ جوراك، القادم توًّا إلى الردهة، مشهدَ هيغور ونايورا: .ماالذي يجري هنا؟.، تساءل بصوت خافت، موهنٍ، منخفضَ الكتف اليسرى من حمل ترسه الدائريِّ، المسنَّن الأحِفَّة، ذي الرسمِ النجمتينِ البياضِ في فضاءٍ سوادٍ·

.لا شيء.، ردَّ سينيكوس متراخياً في شحوبه· .هم ينتظرون بعضَ الموسيقا· أما مِن آلةٍ في هذه السفينة، ياجوراك، لتعزف لحناً؟.

لم يردَّ جوراك البادي النحافة في سترته الداكنة الزُّرقة· تكلم الشاعر هِيْز: .لربما يستطيع العزفَ بسكينٍ على اللحم. لمس كتفَ الموسيقيِّ: .اسأل الطاهي سكيناً، ياجوراك. التفت إلى آتيما المسترسلة في ترنُّمها صارخاً بها: .اهدأيْ· لاأسمع نفسي.

.صوتُ هذه الفتاةُ الصغيرة إيمانٌ كاللون.، قال سينيكوس حين سكتت آتيما، ملقياً بصرَه إلى الرسام بارو·

.إيمانٌ ملحِدٌ.، ردَّ بارو·

.توقفا.، قال سينيكوس مبعداً بارو قليلاً: .أريد أن أسأل السيد رايدين شيئاً.

التفت إليه رايدين ذو البشرة الشاحبة، الشمعية، والشعر الأبيض القصير· أومأ برأسه يستحثُّه أن يسأل، فساءله سينيكوس:

- أفكر في وضع فهرسٍ لم يسبقني إليه أحد، ياسيد رايدين، أقسِّمه على فصول كتابي الجديد·

لم يكلف رايدين نفسَه التأنيَ· ردَّ بارتجالٍ:

- ضع فهرساً يخصُّ انتصارَ الخوف·

.من أية حقبة أبدأ؟.، ساءله سينيكوس، فرد رايدين:

- مُذْ وُجِدَ الخوفُ وُجِدَ منتصراً، كفرُّوج الدجاجة يفقس البيضةَ ويخرج متغذِّياً بلا عونٍ من أحد·

.أهذا من اقدار التاريخ الديني، ياسيد رايدين؟. ساءله سينيكوس·

اقتحمَ هيزُ المحاورةَ:

- اصرخْ، ياسينيكوس، حين تذكرُ كلمةَ .التاريخ.

تبرَّع بارو، نفْسُه، بإضافةٍ إلى سطور المحادثة:

- أطْرِبْهُ ياسينيكوس· اسَعِدْهُ· هيز يحبُّ سماعَ سُعار التاريخ·

.نعم.، رد هيز· .يُسعِدني التاريخُ مُذْ هو متواليات من الإغتصاب طَوْعاً أو كَرْهاً.

عَلَت صرخةٌ من وسط الردهة مختنقةً، لكنها تجمع الألمَ من حقوله التسعة في زفيرٍ واحد· اهتزَّ نايورا الذي أطلق تلك الصرخة حين اقتطع هيغور بسكينه قطعة من فخذه·

وضع رايدين يده على كتف الرسام بارو: .أترى؟.، ساءله· .الأحرار يصنعون الحروب، والعبيد يتفرَّجون.

.ومن يصنع السِّلْم، ياسيد رايدين؟.، ساءله الرسام، فردَّ الشيخ المحمَرُّ عروقُ العينين:

- الأشرار·

قرَّب سينيكوس رأسَه من رأس رايدين، فيما ظلَّ بصرُه على نايورا المترنِّح في جثوِّه كأنه سينقلب على أحد جنبيه:

- كم حرباً قُدْتَ في أوروبا؟·

هزَّ رايدين رأسه في سخرية: .اسْمعْ، ياسينيكوس.، قال· .أنت روائي· خُذْ مني هذه الحكاية· دوِّنْها إن شئتَ.

.هاتها.، ردَّ سينيكوس·

.كان لديَّ أسير، مرةً، في أحد معسكراتي.، قال رايدين· .فاتحني، على نحوٍ مفاجئٍ، برغبته في الفرار.

.ماذا فعلتَ بهِ؟.، تساءل سينيكوس·

.وضعتُ لهُ خطَّةً للفرار.، ردَّ رايدين·

ابتسم سينيكوس: .تعني نصبتَ لهُ فخًّا.

.لا.، ردَّ رايدين·

.أهرب الأسير؟.، تساءل سينيكوس مبتسماً·

.نعم· هرب الأسير.، رد رايدين· أضاف: .لاتكتب هذه الحكاية إن وجدتَها ساذجة· لكنْ مَن الأذكى مِنَ الآخر: الأسيرُ الذي أعلمني بنيَّته الهربَ، أم أنا الذي منحتُه خطةَ الهرب؟.

.أحصل هذا حقًّاً؟.، ساءله بارو المصغي إلى محاورتهما، فردَّ رايدين:

- حصل حقًّا·

.هذه ليست حكاية جيدة، ياسيد رايدين.، قال سينيكوس· .قصيرة، بلا تفصيل.

.أعندك أفضل منها؟.، ساءله رايدين، فردَّ سينيكوس:

- نعم· اجتمع حمار، وبقرة، وغزالة، حول جثة أسدٍ ميت· قال الحمار: فلْنسلخْ جلدَ رأس الأسد، ولْنصنعْ منه قناعاً نرتديه فلا تهاجمنا الأسود·

.لماذا توقفتَ؟.، ساءله رايدين· استحثَّه: .ثم ماذا؟.

.تخاصموا.، ردَّ سينيكوس· .أراد كلٌّ واحد أن يستأثر بالقناع لنفسه، لأنهم تنبَّهوا إلى أن جلد رأسٍ واحد يكفي قناعاً واحداً، لاغير. صمت ملقياً بصرَه إلى نايورا مائلاً، متكئاً بمرفق يده الممسكة بالسكين على الأرض المعدن·

.وماذا جرى بعد ذلك؟.، عاد رايدين سائلاً، فردَّ سينيكوس:

- لاشيء·

- لاشيء، ياسيد سينيكوس؟·

- لاشيء، ياسيد رايدين· لم يكن معهم خياطٌ حتى يفصِّل قناعاً من جلد رأس الأسد·

.هذه الحكاية بلا ظرافة، ياسينيكوس.، قال بارو متطفِّلاً: .عندي حلٌّ يجعلها ممتعة.

.هاتِ الحلَّ، يالقيْطَ اللون.، قال سينيكوس·

.يذهب الحمارُ إلى أسدٍ خيَّاطٍ، ويطلب مساعدته في تفصيل قناع من جلد رأس الأسد الميت مقابل أجرٍ.، قال بارو·

.ماالأجرُ الذي سيدفعهُ الحمارُ للأسدِ الخياط؟.، ساءل رايدين الرسامَ، فرد بارو:

- أن يأكل الأسدُ الخياطُ الحمارَ مقابل تفصيل قناعٍ له من جلد رأس الأسد الميت·

.رائع.، قال هيز· .هذا يفسِّر التاريخَ كلَّه.

.نعم.، ردَّ سينيكوس· أضافَ: .تاريخ اللاوجود.

.من يؤرخ اللاوجود؟.، ساءله رايدين، فرد سينيكوس:

- اللاوجود نفْسُه·

.اللاوجودُ حياةٌ فائضة عن اللزوم.، قال هيز·

دار رايدين بوجهه على سينيكوس وهيز· تمتم:

- أنتما شخصان تحبَّان الأممَ، وتكرهان الناس·

تدخَّل بارو:

- هما يحبَّان الرسمَ، ويكرهان اللون·

استدار سينيكوس إلى سيدارو، أمِّ الرسام: .أرضِعي أولادَك شيئاً من ذلك الدم.، أشار براسه إلى سلَّتها، حيث تركُن الأفاعي الصفرُ السبع، ثم إلى رقعة الدم من حول نايورا وهيغور· .أرضِعي بارو، أيضاً.

.كلماتك، ياسينيكوس، أثارت رائحةً.، قال بارو· توجَّه بصوته إلى الموسيقيِّ: .دوِّنِ الرائحةَ لحناً، ياجوراك.

تنبَّه المتحادثون، بغتةً، إلى صوت ليمسا الواقفة مع سيميال وصديقتها، على مبعدة قليلة منهم: .لماذا تديرْنَ وجهَه إليكِ كلما التفت إليَّ؟.، ذلك ماقالته احتجاجاً صاخباً على استئثار ناؤمي أربع مرات متتالية بفم سيميال تقبيلاً·

ضحك هيز ضحكةً متآكلةً في شحوب وجهه: .هِيْه.، نادى بصوت جاف: .ماذا يعني أن تكون امرأةً، ياسيميال؟.

التفت إليه سيميال في ثوبه الأنثويِّ المتقاصِر عن فخذيه· أرعشَ جفونَه بالأهداب المستعارة الذهبية:

- يعني أن تكون رجلاً في آخر ثوبٍ تشتهي ارتداءَه·

برز القزم ملكاه في ثغرة من الحشدِ الحلقة· باعد الأجسادَ بيده وترسه، موهَناً، لكنْ غاضباً· سار في وسط الردهة حتى جاور الطاهي الجاثي أرضاً إلى جنبٍ من نايورا وهيغور· رفع ترسه المثلث الصغير عليه رسْمُ جرادة بين ثديين ناهدين، مُبَالغٍ في انتصاب حلمتيهما· صرخ قَدْرَ مايستطيع صوتُه الأخنُّ المتراخي:

- أما من أحد يريد أن يأكلني؟·

تقدَّمت ساكون منه· وضعت راحةَ يدها على رأسه الكبير:

- أكلمك اللهُ هذا الصباح، أيها الرجل الضيِّق الجسد؟·

.جسدي واسعٌ· ثيابي ضيقة.، ردَّ ملكاه وهو يرفع يدَها عن رأسه· تأملها بعينين جاحظتين، مرفوعتين إلى أعلى: .أتسألينني أنْ كلَّمني اللهُ، أيتها الواسعةُ الشحوب؟ لايكلمني هو، بل أكلمه أنا.، قال لاهثاً· أضاف: .لا أكلمه إلاَّ بعد أن يتجرع قدحَه العاشر من الشراب القويِّ.

.ماالذي يشربه؟.، ساءله أولاك، فردَّ ملكاه محدِّقاً إلى وجه نايورا المتكئ بمرفقه على الأرض المعدن منهاراً:

- بقايا نبيذ من خوابي الإنسان· نبيذٌ من مُعْتَصَر عنبِ الكروم على جروفٍ بحريةٍ، أو على جزائر يكثر فيها كهوفُ الرعاة، ومدارسُ أصول المنطق، وفروعُ علوم الإسكافيين·

.لماذا تكلمه بعد أن يتجرَّع القدحَ العاشر، أيها السيد الضيِّق الجسد؟.، ساءلته ساكون، فردَّ القزم:

- لاتفهم الآلهةُ الإنسانَ إلاَّ سَكْرى·

.أزعم أن الأَناسيَّ، أيضاً، لايفهمون الآلهة إلاَّ وهم سَكارى.، قال أولاك·

لمس ملكاه بحفاف ترسه بقعة الدم على الأرض المعدن· استدارَ مغادراً الحلبةَ في اتجاه اللفيفِ الذي يضمُّ آتيما· لازَّ ترسَها الدَّرَقةَ بترسه الحديد: .أرأيتِ ديغار؟.، ساءلها بنبرٍ يائس، فردت الفتاة الصغيرة خفيضةَ الصوت:

- لا· ماذا عن جثة ليالو؟·

.أبحث عنها.، ردَّ ملكاه تمتمةً·

.أين؟.، ساءلته آتيما·

.أين تعتقدين أنني أبحث عنها؟.، غمغم ملكاه·

.قلتَ إنك لاتعرف أين تبحث عنها.، قالت آتيما·

.بلْ أعرف.، ردَّ ملكاه·

- أين، ياملكاه؟·

- في البحر، ياآتيما·

مالت آتيما عليه بعينين ساخرتين، غائرتين في وَقبيهما:

- لا أجدُك مبتلاًّ·

.أنتِ لاتفهمين.، ردَّ ملكاه دائراً بوجهه من حوله في حيرةٍ·

.أين ترس ليالو؟.، ساءلتْه·

.مع ليالو.، ردَّ ملكاه· وضع يده في جيبه· أخرجَ آلةَ حلاقة كهربيَّة في علبة من البلاستِك: .خذي.، قال· أبقى بصره على وجهها· تمتم:

- ماالذي ستَحْلِقين بهذه الآلةَ؟ عانةَ ليالو؟·

جرى صخبٌ وسطَ الردهة الشاسعة، صادراً غمغماتٍ من حناجر طائفة نايورا الشبان، الذين هبُّوا في اتجاهه· لقد استسلم دهقان قبيلة الشطرنج بعد انهياره على جنبه في رقعة الدم: .ربحتَ، ياهيغور.، قال صاحب الترس الدائري ذي المسنَّنات الأنياب· .ربح الألم.، أضاف متخاذلَ اللسان·

نهض هيغور في ثقل جروحه القوية نازفاً، يسنده الطاهي سينون:

- ماذا الآن، يانايورا؟·

.أأستطيع اختيار نهايتي، ياهيغور؟.، ساءله نايورا، فرد اقبطان:

- ليكن خيارُك لائقاً باستراحةِ مابعد الوليمة·

فلْيُلْقَ بي إلى البحر.، قال نايورا·.

أومأ هيغور برأسه موافقاً· استدار بعينيه الكليلتين، المتراخِيتَيِّ الأجفان، إلى خدَّام السفينة، فهرعوا إليه· أحاطوا به عارياً يغطونه بتروسهم أشبهُ بمحاربيْنَ يتَّقون سهاماً تُرْشق· غادروا الردهةَ بأعقاب أحذية تركت آثاراً من الدم وراءهم، يتبعهم صوت الممثلة ساكون:

- أعطِني ثيابك، ياسيد هيغور، أُعْطِكَ صوتي·

حمل شبانُ الشطرنج معلمهم الحَكَم الدِّهقان على أكتافَهم ممدَّداً عارياً، ينزفُهُ الدمُ· اتجهوا به إلى السلَّم الآلي صعوداً إلى الممرِّ المُفضي، بين مقاصير النُّزلاء، إلى مُشْرَف السفينة· هرع أولاك خطوتين من خلفهم متصنِّعاً أنه يستوقفهم: .عُدْ في سفينة الغرقى الثانية إلى مدينة ليْهولم، ياسيد نايورا· هم يقدِّمون أربعَ وجبات في اليوم. قرع على ظاهر ترسه بقبضته، متوجهاً بصوته إلى الحشد المُوهَنِ مغادريْنَ أطراف الردهة الشاسعة:

- غادِروا إلى خنادقكم المنهارة؛ إلى حقولكم البحرية، وأسواقكم البحرية، وأعيادكم البحرية، وآلهتكم البحريين، أنتم أيها المهذَّبو العِظامِ·

انفرط الحشدُ الحلقة· تلاشى أكثر الركاب المنهكين، الشاحبين، الشبحيين، في انصرافهم المتكاسِلِ وَهناً إلى الممرات من حول الردهة الواسعة، حيث توزعت بعضُ مَرَافقِ السفينة: المكتبة، والحانة، والمطعم، والسلمان المتوازيان صعوداً ونزولاً· تقدمت آتيما من وسط الردهة· بلغت بقعةَ الدم ازداد اتساعها بالأقدام خاضتْ فيها، وداستِ الأرضَ المعدن· مشت بقدميها الحافِيتين فيها· رسمت آثاراً بأخمصيهما من حول البقعة ذاتها حلقاتٍ ثلاثاً، حُمراً، قبل أن تقف إلى جانب رامونا، التي لم تُبارح الدَّور تُلقي سطورَه متلاطمةً، وهي تتوجَّه بلسانها إلى أبيها:

- لماذا يغادرون، ياموليكي؟· أخذوا معهم إلهكَ· أخذوا دِيْنَك·

أمسك أولاك بعضد زوجته ساكون، ماشياً صوب ابنته:

- قولي لهذه الطفلة إن دِيْنَ الملك ليس دِين شعبه، وإلهَ الملك ليس إله شعبه· لهم إلههم المتوسلُ بسلَّته خبزاً في أروقة إلهي· لهم دِيْنُهم الخادم في إسطبل أفراس دِيني· لأصابعي إلهٌ· لعينيَّ إله· للساني إلهٌ· ليديَّ إله· لكل عضوٍ فيَّ دِينٌ يخصُّه وحده·

استوقفته زوجته ساكون:

- أتسمع أجراساً، ياموليكي؟

.أليست هي ذاتُها يعلِّقها شعبي على الأبواب لإخافة الدِّببة؟.، تساءل أولاك·

ترنَّمت آتيما بصوتٍ محتبَس· رفعت قدمها اليسرى وخبطت بها بقعة الدم· لم يتناثر الدمُ كما أرادت، مُذْ تخثَّر قليلاً· غادرت إذْ رأت ملكاه مغادراً صوب السلمين المتوازيين· عبرت إلى جوار ليمسا، وسيميال، وناؤمي· ألقت كلماتٍ شاحبةً من شفتيها الشاحبتين: .ياأُمَّايَ ناؤمي وليمسا، ويأبي سيميال، سأرجع لأُمضي معكم وقتاً· لن أُطيل ابتعادي.، قالت·

لم يلتفت إليها أحدٌ من الثلاثة· كانت ناؤمي وليمسا في شجارٍ من التوبيخ والوعيد، وسيميال في حالٍ مُختَطَفةٍ يهدِّئهما لحظةً، ويستسلم لحظةً لمشاحناتِ الغيرة·

لحقت آتيما بالقزم ملكاه· أدركتْه في أعلى السلم الصاعد، حيث فسحةُ تبديل الإتجاه على السلالم نزولاً وصعوداً؛ الفسحةُ ملتقى الممرات بين المقاصير: .أنت ذاهبٌ إلى ديغار.، قال مُخمِّنَةً، فردَّ:

- نعم·

.أنا آتية معك.، قالت آتيما·

.استحْلقين عانتَه؟.، ساءلها ملكاه ساخراً، فردَّت:

- ربما·

بلغا مقصورةَ ديغار· لم يضغط ملكاه زرَّ الجرس، بل قرعه بالزاوية المسنونة في ترسه المثلث· أتاهما صوتُ ديغار مختنقاً بشتائم من لغاتٍ شتَّى، قبل أن يفتحه·

كان الرجل الطويل، الممتلئ، مضعضعَ الجسم خمولاً، متهدِّل الأعضاء، خاملَ النظر في شحوبٍ يمتصُّ جلدَه مصَّا: .ماذا تريدان؟.، بادرهما بنبرٍ ضجَرٍ، واستدار راجعاً برنينٍ من قبقابه الحديد على الأرض المعدن·

دخلت آتيما وملكاه المقصورةَ المعتمةَ لم تُضَأْ، ولم يُرفعِ الستارُ الزردُ عن نافذتها الدائرية· اتجه ديغار العاري إلاَّ من سرواله الداخلي الواسع، الطويل حتى ركبتيه، إلى السرير· تمدد عليه بجنبه· غمغم دافِناً نصفَ وجهه في إبط ذراعه اليمنى·

.لم نَرَك في الردهة.، قال ملكاه، فردَّ ديغار تمتمةً:

- لم أخرج من مقصورتي منذ ثلاثة أيام·

اقتربت آتيما من سرير ديغار· ساءلته:

- أتعرف أين جثة ليالو؟ ملكاه يبحث عنها منذ ثلاثة أيام·

صحَّح ملكاه تصريحَ آتيما: .بحثت عنها اليوم.، قال مثبتاً عينيه الجاحظتين على ديغار: .أتعرف أين جثة ليالو؟.

رفع ديغار رأسه قليلاً، في إرهاق· تمتم:

- لماذا تكررون عليَّ سؤالكم هذا؟·

اقترب ملكاه من السرير، بدوره· تساءل:

- ماذا تعني بصيغة الجمع هذه؟ من سوانا سألك عن جثة ليالو؟·

.أسمعُ أصواتاً.، ردَّ ديغار· .أصوات من أعلى، ومن أسفل· أصوات تكرِّرُ أصواتاً.

.نحنُ كائنات التكرار الأكثر مهارة؛ حيواناتُ التكرارِ المفكِّرِ.، قال ملكاه بصوته الأخنِّ المُنسحب تَعَباً إلى رئتيه·

.إنْ كُنا حيوانات التكرار، فماذا تكون الحيوانات؟.، ساءله ديغار، متكئاً على مرفقه في تمدُّده على السرير·

نقر ملكاه بحفاف ترسه ترسَ ديغار المُسنَد إلى الحائط، من جهة الوسادة:

- تكرارٌ غريزيٌّ·

.ومماالغريزةُ؟.، ساءله ديغار، فردَّ ملكاه:

- تفكيرُ خُصيةٍ في إقامة نظام لليأسِ الناجح، المتفاخر بكونه براعةً إلهية·

.ومماالقتلُ؟.، تساءل ديغار، فردَّ ملكاه:

- إختصاصٌ فقهيٌّ، من تشريعات الدِّين إلى تشريعات بَيْعِ نقانق الخنزير الشهية·

رفع ديغار رأسه قليلاً· حصرَ وجهَ آتيما بنظرةٍ متلوِّية:

- تشبهين القتلةَ·

نقر ملكاه بترسه ترس ديغار نقراً أقوى· ردَّ:

- من مِنَّا لم يحلم بقتل أحدٍ؟ مَنْ لم يفكر بالقتل مائة مرة يكُنْ صاحب أحلام يقظةٍ متساهلة كزُبٍّ لايتعفَّف حتى عن بَيْكِ عنكبوت·

.أفَرْجُ العنكبوت وضيعٌ، ياملكاه؟.، ساءله ديغار، فردَّ ملكاه:

- هو طيِّبُ المذاق لَعْقاً فقط، ياديغار·

لمست آتيما بحفاف ترسها قبقابَ قدم ديغار اليمنى، على طرف السرير:

- أين جثة ليالو؟·

.لاأعرف.، ردَّ ديغار بصوتٍ غير أكيدٍ في نبرِهِ· .ربما تستحمُّ، الآن، بلهب أنيقٍ، مستعِرٍ، ضِرامٍ، منعشٍ لايخذل.

نظر ملكاه إلى باب حمام ديغار· اتجه إليه· دفعه مفتوحاً على آخره·

تراجعت آتيما خطوتين، مسدِّدةً بصرَها إلى أعماق أرض الحمام· فتحت فمها بلا تساؤل في ملامحها، بلا حيرة، بلا صدمة: .إنها ليالو.، تمتمت·

كانت جثة ليالو ممدة في الحلقة الدائرية وسط أرض الحمام المعدن، عارية، ممزَّقةَ اللحم على الكتفين والثديين نَهْشاً· دارت آتيما من حولها نصفَ دورة· جثا ملكاه قرب قدميها ينظر إليهما لاإلى وجه ليالو: .ترسكِ عندي.، تمتم· نهض واقفاً بعينين محدِّقتين، من بين أجفانهما المتقرِّحة، إلى آتيما· خرج من الحمام في هدوء·

وقف ملكاه وآتيما إلى جهة قدمي ديغار الممتمدد على سريره· خلع كلٌّ فردة من قبقاب ديغار· رفع ديغار رأسه مُوْهَناً، في تساؤلٍ أخرسَ من عينيه الغائرتين، مُصوَّبتين إلى يدي ملكاه وآتيما، اللذين لم يُطيلا التريثَ في جواب عن التساؤل في عينيه الغائرتين· انهالت الفتاة الصغيرة، أولاً، بالقبقاب الحديد على رأس ديغار· تبِعها ملكاه ضرباً·

ظلَّ ديغار على هدوءٍ مَّا من فرْط الإعياء، لايقاوم أو يتحامى· تناثر دماغُه بعد الضربة التاسعة والتسعين من القبقاب الحديد على جمجمته· تراجع ملكاه وآتيما ملطَّخيْنِ دماً، من وجهيهما حتى مرفقَيْ ذراعيهما· رَمَيا بالقبقابَ أحمر، دافئاً، إلى السرير· ترنَّحا تعباً، مفتوحَيِّ الفمين يشهقان من حنجرتين كادتا أن تنسدَّا لهاثاً· أطبق كل منهما فخذيه على ترسه· أخرجا غليونيهما· حشياهما عشباً أبيض· أشعَلاهما بالقدَّاح مُبادلةً· تنشَّقا دخاناً من الأمهاتِ الدخانِ، أبيضَ معافىً بياضاً، خليقاً بالرئات أن تتناتش كالنسور نَفَساً منه· خرجا من المقصورة· تركا بابَها مفتوحاً كلُهاثيهما·

الفصل الحادي عشر

(Anemonia Sulcata)

دارت الحورية كاليس، البيضاء، المرقطة الجلد بالحراشف، من حول بناتها المنتصباتِ ثابتاتٍ، بتوازنٍ من خَفْق زعانف أذيالهن الرمادية· استعرضت ببصر عينيها البرتقاليتين النُّفَّاخاتِ البثورَ أكملَتْ انتشارها على الأجساد حتى غطت الوجوه أيضاً· كانت جلودهن رقيقةً فوق البثور المنتفخة كُراتٍ صغيرة كالبلور رقَّةً شفافةً، مضاءةَ الأجواف ببزورٍ لهبٍ· وَهُنَّ البناتُ الخمسُ، الممتثلاتُ لفحص أمهنَّ أجسادَهن، رحن يفقأنَ بعضَ تلك البثور على ظواهر أيديهن· يعتصرْنها بالأنامل فينقذف من أجوافها شرارٌ يلبث طويلاً قبل أن يخمد· غير أنَّ كلَّ بثرةٍ مفقوءة كانت ترجع نابتةً، من فورها، كُرةً شفيفةً ببزرةٍ من اللهب فيها، في الموضع ذاته·

كاليس نفْسُها، بعد أن أكملت تدقيقها في أجساد البنات، فقأتْ بَثَرةً على ذقنها· تأملت البزرةَ اللهبَ متمايلةً صعوداً، مَرِحَةَ الحركة في اتِّقادها، ضاحكةً هَمْساً حين خَبَتْ وانعدمت· نظرت إلى ثدييها تلوَّى فوقهما شعرُها الكثيف، الشديد الزرقة، متماوجاً من نَفَس الماء في رئة الأعماق· نفخت فقاعاتٍ متصلةً، متقطعةً، من فمها· وقفت منتصبةً قُبالة بناتها بالحركة المقتدِرة لزعنفة ذيلها البرتقالية كلون عينيها· تلفتت، بعد تأمُّلٍ، إلى الشفق الدفين متراكباً من أبعادٍ سودٍ ورمادية، وأعرافٍ من لونٍ أخضَرَ عَكِرٍ في لُجَج السواد والرماديّ·

كاليس وبناتُها صِرْن، في يومهن ذاك من رحلتهن، على مشارف الحلقة المائية، المُضاءَةَ صُفرةً فاتحةً من كثرة شقائق البحر البرتقالية، والمرجان الأصفر، في عُرْض تريتونفال ـ بحر الشمال النهائي· رقصَتُهن الموعودةُ تنتظرهن على سطح الحلقةِ الماءِ هناك: ستُّ قفزاتٍ في الهواء، ربما؛ زحفٌ بزعانف أذيالهن العريضة كفعْل الدلفين ـ الزَّامورِ منتصباً على زعنفة ذيله فوق الماء· هُنَّ سيرتجلن رقصتهن، في الأرجح، باستلهام الأرواح المتخاطِرة ـ أرواحِ حورياتٍ من جنسهن غادرن مضيقَ جُوْرِيْدْ إلى المستعمرات الصغرى الكهوفِ المرجانِ، أو أدغال الأنوميَّاتِ ـ الشقائق القرمزية·

نفخت بناتُ كاليس الخمس من أفواههن فقاعاتٍ متراخيةَ الحلقات، بدفْعٍ متراخٍ من الهواء في الحناجر· نفخت كاليس، بدفْعٍ أقوى من رئات بناتها، فقاعاتٍ تلاحقت متصادمةً· فتحت فمها تتلقَّف تلك الفقاعات فَقْأً بأسنانها· فعلت بناتُها مثلها· خفقن بزعانف أذيالهن منسياباتٍ في اتجاه الشفق، تحت الماء، متراكباً سواداً ورمادياً· انسابت أمهن، أيضاً، باندفاعٍ رَشْقٍ·

قليلاً قليلاً تفتَّحت الأبعادُ المتراكبة في الشفق الماء عن ألوانٍ واضحةِ الذاكرة، مُقْنِعة في سردِ سيرتها مُذْ خيَّرتْها النشأةُ الكليَّة عنصراً بقاءً فاختارت نفْسَها اللونَ، كاختيار العناصر الأخرى قَدَرَ حظوظِها من شراكة البقاء·

كاليس وبناتها اقتربن من ثقة اللون بخياله منكشِفاً في حلقة الأعماق الدائرية من بحر تريتونفال ـ الحلقةِ البستانِ الأعظم من شقائق الغمْر البرتقالية، والمرجان الأصفر، مضاءً بصبيبٍ من الشعاعات استجمعت سهامها رَشْقاً من الأعالي إلى أعماق الغمر·

على مهل تقدَّمت كاليس إلى الحلقةِ البستان النورانيِّ تحت الماء· لمست براحتي يديها شقائقَ وأقحواناتٍ متراقصة الأهداب· مسَّت بذيلها أغصاناً من نبتٍ كَوْثيِّ الأوراق بُنِّيةً، ومرجاناً متشعباً· انتصبت قُبالةَ بناتها، في هيئة التذكير بغاية رحلتهن، فانتصبن قبالتها باقتدارٍ من زعانف أذيالهن أن تحفظ الأجسادَ متَّزنةً في ثباتها لاتتقدم ولاتتراجع· دارَ الماءُ تحت الزعانف على نَفْسه من توالي الخفق تَرْنيقاً كالطائر يُرَنِّقُ بجناحيه، في موضعه، بلا قصدٍ إلى الطيران·

لقد وصلن، أخيراً، إلى الثغرة الدائرية في عُرْض بحر تريتونفال؛ الثغرةِ الوهْدة العميقة أحدثها صَدْمُ نيزك للأرض، ربما، أو أحدثتْها اللوعةُ قعَّرتِ المكانَ هناك، بثقلٍ من خيبة الأرض أن يتخيَّرها الوجودُ لقياس اتِّزانه· وهنَّ سيستعرضن، على سطح مياه تلك الثغرة الدائرية، رقصتهن امتناناً للموضع الأول انبثق فيه نوعُهن الحورياتُ من ولادةٍ تلقاءٍ لم يؤرِّخها أثرٌ في الماء، أو في الهواء·

كاليس تأهَّبت، في انتصابها، لتذكير البنات الخمس بما يعرفن من حركات الرقص، كعادتها مُذَكِّرةً إيَّاهنَّ ـ هُنَّ المتقِناتِ عرضهنَّ ـ بضروبٍ إضافاتٍ من التثنِّي، والقفز، أو باختزالها إلى القَدْر اللائق بدقيقتين رقصاً، لاأكثر، معتصَرَتيْنِ زيتاً من ثمرة الوقت على خبز الأرواحِ·

تمايلت كاليس، في انتصابها قبالة بناتها الخمس، برهةً، ثم طوت زعنفةَ ذيلها إلى خلفٍ تاركةً جسدَها أن ينحدرَ ساكناً، حتى بلغت أرض الأعماق· قلَّدتها الحوريات الصغيرات طَبْقاً للحركة على الحركة· صفعت كاليس الأرض، فجاءة، بزعنفة ذيلها، فانقذفت نيزكاً، ثم ارتدَّت في سبع دوراتٍ حلقاتٍ على نفسها· صفعت بناتُها بزعانف أذيالهن الرمادية الأرضَ منقذفاتٍ إلى أعلى· دُرْنَ حول أنفسهن سبعَ دوراتٍ حلقات تضيق الواحدة منها على الأخرى·

ضمَّت كاليس راحتي يديها على ثدييها· خفقت بزعنفة ذيلها، منتصبةً، خفْقاً قويًّا، متواصلاً، تراجَعَ بجسدها ظَهْراً إلى الوراء· توقفت متراخيةً مُذْ لم تؤدِّ بناتُها الحركةَ تلك· هزَّت يديها تستحثُّهن على مجاراتها، فبقين ساكناتٍ· عادت إليهن مندفعةً· دارت من حولهن دورةً عنيفةَ الصَّفْع للماءِ بزعنفة ذيلها، فتأرجحْنَ في انتصابهن· دفعتهن بيديها أن يتحرَّكن فتحرَّكن كلُّ واحدةٍ في أداء

متخالف، بلا اتِّزان، يصدمن الأرضَ ويَعْليْنَ· يتحاكَكْنَ· يرتطمن كتفاً بكتف· يتلاصقن بلا داعٍ· يتناكَسْنَ· ينبسطن وينتصبن· يحلِّقن في ارتخاء· يتوقفن ساكناتٍ فينحدرن سقوطاً على أرض الأعماق·

فتحت كاليس فمها قَدْرَ وَسْع شدقيها أن ينفتحا، كأنْ ستلتهمهن غيظاً· لكزت إحداهنَّ بمرفقها وهي تتوسطهن، فانفقأت بثورٌ كثيرة في خاصرة الحورية الصغيرة، انقذفَ منها شرارٌ متطاول· تراجعت الأم متهدِّدةً الأخريات عساهنَّ يستعِدْن مِرَانَ أجسادهن على الرقصة المنتظرة· لكنَّ الحوريات الصغيرات شُغِلْنَ بما لم يخطر ببالهن، مُذْ بدأت البثورُ النُّفَّاخاتُ تنفقئُ من تلقائها عن البزورِ اللهب· ولم يكن الشرارُ ينقذفُ، هذه المرة، بل يبقى ملتصقاً بموضعه من أجسادهن كشُعَلٍ صغيرة من اللهب في مصابيح صغيرة·

إنهمكت الصغيرات في إطفاء تلك الشُّعلِ منبثقةً من خرومٍ في الجلود، كأنَّ أجسادهن تنفثُ من مسامِّها أنفاساً لهباً، من غير أن تنطفئ تلك الشُّعل، أو تخبو· كاليس تنبَّهت، وهي مستعرضةٌ بناتِها ببصر عينيها الجاحظتين ذهولاً، إلى النُّفَّاخاتِ البثورِ تتفقَّأ على ثدييها، ثم على كتفيها، ثم يكتسح الفَقْأُ التلقائيُّ، على نحوٍ متسارعٍ، متلاحق، كاملَ أعضائها·

باتت كاليس، وبناتُها، مكتسياتٍ، كحراشفهن، بالشُّعَلِ اللهبِ الصغيرة متَّقدةً في الماء· تقاربن مرتبكاتٍ، بل هلعاتٍ، منسحقاتٍ حيرةً· تمرَّغن في الشقائق المائية، وغصون المرجان، على أرض الأعماق، فكسرن بعضاً، وقوَّضن بعضاً، وأتْلفن بعضاً· تباعدن متأمِّلاتٍ واحدتُهنَّ الأخرى مضاءةً في الثغرة الدائرية المضاءة من مياه بحر تريتونفال· ارتعشت زعانفُ ظهور الحوريات الصغيرات، الرماديةُ· ارتعشت زعنفةُ ظهر أمهن الخضراءُ، المخططةُ بحزوزٍ سودٍ وقرمزية· تخبَّطت زعانف أذيالهن بين نبات البستانِ المائيِّ·

أغرقَ الماءُ الماءَ في زفيره·

الفصل الثاني عشر

(Banded Venus)

كان المطرُ الرذاذُ، الخفيف، قبل ظهيرة ذلك اليوم بقليل، يتناثر عنيفاً من هبوب الريح· مسح القبطان هيغور نظارته بحاشية قميصه المسدل فوق البنطال، وأعادها مستقرَّةً على أصل أنفه· حاول إعادة شعره الأبيض، الطويل، منتظماً بأصبعه، بلا جدوى· تطايرت الخُصل وتصافعت· أسند صدره إلى حاجز مُشْرَف السفينة القضبان الثلاثة، ملقياً بصره إلى البحر، أسفلَ، وقد ازدادت انحناءةُ ظهره بروزاً في ثيابه الخفيفة، غير اللائقة بمجابهة ريح كتلك، التي ألجأت كلَّ الواقفين على مُشرف السفينة إلى التحامي بتروسهم منحنين، أو جاثين على الأرض المعدن، مرهَقين، مهدودين إعياءً، متراخي الأعضاءِ مستنفَدَةً كناجين من مجاعة، أو مُضْربيْن عن الطعام·

أخرج هيغور ساعة معدنية، بغطاءٍ رسومٍ غائرةٍ، من جيب بنطاله، متصلة بسلسلة رقيقة معقودة إلى عروةٍ في القميص· ضغط على بروز في استدارتها فانفتح الغطاء عن عقربيها الأسودين في لوحها الخالي من ايَّ رقم من أرقام الوقت، أو علامة من علامات التبيين· حدَّق إلى الزمن فيها متساويَ الأبعادِ استدارةً، مجهولاً في معلومه، شفيفاً زجاجاً ومُصْمَتاً حديداً، مفتوحاً ومغلقاً، سائلاً وجَمَداً، هلاماً لزجاً ولدِناً متخثِّراً، جريحاً ومعافىً، ناضجاً وفِجَّاً، مطهوَّاً ونيئاً، بِكْراً وعتيقاً، ممكناً ومُحالاً· كانت ساعة هيغور من قِنَى الحَفْر بآلات الوقت في الوقت قبل قرنين ربما· وإذْ حدَّق هيغور إلى عمقها السطحِ مُعتقَلاً بسُلطة العقربين، حدَّق إلى الثانية الأولى ذاتها من قِسْمة الدقيقة الأولى، التي أمسكت بيد أبيها الأعمى ـ الوقتِ، حين أنجز الصَّنَّاعُ الساعةَ الآلةَ تلك، لتقوده إلى أبديته في اللابُعد على لوحها الدائريِّ الصغير·

لم تكن الدقائقُ الثلاث والأربعون، الباقية على موعد ظهور الحوريات، داعيةَ استعجالٍ لخروج الركاب المنهكين، الشاحبين في جلودٍ منطبقة على العظام، إلى مُشرَف السفينة، في تلك الريح والرذادِ المطرِ الخفيف، العصبيِّ، المتهوِّر، منتعلين قباقيبهم، جميعاً، حتى هيغور، وخُدَّامه المرتجفون حوله· كان في مستطاعهم، وقد انتعلوا القباقيبَ الحديدَ، الثقيلة، التي يُجيزُ لهم ارتداؤها، حين يصعدون أسرَّتَهم للنوم، أن يتخلَّوا عن تروسهم· لكنهم كانوا على مُشْرَف السفينة بقباقيبهم وتِرَسَتِهم أيضاً، إلاَّ اللفيفَ الباقيْنَ من قبيلة الشطرنج·

طائفةُ نايورا، الشبانُ، لم يبرحوا موضعَهم قرب حاجز السفينة القضبان، على مُشرَفها، منذ الثلاثة الأيام على إلقائهم نايورا ممزَّقِ اللحم، حيًّا بعْدُ، إلى البحر· رموا بصناديق الشطرنج الرقيقة الجروم أرضاً، وتكوَّموا بعضُهم حول بعضٍ كقطيعٍ صغيرٍ من الخراف المذعورة· كانوا منحنين بانطواءٍ، محتجبي الأجسِاد وَهَناً، ويأساً أيضاً، وراء تِرَستهم الدائرية المسنَّنة الأحفَّة، المتشابهة

نَسْخاً باللون البرتقالي يتوسطه وجهُ فتاة مختبئٌ بنصفه في خُصل بِيْضٍ من شعرها المتماوج أفاعيَ· لم يكونوا ينظرون إلى أحد، بل يتلافون نظرات الآخرين بوجوههم المُطْرقة، الشاحبة، البارزةِ عظام الوجنات في الجلود· ولربما رفعوا، بعض الآناءِ تروسَهم يتَّقون بها الريح، لكنْ ترجع أذرعُهم متراخية فتتراخى التروس متعبَةً من حمل رسومها·

الركاب المتناثرون على مُشرَف السفينة مكشوفاً للريح، وللرذاذ العصبيِّ، فرادى وأزواجاً، وثِللاً، توزَّعهم الوهنُ فاتَّكأ بعضهم بالصدور على حاجز السفينة، وجثا بعضُهم أرضاً، وتقاسم بعضهم المقاعدَ الحديد لصق هيكل السفينة المستطيل حيث استطاعوا، وانضمَّ بعضهم إلى لفيف القبطان هيغور في قميصه المنتفخ الظهر من الإنحناءة الصغيرة فيه، ومن نفخ الريح، التي لم يحجب عزيفُها العويلُ رنينَ القباقيب الحديد ترتطم بالأرض المعدن من ثقل الوهن في الأقدام، أو يتحَاكُّ بعضها ببعض وقد تداعى اتزانُ الأجساد، واختلَّ شرعُ المشي ومنطقُهُ·

.هاهم في كهوفهم الجديدة. ـ ذلك ماقاله المعماري لوتيانو محدِّثاً رفيقه رايدين، في قدومهما من الباب ذي الدفتين تنفتحان إلى داخلٍ، وإلى خارجٍ معاً· خفقت سُترتاهما خفقاً ذريعاً فزرَّرا عُراهما بعيون أغمضَ أجفانَها صَفْعُ الريح، أو كاد· تساندا متراخيين· .الكهوفُ العماراتُ العالية.، أضاف لوتيانو العريض الأنف مع قِصَرٍ· تحامى بترسه الدائري الكبير عليه رسوم سلالم مكسورة· .كان الإنسانُ الأول يخرج من كهفه إلى الأعراء الفسيحة مباشرةً· أما أهل الكهوفِ العمارات فعليهم، للوصول إلى عراء، أو ساحة، أو حديقة، أن يقذفوا بأنفسهم من الشرفات· التاريخ القادم هو تاريخ المشي في الهواء، من الشرفات إلى الأرض الإسفلت.

.لم أفهم.، تمتم رايدين· .منطقُك يغدو غير مفهوم، كلونك الأسود لايراه أحدٌ سواك.

.متى كنتَ في سرير امرأة، آخر مرة، يارايدين؟ كم عمرك الآن؟.، ساءله لوتيانو·

.ستٌ وستون سنة.، ردَّ رايدين· توقف· نقر بعقب قبقابه أرض مُشْرَف السفينة المعدن: .إبرةُ عقلك بلا خيط، يالوتيانو· أنت ترقِّع مِزَقاً من الكلمات بلا خيط.

.سألتُك متى كنتَ في سرير امرأة· لافتوق في سؤالي يحوجُها خيطٌ للرَّتْق.، قال لوتيانو·

.قفزت من كهوف العمارات إلى عمري، يالوتيانو· وها تدفع بي كي أسقط من سريري.، قال رايدين متراخي الذراع بترسه المستطيل، الأحمر اللون، عليه

رسمُ عربة تجرُّها هياكلُ عظميةٌ ـ بشرٌ، وحيواناتٌ صفَّان طويلان·

.عن أيِّ سرير دفعتُ بك؟.، ساءله لوتيانو، الذي يصغر رفيقَه بعقدٍ، في الأرجح·

.السرير الذي لم أعد فيه.، ردَّ رايدين·

.لم أفهم.، تمتم المعماري لوتيانو·

.السرير الذي لم أعد فيه مع المرأة التي ليست فيه.، ردَّ رايدين· اتَّقى عينيه بذراعه من الريح: .أهذا عويلُ الحوريات؟.

.هذا عويلُ فروجهن، يارايدين.، قال لوتيانو بإصغاء إلى عزيف الريح· أمسك بعَضُدِ رفيقه:

- لماذا لم تجلب سريرَك معك؟ قد تكون فرصةُ زبِّك الأخيرةُ إن قفزتْ حوريةٌ بنفسها من الماء إلى السفينة·

.فرصتي الأخيرة؟.، تساءل رايدين بصوتٍ مستنكِرٍ· .أين كنتَ أنت، يالوتيانو، حين كانت النساء يتزاحمن على سريري إرضاءً مقابل أن أرسل بأزواجهن إلى حروب لايعودون منها؟ أكنتَ تبني، آنئذٍ، عماراتٍ من منيِّ أبيك؟.

.لاأعرف أين كنتُ، آنئذ.، قال لوتيانو· .لكنني هنا، الآن، وسؤالي هو هو: متى كنتَ في سرير امرأة آخر مرة؟.

.ماذا كنتُ أفعل مع ليالو؟ أعلِّمها قيادة دبَّابةٍ؟.، ردَّ رايدين·

.ليالو· نعم.، تمتم لوتيانو· .تصير ذاكرتي ورائي، كأنَّ ليالو لم تكن معنا قط.

.رائعٌ أن يتذكَّر خيالُك شيئاً من ذلك النيك الشاعريِّ.، قال رايدين·

.نيكٌ شاعريٌّ؟.، تساءل لوتيانو·

.نعم.، ردَّ رايدين· .هُوَ كرهزْ زُبك في فرْج غيمةٍ.

.لستَ وقوراً اليوم، يارايدين.، قال لوتيانو ساخراً· أشار بيده إلى البعيد: .إنها الثغرةُ البرتقالية في مياه تريتونفال.

.أوه.، غمغم رايدين مستفيقاً على غاية الرحلة: .ماذا لو نزلْنا، جميعاً، من السفينة سابحين في ثغرة المياه الدائرية، تلك؟.

.تبدو مكاناً جيداً كلونٍ.، ردَّ لوتيانو، فهز رايدين رأسَه معترضاً:

- كلُّ الأمكنة رديئة إلى أن يثبتَ العكس·

.بل كلُّ الأمكنة رديئة حتى لو ثبتَ العكس.، ردَّ لوتيانو·

.قلتَ إن تلك البقعة الدائرة مكان لائق.، قال رايدين مذكِّراً، فردَّ لوتيانو متحامياً من الريح بذراعه أمام عينيه:

- كذبتُ· الأمكنةُ كلّها إمَّا رديئة، أو أردأ·

.أترى نفْسَك أجمل بادِّعائك، يالوتيانو، أنك أسْوَد؟.، ساءله رايدين في سياقٍ منقطع الصلة بحديثهما عن الأمكنة·

.لاأدَّعي أنني أسْوَدُ، يارايدين· أنا أسودُ· هكذا أراني.، ردَّ لوتيانو·

تكوَّم رايدين الضخم، في مشيه المتراخي وَهناَ: .مَنْ يبدو مضحكاً: نحن الذين نراك، أجمعين، شخصاً أبيض البشرة، أمْ أنت الذي، وحيداً، ترى نَفْسَكَ اسودَ، يالوتيانو؟.، ساءله· رفع ترسه في ثقلٍ حتى بلغ به خاصرته: .لاأريد جواباً.، قال· .ثمَّت، في مكانٍ مَّا من عالمنا، نساءٌ يصبغن أسنانهن بصبغٍ أسود طلباً للجمال· أفعلْ شيئاً مثلهن. لهث كأنما أثقلت الكلماتُ وهنَه وَهَناً·

.مايُعجب خصيتي اليمنى قد لايُعجب خصيتي اليسرى.، قال لوتيانو بعينين مُرسلتين إلى حيث يقف هيغور ذو القميص والشعر الأبيض المتطايريْنِ·

.كنا نتحدث على لونك· ماعلاقة خصيتيك بلونك، يالوتيانو؟.، ساءله رايدين، فرد المعماريُّ:

- إننا واقفون، الآن، بعد أيامنا بقليلٍ، أو على أحفَّة أيامنا·

.نعم· بل ربَّما تركنا أيامَنا، في مقاصيرنا، على الأسِرَّة مع نساءٍ لم نلمسهن.، قال رايدين·

.هاتذكَّرتَ النساءَ، أخيراً، يارايدين.، هتف به لوتيانو بصوت متقطع النَّبر: .يبدو هذا اليومُ جديراً بالحنين إلى ماضٍ خائب.

تعثَّر رايدين بقبقابه· شتمَ الحديدَ، والنحاسَ، والتوتياء، والزِّنك، والفولاذ أيضاً، بكلماتٍ أنْصافٍ· أضاف إلى شتائمه مايليق، مثلَها، بالمنطق: .لم أفهم، يالوتيانو· خُصيةٌ، وسوادٌ، وخيبة، وقباقيب.، قال تمتمة· استوقفه ممسكاً بذراعه:

- أينَ كنتَ، يالوتيانو، حين لم تزلْ حوريةً؟·

.ماذا؟!.، تساءل المعماري من كلمات رفيقه لم يكملِ المساءلةَ في ماالتبسَ عليه، إذِ انصرفَ بصرُه إلى آتيما قادمةً من الباب ذي الدفتين، في قميص قطني ضيق، قصير حتى منتصفَيْ ردفيها، عارية الفخذين تماماً، حليقة الرأس حتى بروز جلد فروتها ملتمعاً، ظاهرةَ العظام في وجنتيها، شاحبةً شحوباً رمادياً، عاضةً بالأسنان على غليونها من غير أن تمسك به· اقتربت منهما· وجَّهت صوتَها، منحرفاً من زاوية فمها اليسرى بحروفٍ تتخبطُ بِمَبْسِم الغليون، إلى رايدين:

- هل رأيتَ ملكاه؟·

.ملكاه؟.، تمتم رايدين· ابتسم مضيفاَ: .لايُرى حتى لو كان على قُرْب شبرين.

حدَّجتْه آتيما بنظرةِ ازدراءٍ غائرةٍ في وَقبيها الحائلين إلى سوادٍ· ترنَّمت من فم أطبقت اسنانَه، وشفتيه، على الغليون· انعطفت سائرةً في اتجاه هيغور ولفيفه·

الشجارُ، الذي استقبل به المشهدُ الفتاةَ الصغيرة، في اقترابها من لفيف القبطان، لم يكن يَشْغَلُ أحداً من الحاضرين المتعبين، متناثرين على مُشرَفِ السفينة كناجين من مجاعة لم يخسروا لحماً إلاَّ لحومَ وجوههم· آتيما، نفسُها، وجدته مملاً في يومهم ذاك، الحافي القدمين تأهُّباً للخوض في ماء الموعد مع الرقص المنتظَر· كانت الأختان تيرين، ورامونا، على بعد خطوات من حاجز السفينة القضبان تتبادلان ضرباتٍ مفرطة الكَلَل من ترسيهما، كأنما تتداعبان، وليس تتهارشان هِرَاشَ كلبيْنِ عَقورين بأنيابٍ كالتي في فم غضبهما·

.اعترِفا. ـ كانت تيرين تتوجه بصوتها، كأختها، إلى أبويها·

هما كانتا تقْتَصَّان من أبويهما، في التعارك بالترسين، وليس تقتصُّ الواحدةُ من الأخرى· .اعترِفا.، تتمتمان كلما هوت ذراعُ إحديهما بالضربة على أختها· آتيما لم يَقُدْها فضولُها اقتراباً منهما، بل ذلك اليأس المتفجر شحوباً في وجه أمهما ساكون، جاثيةً أرضاً، ممسكة بحاشية سترة زوجها أولاك السوداء بلا كُمَّين· وقفت على قُرب منهما ببصرها إلى رامونا وتيرين: .لاتعترِفا.، قالت من زاوية فمها الممسك بالغليون بين الأسنان·

خفض أولاك بصرَه إلى وجه آتيما بنظرةٍ بَرَمٍ:

- أفهمتِ ماتقصده ابنتاي من كلمتهما، أيتها الصغيرة الفضولية؟·

.تعنيان أن تعترفا أنكما جبانان.، ردت آتيما

.أوقاحةٌ هذه، ياآتيما، أم شحوبُك ناطقاً؟.، ساءلها أولاك، فردت آتيما:

- اعترِفا، إذاً·

.بِمَ؟.، ساءلها أولاك·

.بطبعكما كجبانين.، ردَّت آتيما· أمسكت رأس الغليون بأصابعها وأبعدته عن فمها: .حين تختار الأنثى أن تصير أمَّا، والذَّكر أن يصير أباً، يدخلان المعارك جبانيْنِ.

أنزل أولاك بصرَه إلى فَخْذَيْ آتيما العاريتين في سروالها الداخلي، الضيق الظاهر من تحت حاشية قميصها القطني القصير: .مَنْ لقَّن فخذيك فلسفة اللحم هذه، أيتها الصغيرة؟.، ساءلها· أرخى ذراعه فأمسك بيد زوجته القابضة على حاشية سُترته: .أتسمحين لي بخيانةٍ، لمرة واحدة، ياساكون؟ هذا يومٌ جدير بخيانةٍ زوجية.

تلوَّت ساكوَن في جثوِّها فتمايل ترسها المثلث الصغير عليه رسوم ستِّ أرانب بِيْضٍ، كلٌّ واحدة بعين حمراء في جبهتها: .اللهُ أبو نفْسه، وأُمُّ نفْسه، وإبنُ نفسه، وأخو نفسه، وأخت نفسه.، قالت مستدعيةً باللسان سطوراً من دَوْرٍ مَّا· .هو شيطان نفْسه، أيضاً، أيها الأنبياء الماسونيون.

هزَّ أولاك يدَها بيده يستمهلها:

- لاتستذكري هذه السطورَ الآن، ياساكون· جسدي مَسْرَحٌ، وآتيما هي الدَّوْرُ· دعيني أغتصبها·

غمغمت آتيما وهي تضم فخذيها العاريتين على ترسها، معيدةً الغليون إلى حقيبة كتفها الصغيرة:

- سآكلك بعد اغتصابي·

.كُليني قبل ذلك، أيضاً، إنْ شئتِ· لكن دعيني أغتصبك، أيتها الشاحبة.، قال أولاك·

تقدَّمت الأختان رامونا، وتيرين، في عراكهما المرهَق بالترسين، من أمهما· كادتا ترتطمان بها بقبقابيهما الحديد الثقيلين: .اعترفا.، تمتمتا معاً بصوتين متراخيين· تلاحمتا مستنفدَتيِّ القُوى· سكنتا·

.لستما ابنتيَّ.، حمحم أولاك لاهثاً من ركض خياله في الفراغ الصِّور· أنزل بصرَه من وجهيهما إلى وجه أمهما الجاثية شاحبةً بشعرها المتراجع صباغُه الأشقر: .ساكون.، تمتم· .اسمك جميل، ياساكون· حين رايتُكِ، أول مرة، في مسرح أبيكِ، قلتُ لنفسي هذه سيدةُ فراشي، وحارسةُ أدواري.

.ليستا ابنتيك؟.، قالت آتيما متسائلة· .ماذا عنيت بذلك، ياسيد أولاك؟.

لم يرفع أولاك، المعتدل الجسم، عينيه عن وجه زوجته المرفوع إليه:

- أُغمي عليك، ياساكون، بعد الولادة· أنجبتِ طفلاً ذكراً ميتاً، فاستبدلناه بطفلة من ستِّ توائم إناثٍ تخلَّت أمهن عن ثلاث منهن للمشفى· تلك كانت الطفلة، التي أفقتِ على بكائها بقلبِ أُمٍّ· ثم اتفقتُ مع إدارة المشفى على تبنِّي طفلة ثانيةٍ أيضاً، هي التي وجدتِها قرب الأولى·

تراخت ساكون أكثر· استقرَّت منهارة على الأرض المعدن جلوساً على عَجُزِها· أفلتتْ حاشيةَ سترة أولاك من يدها· أدارت وجهها صوب رامونا، وتيرين، اللاهثتين المختنقتين أنفاساً في العِراك بترسين متخاذليْنِ دفْعاً ولَطْماً حتى الشلل أحياناً: .أسمعتما أباكما؟.، صرخت بهما بصوتها المختبئ في الحروف حياءً· أدارت وجهها من جديد إلى زوجها:

.لاتبدوان كتوأميْنِ!!·

.أعرف، ياساكون· تنبَّهتُ إلى ذلك منذ الشهر الثالث من عمريهما· ربما كذبوا عليَّ في المشفى، بحكاية التوائم الستِّ الولائد· لم أهتمَّ.، ردَّ أولاك· مشى صوب ابنتيه صارخاً:

- توقَّفا· لقد اعترفتُ·

توقفت ابنتاه عن عراكهما· تأمَّلتا أباهما بعيون مشوَّشة النظرات· تمتمت رامونا:

- تأخر اعترافُك·

.بل تأخَّر جوادُك أيضاً· لماذا كلما تأخَّرتَ تأخر جوادك، أيها الحاكم في أرض الطرق الضيقة؟.، قالت تيرين· دارت من حول أختها: .ليس الوقت صباحاً؛ ليس ظُهراً؛ ليس مساءً، أو ليلاً، أو ضحىً· إنه كيديك ياسارقةَ الخطط من خيالي.

.أأنا اللصَّة أمْ أنتِ، ياعاهرةَ جيش أبي؟.، تمتمت رامونا·

تراجع أولاك خطوتين· وقف إلى جوار آتيما· سألها من غير أن يرفع عينيه عن ابنتيه:

- من أيِّ دَوْرٍ هذه السطور على لسانيهما؟·

حدَّجتْه آتيما بنظرة فارغة من غور عينيها· تراجعت خطوتين، ثم استدارت مبتعدةً·

تعمَّدت آتيما أن تقرع بعقبي قبقابها الحديدِ الأرضَ المعدن قرعاً جافًّا، متَّصلَ الرنين، في اقترابها من هيغور ولفيفه، وبعض الركاب المحيطين به، مستندين إلى حاجز السفينة قريباً منه· تنبَّهت إلى قرعٍ آخر متعمَّد، بالقبقاب على الأرض· استدارت فرأت الشاعر هيز يقلِّدها، حاملاً قدحاً كبيراً من الشراب في يده، مترنِّحاً:

- ماذا فعلتِ بشعركِ، ياحوريةَ الحديد؟·

.حلقته حتى الجلد.، ردَّت آتيما· أحنَت رأسها الحليق تستعرضه على عينيه: .ألا ترى؟.، أضافت·

.هناك خصلتان صغيرتان على قَذالِكِ، وشعراتٌ خلف أذنك اليمنى· حلاقة غير مُتْقنة، ياآتيما.، قال هيز· أدار وجهه صوب رفيقه سينيكوس، الحامل مثله قدحاً حديداً ضخماً من الشراب: .أوقفِ النظرَ إلى فخذيها.، قال·

.أأنت عشيقُها الغيور، ياهيز؟.، تمتم سينيكوس المترنح، بدوره، ثَمَلاً· نادى بصوتِهِ الهمهمةِ عالياً:

- ياسيد هيغور· أهذه الريح، وهذا الرذاذُ الدَّاعر، مطابقان لفكرة البحر عن رقصِ حورياتٍ؟·

استدار هيغور إلى سينيكوس من بين اللفيف المحيط به:

- كلُّ شيء مُطابقٌ لفكرة الله عن نفْسه· البحر، الرذاذ، والريح، والقدَّاحاتُ العاجزة عن إشعال الغلايين على مُشرَف السفينة هنا، وأنت ياسيد سينيكوس، وأوراقك التي تكتب عليها، وهذه السفينة، والشحوبُ الروعةُ في الوجوه· كل شيء مطابقٌ لفكرة الله عن نفْسه·

.والأمراض؟.، ساءله سينيكوس، فردَّ هيغور بصوته الخشن عالياً:

- هي أفكار تُطابقُ ضجرَ الخلية الحية من فكرتها عن الله·

تقدَّم سينيكوس من لفيف هيغور· اخترقهم:

- في أيِّ وضع نحن، الآن، ياسيد هيغور؟·

.في أفضل وضع يُجيز لأحدكم أن يَلْتقط أسيراً.، ردَّ هيغور·

غمغم بعض المستمعين من مُبْهَم جوابه· علا صوتُ لوتيانو المعماري من موضع قرب حاجز السفينة:

- معنا عسكريٌّ، ياسيد هيغور، يعرفَ الظَّرْف الأنسب لأقتناص أسير·

.تعني السيد رايدين.، قال هيغور· .إنه يتهيَّأ كي يُؤسَر

.أأنت تتكلَّم نيابةً عني، أيها القبطان؟.، ساءلهُ رايدين مُبعداً بعض الأشخاص عن طريقه اقتراباً·

.لا.، ردَّ هيغور· .إنني أُذكِّر، لأكثر، بأن هذه البرهة هي الناضجةُ كمالاً لاعتقال أسيرٍ

.مَن سيأسر مَن، ياسيد هيغور؟.، ناداه سينيكوس، فرد القبطان:

- لن تكون لأحدٍ فرصةٌ أخرى·

.المتحاربون، في المعارك، وحدهم يعتقلون أسرى من الأعداء· ايةُ حربٍ هنا ليظفر أحدُنا باسير؟.، ساءله سينيكوس·

.هؤلاء الذين معي، عبيدي، هم أسراي· هؤلاء، خُدَّامكم.، ردَّ هيغور·

.في أي زمن أنت؟.، ساءله سينيكوس، فردَّ القبطان:

- في زمنك هنا، الآن·

.أنت في مكانٍ آخر؛ في قانونٍ آخر؛ في وجودٍ آخر.، قال سينيكوس·

.إن كنتُ هناك، فأنت معي هناك.، ردَّ هيغور· اضافَ:

- ألم يخطر ببالكِ، مرَّةً، أن تعتقل شخصاً مَّا أسيراً، ياسيد سينيكوس؟·

- وفْقَ أي قانون، أيها القبطان؟·

- وفق قانون الرغبة، ياسيد سينيكوس·

التفت سينيكوس في إعياءٍ، بعينين ساورَهما مرحٌ خافت، إلى رفيقه هيز: .عليَّ أن أكتب هذا· روايتي القادمة هي هذا: عن أناس في وقتنا الآن، يعتقلون أسرى في بيوتهم، وفق إجازة في الأسْرِ بحسب القانون؛ أو عن أسرى بعقودٍ متَّفق عليها. أعاد بصرَه إلى هيغور:

- من أيِّ عصر تريد أن يكون الأسرى، أيها القبطان؟·

.من عصرنا· من أيامنا هذه· هنا، على هذه السفينة.، ردَّ هيغور· .لانستطيع المجيء بأسرى من عصر آخر· العصورُ ليست ملتقى قطارات الأنفاق في مدن أوروبا السفلية.

.أَكنتَ، قطُّ، أسيراً، ياسيد هيغور؟.، ساءله سينيكوس، فردَّ القبطان:

- إِنْ تقدَّم إليَّ أحد بعقدٍ واضحِ البنود، فقد أوقِّع عليه·

- كم تريد مدَّةَ العقد، أيها القبطان؟·

- لأمد قصير، أو طويل· يُمدّدُ العقدُ أولايُمدَّد، ياسيد سينيكوس·

التفت سينيكوس إلى رفيقه هيز يستجلي في وجهه لَعِبَ الفكرة حَبَكها هيغور بلا إتقانٍ، فألفى رفيقَه منشغلاً بالرسام بارو الممسك بلوح أبيض، مستطيل، تخفق به الريح كزعنفة دلفين· .باللأحمق.، تمتم· خرج من حلقة المحيطين بهيغور· اقترب منهما، ومن سيدارو أمِّ الرسام المتراخية بترسها وسلَّتها·

.لم أظنَّك أحمقَ إلى هذا الحد، يابارو· أأنت تستعد لرسمٍ مَّا؟.، ساءله سينيكوس باستهزاء· .لقد ابتلَّت الورقةُ على لوحك.

لم يَبْدُ بارو مكترثاً بالمنطق قويًّا في رذاذ المطر الخفيف المعصوف، وفي كلمات سينيكوس· دار بعينيه على مُشْرَف السفينة وحاجزها القضبان:

- أين سأثبِّت هذا اللوح؟·

.على خصيتيك.، قال سينيكوس· لمس الجِرابَ القُماشَ، المعلَّق إلى كتف الرسام بأقلام ملونةٍ فيه، في الأرجح: .عليك النزول إلى البحر على طَوْفٍ مطاطٍ· ضعِ اللوحَ بين يدي حورية تسنده لك. غمغم بصوتٍ متقشِّرٍ ألقاه على هيز:

- أسنشهد رقصةَ حورياتٍ، حقًّا؟·

.لماذا نحن هنا؟.، تساءل هيز· .أم سنشهد القبطانَ راقصاً؟.

.أيُّ أسَفٍ يدفع بحورية إلى الرقص فوق المياه، ياهيز؟.، ساءله سينيكوس، فردَّ هيز متحامياً من الريح بترسه المستطيل، المجوَّف، عليه رسمُ نِمالٍ بألوان شتَّى:

- أسَفٌ؟!! أسفٌ ممَّ؟ أسفٌ علامَ؟٠

.لطالما آمنتُ أن الرقص، نفْسَه، أسفٌ٠ لكنني لاأخمِّن مَبْعثه.، قالَ سينيكوس٠

.لماذا لايكون الرقصُ ارتباكَ النَّفْس من حصار الجسد، ياسينيكوس؟.، تساءل هيز٠

.هذا إنشاءٌ ركيك في التعبير.، ردَّ سينيكوس٠ .خيالُك ليس فقيراً إلى هذا الحد، ياهيز.

.ماالرقصُ؟.، تساءل هيز٠

.أسفٌ.، ردَّ سينيكوس٠

.سمعتُ هذا٠ أمِنْ شيء آخر لديك؟.، ساءله هيز، فردَّ سينيكوس مخمِّناً:

- ربما هو اقتسامُ أعضاء الجسد الواحد للغواية اقتساماً غيرَ عادل٠

.لِمَ الرقصُ غواية؟.، تساءل هيز، فردَّ سينيكوس مصحِّحاً: .لم أقل إنَّ الرقصَ غواية٠ بل.، سكت٠ دار بوجهه من حوله: .ربما الرقصُ حَذَرٌ.

.حَذَرٌ ممَّ؟.، تساءل هيز٠

.من إيمان الصوت بنفْسه٠ الصوت إيمانُ الصوت.، ردَّ سينيكوس٠

.إلى أين تأخذني، ياسينيكوس؟.، تساءل هيز مستخفًّا بردود رفيقه٠

.إلى الموسيقا.، ردَّ سينيكوس متطلعاً إلى جوراك الجالس على الأرض المعدن بظهره إلى جدار الطبقة الوسطى من هيكل السفينة٠ نادى:

- جوراك٠ ماالرقصُ؟٠

رفع جوراك صوتَه مغمضَ العينين من رذاذ المطر اللجوج، والريح:

- هو أرقامُ الجمال الصالحة للعدِّ بها حتى المائة٠

.أنحن نتعثَّر بقدم الرياضيات، ياجوراك؟.، ساءله هيز، فردَّ الموسيقي في سترته الداكنة الزرقة مكشوفةَ البِطانة من عبث الريح:

- كلُّ رقمٍ قوَّادٌ يقود الأرقام العاهرة إلى زُبُنٍ مستأجِريْنَ٠

التفت هيز إلى سينيكوس: .هانحن ننتقل من الرقص إلى القوَّادين، ومن الأرقام إلى شهيق جوراك. رفع صوته مستديراً إلى الموسيقيِّ:

- جوراك٠ هل الرقصُ مساومةٌ؟٠

.لا· الرقصُ ضرائبُ الخيالِ تُجْبى من الجسد.، ردَّ جوراك·

ابتسم هيز من أثلام الشحوب على وجهه:

- هذه كلمات تليق بسينيكوس، ياجوراك·

.فليأخذها.، ردَّ جوراك·

.سآخذها، لكنْ بلا حقدٍ عليَّ، ياجوراك.، قال سينيكوس·

رفع جوراك ترسه الدائريَّ المسنَّن الأحفة أمام وجهه:

- الحقدُ علاقةٌ مذهلة، ياسينيكوس·

.مالمذهلُ فيه، ياجوراك؟.، ساءله سينيكوس، فردَّ الموسيقيُّ:

- إخلاصُه، ونقاؤه، وصراحتُه كجرحٍ، ولباقتُه التي هي اتِّزانُه في القسوة·

.لِمَ لاتكتب نصًّا بدل موسيقاك الخُدعة، ياجوراك؟.، ساءله سينيكوس مماحِكاً، فردَّ جوراك:

- بي حساسيةٌ جلديَّة من الكلمات·

.أنت تحبُّ الكلمات· أقسم لك بأي شيء تريد، ياجوراك، أنك تحب الكلمات.، قال سينيكوس، فردَّ جوراك كاشفاً الترسَ عن عينيه البنيتين:

- ذلك لايجعلها رائعة، على أية حال·

.لكنه حبٌّ.، قال سينيكوس·

.حُبُّكَ امرأةً، ياسينيكوس، لايجعلها رائعةً في عيون آخرين.، قال جوراك·

.متى ستدوِّن ماتقوله لنا، الآن، في نغمٍ، ياجوراك؟.، ساءله سينيكوس·

زفر جوراك مُرهَقاً· دار ببصره على الركاب المنهكين جثوًّا، ووقوفاً، وجلوساً· تمتم:

- اقترِبا·

اقترب سينيكوس، وهيز، من جوراك، الذي رفع ترسه بلونه الأسود والرسم النجمتين بياضاً:

- رائحة بقرة واحدة، ميتة، تكفي لعبور ثلاثين دولة·

.هاأنت تعود إلى الموسيقا.، علَّق سينيكوس مستخفًّا· التفت إلى هيز:

- فلأسألك سؤالاً جادًّا، في هذا اليوم الذي سيؤرِّخ لأبصارنا نِكاحَ الحوريات، ياهيز: .ماالشِّعر؟·

.مكافأةُ الحروف على وقاحتها.، رد هيز·

.والحرب؟.، تساءل سينيكوس، فردَّ هيز:

- جوابُ الله الصاخبُ على أسئلة الإنسان الهامسة·

قرع أحدُهما قدحَه الحديد، الضخم، بقدح الآخر: .نخب جوراك.، قالا معاً·

.نخب الأحمق، أيضاً.، قال هيز متطلعاً إلى الرسام بارو وقد اقتربت منه الفتاة الصغيرة آتيما مكلِّمةً· .تعال، ياسينيكوس· سيكون الرسمُ ممتعاً هذا اليوم. مشى يجاوره سينيكوس إلى حيث تقف آتيما، وبارو، وأمه المتراخيةُ بترسها وسلَّتها كأنها ستنقلب أرضاً عمَّا قليل·

طقطقت القباقيب في الأقدام برنينٍ منتعشٍ ذَوْباً في عزيف أمِّهِ الريح· وقف الرفيقان إلى جانبي أمِّ الرسام تحديداً· تنصَّتا إلى صوت آتيما الآمر: .ارسمني هكذا، بزعنفتين على ردفيَّ.

.ليس الآن، ياآتيما· سأرسمك فيما بعد بزعنفة على رأسك الحليق أيضاً؛ زعنفة كعرف الديك.، ردَّ الممسك باللوح يقطر ماءً·

.هَيِّ ارسمْها.، قال هيز ساخراً· .ارسمْها بلسانك الجافِّ على اللوح.

.سأرسمها بعد أن أرسم الحوريات.، ردَّ بارو متأمِّلاً الورقةَ المبتلَّة على لوحِهِ·

.أنا آتيما.، صرخت الفتاة الصغيرة· صدمت ترسَ بارو بترسها: .أنا أوَّلاً، وليس الحوريات.

نظر بارو إلى آتيما بعينين مستنكِرتين:

- مابك أيتها الصلعاء؟·

مدَّت آتيما يدها ممسكة بطرف اللوح في يد بارو· جذبتُه بقوة فترنَّح الرسامُ المُنهَكُ: .ارسمْني، الآن.، قالت بصوتٍ فحيحٍ·

استدار بارو إلى أمه المتراخية· غمغم غاضباً:

- بي رغبة في قتلِ أحدٍ، اليوم·

انحنت سيدارو في بطء ثقيل خوف أن تسقط· وضعت سلَّتها أرضاً· كشفت عنها غطاءَها· أخرجت الأفاعي واحدة واحدة· أطلقتها فتلوَّت الأفاعي الصُّفر حَذَراً من حريتها، ثم تسارع زحفها في كل اتجاه على مُشرَف السفينة·

تتبَّع بارو الأفاعي الشديدة الصُفرة، ذوات الأجنحة الصغيرة على أطراف جسومها، بعينين متراخيتيِّ الأجفان· دار بوجهه على هيز وسينيكوس:

- بي رغبة في قتل أحد·

.سننتظر أن ترسم رغبتَك هذه على ورقة غير مبتلَّة.، قال هيز بإشارةٍ إلى لوح بارو الذي يقطر ماءً·

مشى بارو خطوةً صوب أمه· أفلت اللوح ساقطاً من يده على الأرض المعدن· كلَّمها بصوتٍ فيه توسُّلٌ مَّا:

- بي رغبة في قتل أحد·

.إفْعلْ يابُني.، ردَّت سيدارو في غمغمة يائسة النَّبر·

دار بارو بوجهه من حوله· استوقفت بصَرهُ مشاحنةٌ واضحةُ التهديد والوعيد بين الصديقتين ناؤمي، وليمسا، يجاورهما سيميال ظاهرَ الفخذين العاريتين في ثوبه القصير ـ ثوبِ امرأة· أبقى عينيه عليهما برهةً كانتقال عيون هيز وسينيكوس، بدورهما، إلى الصديقتين تتهيَّئان لعراك بترسيهما، ملتصقتيِّ الثياب بجسديهما بَلَلاً· أعاد بصرَه إلى آتيما نَفْسِها: .سأقتل هذه الفتاة.، تمتم· مدَّ يده صوبَ أمه:

- أمعك شيء أقتل به آتيما، ياأمي؟·

.عندك ترسك الرهيفُ الزاوية.، ردَّت أمُّه الشاحبة، ذات الفم الواسع، الأنيق الشفتين·

.لماذا لاتحملين آلةً نقتل بها أحداً، ياأمي؟ من أنتِ؟.، صرخ بارو·

لمس هيز كتفَ بارو مهدِّئاً بالقدح الحديد الضخم في يده· قال بصوتٍ ثمِلٍ:

- مابك؟ هي أمك·

.من أنتِ؟.، صرخ بارو ثانيةً بأمه·

ارتبكت سيدارو ارتباكاً أثْقَلَها وَهَناً على وَهَن· تمتمت:

- أنا أمك سيدارو·

.كيف تكونين أمي ولا تحملين آلةً أقتل بها أحداً؟· من أنتِ؟.، قال بارو لاهثاً، ممدودَ العنق صوبها· التفت إلى آتيما:

- أمعك، أيتها الشاحبةُ، الصلعاء، ماأقتلك به؟·

.ربما تجد آلةً لقتلي عند طاهي السفينة· إسأل هيغور· إسأل الطاهي.، ردَّت آتيما· أطبقت فمها وترنَّمت بصوتٍ محتبَس·

بدا بارو حائراً، تائه الخيال في معابرَ يضيِّق فيها اللونُ بحواجزه على اللون· مدَّ ترسهُ، في إعياءٍ، صوب سينيكوس، وهيز: .انظرا إليها.، قال مشيراً برأسه إلى أمه·

.مابها أمُّك سيدارو؟.، تمتم سينيكوس متسائلاً، فردَّ بارو:

- لاتحمل آلةً أقتل بها أحداً· مامن أُمٍّ إلاَّ تحمل آلةً يقتل بها أولادُها حيث يشاؤن القتلَ· هي ليست أُمَّا·

.تَبَنَّ أمًّا كما أتبنَّى، أنا، آبائي وأمَّهاتي.، قالت آتيما·

نقر سينيكوس بقدحه ظاهرَ ترسه:

- مارغبةُ القتل هذه، ياباروا؟·

تنهَّد بارو من بطنِ شحوبه: .أليست بك رغبةٌ في قتل أحدٍ، اليومَ، ياسينيكوس؟. أمال عنقه صوب هيز:

.وماذا عنك، ياهيز؟. تقدَّم إلى أمه بطقطقة قاسية من قبقابه الحديد على الأرض المعدن· أمسك بها من عضدها:

- تعالي، ياأُمًّا بلا آلة للقتل·

مشى بارو بأمه مستسلمةً، في هدوء، صوب حاجز السفينة، تواكبه عيون سينيكوس، وآتيما، وهيز، متأوِّلةً حركتَه الملتبسةَ في اقتيادها، ثم تنبَّهوا إلى التردُّد الذي اعترى سيدارو، محرِّرةً ذراعها من يد ابنها في تمنُّعٍ· اقتربوا منهما بإصغاءٍ إلى صوت المرأة الطويلة، أمِّ الأفاعي السبع:

- ماذا تريد أن تفعل بي، ياباروا؟·

.أفعلُ مايفعلهُ كلُّ ابنٍ لاتحمل أمه آلةً لقتل أحد.، ردَّ بارو·

تبادل سينيكوس، وهيز نظراتٍ فارغةً من فضولٍ، أو استنكار· شربا من قدحيهما وهما يرمقان الرسامَ دافعاً بأمه إلى حاجز السفينة القضبان، يسندها حين تتخاذل، ويُنهضها حين تنهار· هتف بها بصوت واضح الرنين كقبقابيهما المتلاطميْنِ، المتحاكَّيْنِ بالأرض المعدن:

- لاتقاومي الآن· لم تقاومي أحداً قط، فلا تقاومي الآن·

.إلى أين تدفع بي؟.، ساءلت سيدارو ابنها مُتصَاكِكَةَ الساقين عياءً وخوفاً، فردَّ بارو:

- إلى حيث تسكنين، ياأمي· أدفع بكِ إلى أمومتِك الهاوية· أنتِ لم تُنجبيني· أنجبني يأسُك كامرأةٍ· أنجبني اليأسُ· سأرسمك، ياأمي، غاضبةً مني، لكنْ بلا حقدٍ في ملامحك عليَّ· أن يقتل ابنٌ أمَّه يعني أنه يذكِّرها بأمومتها القاتلة· كلُّ أمومةٍ قَتْلٌ، ياأمي·

تخاذل جسدُ سيدارو أكثر· تخاذلتْ مماتَعةُ قدميها· تمتمت ملقيةً بصرَها إلى سينيكوس وهيز:

- توقَّعتُ هذا· أين أولادي الآخرون؟·

.الأفاعي؟.، تمتم هيز متسائلاً، فردَّت سيدارو بصوتها الهادئ:

- ليستْ أفاعيَ، ياهيز· هي الكلماتُ التي لم يحسُمْ خيالي، بَعْدُ، أن يرتِّبها سطراً يقرؤه الآباءُ·

.تعالي.، قال بارو لأمه بصوتٍ سَكينةٍ· .قفي هنا.، أضاف بإشارة من يده إلى حاجز السفينة القضبان· .لاتنظري إليَّ، بل إلى البحر.

استدارت سيدارو بوجهها إلى البحر· تلاطم شعرُها القصير حتى شَحْمتَيْ أذنيها، الأسودُ صِباغاً· خفق قميصها الأحمر مخطَّطاً رماديًّا كخفق صوتها هامسةً:

- كأنني أراه·

مطَّ بارو عنقه متسائلاً:

- من ترين، ياأمي؟·

- أرى أباك·

.مابرهةُ النَّكد هذه، ياأمي؟· هجرك أبي، وأنا في الثالثة· لم نره بعد ذلك قط· فلماذا ترينه الآن؟.، تساءل بارو بنَفَسٍ منقبضٍ·

.إنني أراه.، تمتمت سيدارو·

.هيز· سينيكوس.، نادى بارو الرفيقين· .أعِيْناني.

حدق الرجلان إليه من غمام الثَّمل في عيونهما· .نُعينُك فيمَ؟.، ساءله هيز·

فتح بارو ذراعيه بالترس في إحديهما كالمستنكِر:

- أعيناني على رفْع أمي·

.أسترمي بها إلى البحر؟.، تساءلت آتيما بصوتٍ مُستثارٍ·

لم يردَّ بارو· أنزلَ الجِرابَ القِماشَ، الحاوي أقلامَ الرسم الملونة، في الأرجح، عن كتفه· وضعه في يد أمه· لَزَّ صدرَها بالقضبان الحاجز· انحنى يرفع إحدى ساقيها مرهَقاً· خرج صوته في نبرٍ مختنق:

- أعينوني·

انحنت آتيما، من فورها، ممسكةً بساق سيدارو الأخرى· همهمتْ:

- فعلتُ ذلك قبلاً·

تقدَّم هيز من آتيما بخطى مرتبكةٍ ثَمَلاً· ألقى عليها صوتَه مثقَلاً بابتسامة لامعنى لها:

- أواثقةٌ أنكِ تستطيعين؟·

.فعلتُ ذلك قبْلاً.، ردت آتيما في ثقة، فالتفت هيز بعينين غائمتين إلى سينيكوس المتراخي الحنك· تكلَّم بلسانٍ ثقيل:

- اطلبْ نجدةَ القبطان هيغور؟

.لاتطلبْ أحداً، أيها المعتوه.، قالت آتيما بصوتها المُختنقِ مُغْصَبةً، بلا تحديد في تصويب كلماتها·

.أتخاطبينني، ياحورية الغرقى؟.، ساءلها سينيكوس باستغراب·

.بل تخاطبني أنا، ياسينيكوس.، قال هيز· لمس براحة يده ردفَ آتيما المنحنية في محاولتها رَفْعَ سيدارو· .ياعذراء البحر.، غمغم مغمض العينين على شهوات الزبد فيه· أبقى يدَه مسترسلةً في لمسها المتقطِّع بحسب حركة جسد آتيما وهي تنجز، مع بارو، رفع المرأة الطويلةعن الأرض قليلاً، قبل أن يميلا بها إلى أسفل، من وسط بطنها على قضيب الحاجز العلوي، ثم يضغطا على ظهرها فيثقُلَ فيختلَّ اتزانُ جذعها·

هوت سيدارو إلى البحر· تراجع ردفُ آتيما مالئاً راحة يد هيز· ارتعشَ لسانُ الوجود الأعظم في فمِ يقينِهِ اللحمِ· تأوَّه قبل أن تبتعد آتيما عنه· أفاق من غيبوبة اللمس مترنحاً، فسنده سينيكوس المترنح مثله·

ناؤمي هي التي صدمتْ هيز بجسدها، متراجعةً إلى حاجز السفينة من دفع صديقتها ليمسا لها بترسها، في ضرباتٍ مرهَقة لاترتفع بها اليدُ قيدَ شبر· خارت ناؤمي قرب الحاجز· أمسكت بأوسط القضبان الثلاثة كي تنهض فخذلتْها ذراعُها· جلست أرضاً منهوبةَ العصب والأنفاس·

لم تكمل ليمسا انقضاضها البطيءَ على صديقتها· تلوَّى الذيلُ الشعرُ، المصبوغُ صُفرةً، على قَذالها، من عبث الريح· نقرت بعقب قبقابها الأرضَ المعدن إعلاناً عمَّا لاتعرف· استدارت· مشت خطوات قليلة· جثت قرب سيميال، مطوِّقة فخذيه العاريتين في ثوبهِ القصيرِ ـ ثوبِ المرأة، بذراعها· وضعت خدَّها على إحدى تَيْنَك الفخذين لاهثةً·

سُمِعَ الرنينُ قويًّا بأعقاب القباقيب من جهة هيغور القبطان ولفيفه· سُمِعَ القَرعُ عنيفاً بالأيدي على التروس: كان خدَّام القبطان هم الذين يوزعون الصوتَ رنيناً، وقَرْعاً، على قوارير أُمِّه الريح منتعشةً بعزيفها الموحش· .ثلاثٌ وعشرون دقيقة. ـ ذلك ماتردَّد همساً متلازِقَ النَّبر لم تمزِّقه الريحُ، بل أجازتْ عبورَه في مسامها مضموناً، آمناً·

الحورياتُ يتهيَّأنَ، في الأرجح، مصبوغات الحراشف بصباغ المحارة المروحيَّة الملساء؛ مصبوغات الزعانف بأرجوان المُورِكس؛ مكتحلاتٍ بحبر أُخطبوط الرمل، وصَبِّيدج الصخور؛ ملتمعات الأسنان أَلَقاً من طِلاءِ الميناءِ الفضةِ لصَدَفَة التُّونَةِ الجبارة؛ ممشَّطات الشعور بحسَك سمكة السيف مغموساً في

هُلامِ قناديل البحر كي لايتبعثرَ الشعرُ خُصَلاً؛ مطليات الأظافر بعصارة سوداء من بزر خسِّ البحر، أو بِمرَّةِ حنكليسات المضائق، في آذانهن أقراطُ الأصداف النُّفَّاخية، وعلى صدورهن قلائدُ من حلزون البحر، ممسكاتٍ بالأبواق التي سينفخن فيها إيذانَ ظهورهن ـ الأبواقِ الملساء من عظام عصاعِص الحيتان·

.ثلاث وعشرون دقيقة.، هي مرمى الوقتِ بكُرةٍ من رقص الحوريات· آتيما قرعت على ترسها الدَّرقةِ، لابيدها هذه المرة، بل برأس غليونها، وطرقتِ الأرضَ المعدن بقبقابها طرْقاً توقيعاً في اقترابها من لفيف هيغور الخُدَّام، والملتحقين بهم من الركاب بخطوات مقيَّدة تَعَباً، متدافعين في تراخٍ معذِّبٍ، إلى حاجز السفينة يستحصلون لهم مواضعَ، من ساعتهم تلك، ليشهدوا الرقصَ المنتَظَرَ بثيابٍ ترتطم ثقيلةً بأجسادهم من بلل الرذاذ، وبوجوهٍ أهملوا مسح الماء عن شحوبها·

ترنَّمت آتيما، بفمٍ مطبَقٍ، خيطاً من الصوت مجدولاً بخيوط من عزيف الريح، وصلصلة الصنوج اللامرئية للفراغ المتناحر بآلات ألوانِهِ الرمادِ· فتحت لنفسها ممرًّا بين الأجساد حتى جاورت القبطانِ هيغور، واقفاً على أربعة من صناديق الشطرنج الرقيقة الجروم، ليعلوَ ظاهراً برأسه من فوق رؤوس لفيفه·

.آتيما.، تمتم هيغور ببصره على رأس الفتاة الحليق، مسترسلةً في قرع ترسها بالغليون· نقر بِحفاف ترسه المثلث، الطويلِ الزاوية الحادة، حفافَ ترسها· أراها يده الأخرى ممسكةً بغليونه: .لم نستمتع بإشعال غلايينا.، قال بصوته الخشن ازداد خشونةً في رَفْعِه من فمه المتهدِّلِ الشفة السفلى· ابتسم ملقياً ببصره إلى الشبان البقية من طائفة الشطرنج متكوِّمين خرافاً مذعورة:

- تعجبني تروسهم·

لم يكن في مستطاع آتيما أن تلتفت لترى تِرَسةَ طائفة الشطرنج من وراء الأجساد المحيطة بها، عليها الرسمُ المُستنسَخُ رأْتُهُ مراراً، لكنها لمحت الطاهي سينون، البدين، منصرفاً بوجهه إلى أسفل، في اتِّكائه على حاجز محيط السفينة:

- ترس الطاهي سينون مثيرٌ، ياسيد هيغور·

ترسٌ سداسي، برسمٍ عليه لستة وثلاثين سكيناً من صُنْع الحُذَّاقِ الحدادين لطهاة الملوك· .سينون.، تمتم هيغور مرسِلاً بصرَه إلى حيث أرسلت آتيما بصرها· .أنحن نقترب من الحلقة الدائرية للمياه؟.

استدار الطاهي بوجهه الشاحب، المكتنز لحماً، إلى هيغور:

- أنت تراها كما أراها، أيها القبطان·

أخرج هيغور ساعته، ذاتَ السلسلة، من جيبه· حدَّق إلى لوحها الفارغِ الحدودِ الزمنية، والحَصْرِ الوقتيِّ· تمتم:

- أين السفينة الأخرى؟·

قرَّبت آتيما رأسها الحليق منه قدْرَ ماتستطيع:

- أية سفينة أخرى، ياسيد هيغور؟·

.سفينة العودة.، ردَّ القبطان مبتسماً في خبث متكتِّم وهو يلمس رأسَ آتيما الحليق بيده الممسكة بالغليون· رفع وجهه إلى رذاذ الأعالي الجانح في نزوله، المدوِّمِ، العصبيِّ من دفْع الريح: .اهْدإيْ.، تمتم بلا وضوح في قصده الآمر· نقر بظاهر ترسه على قضبانِ حاجز السفينة نقراً متتالياً: .مَنْ يشعل لي غليوناً؟.، صرخ بسؤال لايخصُّ أحداً·

.أنا.، ردَّت آتيما بصوت خفيض، واثق· أخذت من يده غليونَه الفارغَ الجورة، المبتلَّ· عضت عليه بأسنانها· جثت أرضاً على ركبتيها العاريتين· طوت نفسها· مكَّنت بعضَ أصابعها الممسكة بمقبض الترس أن تلتقط حقيبة كتفها· فتحتها· حشت الغليونَ عشباً أبيض وهو بين أسنانها· اخرجت القدَّاح أيضاً· انحنت حتى كاد وجهها يلمس الأرضَ المعدن· غطت رأسها بترسها، واسترسلت في القدْح مراراً، متحاميةً من عصف الريح بالسيقان المتراصَّة من حولها· أشعلت عشبَ الغليون· تنشَّقت الدخانَ مرتين ثم نهضت· مدَّت الغليونَ إلى هيغور:

- لقد أشعلْتُه·

لم ينظر القبطان إليها· كانت عيناه على هيكلٍ شبحٍ قادماً من الأفق المرتَّق بأسلاكِ الرماديِّ في اتجاههم· .سُفنُ العودة لاتُخطِئُ مواعيدَ عبورها.، قال، معيداً بصره إلى ساعته برهةً قبل أن يدسَّها في جيب قميصه· تسلَّم الغليونَ من يد آتيما· تنشَّق نَفَساً· أطلق الدخان من فمه ومنخريه فتمزَّقَ الدخانُ مصعوقاً·

ألصقت آتيما صدرها بالقضبانِ الحاجز على حِفاف السفينة· تأمَّلت الهيكل الكبير، الشبحَ، يتراكب نسيجاً خلايا لصق خلايا حتى اتَّضح الشكلُ فيه: سفينة قديمة من مجاهل القرون، مهترئة الجوانب بخشبها المتآكل، تعلوها ساريتان وأربعة أشرعة ممزَّقة تخفق مِزَقُها كالأعلام، وتتلوَّى، وتصطفق بقماشها السميك، الخشن، الرماديِّ كلون هيكلها·

كانت السفينةُ الصُّنعُ الغابرُ أقلَّ ارتفاعاً من سفينة هيغور، تتهادى متثاقلةً سُفُوْلاً وعُلْياً بقبْضِ الموج على قاعها، وإطلاقه لقاعها؛ وتتمايل بحيزوم يركع للماء تارة، وينتصب من رفع الماء حتى كأن السفينة كلبةٌ تَقْعى قبل أن تعود مستويةً، بثقل القرون فيها، على أعراف الزبد فوق الغَمْر·

لهثت آتيما قليلاً حين استبانتِ البحَّارةَ في السفينة المتخلَعة الهيكل من عضِّ القرون: شاحبين كانوا، بشعور مهترئة انزلقت عن بعض الجهات من جلود رؤوسهم، وثيابٍ رثَّة، خَلِقةٍ، متفتِّتةِ النسيج على مواضع من أجسادهم الشبحية·

كانوا ممسكين بعضُهم بأعضاء بعض، أو بالحبال من حولهم، والألواح، والعوارض الخشب، كي لاينقلبوا، محدِّقيْنَ من بلل الوقت في عيونهم، بوجوهٍ مرفوعة، إلى ركاب السفينةِ الحديد الضخمة مائلين عليهم، بصدورهم، من علياء حواجزها القضبان· نظراتهم لم تكن تترنَّح كأجسادهم، ولاتميل، مُرْسَلةً واضحةً في التحديق، تماماً كنظراتِ ملاَّح سفينتهم الأسود، الطويل، عارياً إلاَّ من إزار متشقِّق على وسطه، باديَ العظام، مُحْكِماً قَبْضَ يديه على السُّكَّانِ الدَّقَّةِ فلا تجمح السفينةُ أو تجنح، عابراً بها من جوار سفينة هيغور، على بعد خمسين ذراعاً، لاأكثر، بلا حذرٍ، أو خوفٍ من انجرافٍ صَادِم·

تأملت آتيما، بعينيها العسليتين على صُفرة، ثِلَلَ البحَّارة الرَّثِّيْنَ ثياباً وهياكل كسفينتهم الرثة خشباً وقلوعاً· كانوا رجالاً، إلاَّ ذلك الشخص الصغير، الذي برز من وراء بعض الأكتاف، متقدِّماً صوب حاجز اللوحِ المحيط· لم تستطع آتيما تحديد فارق الشخص الصغير عمراً وجنساً بين أولئك البحارة المعتدلي القامات، والطِّوال، بسببٍ من الغطاء القماش الرمادي على رأسه، الملتصق مبتلاً بأجزاء من قسماته· بدا متشبثاً بخاصرة واحد من أولئك، ظاهراً بنصف وجهه من ورائه، لأكثر، كَمَنْ يتلصَّص، أو يُداري خجلَه·

ظنَّت آتيما، لوهلة، أنها لمحت ابتسامة على النصفِ الوجه الظاهر من الشخص الصغير، وراء خاصرة البحَّار· تتبَّعتِ الوجهَ يعلو ويسفل كحركة السفينة سُفُوْلاً وعُلُوّاً· سارت لصقَ الحاجز القضبان مواكِبَةً عبورَ السفينة العتيقة، المتهرِّئة، إلى جوار سفينتهم، بقصدٍ مُلحٍّ أن تتمكَّن من الإحاطة بملامح ذلك الوجه المختبئ النصف، من الرأس مغطىً بالقماش الرمادي، المتفتت في بعض نسيجه·

توقف الرذاذُ الجامح، الوقح، عن سقوطه العشواءِ خَبْطاً من نفْخ الريح عليه· رويداً رويداً لجمتِ الريحُ مراوحَ أعماقها الهائلةَ بَرَماً بعزيفها· تخلَّى بحَّارة السفينة المتهرِّئة عمَّا تشبثوا به من حبال، وعوارضَ ألواح في هيكلها، أو عن أجساد تشبث أصحابها بحبالٍ وعوارض وألواحٍ· ازدادوا التفافاً عند حاجز هيكل سفينتهم، بوجوه مرفوعة، بعْدُ، إلى علياء سفينة هيغور· تتبَّعت آتيما الوجوهَ عابرةً، في هدوءٍ ثقيل، على السفينة العابرة· أبعدت مَن استطاعت من الركاب عن طريقها لتبقى، في سيرها، لصق الحاجز القضبان، بعينين ثابتتين على النصفِ الوجهِ المرئيِّ من رأس الشخص الصغير لم يزل متشبثاً بخاصرة البحار أمامه·

كان النصفُ الوجه أكثر وضوحاَ في البرهات تلك، مُذْ توقف العصفُ، وهدأ قلبُ السفينة المتهرِّئةِ، ورئتاها الخشبيتان· فتحت آتيما فمها من إسالة المجهول حبرَه على ورقة المعلوم· .ملكاه.، تمتمت· .أين أنت، ياملكاه؟.، ساءلت نفْسَها متراجعةً عن حاجز السفينة الحديد· استدارت خارجة من بين سطور الركاب الموْهَنين، المتلاصقين في استعراضهم عبورَ السفينة الشبحية· دارت بعينيها على سطح المُشْرَف الواسع بحثاً عن القزم· صرخت مراراً: .ملكاه. أبصرت رايدين الطويل، منفصلاً وحده عن سطور المحتشدين· هرعت إليه:

- أرأيتَ ملكاه، ياسيد رايدين؟·

أشار رايدين الشيخ، من شحوب وجهه الشمعيِّ، إلى أحد الجدران الزجاج ـ الواجهات المستطيلة في هيكل السفينة، بفواصل بين واجهة وأخرى هي جدران مقاصير النُّزلاء· وقد كان الجدار الزجاج، الذي أشار إليه رايدين، هو ذاته الذي استعرضت آتيما، وديغار، ولوتيانو، ورايدين،وليالو، وملكاه، من ورائه، العراكَ الجارف، قبل أيام، بين طائفة القبطان هيغور، وطائفة دِهقان الشطرنج نايورا·

اقتربت آتيما من الواجهةِ الجدارِ الزجاجِ: كان ملكاه جاثياً على ركبتيه في الموضع من الأرض المعدن مصطَبِغاً بدم ليالو لم يُغسَل· نقرت بحفاف ترسها الزجاجَ فالتفت إليها القزم بوجهٍ خرجت عظامُه من جلده، أو أوشَكت· نهض في ثقلٍ من أحمال شحوبه وعيائه· كان يحمل ترسَ ليالو ذا الرسوم الغيوم، لاترسه هو بالرسمِ الثديين الناهدين· خطا في اتجاه الواجهةِ الزجاج· خَار جاثياً، من جديد، لصقها·

.تعالَ انظرْ.، صرخت آتيما من خارج، بصوتٍ تفتَّت على الزجاج· هزَّت ذراعها مراراً، تشير بها إلى السفينة المتهرِّئة، التي لن يراها ملكاه، قط، من موضعه·

أخرج ملكاه من جيب سُتْرته البرتقالية، الطويلة، ماسورةَ معجونٍ للأسنان· نزع غطاءها بأسنانه· اعتصرَها بقوة على الزجاج حروفاً معكوسةَ الرسم، كي تتمكن آتيما من قراءتها صحيحة الإتجاه كتابةً· اكتملتِ الجملةُ الصاخبةُ كأنينٍ مختنقٍ:

- أين أنا؟·

لم تُطِلْ آتيما التحديقَ إلى الحروف· عادت إلى صراخها: .تعالَ انظرْ.، من غير أن يخترق صوتُها الزجاجَ المُصْمَتَ السميك· تراجعت يائسةً وهي ترى القزم يحتضن الترس المستطيل، المجوَّف، مغمضَ العينين· هرعت مبتعدةً خوفَ أن يفوتها ماكشفه المجهولُ من معلومه على بصرها· بلغت موضعاً من الحاجز القضبان فألصقت صدرها به· عاينتِ السفينة المتهرِّئة تكاد تُجاوِزُ سفينةَ هيغور عبوراً· عثرت، بين أجساد البحارة المتفتِّتيْ الثياب، على وجه الشخص

الصغير الهيكل· كان الوجه أكثر وضوحاَ، وقد ازدادَ المكشوفُ اتِّضاحاَ حين نزع الشخص الصغيرُ الغطاءَ القماش عن رأسه الحليق، مبتسماً لآتيما في الشحوب العاصف على جلده الملتصق بالعظام·

ترنَّمت آتيما بفمٍ مطبَق· عيناها واكبتا الوجهَ المتَّضح صريحاً ـ وجهَها هي بين بحارة السفينة المتهرِّئة· صمتت حين ابتعد الهيكل الخشبيُّ الشبحُ الممزَّق الأشرعة· تمتمت في رضىً:

- إنها أنا، آتيما·

لاحتْ الثغرةُ الدائرية، المضاءةُ من أنفاس اللون أصفرَ برتقاليًّا، مقذوفاً من بستان أعماق بحر تريتونفال ـ بحر الشمال النهائيِّ إلى سطحه الغَمْر· كانت المياه تتدرَّج من تماوجٍ أثرٍ من أثر الريح إلى هدْأةٍ فسكونٍ، كالآلات ذاتها في أحشاء سفينة هيغور أبطأتْ جَدَلَ القوة في منطقها: استغرقتْها نجوى المعدن الخالد لخلوده·

آتيما، على النحوِ ذاته الذي فارقت القبطانَ ولفيفَه، متتبعةً مجرى السفينة المتهرِّئة بسيرٍ لصقَ الحاجز القضبان، عادتٍ أدراجَها، مُبعدةً كلَّ شخص عن طريقها دفعاً بيدها أو بترسها، أو بهما معاً: خدَّام هيغور كانوا أكثر ارتخاءً بأجسادهم، وقد مسَّت أحفَّةُ تروسهم الأرضَ المعدن من تهدُّل الأكتاف، مرتعشين قليلاً، مهتزِّي الراحات في إمساكها بمقابض التروس تجاهد أنْ لاتُفلتَها·

علا رنينٌ ليس شبيهاً برنين القباقيب الحديد على الأرض المعدن، مختنقٌ، بنبْرٍ تحيط دوائرُهُ الكبرى بالصغرى، ثم تبعثرُها وتُلاشيها: تروسُ طائفة الشطرنج سقطت من أيدي بعض شبانها تباعاً، ثم جملةً من بقيتهم· لم ترَ آتيما ذلك، لكنَّ سقوط ترس على أرض معدنٍ لايشبه، في صورته الرنين، نقشَ صوتٍ آخر: رنينٌ نَخْسٌ بنصل العدم على الخيال، أو رَكْلٌ تذكيرٌ بوداع الوجود للطُّرُق·

على بُعد أربع أذرع، قبل وصول آتيما إلى حيث يقف هيغور، حطت يدٌ على كتفها· استدارت الفتاة الصغيرة لتستقرَّ عيناها على وجهٍ سينيكوس الأصلع، المتراخي الشفة السفلى بدا من ورائها عُرْفُ أسنانه· كلَّمها بصوته الهمهمة مُرْفَقاً بنظرةٍ كالْتِهامٍ:

- أرأيتِ السفينة العتيقة، المتهرِّئة، ياآتيما؟·

.رأيتُها.، ردَّت آتيما·

.أأمعنتِ النظرَ إلى مَنْ فيها، ياآتيما؟.، ساءلها متقوِّسَ الهيكل والصوت معاً·

أطبقت آتيما فمها· ترنَّمت بنبرٍ خفيض وهي تكمل عبورها، لصقَ الحاجزِ القضبان، صوب هيغور· بلَغَت موضعَها الذي لم يزل شاغراً إلى جواره مُذْ غادرتْه، كأنَّ الملتفِّين حوله نصفَيْ حلقتين ظلوا ملتصِقيْ القباقيبِ الحديدِ بثغرة الوقت، ثابتين لايخونون الثباتَ الراقد تحت أقدامهم·

.دقيقتان.، تمتم هيغور ملقياً بصَره إلى لوح ساعته الفارغ من أرقام الممكن وأرقامِ المُحال· تنهَّد· خفض وجهه في وقفته فوق أربع من صناديق الشطرنج متطلِّعاً إلى آتيما:

- لم تنبت لكِ زعانفُ، بَعْدُ·

رفعت آتيما وجهها إليه:

- إنني أتبنَّاكَ، اليومَ، أباً لي، ياسيد هيغور·

نقر هيغور بحفاف ترسه المثلث عليه رسمُ الديك حِفافَ ترس آتيما:

- لاأريد أن أكون أباً·

.الربابنةُ لايحبون الأولاد· أهذا ماتريد قوله، ياسيد هيغور؟.، ساءلته آتيما، فردَّ القبطان:

- لا أكره الأولاد· لكنني لأحب أن أكون أباً·

نفخت آتيما الهواءَ من فمها:

- الربابنةُ يحبون السفن·

.كلُّ رُبَّانٍ وُلِدَ بظلِّ ماءٍ يمشي معه، ياآتيما.، ردَّ هيغور·

.ماذا عن ظلِّ نايورا؟.، ساءلته آتيما في سياقٍ لامتوقَّع·

غمغم هيغور حَذِراً من سؤالها المتطفِّل على برهته تلك:

- ظلُّ نايورا؟ لم يكن لنايورا ظلٌّ·

.لماذا عاداك على ذلك النحو، ياسيد هيغور؟.، ساءلته آتيما، فردَّ القبطان:

- ظنَّ نفْسَه غريقاً· تصرَّفَ كغريق·

- أنحن غرقى، ياسيد هيغور؟·

- الحياةُ غريقةٌ، ياآتيما، مُذْ كانت حياةً· نحن أنفاسُها الأخيرة·

- من أين تتنفَّس الحياة، ياسيد هيغور؟·

- من رئاتنا، ياآتيما·

.أحبُّ الغلاصم· لاأحبُّ الرئات.، قالت آتيما· .تمنَّيْتُ، أبداً، أن أكون سمكة، ياسيدِ هيغور.

.كُنَّا أسماكاً.، ردَّ القبطان كَمَنْ يكلَم نفْسَه، بوجهٍ يستعرضُ البحر·

.متى؟.، سألته آتيما، فردَّ هيغور بجوابٍ كالبداهة:

- حينما كنَّا أسماكاً·

حكَّت آتيما ظاهرَ فخذها اليسرى بأظافرها الطويلةِ: نقرت بترسها ترس القبطان:

- لم يسألني أحدٌ لماذا فتاة صغيرة، مثلي، في رحلةٍ وحدها·

.لأنك في الرحلة اللائقة بفتاة صغيرة مثلك، وحدها.، ردَّ هيغور·

.كم حوريةً سنشهد رقصهن، ياسيد هيغور؟.، ساءلته آتيما، فردَّ القبطان:

- على عدد رغباتنا، ياآتيما·

ضمت آتيما ذراعها على صدرها، وقرَّبت الترس من جسدها بالذراع الأخرى· .أحسُّ برداً.، تمتمت·

.ذلك عاديٌّ في وقوف فتاة مثلك إلى جوار قبطان مثلي. قال هيغور بعينين ثابتتين على الثغرة الدائرية في المياه· .كلُّ شيءٍ عاديٌّ في قلق السِّحْر من خيبة العاديِّ، ياآتيما· أنا أحسُّ ببرد، أيضاً.، زفر من بين شفتيه: .الإحساسُ بالبرد إحساسٌ مُتْقَن، ونبيلٌ في الآن ذاته. أخرج ساعته من جيبه· ركض ببصره على طُرُق الثواني الضيقة وممراتها الملتوية· غمغم هامساً: .نحن موعدُ الوقت. نقر بحافة ترسه ترس آتيما:

- إنها البرهةُ الأنسبُ لإشعال غليون·

أطبقت آتيما فخذيها العاريتين على ترسها· أعدَّتْ غليونَ هيغور مُنْجَزاً بالعشب فيه، والنار في العشب· أعدَّت غليونَها مُنْجَزاً بالعشب فيه، والنار في العشب· تنشَّقا، معاً، كلٌّ من مَبْسِم غليونه، نَفَساً من دخانِ العقلِ الأبِ في منطق الدخان· غمغم هيغور· انحنى بصدره، من الحاجز القضبان، على المياه:

- هاهُنَّ· إنهنَّ، مثلُنا، موعدُ الوقت·

انشقَّتِ المياه جرحاً برتقاليًّا عن صواعقَ أجسادٍ لهبٍ رشقتها قوسُ الأعماق إلى سطح الغَمْر: رؤوسٌ لهبٌ، وشعورٌ لهب، وحراشفُ لهبٌ، وأنفاسٌ لهبٌ ـ ذلك ماتحصَّل لأبصار المُنحنيْنَ، من حاجز السفينة حول مُشْرفِها، على المياه أسفلَ، في الثغرة الدائرية؛ ذلك مافتَّق الشهقاتِ خاملةً من وَهن الحناجر·

كاليس، وبناتُها اللواتي تفقَّأتِ البثورُ النُّفَّخاتُ عن بزور اللهب على أجسادهن، من الأذيال حتى الفَروات، أرعدْنَ جوارحهنَّ اللهبَ، في انقذافهنَّ من عمق الماء إلى الهواء برهةً، ثم سقطن خَبْطاً على بطونهن· دارت كاليس من حولهن· انتصبت واقفةً على زعنفة ذيلها باتِّزانٍ يحفظُه الخفْقُ المتَّصِل عنيفاً،

كما يفعل الدَّلفين· هبَّت إحدى بناتها واقفةً على زعنفة الذيل مثلها· طوَّقت كاليس عنقَ بنتها بذراعيها· فغرت شدقيْها على وسعهما· أطبقت أسنانها على حنجرة الحورية الصغيرة· نهشتْها· أفلتتها بعد النهش ميتةً·

واحدةً بعد الأخرى نهشت كاليس، بأسنانها، حناجرَ بناتها، كلما انتصبت إحداهن واقفةً على زعنفة ذيلها، فوق الماء· كُنَّ يتخبَّطن قليلاً، بين ذراعيها، بعد النَّهش، ثم تُفلتُهن خامداتٍ·

أنجزت كاليس قتلَ بناتها في برهاتٍ خَطْفٍ من الوقت· قفزت خمسَ قَفزاتٍ في الهواء· سَرَحَتْ بجسدها منتصبةً تمشي على زعنفة ذيلها الخافقةِ كمشي الإنسان بقدميه على الأرض· فغرت فمَها مقداراً يكفي لالتهام جمجمة بما فيها، وهي ترفع وجهها اللهبَ إلى المتطلِّعين إليها من سفينة هيغور· صرخت صرخةً موحشةً· صفعت بزعنفةِ ذيلها سطحَ الغمر· غابت غَوْصاً·

رتَّقَ الماءُ جرحَه البرتقاليَّ، فوق الثغرةِ المياهِ البرتقالية، بخيوطٍ زبدٍ·

غابة سكوغوس

مملكة السويد

2012-2013

صدر للمؤلف

* كل داخل سيهتف لأجلي، وكل خارج أيضاَ (شعر)
* هكذا أبعثر موسيسانا (شعر)
* للغبار، لشمدين، لأدوار الفريسة وأدوار الممالك (شعر)
* الجمهرات (شعر)
* الجندب الحديدي (سيرة الطفولة) (سيرة)
* الكراكي (شعر)
* هاتِه عالياً؛ هاتِ النَّفير على آخره (سيرة الصبا) (سيرة)
* فقهاء الظلام (رواية)
* بالشِّباك ذاتها؛ بالثعالب التي تقود الريح (شعر)
* أرواح هندسية (رواية)
* الريش(رواية)
* البازيار (شعر)
* الأعمال الشعرية (شعر)
* معسكرات الأبد (رواية)
* طيش الياقوت (شعر)
* الفلكيون في ثلثاء الموت: عبور البشروش (رواية)
* الفلكيون في ثلثاء الموت: الكون(رواية)
* الفلكيون في ثلثاء الموت: كبد ميلاؤس(رواية)
* المجابهات؛ المواثيق الأجران؛ التصاريف، وغيرها (شعر)
* أنقاض الأزل الثاني (رواية)
* الأقراباذين (مقالات في علوم النَّظر)
* المثاقيل (شعر)
* الأختام والسديم (رواية)

* دلشاد (فراسخ الخلود المهجورة) (رواية)
* كهوف هَايْدْرَاهُوْدَاهُوْس (رواية)
* المعجم (شعر)
* ثَادْرِيْمِيْسْ (رواية)
* موتى مبتدئون (رواية)
* السلالم الرملية (رواية)
* شعب الثالثة فجراً من الخميس الثالث (شعر)
* لوعة الأليف اللاموصوف المُحير في صوت سارماك (رواية)
* ترجمة البازلت (شعر)
* هياج الإوز (رواية)
* التعجيل في قروض النثر (نصوص)
* حوافر مهشَّمة في هايدراهوداهوس (رواية)
* السَّيل (بلغتُنَّ، أخيراً، عُمرَ الأربعاء) (شعر)
* السماء شاغرة فوق أورشليم (رواية)
* عجرفة المتجانس (شعر)
* السماء شاغرة فوق أورشليم .ج 2 (رواية)
* آلهة(شعر)

كلمة للغلاف الخلفي

رحلة في سفينة سياحية· ركابٌ موعودون بمشاهدة رقصة فريدة تؤدِّيها حورياتٌ لدقيقتين، لأكثر، في موضع من بحر ثْرِيْتُونْفال· غير أنَّ الرعبَ صامتاً، وصاخباً، هو بناءُ هذه الرواية، في الحدود بين الأسطوريِّ والرَّاهنِ المتوحش لبشرٍ بوجودٍ صدىً من لامعقولِ الوجود، واختلاله، ومأزق العقل فيه، ومفقوده، وارتداد المنطق جحيماً على الأثر العريق، الذي ابتكرَ الجحيمَ خيالاً، من هوميروس إلى دانتي·

رحلةٌ هذيانٌ في الأرجح، كلُّ موقفٍ فيها محنةٌ، بمقتضياتٍ من إرثٍ بليغٍ في الإرهاق، حيث الركاب الذين من حاضر عصرنا (ربما) يحملون تروساً لاتفارقهم، وينامون ـ إذ ينامون ـ على الأسِرَّةِ بقباقيبَ حديدٍ في الأقدام، ويستحمُّون باللهب بدلَ الماء·

الرعب والجنون، معاً، بقواعدَ كالهذيان، هي رحلةُ هذه الرواية، التي لاينجو فيها أحدٌ من أحدٍ: جرائمُ هادئة· رغباتٌ بلا قيد· فوضى سلوكٍ شرطُ ضبطها الأوحدُ هو المزيد من التَّهم إلى التقويض· بل هذه الرواية هي، اختصاراً، ذلك الجزء الذي لم ينجزه الرسام هيرونَيموس بوش من لوحته: .حدائق الملذَّات الأرضيَّة.

THE MERMAID AND HER DAUGHTERS

رواية
NOVEL

حوريّة الماء وبناتها

رحلة في سفينة سياحيّة. ركّاب موعودون بمشاهدة رقصة فريدة تؤدّيها حوريّات لدقيقتين، لا أكثر، في موضع من بحر تْرِيتونْغال. غير أنّ الرعب صامتًا وصاخبًا، هو بناء هذه الرواية في الحدود بين الأسطوري والراهن المتوحّش ليشير بوجود صدىً من لامعقول الوجود واختلاله، ومأزق العقل فيه ومفقوده، وارتداد المنطق جحيمًا على الأثر العربق، الذي ابتكر الجحيم خيالًا، من هوميروس إلى دانتي.

رحلة هنديان في الأرجح، كلّ موقف فيها محنة بمقتضيات من إرث بليغ في الإرهاق، حيث الركّاب آدميّون من حاضر عصرنا (ربّما) يحملون تُروسًا لا تفارقهم، ويناموا، إذ ينامون، على الأسرّة بمقاييس حديد في الأقدام، ويستحمّون بالنهب بدل الماء.

الرعب والجنون، معًا، بقواعد كالهنديان، هي رحلة هذه الرواية التي لا ينجو فيها أحد من أحد: جرائم هادئة. رغبات بلا قيد. فوضى سلوك شرط ضبطها الأوحد هو المزيد من النهم إلى التقويض، بل هذه الرواية هي، اختصارًا، ذلك الجزء الذي لم ينجزه الرسّام هيرونيموس بوش من لوحته «حدائق الملذّات الأرضيّة».